مع المسلمين في الأندلس

الدكتور علي حبيبة

أستاذ مشارك بجامعة الملك عبد العزيز بجدة

الطبعة الثانية

محتويات الكتاب

الخرائط

مراجع الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لقد حملت قوة الدفع الحضارية الإسلامية بعض المجاهدين المؤمنين بدعوة الإسلام إلى أسبانيا البعيدة، فأدوا هناك دوراً من أهم الأدوار للثيرة فى التاريخ الإسلامى كله ، وقاموا بتجربة من أعظم التجارب الحضارية المعروفة ، ومثلوا بأوربا النماذج الطيبة للجماعات البشرية المتطورة التى تريد أن تعيش بسلام فى بلاد جديدة يسكنها شعب فاجأته الأحداث بعد انهزام حكامه الأجانب أمام هذه الجماعات المنتصرة .

وأراد أصحاب دعوة الإسلام فى أسبانيا الأوروبية أن يشاركوا السكان حياتهم العادية ، وأن يمارسوا بينهم وسائلهم الخاصة فى السلوك المحاط بواجب الطاعة لتعاليم الدين وأوامره ، وكانوا يشيعون فيهم للمعالم الأساسية لحضارتهم المتقدمة حتى نجحوا مع الزمن والعمل فى تحريك الجهود المتعاونة لبناء حضارة أندلسية لها ذكر عظيم بين الحضارات العالمية المشهورة .

وكان النجاح فى تطوير الحياة ببلاد الأندلس يبدو من الأسباب القوية التى تساعد على دوام الحضارة الإسلامية بها ، وعلى زيادة نموها وتطورها ، ولكن التاريخ — مع اعترافه بتقدم الحياة وسموها على أيدى المسلمين بهذه البلاد — يشير بجانب ذلك إلى أن النظام الذى أقاموه هناك كان ينقصه الكثير من العوامل التى تكفل بقاءه واستمراره .

وظلت تجربة المسلمين فى الأندلس ثمانية قرون محسوبة من عصور الجهالة الأوربية ، ومن أوقات التأخر والهمجية عند غير المسلمين ، وحاولوا خلال هذه القرون أن يعرضوا أسلوبا جديداً لسلوك جديد ، ودين جديد ، ولم ترفض محاولاتهم عند البداية ، فاندفع الناس فى الطريق الذى سلكوه ، وأسرعوا إلى الإيمان بالدين الذى جاءوا به ، وساهموا معهم فى بناء حضارة لم يكن من الممكن قيامها وازدهارها لولا مشاركة جميع العناصر الموجودة بالمنطقة فى صنعها وحراستها ، وساعد على تقدم هذه الحضارة وبقائها تلك المدة الطويلة ما كان من أصالتها وكفاءة القائمين عليها ، ثم استعداد البيئة لقبولها ، وعجزها عن تقديم بديل عنها ، ولكنها — مع كل الجهود التى توفرت لخدمتها ، ورغم ما كان يظهر من استقرارها وثباتها — رفضت وتراجعت فى النهاية ، وتجمعت ضدها قوات غالبة استطاعت بعد الصراع والتطاحن مع أصحابها أن تزيل معالمها ، وأن تطرد مؤيديها من البلاد كلها .

وكان بشبه الجزيرة الأسبانية منذ القرن الخامس هـ/ الحادى عشر م قوتان متعارضتنان ، لكل منهما وجهة نظر تخالف الأخرى ، وزاد الحماس والإصرار على التمسك بالرأى عند المتخاصمين على الفوز فى معركة الحياة أو الموت الأخيرة .

وعاشت قوة المسلمين فى الجنوب فى المكان الذى فرضت وجودها فيه ، وكانت تبيح لغيرها أن يعيش معها أو بجانبها ، فأدى تسامحها مع أعدائها إلى تعرضها لأشد الأخطار التى تواجهها الشعوب فى حياتها بعد أن مالت موازين القوى لغير صالحها ، واضطرت للدفاع عن وجودها بقوة وبسالة ، غير أن الشجاعة وحدها لم تكن كافية لحفظ سلامتها وسط أعداء يتفوقون عليها فى الرأى والاستعداد .

كانت قوة أعداء المسلمين عند نشأتها ضعيفة غير متخاذلة ، تسالمهم فى كبرياء وتعمل ضدهم فى صمت وإصرار ، وتقاومهم أيام ضعفها ، وتهاجمهم عند قوتها ، حتى نمت وزادت ، وانتصرت عليهم فى المعارك الفاصلة ، وأخذت منهم بلادهم واحدة بعد الأخرى .

وتبين أن أعداء المسلمين كانوا يحتفظون فى قلوبهم طول الزمن بالرغبة الصارمة فى تحطيم كيانهم ، ومحو آثارهم ، وكأن حياتهم فى بلاد الأندلس مع طولها وعظمتها لم تكن فى نظر خصومهم إلا حدثاً عارضاً يمكن أن يزول بعد القضاء على عوامل وجوده .

وكان يسكن بلاد الأندلس جماعات مختلفة تجمعها روابط عارضة ، وتتعاطف مع تواريخ متعددة ، وتميل للاحساس بأصولها البعيدة المتميزة ، وبسبب ذلك استمرت حركة الصراع متصلة بينها ، وشغلت دنياها وحياة من حولها بالخلافات والمنازعات والفتن ، وكأن مجال العمل كان لها وحدها ، أو كأنها كانت تحيا منعزلة عن غيرها فى هذا الوطن البعيد .

وإذا كان المسلمون قد فتحوا أسبانيا فى سنوات قليلة فقد خرجوا منها بعد ثمانية قرون كانت كافية لفهم معنى الدوام وتوقعه ، وتمثل دورهم فى مراحل وجودهم الأولى بها فى شبه حركات عصبية انفعالية مهدت لتكوين الدولة الأموية التى ظل اسمها يتردد هناك مدة تقرب من ثلثمائة سنة .

وأصبحت بلاد الأندلس — بعد قيام هذه الدولة — أول منطقة إسلامية تخرج على وحدة المسلمين وتجمعهم ، وأضفى عليها بعدها عن هذه الوحدة نوعاً من الشخصية المستقلة والكيان المتميز ، وجعلها تبحث لنفسها فى مجالها وحده عن

الوسائل المؤدية إلى إثبات وجودها كقوة منفصلة تحاول أن تنافس بجهودهـا وإنجازاتها أعداءها فى كل مكان .

وشعر الأندلسيون بسبب انفصالهم عن الوحدة الإسلامية بالحياة الانعزالية، وأحسوا بالبعد عن الروابط الطبيعية التى تجمعهم مع شركائهم فى الدين فى بلاد المسلمين الأخرى ، وكانت بلادهم ترتبط بثقافة المسلمين وحضارتهم إلا أنها كانت تعارض سياستهم ولا تتفق معهم فى الغاية والهدف، وإذا لم تحدث حروب بين القوتين الاسلاميتين غير تلك التى كان يقصد بها إرجاع بلاد الأندلس للوحدة الإسلامية الشاملة فإن ذلك لم يكن يعنى حدوث نوع من التفاهم أو الانسجام بين حكام المسلمين فى الشرق والغرب طول التاريخ ، فسارت المنطقتان تبعـاً لذلك فى اتجاهات مستقلة متباعدة .

ثم تفتتت دولة المسلمين بالأندلس ، وانفصم تماسكها ، وحاولت القوى المتحكمة فى وحداتها الجديدة أن تبقى لنفسها كيانا مستقلا فى أماكنها المنعزلة وازداد ضعف المسلمين بسبب انقسامهم وتشتتهم ، جاءتهم محاولات الإنقاذ من إفريقية الشمالية، ولكنها لم تنجح فى القضاء على خطر أعدائهم فى أسبانيا نفسها.

وبقى لهم أخيراً تمثيل ضعيف فى رقعة صغيرة بالجنوب الشرقى من شبه الجزيرة الأسبانية ، وكان لا بد أن يتداعى هذا التمثيل المتهالك أمام من كانوا ينتظرون نهايته ، ويتحالفون ضده ، وعندما حاولت القوات الأندلسية الباقية أن تجد لها ظهيراً تتغلب معه على الظروف الحرجة التى عرضت لها كانت بلاد المسلمين فى الشرق تعانى بدورها من فترات الضعف العارضة ، ولم تكن تشعر فوق ذلك بقوة الروابط بينها وبين الأندلسيين فى أوربا، فواجه الناس بالأندلس

مصيرهم ، وفشلت محاولاتهم اليائسة للتمسك بالبقاء فى الأوطان الغالية ، رغم ما أبدوه من ضروب الشجاعة وصدق العزيمة عند الدفاع عن أنفسهم .

* * *

ولا شك أن المسلمين عاشوا ببلاد الأندلس حياة ثرية ، ومن الممكن أن تعالج جوانب هذه الحياة فى كتب مستقلة تعرض أحداثها وتفاصيلها والمؤثرات فيها وقد قام بمثل هذه المحاولة بعض المؤلفين المسلمين وغيرهم ، وتحمس الكثيرون منهم لذكر التفصيلات الجزئية التى لا تعين القارىء على متابعة الاتجاهات الأساسية فى المسيرة الإسلامية بهذه البلاد الشهيرة .

وقد تكون هذه الطريقة مقبولة إذا أريد معرفة كل الجهود التى ساهم بها حكام الأندلس ومواطنوهم لصنع الحياة فى بلادهم ، وإذا كانت هناك حاجة للاهتمام بالجزئيات التى تجمعت لتساعد فى بناء هذه الحركة الكبيرة .

ونظن أن جزئيات كثيرة — عرضها بعض المؤلفين، وأطالوا فى الحديث عنها لم تكن ذات قيمة أساسية أو مؤثرة فى أحداث المنطقة وتطورها ، وأنه يكفى أن نشير بالتفصيل إلى الأدوار الرئيسية التى لعبها حكام هذه البلاد فى حياتها ،وأن نشرح الأعمال الحاسمة التى قام بها الشعب الأندلسى طول تاريخه ، ولذلك يبدو الحرص فى هذا الكتاب على بيان هذه الأعمال فى صراحة ، وكان هذا الشعب غريب الميول والتصرفات ، لأن وحداته كانت تتألف من مجموعات عنصرية ترجع نشأتها إلى أصول مختلفة وتحس بتباعد هذه الأصول وتفرقها حتى كيف هذا الإحساس سلوكها ، وأثر على مصيرها ، ومصير الوطن معها .

وإذا كنا اليوم فى حاجة لمعرفة تاريخ المسلمين فى صدق ووضوح فلا يعنى

ذلك أن نطيل الوقوف حول أمجادهم القديمة وحدها إذا كان ذلك سيؤدى إلى مجرد التغنى بهذه الأمجاد ولا شيء بعده ، وإذا كان سيدفع إلى الوقوف فى مكان ثابت للنظر والتأمل الجامد فى منجزات الأمة العربية عبر التاريخ ،وليس من دلائل الإخلاص للتاريخ القومى أن نلح فى إظهار أمجاده وحدها ،وأن نترك لحظاته الكئيبة لتسترها عوامل النسيان ، لأن ذلك قد يلهى من ينتسبون لهذا التاريخ عن مشكلاته ، وفهم أسراره ، والإشارة إلى أخطاء من كانوا يشاركون فى صنع أحداثه، ومن الأوفق — كما نظن — أن نهتم بعرض جوانب التاريخ كله لتساعدنا على تقديم الوسائل المطلوبة للانسجام مع الحاضر ،والتغلب على مشكلاته .

ولقد بدا من الخير عند الدراسة أن نذكر أثر المسلمين فى تطوير الحياة الأندلسية فى وقت كانوا يقودون فيه أعظم الأدوار المؤثرة فى تقدم الحضارة الإنسانية بالمناطق التى عاشوا فيها ، وكانوا بالأندلس عناصر جيدة أدت دورها بنجاح فى بلادها وفى غيرها من الأماكن التى تأثرت بها .

وكان من الأغراض أن نوضح الأسباب الحاسمة التى قضت على وجود الأندلسيين فى بلادهم بعد أن عاشوا فيها ، وكانوا أهلها وأصحاب السيادة عليها ويظهر أن حياة الشعوب الطويلة فى مواطنها ليست كافية لبقائها فيها على الدوام، مهما ساعد طول الزمن على تكيفها معها ، أو على إعطائها صبغتها الخاصة ، إذا لم تكن هذه الشعوب قادرة على دفع الأخطار التى تهدد حياتها ومستقبلها .

ولا يكفى الآن أن نكرر الإشارة إلى حركات التعصب الدينية التى خضع الأندلسيون فى فترات طويلة من حياتهم لويلاتها وآثارها ، لأنه مع الاعتراف

بأهمية هـذه الحركات وفاعليتهـا يجب أن نلاحظ عوامل الضعف التى لازمت الشعب الأندلسى وقتاً طويلا من تاريخه ، ومن أسباب السلامة أن يواجـه الإنسان نفسه قبل أن يلوم عدوه على استغلال أخطائه لصالحه .

وبعد فهذه محاولة لفهم بعض الظواهر التى بدت أساسية عند دراسة التاريخ الأندلسى ، ولقد عولجت هذه الظواهر فى وحدات منفصلة مع تتبع الأحـداث المتصلة بها منذ بداية ظهورها حتى نهايتها ، وقد تحتاج جوانب هذا التاريخ إلى إلى كتب مستقلة تستوعب تفصيلاتها وأطوارها والمؤثرات فيها ، ولـكن الغاية الأولى من هذا العمل لم تكن إلا الدراسة الموجزة لأهم أحداث الحياة الأندلسية ثم محاولة التعليل لأسبابها بما يقرب فهمها للقارىء المعاصر .

وقد يعرض الـكتاب بعض وجهات النظر الخاصة التى تبدو صحيحه أو مقبولة بعد الدراسة الهادئة ، والاطلاع اللازم على المصادر التى أمكن الحصول عليها ، وربما تكون منسجمة مع حركة التاريخ الأندلسى ، وموافقة لأحداثه .

ثم هذه دراسة غير سريعة ، وقد تظهر عيوبها بوضوح أمام المتخصصين فى تاريخ المسلمين وحضارتهم ، ولـكنها — مع كل احتمال — ليست إلا محاولة قصد بها إدراك بعض الملابسات المحيطة بحقائق التاريخ الأندلسى ، وقد دفعته لذلك الرغبة فى فهم تاريخ المسلمين بالأندلس للإجابة على بعض التساؤلات المثارة حول هذا التاريخ .

على حبيبه

القاهرة : يناير ١٩٧٢

الفصل الأول

أ – المغرب:

تمهيد . البربر . أقليات أخرى . الروم

ب – حرب الصحراء:

(١) تمهيد
(٢) عناد البربر
(٣) خلافات العرب
(٤) فتح برقة وطرابلس
(٥) المراحل المهمة
(٦) من أبطال الفتح

ج – المسلمون فى إفريقية:

(١) بداية الوجود العربى
(٢) الإسلام والبربر
(٣) محاولات الإصلاح
(٤) بعد الإصلاح
(٥) العدالة الضائعة
(٦) نحو الاستقلال
(٧) بعد عهدين
(٨) الدول الجديدة : الرستميون ، الأدارسة ، الأغالبة
(٩) خاتمة

المغـــرب

اختلف مدلول كلمة « المغرب » تبعاً للفهم الوارد لها خلال العصور التاريخية الطويلة ، ولايتفق معناها الآن مع ما كان معروفا عنها عند حركة النشاط العربى فى شمال أفريقية ، ولافيما تلا هذه الحركة من قرون .

وتفيد كتابات المؤرخين أنها كانت تشير إلى المناطق الواقعة غربى مصر ، حتى آخر الأرض الافريقية بأقصى الشمال والغرب ، أى إلى مايسمى الآن بالشمال الأفريقى ، وهو كما نعرف :

١ — ليبيا ٢ — تونس ٣ — الجزائر ٤ — المغرب بكل أجزائها وتقسيماتها .

وليس هناك بالتأكيد مايثبت أن هذه المناطق كانت متميزة فيما بينها ، أو كانت واضحة وضوحاً كافياً أمام سكانها أو أمام العرب الفاتحين ، وإذا كان الناس يعرفون بلادهم بنسبة اهتمامهم بها ، وإدراكهم لتاريخها ولحدودها ، ولحركة الحياة فيها ، فإن العرب كانوا غرباء عن المغرب ، وقد جاءوا إليها مدفوعين بالحماس الدينى والحضارى ، وكانت معرفتهم بها معرفة سطحية غير دقيقة ، أو معرفة هامشية بعيدة عن الدراسة الموضوعية التى تساعد على التخطيط للأعمال العسكرية (١) ، وعرفوا المغرب بمعنى الغرب ، أو ما كان واقعاً فى اتجاه غروب الشمس ، وهو يقابل المشرق أو الشرق ، أو ما كان هناك فى جهة

---

١ — الحديث عن جهل العرب بالمغرب إنما يصح عند بدء حركة الصراع بينهم وبين البربر ، وأما بعد استمرار العمل العسكرى هناك فلاشك أن طول فترة القتال ساعد على أن يعرف العرب الكثير عن هذه البلاد البعيدة .

الشروق ، وقد تكون بلاد العرب أو جزيرة العرب هى الحاجز المتوسط بين الشرق والغرب عند أهلها .

وفى حياتنا الآن يأتى الحديث حول مايعرف بدول الشرق وما يعرف بدول الغرب أو عن الشرق والغرب ،والإعتبارات — كما هو واضح — للنظم السياسية والمالية والاجتماعية دون النظر لمنطقة تتخذ مركزاً لما يدور حولها من اتجاهات، أو تتخذ فاصلا بين المسميات ، ودون الاتفاق على معالم ثابتة تقف عندها نهاية الشرق،وتعرف منها بداية الغرب .

وإذا كان من الممكن الإشارة إلى خط وهمى يفصل بين اتجاهين غلبا على الشعور العام عند الناس ، أو على الجو السائد عند الجماعات الإسلامية منذ اتساع دائرة نفوذ الإسلام، فإن هذا الخط المزعوم كان يسير على أطراف بلاد العراق الغربية ، وكان يجعل دولة المسلمين الكبيرة تبدو وقد غلب عليها اتجاهان قسماها شطرين،أو ميزا منها جزأين كبيرين،أحدهما فى الشرق والآخر فى الغرب، وقد ساهمت المسافات البعيدة بين أوطان شعوبها الكثيرة ، وكذلك اختلاف القوميات لهذه الشعوب المجتمعة حول الدين وحول وحدة الثقافة — ساهمت فى هدم الإحساس بالقرابة ، وفى غلبة الرغبة فى الانفصال ، وأسرفت الزعامات فى تعميق الخلاف وتوسيعه ، وكانت تسيطر على جماعات تخضعها لأثر الدعاية الدينية والسياسية وغيرها ، وظهر التمايز قبل إعلان الدولة الأموية،وظل واضحاً بعد قيامها ، وكانت جهود هذه الدولة قد عجزت عن إقناع كل الناس بحق حكامها فى السيادة ، وعجزت أيضاً عن احتواء كل المناطق بالدعاية، فانصرفت

إلى العمل بالغرب ، وظهر حرصها على قوة النفوذ فيه منذ أيام وجودها الأولى ، وتركت مناطق الشرق البعيدة عن مجال رؤيتها المباشرة، فوجد فيه خصومها فرصة للعمل الناجح .

ويقال في التاريخ الإسلامى ، إن الإشارة إلى الشرق والغرب بدت واضحة فى أول القرن الثانى الهجرى عند ظهور دعوة العباسيين، وقد روج لهذه الفكرة رجال الدعوة العباسية أنفسهم ، وقالوا إن دعوتهم ستأتى من مطلع الشمس فى أقصى الشرق بخراسان ، فلفتوا الأنظار للشرق وصرفوا الاهتمام نحوه ، وفى وصايا أئمة العباسيين لمن كانوا يعملون لحسابهم أن يسيروا نحو الشرق حيث الأبدان القوية « والصدور الفارغة التى لم تتوزعها الأهواء » ، واستمر التفات العباسيين نحو الشرق ، وحرصهم على الوجود فيه، حتى جاءتهم فرص الانتصار، فزادوا فى رعاية الشرقيين ومولاتهم ، ونشطت العناصر الفارسية ثم التركية فى جيشهم، وكلها كانت آتية من الشرق ، وكأن دولتهم كانت دولة شرقية ، أو كأن الصراع بينهم وبين الأمويين كان صراعاً بين شرق الدولة وغربها ، أو بين المسلمين فى الشرق والمسلمين فى الغرب (١) ، واستمر العباسيون يرون إقليم العراق أو نهر دجلة هو الخط الفاصل بين الشرق والغرب، وكانوا يشيعون فى محاولات التشهير بخصومهم الأمويين أنهم يديرون سياستهم بالعناصر العربية وبالمناطق الغربية وحدها، ويعنون بذلك الشام ومصر وشمالى أفريقية والأندلس،

---

(١) يساعد على هذا الفهم أن أول عملية انفصال إيجابيــة فى دولة المسلمين كانت فى الغرب بالأندلس ، وقد رفضت هذه البلاد الخضوع لسلطان العباسيين منذ ظهور هذا السلطان .

وأما العراق وفارس وخراسان وغيرها من بلاد الشرق فقد كانت تمثل قوة المعارضة للأمويين،وقد انصرفت عنهم وانصرفوا عنها . . .

وقال التاريخ أيضا إن الخليفة المهدى قسم دولته بين ولديه موسى وهارون على أساس من الشرق والغرب ، وجاءت هذه الفكرة واضحة فى وصية هارون الرشيد لأولاده عندما اعتبر نهر دجلة كأنه كان خط تقسيم طبيعى بين الشرق والغرب ، وقد جعل للأمين كل الغرب وللمأمون كل الشرق ١٨٢ هـ/٧٩٨م ، وحدث بين الأخوين بعد ذلك صراع على السلطة ، وتجاذبت المناطق الحرص على النفوذ فى الدولة ، وانتصرت جيوش الشرق بقيادة شرقية ، وضاعت على الغرب فرص العمل والنجاح بعد ذهاب الأمويين عن دنيا الناس .

فكلمة المغرب على هذا المعنى كانت تعنى عند العباسيين النصف الغربى من دولة المسلمين ، ولكن بلاد المغرب التى نتحدث عنها الآن فتحت أيام الأمويين أبطال الفتوحات العربية الشهيرة ، وزادت هجرات العرب إلى المناطق المفتوحة منذ اللحظات الأولى فى العمل للاستقرار ، ولا شك أن هجرات كثيرة ذهبت للشرق وهجرات أخرى ذهبت للغرب ، ويتحدث المؤرخون العرب طويلا عن الشرق لأنه كان موضع الثقل فى العمل السياسى فى الدولة العباسية عند تدوين تاريخ المسلمين ، وكانت به القيادة المنادية بتجميع المسلمين من كل الأجناس فى دولة واحدة تعمل باسمهم جميعا ، ولم تكن العناصر العربية أقوى العناصر فى هذه الدولة فى أى وقت من أوقاتها .

والمهم أن نقول إن التسمية لم تكن واضحة زمن الفتوحات العربية ، ثم ابتدأ مفهوم الكلمة يتحدد بالمناطق الواقعة غربى مصر ،وبعد ذلك جاءت الإشارة

إلى المغرب الأفريقى، والمغرب الأندلسى، أو إلى المغرب والأندلس ، وقيل إن برقة وطرابلس كانتا جزءاً مضافاً للبلاد المصرية حسب الفهم العام عند الناس ، بمعنى أن المغرب كانت تعنى مايعرف الآن بتونس والجزائر والمغرب وحدها . وفى بعض الكتابات العربية تعرف أفريقية بأنها واحدة من أقاليم المغرب الحالية ، وهى تونس ، أو ما يعادل مفهوم المغرب كله من برقة إلى طنجة ، وقد تضيق حدود التعريف عند بعض الكتاب حتى لاتعنى كلمة المغرب إلا ما كان بعد تونس إلى جهة الغرب ، وكتب المؤلفون أيضا عن المغرب الأدنى، والمغرب الأوسط ، والمغرب الأقصى ، وإذا لم تكن هناك حدود أو حواجز طبيعية بين هذه البلاد الغربية إلا ما يأتى تبعا للاتفاقات السياسية ، فقد أطلقت على البلاد بعض التسميات المخالفة ، ثم تحددت معالم التسمية بوضوح أكثر ، وأصبحت كلمة المغرب الآن تعنى المغرب الأقصى لأنه غرب ولا غرب بعده[1] ، أو هكذا استقر لهم الفهم فى عصرنا الحاضر .

لقد واجه الفاتحون العرب المغرب كله كوحدة كبيرة لها معالم طبيعية مميزة ومن أهمها :

١ — الإقليم الساحلى الممتد من الإسكندرية إلى نهاية الأرض الأفريقية عند المحيط الأطلسى .

٢ — ومناطق صحراوية جنوبية من مصر إلى أقصى الغرب .

٣ — وبين الإقليميين سلاسل جبال موازية للبحر والمحيط معا .

ويرتبط الاقليم الأول بطريق ساحلى معروف ، ويخضع لجو البحر الأبيض

---

(١) أى ليست فى غربه بلاد إسلامية .

المتوسط ، وفيه كانت توجد المدن الكبيرة الرئيسية المحمية بالرباطات الرومية القوية التى كانت تلجىء العرب إلى البعد عنها ،وإلى عدم التورط فى الوقوف أمامها طويلا .

والاقليم الثانى صحراوى موحش واسع الأرجاء ، تنتشر فيه الواحات كدليل على إمكانية الحياة ، أو على وجود فرص الحياة فى كل مكان .

ويفصل الاقليم الثالث بين الاقليمين ، ويجعل الاتصال بينهما عسيراً .

وكان يعيش بهذه الأقاليم شعب كبير يشعر فيما بينه بقوة القرابة ، ويتجانس سلوكه ونشاطه الاجتماعى ، وقد عرفت عناصره الغالبة باسم « البربر » ، وكانت هذه تسمية قديمة سبقت الفتح العربى ، وأطلقت على سكان شمالى أفريقية ، وعلى غيرهم من الأمم الغريبة عن لغة اليونان وحضارتهم ، وعلى الأمم والقبائل المعادية للامبراطورية الرومانية ،أو التى لم تهضم حضارة الرومان ، وجاء العرب فعنوا بالتسمية الجماعات الساكنة فى شمالى أفريقية .

ولم تكن للعرب معرفة مباشرة بهذه الجماعات قبل الاسلام ،وربما لم تزد معرفتهم فى إفريقية على حدود مصر وحدها ، ومعنى هذا أن العرب كانوا مسبوقين بالرومان الذين أشاروا بهذه التسمية إلى الشعوب الهمجية التى هاجمت إمبراطوريتهم فى العصور الوسطى ، ومنها الجرمان الذين احتلوا شمالى أفريقية فى القرن الخامس الميلادى[1] ، ثم غلبتهم عليها الامبراطورية الرومانية الشرقية وطردتهم منها[2] ، وبقيت التسمية حتى الفتوحات العربية تعنى سكان شمالى

---

١ — سنة ٤٢٩ م .

٢ — سنة ٥٣٤ م .

أفريقية من غير الرومان ، واستعملها العرب لأنهم وجدوها، وكأنما كانت لغنة ثابتة .

ومن محاولات الكتاب العرب لايجاد تعليل لهذه الكلمة القول بأنها تعنى « الرطانة الأعجمية » أو اختلاط الأصوات غير المفهومة، وإن لم يكن ذلك تعليلا مقبولا ؛ لأن العرب لم يفهموا أيضا لغة المصريين والإيرانيين وغيرهم من الشعوب الكثيرة التى وافقت معهم على الإيمان بعقيدة المسلمين ، أو التى قبلت أو اضطرت إلى العيش فى مجال سلطتهم ، ولم يسمهم العرب « بربراً » لبربرتهم ، أو لاختلاط أصواتهم ، وإنما استمروا معروفين بأسمائهم وحدها ثم جاءت محاولة القول بانتساب البربر لجد أعلى اسمه « بر » أو « بربر » ، ويبدو أن هذه كانت كلها اجتهادات شخصية غير مؤيدة بالدليل ، وقد التصق الاسم بسكان شمالى إفريقية التصاقا أكيدا قبل دخول العرب بلادهم ، وبعد دخولهم أيضا ، وزاد العرب فى التمسك به ، وقد كان يسىء للسكان غير أنهم فشلوا فى دفع هذه الإساءة عن أنفسهم ، ولم يساعدهم العرب على دفعها عنهم .

لقد كان البربر يشبهون العرب فى المزاج وفى طريقة الحياة ، وساعد التشابه الكبير بين الشعبين على القول بأن البربر جاءوا من أصلين كبيرين ، هما :

أ ـ البرانس .

ب ـ والبتر .

وأنهما معا يرجعان إلى أصل عربى هاجر فى ظروف غير معروفة إلى شمالى أفريقية من فلسطين ومن جزيرة العرب، أو من غير هذه وتلك ، وقد كان هذا الأصل العربى البعيد مدفوعا الى الهجرة بالاضطرار أو بالرغبة فى البحث عن حياة أفضل ، وليس معروفا ما إذا كان انتساب البربر للأصل العربى قد دفعت اليه الأمجاد العربية نفسها ، بمعنى أن الانتساب للعرب

الفاتحين كان يعطى مركزاً أدبياً واجتماعياً ممتازاً ، أو أن هذا كان حقيقة تاريخية ثابتة ، أو أن الكتاب والمؤرخين لاحظوا وجوه الشبه الكبيرة بين العرب والبربر ، وجاء حكمهم مجرد ادعاء لا دليل عليه ، غير التشابه بين الشعبين ، وقد تكون هذه محاولة ذكية من العرب ، الأقوياء أو من البربر العاملين فى صفوفهم ، كعملية دعائية تخدم أغراض الفاتحين ، وتعين على التعائش السلمى بين الجانبين .

وفى كل الاحوال تبدو هذه الاقوال غير معبرة عن معلومات علمية أكيدة ، وقد كان للبربر أصول متعددة يرجعون إليها ، وليست هناك فائدة بالتأكيد من البحث عن صلة القرابة القريبة أو البعيدة بينهم وبين العرب ، ولا شك فى ذات الوقت من وجود التشابه الكبير بين العرب والبربر فى النظام القبلى والخضوع غير الملزم لرئيس ، والبعد عن التعقيد ، والرغبة فى الانطلاق من أسر القيود ، وحب الطبيعة ، وعدم الميل للاستقرار ، والتطرف فى الغضب وغيرها ، وليس هناك دليل دقيق على تقسيم سكان البلاد تقسيما متميزا ، حتى يظهر وجههم الحقيقى فى التاريخ ، رغم المحاولات الكثيرة لإعطاء دليل مقبول لسبب تسميتهم بالبربر ، وقد لجأ بعض الكتاب إلى تعليل تسميتهم بالبرانس والبتر ، على أساس الملابس المستعملة عند الحضريين وعند غير الحضريين منهم ، وكان الأولون يرتدون البرانس ، وهى أكسية طويلة بها أغطية للرءوس ، وأما الآخرون فكانوا يتركون رؤوسهم عارية ويلبسون ملابس قصيرة مبتورة .

هذا ويعرف أن تنظيماتهم الاجتماعية كانت تنظيمات قبلية تتفق مع طبيعة البيئة التى عاشوا فيها ، وقد ذكر الكتاب أسماء متعددة لقبائل بربرية وأرجعوها إلى أصولها الحقيقية أو المزعومة وأشاروا إلى مناطق سكناها وإلى صلة القرابة

بينها جميعا، وكأن البربر كانوا فى وضع يشابه الأوضاع العربية فى جزيرة العرب، غير أن هنك حقيقة كبيرة يشير إليها الباحثون فى تاريخ البربر ، وهى أنهم لم يشعروا بالفرق الكبير بين الأصول التى تفرغوا منها ، ولم تكن عندهم عصبيات متطرفة، ولم يلجئوا إلى الحروب الأهلية بدافع من الحماس للعصبيات الضيقة ، ولم يلاحظ بينهم اختلاف كبير فى وجهات النظر الأساسية، وكأنما كانوا على رأى واحد فى أمور الحياة كلها ، غير انقسامهم إلى جماعات بدوية تعيش فى الصحراء وتخضع لظروفها ، وإلى جماعات حضرية تقيم فى المدن ، وتمارس حياة الاستقرار فيها، ولم تكن كلمة القبيلة أو الجماعة المتماسكة تعنى أن الداخلين فيها كانوا ينتسبون فعلا إلى جد قريب أو بعيد، لأن الرابطة الدموية لم تكن أولى الروابط والاتصال الاجتماعى بينهم، وربما كانت هذه مجرد ناحية نظرية، أو كانت اتفاقا غير مكتوب على مبدأ القرابة الحقيقى أو المصطنع، حتى لم تتخذ القبيلة عند البربر صورة ثابتة أو قريبة من الثبات، كما كان الحال عند العرب. فالجماعات أو التكتلات البربرية كانت متفاوتة فى العدد، بعضها كان يبدو فى صورة الشعب أو الأمة الكبيره المتفرقة فى المساحات الواسعة والمرتبطة بالمصالح المعقدة، وبعضها كان جماعات صغيرة مترابطة تجمعها إرادة الحياة فى الصحراء الواسعة بين الأقوياء ، وقد يشير اسم القبيلة إلى ما يشبه الاتحاد السياسى الذى تدخل فيه أكثر من عصبية أو جماعة عن طريق التحالف مع الأقوى، أو عن طريق الخضوع له .

وبين البربر وعلى سواحل بلادهم الشمالية عاشت أقليات كثيرة منها الإفريقيون، وربما كانوا جماعات قليلة ، غير أن دورهم الحضارى كان واضحا ، وعقيدتهم المسيحية وسكناهم بالشمال جعلهم أقرب إلى قلوب الحكام الروم، بعد أن اختلطت مصالحهم جميعا وبعد أن ارتبط وجودهم معا ، وإن احتفظ الإفريقيون بلغة محلية

محدودة الشيوع، ويقال إن دورهم كان مهماً فى الحركات الثورية، والفتن الداخلية، أى أنهم كانوا عنصراً قلقاً أو عنصراً نشيطاً من سكان شمالى إفريقية، وإن كانت طريقة التعامل بينهم وبين العرب غير معروفة أو غير واضحة، لأن المؤرخين يتحدثون دائماً عن العلاقات بين العرب والبربر، وكأن سكان شمالى إفريقية كانوا جميعاً من البربر، وربما كان ارتباط الإفريقيين بالروم كبيراً، فكان نصر العرب على الروم يعنى النصر عليهم أيضاً، بمعنى أن الهزيمة كما دفعت الروم إلى ترك الشمال الإفريقى إلى سكانه من البربر دفعت هؤلاء بدورهم إلى الحرص على السلامة بالهجرة أو على البقاء بلا دور إلا فى بعض حالات العصيان أو التمرد على الحكم العربى، وكأنها كانت محاولات لرفض هذا الحكم والاحتجاج عليه.

وكان لليهود قصة هناك، تبدأ من زمن وصولهم إلى شمالى إفريقية مع العناصر المهاجرة فى تاريخ سابق أو لاحق لحركة اضطهادهم على يد الرومان فى فلسطين سنة ٧٠ م، ويقال إن الجماعات اليهودية المهاجرة إلى بلاد البربر بإفريقية انشغلت بالعمل لصالح دينها، ونجحت فى الدعاية له، حتى تهودت جماعات كبيرة من البربر، وكانت إحدى زعيمات المعارضة للعرب فى شمالى إفريقية سيدة يهودية غامضة الشخصية ظلت تحارب العرب حتى انهزمت أمامهم، وفى كل الأحوال كان اليهود هناك عناصر نشيطة متنقلة بين آسيا وأفريقية وأوربا، ولا تؤمن إلا بالولاء لوجودها وحده، وترفض الوقوف متفرجة على حركة المجتمع وتطوره، ولذلك كانت تشارك فى صنع الثورات والفتن، أملا فى الكسب من ظروف التغيير.

وكان الروم يمثلون جماعات حاكمة ومنعزلة عن السكان ولها شعورها الخاص بالسيادة، والترفع على كل الناس، والبعد عن الاختلاط إلا عن طريق العمل فى

الجيش مع جماعات أخرى كثيرة ، أوربية وغير أوربية كانت تشاركهم فى الإحساس بوجود الدولة ، وفى الحرص على امتيازاتها .

ومن المعروف أن الصراع بين العرب والروم ابتدأ فى الشـــام عند حركة الفتوحات العربية الأولى واستمر فى مصر وشمالى أفريقية ، حتى بدت الصورة كأن جيشاً يطارد جيشاً آخر فى كل مكان وإلى النهاية .

ووجدت مطاردة العرب للروم لها جواً صالحاً فى شمالى أفريقية ، إذ كانت عوامل الخصومة المشبوبة بين الحكام وبين أهالى البلاد متوفرة هناك منذ استعاد البيزنطيون أفريقية من الوندال سنة ٥٣٤ م ، ومن هذه العوامل محاولة فرض قوانين وأنظمة صادرة عن عاصمة الدولة فى البيئة البعيدة على جماعات لا تجدها ملائمة لظروف حياتها ، وتأثر الدولة وشعبها بخصومات الأحزاب المتنافسة على ملء الحياة السياسية بها ، وإسراف السلطة فى فرض الضرائب الجديدة دون الاعتبارات الخاصة بإمكانية الدفع عند المواطنين ، أو بضرورة التجاوز عما يحتاجونه لإقامة حياتهم ، واتباع وسائل العنف فى جمع هذه الضرائب حتى كأنها كانت علة وجود النظام كله ، ثم وضوح شخصية البربر ، واندفاعهم إلى طرد البيزنطيين من شمالى أفريقية ، وقد اضطروهم لأن يحتموا منهم فى حصون كانوا يتركونها تحت ضغط القوة ، حتى انحصر وجود الروم أخيراً فى رباطات تقوم على منافذ المدن الساحلية التى بقيت لهم فيها سلطة ، وكانت هذه الرباطات ملاجىء أخيرة تحفظ على أصحابها الحياة ، وتمكنهم من الدفاع عند تعرضهم للخطر ، ولهذا زادوا فى عددها ، وشحنوها بالجنود ، ثم عجزوا عن موالاة الصرف عليها ، فتركوا بعضها ، وسمحوا لحماتها بالاعتداء على الناس ، وقابل الناس الشر بالشر ، وقامت ثورات بربرية استمرت ثلاث سنوات متوالية ٥٦٩ – ٥٧١ م ، وكان الرد عليها تقسيم البلاد

إلى مناطق عسكرية قوية، تعمل كأنها كانت غير خاضعة لسلطة فى خارج حدود المنطقة، وحاول قوادها الاستقلال عن سيادة الدولة،وقبلوا دفع مبالغ مالية لزعماء البربر ،واعتبر البربر هذا الدفع من أدلة الخوف عند البيزنطيين،فاندفعوا فى جولات للقيام بغارات ناهبة، كادت تقضى على سلطة الدولة،وعلى حق الناس فى الأمن والحماية.

وأخيراً كان من أهم أسباب سوء الظن جنون الدولة بالمسائل الدينية، ومحاولتها التوفيق بين وجهات النظر المعروضة من الباحثين فى أمور العقيدة المسيحية ، وقد أدى ذلك إلى حدة الغضب، وإلى التكتلات الشعبية الهادفة إلى الدفاع عن وجهة النظر السائدة، ولو جاءت النتيجة بالانفصال عن التبعية للبيزنطيين فى الشرق.

وفى منتصف القرن السابع الميلادى كانت سلطة الدولة البيزنطية بشمالى أفريقية عاجزة عن الدفاع عما فى أيديها، وكانت صلاتها بمواطنيها ممزقة، فضاع الأمل منها عند ظهور ضوء الإسلام هناك.

حرب الصحراء

٢١–٩٠ هـ/٦٤٢ – ٧٠٨ م

١ — تمهيد :

تشير المصادر التاريخية إلى الصعوبات البالغة التى واجهت العرب عند فتح شمالى إفريقية ، وإلى التضحيات الكبيرة التى قدموها قبل أن يستقروا هناك بعد مراحل العمل الطويلة ، ولا تأتى أهمية الصراع من مقابلة العرب للجيش البيزنطى هناك ، ولا من محاولة هذا الجيش أن ينتصر عليهم فى غارات متتابعة عبر البحر ، وإن كان جيشا كبيرا شغل العرب وقتا طويلا ، وجعلهم ينتقلون سراعا من الشام إلى مصر ثم إلى شمالى إفريقية ، فى محاولة هادفة لتأمين وجودهم ، ولضمان سلامتهم فى مناطق تهمتهم كنتيجة للحرب بينهم وبين أعدائهم ، وكأن هذه الحرب كانت حركة مطاردة عنيفة بين قوتين ، إحداهما كانت قوة عربية لا ترجو السلامة إلا فى سرعة التصرف الذى يفقدعدوها الأمل ، ويدفعه إلى الخوف ، والأخرى كانت بيزنطية تريد تعطيل سير الفتح وإيقاف حركة التقدم ، وعدم التفريط بسهولة فى مناطق كانت تابعة لها وخاضعة لإدارتها ، حتى جاء دور العاصمة ـ القسطنطينية ـ نفسها[1] ، فذهبت إليها الجيوش العربية أخيرا فى عملية حصار بحرية وبرية ، بعد انتهاء الحرب لصالحها فى الشمال الافريقى والأندلس .

ولكن غرابة الصورة الجديدة لم تبد مذهلة وغير عادية إلا عندما اعترض البربر طريق العرب ، ووقفوا أمامهم كشعب مقاتل يعرف أمور الحرب ويملك

---

(١) حاصرت جيوش العرب مدينة القسطنطينية ثلاث مرات فى السنوات : ٤٩ - ٥٠ هـ / ٦٦٩ - ٦٧٠م ، ٥٤ - ٦٠هـ / ٦٧٣ - ٦٧٩ م ، ٩٨ - ١٠٠هـ / ٧١٦ - ٧١٨ م ، وتبدو جدية القصد فى المحاولتين الأخيرتين من طول مدة الحصار فى المحاولة الثانية ومن ضخامة عدد الجيش فى المحاولة الأخيرة .

وسائلها ، وظهر عنف الصراع لأن المواجهة المباشرة كانت بين إرادتين ليس من السهل التغلب على إحداهما بعد جولات الحرب المتكررة ، ولم يكن ممكنا لإحدى القوتين أن تنتصر فى معركة حاسمة تأتى بعدها دعوى الوجود الواحد فى المنطقة كلها .

ورغب العرب عن السيطرة الصورية على المناطق المهمة فى السواحل الشمالية ، وربما اضطروا للانصراف عنها لأنهم كانوا لا يملكون وسائل الحصار المطلوبة لإسقاط القلاع المقامة حول المدن المهمة بالشمال قرب ساحل البحر ، أو كانوا لا يريدون ضياع الوقت فى الوقوف حولها ، وقصدوا إلى السير نحو الجماعات الكثيفة بمناطق الصحراء ، وأرادوا المواجهة الصريحة بلا خوف أو تردد ، ورأى أعداؤهم قلة أعدادهم وجرأتهم عليهم ، وكانت قد تركت لهؤلاء الأعداء شئون الدفاع عن أوطانهم بعد انسحاب البيزنطيين منها .

ويقال إن البربر كانوا أحرارا يرفضون الهزيمة ، ولا يجدون الحياة فى غير الحرية ، وربما كان فى نسبة الحرية للبربر مبالغة مقصودة لأن طول الصراع كانت له أسباب غير ما يسمى الآن بحب الحرية والدفاع عنها ، ولعل من هذه الأسباب طبيعة المنطقة التى أثيرت فيها أو حولها الأحداث ، وكانت الأحداث كلها تدور فى مجالات واسعة بصحراء بعيدة المدى ، وفى الصحراء حصون وجبال وجماعات كثيفة قادرة على التصرف السريع أمام الأخطار ، ثم إن سواحل البحر كانت شديدة الخطر فعن طريقها كانت تأتى للبربر مساعدات عسكرية كبيرة من البيزنطيين الراغبين فى هزيمة العرب وضياعهم .

ولا يظهر أن العرب جاءوا ومعهم إمكانيات العمل السريع لإنهاء دورهم فى الجهاد فى شمالى إفريقية ، لأن عملهم العسكرى بدأ رتيبا هادئا ، يقبل فيه النصر

والهزيمة أيضا مادام الحسم كان بعيدا فى الحالين معا ، ولم يكونوا فيما يبدو يعرفون الأرض التى كانوا يعملون عليها معرفة واضحة تمكنهم من اتباع خطة حاسمة تساعدهم على عدم التورط فى حروب طويلة ، وقصد أعداؤهم معهم حالة من حروب الاستنزاف الصريحة ، وربما كان من هؤلاء الأعداء جماعات تتكسب بالحروب وتعمل لصالح غيرها ، ولا يهمها الاستقرار ولا معرفة النتيجة الأخيرة ، ثم إن حياة البربر كلها كانت حياة قلقة بطبيعتها ، فلم تزدها حرب العرب قلقا .

وفى كل المحاولات لم تسخر إمكانيات الدولة العربية كلها للعمل فى شمالى إفريقية ، وظهر العرب فى بعض حالاتهم كأنهم كانوا فرقا عسكرية يمكن بسببها أن يقول السياسيون إنهم يجاهدون فى سبيل الله فى مكان من الأرض ، وإليها كانت تلجأ العناصر المجاهدة الراغبة فى ظلال الجنة ، أو العناصر المغامرة الحريصة على تسجيل بعض الجهود الممتازة .

٢ — عناد البربر :

وطال وقت الصراع وأشعلت قسوته نيران البغض والكراهية بين الجانبين ، وكانت الزعامة البربرية زعامات قبلية غير متطورة ، تريد إظهار القوة فى حرب بلا نهاية ، ولهذا جاء اتجاه العرب فى بعض حالات التعامل مع البربر مخالفا لسياستهم فى التسامح والعفو ، وعدم التطرف فى العقوبة ، وظهر بعض قوادهم كأنهم كانوا لا يحسنون استعمال السياسة ، أولا يعرفون التفاهم إلا عن طريق اللقاء فى ساحات الموت ، وكان منهم الحرص على الأسرى والغنائم ، وكأنها كانت علة وجودهم هناك .

كانت الحرب فى شمالى إفريقية أول حرب بين جنود الإسلام الممثلين لدولته بالشام ، وبين شعب يعيش فى بلاده مع الأمل فى استمرار أسلوب حياته ، ومع

القدرة على الدفاع عن هذا الأسلوب ، وقد مر جنود الإسلام المشار إليهم بتجارب عسكرية طويلة هزموا فيها جيوشا كثيرة ، ولكن التعامل مع شعب كبير كالبربر كان تجربة جديدة واجهت العرب لأول مرة فى تاريخهم ، وكانوا قد عرفوا قبل ذلك الشعوب المسالمة أو الشعوب المعاونة ، ولم يعرفوا شعبا عنيدا يمارس المعارضة عمليا بالحرب فى كل مكان ، ولو كان البربر شعبا متماسكا يربطه الولاء لهدف واحد ، أو يربطه الاتفاق على رأى واحد ، لكان له مع العرب فى التاريخ قصة أخرى ، وصحيح أن له قصة تخالف قصة الشعوب التى دخلت فى الإسلام قبله ، أو التى دخلت فى الإسلام بعده ، وقيل بسببها إن خضوعه للعرب لم يكن استسلاما أو ضعفا أمام قوة لم يستطع لها دفعا ، وإنما كان نوعاً من الفهم البطىء لأهداف العرب من حربه ، أو كان نوعا من اللقاء أخيرا بعد ضياع الأمل .

ونحن نعرف شيئا عن السهولة النسبية التى قابلت العرب أنفسهم عند فتح غير هذه المنطقة فى الشرق والغرب ، وقد كانت هناك دوافع مهمة مقبولة شجعت السكان فى بلاد غير شمالى إفريقية على الوقوف فى جمود أمام المعارك الدائرة داخل بلادهم ، أو على حدودها ، وقصة المصريين أنهم كانوا أظهر الشعوب ترحيبا بالعرب وأشدها حماسا لوجودهم لأن أسبابا كثيرة كانت تثير رغبة الناس فى التغيير ، ولما لم يستطيعوا عرض الوسائل الإيجابية الكافية لضمان حقوقهم مع جماعات قوية متسلطة تشاركهم فى الدين ؛ وتخالفهم فى بعض مسائله ، لجئوا للمحاولات السلبية فى شبه احتجاج صامت على مآسى النظام المفروض عليهم ، وبقى عندهم الأمل قويا فى جيش العرب أو غيره ، وقابلوا هذا الجيش فى بلادهم بالترحيب والفرح ونصروه وانتصروا به أيضا .

وأما البربر فكانت أعمالهم العسكرية قد حددت مناطق النفوذ بينهم وبين الروم ، بعد أن نجحوا فى محاصرة هؤلاء فى مناطق شمالية كانوا يحيطون

أنفسهم فيها بحصون ورباطات قوية تحميهم وتضع سلطتهم فى دائرتها الداخلية وحدها ، ومعنى هذا أن البربر كانت قد ظهرت شخصيتهم كقوة كسبت مجالا واسعا فى الصراع بينها وبين الروم ، وكانت هذه القوة حريصة على مكاسبها وترفض أن تعرضها الأعداء مرة أخرى .

وبعد صرف الحديث إلى الصعوبات التى واجهت العرب فى الغرب ، وعدم الوقوف طويلا عند أعمالهم الأخرى، يمكن القول بأن أطول الأعمال العربية العسكرية التى سبقت فتح شمالى إفريقية لم تأخذ من زمن العرب أكثر من عشرين سنة[1]، وأما فى الشمال الإفريقى فقد مارس العرب هناك حربا عنيفة مدة سبعين سنة ، تكررت فيها الانتصارات السريعة، وجاءت بعدها الهزائم المرة التى رجع بسببها جيش المسلمين ثلاث مرات [2] إلى نقطة البداية من جديد ، وكان عليه أن يبدأ الجهاد مرة أخرى ليحقق رغبته الملحة فى النصر الأخير .

٣ — خلافات العرب :

وفى ملاحظة سريعة نشير إلى أن عمليات فتح العرب لشمالى إفريقية لم تتخذ

---

١ — لم تتطلب حرب فارس من العرب إلا بضع وقائع عسكرية ثم بعدها خضعت لهم مملكة الساسانيين كلها فى أقل من عشرين سنة .

٢ — انهزم العرب ثلاث مرات خلال عشر سنوات من تاريخ كفاحهم فى شمالى إفريقية :

(ا) سنة ٦٤هـ / ٦٨٤ م وفيها انتصر كسيلة البربرى على عقبة بن نافع وقتله وأخذ القيروان من العرب ، وحكم إفريقية أربع سنوات .

(ب) سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م وفيها تحالف الروم مع البربر وهزموا زهير بن قيس قائد العرب ، وضاعت فتوحات منهم العرب للمرة الثانية .

(جـ) سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣ م وفيها انهزم حسان بن النعمان أمام الكاهنة زعيمة البربر فى جبال أوراس ، وضاعت جهود العرب من جديد أمام ضغط البربر للمرة الثالثة .

شكلا إيجابيا حاسما منذ خطوات العمل الأولى ، فإذا كانت حركات الجيوش العربية قد ابتدأت منذ استقرارها فى مصر سنة ٢١ هـ / ٦٤١م ، وإذا كانت هذه الحركات قد انتهت بنتيجة حاسمة دل عليها النجاح الأخير فى تحويل البربر إلى جماعات مسلمة ، ثم اعتراف الشمال الإفريقى كله بسلطة المسلمين فيه سنة ٩٢ هـ / ٧١٠ م ، فإن هذا الوقت الطويل لم تشغله عمليات عسكرية مضطردة، ولم يستغرقه القتال كله ، وقد حدثت فى المسافة البعيدة بين التاريخين تطورات مؤثرة داخل الدولة العربية ذات الشأن الأول فى حركات العمل كلها ، وشغلت الأحداث فترات طويلة من هذا الزمن فعطلت جهود الفاتحين ؛ وأوقفت سير الجهاد فى كل مكان ، ولم يكن من الميسور للقادة والجنود العرب أن يستمروا فى عملهم بعد أن انقطعت عنهم الإمدادات ، وبعد أن غاب عنهم وجه الحقيقة فأقام بعضهم حيث هو ينتظر نتيجة الصراع المحتدم بين المسلمين ، وعاد البعض الآخر إلى الحجاز والشام ليسهم بنصيب فى الحروب الأهلية الخطيرة ، وكان من أهم الأحداث ما قام بين المسلمين من خلاف كبير زمن الخليفة عثمان ابن عفان (٢٤ — ٣٥ هـ / ٦٤٤ — ٦٥٦ م) وإذا لم يكن الغرض أن نعطى الآن تعليلا كافيا لأسباب ما حدث من فتن فى عهد هذا الخليفة الشهيد فإن من المفيد أن نشير إلى التساؤلات التى ظهرت فى المجتمع الاسلامى الناشىء ، بعد تجمع الأموال عند الدولة ، وعند كبار رجالها معها ، وكان هؤلاء يريدون أن يعيشوا طويلا مع الرفاهية ، فاشتغلوا بالمناورات السياسية ليبقوا كما كانوا عند قمة السلم الاجتماعى بالدولة وكانت تقابلهم جماعة أخرى تنادى بالعدالة الاجتماعية ، وتقول إنها من مبادىء الدين ذاته .

وبسبب عدم وضوح الصورة عند الراغبين فى الاتفاق على تحقيق نوع من التقارب بين الرغبات المتعارضة، وبسبب عدم رغبة الكثيرين فى اللقاء عند شىء

مقبول — قامت الفتن وضاعت حياة الخليفة نفسه فى الطريق إلى الحل المنشود ، وزاد باستشهاده عمق الخلاف بين المسلمين ، وأسرفت الجماعات والأحزاب فى البعد والخصومة ، وقامت بين المسلمين حروب أهلية اتخذت لها مسرحا فى بلاد العرب نفسها ، مرة فى أرض العراق وأخرى على الحدود بينها و بين بلاد الشام.

وقد يظهر من الحديث الطويل حول المآسى والاضطرابات التى شهدها مجتمع المسلمين لأول مرة فى عهد الخليفة الثالث أن هذا الخليفة عاش لا يستطيع أن يكون سيداً لمجتمع هادىء ، أو أنه عاش فى زمن يغلى بالخلافات الداخلية المعطلة لدفعات التطور المطلوبة ، ولكن حقائق التاريخ تشير إلى شىء آخر حجبته أحداث الانقسامات بين المسلمين ، وهو أن عهد هذا الخليفة كان مرحلة من مراحل التطور الهامة فى توسع الدولة الإسلامية ، ويمكن أن تشابه فترة حكمه الأولى الفترة التى بدأت بخلافة عمر بن الخطاب ، فقد عبأ عثمان بن عفان أول جيش دخل إفريقيــة لأول مرة بقيادة عبد الله بن سعد[1] ٢٧ هـ / ٦٤٧ — ٦٤٨ م ، وظهرت فى عهده بوادر جديدة منها السماح للمسلمين بالحرب فوق الأمواج المتقلبة لأول مرة فى تاريخهم ، وجاء انتصارهم على الروم فى معـركة ذات الصوارى[٢] ٤٣ هـ / ٦٦٥ م ظاهرة جديدة لم تكن معروفة طول تاريخ العرب العسكرى ، وكان الخليفة عمر بن الخطاب قبل الخليفة عثمان بن عفان يرفض الإذن بالسير فى البحر ، وكان يثير الشكوك حول نجاح الحرب فيه .



١ — واشتد الحماس فى رحلة الفتح هذه حتى اشترك فيها بعض أصحاب الرسول عليه السلام ، وشارك فيها أيضاً عدد كبير من أبناء أصحابه .

٢ — ليس من المعروف ماإذا كان مكان هذه المعركة فى ناحية سـواحل الشام وآسيا الصغرى ، أو فى ناحية سواحل المغرب شمالى طرابلس .

٤ — فتح برقة وطرابلس :

بعد فتح مصر اتجهت همة العـــرب المنتصرين إلى إخضاع برقة وطرابلس لحكومتهم الجديدة بالفسطاط كآخر محاولة لاكتساب المواقع المصرية الباقية ، أو بغرض تأمين وجودهم فى مصر نفسها ، بعد أن تعرض هذا الوجود لخطر الهجوم البيزنطى من السواحل الغربية القريبة ، ويقال دائما إن تقدم العرب لمراحل تالية لانتصاراتهم فى المناطق المختلفة كان دائما بقصد تأمين وجودهم فى المناطق المفتوحة ، أو بقصد الإبقاء على نتائج جهودهم بعيدة عن الأخطار ، وقد يكون فى هذا القول نوع من وجاهة التعليل لأن الصراع بين العرب والروم كانت له قصـة معروفة شغلت فترات طويلة من تاريخ العصور الوسطى ، واستمرت الحرب بين القوتين بلا نهاية ، ومع نجاح العرب فى كسب اليـد العليا على دولة الروم ، ومع فرضهم السيطرة العربية على أجمل مقاطعاتها الشرقية ، فإن النصر النهائى عليها لم يتحقق لهم فى أى وقت من التاريخ .

ولا يظهر أن فتح برقة وطرابلس احتاج لجهود عسكرية غـــير عادية لقلة المدافعين عنهما ، ولضعف الوجود البيزنطى بهما ، والعرب أنفسهم كانوا فى حالة من الحماس البالغ ، وكانت عندهم القوة المتفوقة القادرة على أن تضمن لهم النجاح فى مثل هذه الأعمال الإضافية ، وربما كان السير بعيدا عن حدود مصر الغربيـة مجرد رحلة غير خطيرة قام بها حاكم مصر عمرو بن العاص فى فترة ظهر فيها بأس العرب قويا فى كل مكان ، وكان عمرو قائدا عظيما لا يتوقف نشاطه ، ولا يفتر حماسه ، فرمى ببصره بعيدا فوق رمال الصحراء المترامية ، وأراد مواصلة العمل العسكرى حتى النهاية ، ولجأ إلى مراكز الشورى فى عاصمة الدولة ذاتها ، وهناك كان الخليفة المتردد فى السماح بالأعمال العسكرية بعيدا عن حدود مصر الغربية ، وربما

كان الخليفة عمر بن الخطاب يرفض الإذن بالحرب بعد حدود مصر فى صراحة لأنه — وهو مؤسس الدولة العربية ، وبطل توسعها العسكرى ، وصاحب تنظيماتها الإدارية والسياسية - كان حذرا من طموح عمرو بن العاص ، ومن إسرافه فى المغامرات العسكرية ، أو كان يخشى أن تتهور الجيوش العربية فى بلاد المغرب البعيدة ، أو أن تخرج هذه الجيوش عن رقابته ، ومع ذلك استمرت جيوش العرب تأتى إلى شمالى إفريقية قادمة من مراكزها الدائمة فى مصر فى شبه عملية انسياب هائلة ، وكأنها كانت عمليات تسلل لطلائع العمل العسكرى القادم مع الزمن ، وكان للعرب فى هذه المرحلة محاولات فاشلة ، وكأنهم كانوا لا يملكون خططا للفتح المتكامل ، أو كأنهم كانوا يجهلون وسائل العمل الفعالة ، وتكررت محاولاتهم غير الحاسمة ، وكانت المغانم من أهم أهدافها .

ثم شغلت الأخطار فى مصر عمرو بن العاص عن البعد عنها ، وتعطل دوره فى مصر وإفريقية باستشهاد الخليفة عمر بن الخطاب سنة ٢٣ هـ / ٦٤٣ م ، وبعد هذا الخليفة كان عهد الخليفة عثمان بن عفان مرحلة من مراحل التطور الهامة فى توسع الدولة العربية ، وكانت أعمال هذا الخليفة مكملة لأعمال من سبقه على الطريق ، فابتدأت محاولات فتح المغرب ، واتخذ واليه عبد الله بن سعد مدينة الفسطاط قاعدة للعمل العسكرى فى شمالى إفريقة وخرج فى جيش العبادلة[1] المعروف سنة ٢٧ هـ / ٦٤٧ م ليواجه الروم فى معركة كبيرة عند منطقة سبيطلة وانتصر عليهم ، وجاءت جهود من معه من أصحاب الرسول دلائل قوية على شدة الحماس الدينى فى هذا الجيش ، ولكن انتصار المسلمين لم يحقق لهم وجودا عسكريا

١ — اشترك فى هذا الجيش عبد الله بن سعد ، وعبد الله بن الزبير ، وعبدالله ابن عمر ، وعبد الله بن العباس ، وعبد الله بن أبى بكر ، وعبدالله بن زيد بن الخطاب وعبيد الله بن عمرو ، وعبيد الله بن العباس وغيرهم .

ثابتا فى شمالى إفريقية ، بعد أن اكتفوا بفرض ضرائب مالية ، لم تكن فى حقيقتها دليلا كافيا على وجودهم بالمنطقة ، ورجعوا كأنهم كانوا فى حملة تأديب عسكرية طويلة الأجل، أو كأن هذه الحملة كانت مجرد تدريبات عسكرية حية لتجديد النشاط الحربى فى جيش المسلمين ، أو كانت محاولة روتينية يأتى بعد الانتصار فيها الاتفاق على دفع ضرائب مالية كبيرة ، وربما كانت هذه الحروب مفروضة بتطور الحياة ذاتها ، أو كانت نوعا من الاحتكاك المباشر بين الماضى بجاذبيته وأضوائه البعيدة ، وبين من يمثلون المستقبل وتطلعاته وآمال الناس فيه .

ثم انفصمت وحدة المسلمين السياسية ، واختلفت آراؤهم بعد الوحدة القوية التى تبناها الخليفة الأول أبو بكر بالقضاء على الردة ثم دعمها أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب بحزمه وعدله ، واستمر النزاع بينهم مدة طويلة ابتدأت باستشهاد الخليفة عثمان بن عفان فى ثورة داخلية خطيرة سنة ٣٥ هـ / ٦٥٦ م وانتهت هذه الثورة بانتصار الأمويين سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م . وبعد تغلب هؤلاء على الصراعات الداخلية بدأوا السير فى طريق الفتح المنظم ، ونشط أسطول المسلمين فى البحر بعد أن قرروا متابعة المد الحربى فى تصميم وإصرار ، واشتد النشاط العسكرى بعد استقرار الدولة الأموية بالشام سنة ٥٠ هـ / ٦٦٩ م ثم تعطل مرة أخرى سنة ٦٤ هـ / ٦٨٣ م بسبب الفتن الجديدة التى قامت باسم الزبيريين والمروانيين بعد اختلافهم على رئاسة الدولة العربية .

وبعد انتصار المروانيين جاء دورهم ليستأنفوا العمل العسكرى الهادف من جديد ، وظهرت آخر مراحل تطور هذا العمل فى عهد الخلفاء الأمويين عبد الملك ابن مروان وابنيه الوليد وسليمان ٦٥ — ٩٩ هـ / ٦٨٤ — ٧١٧ م .

٥ — المراحل المهمة :

واستفاد أبطال مرحلة الفتح الأخيرة فى شمالى إفريقية ٥٠—٩٢ هـ / ٦٧٠ — ٧١١ م من جهود العاملين فى حركة الاستطلاع الأولى ، وأرادوا الفراغ من مشكلات الصراع الطويل مع البربر ، وكانت لهم محاولات قوية قام بها قواد من العرب انصرفوا بهمتهم بعيدا عن مجرد الرغبة فى الغارات السريعة، الهادفة إلى الحرص على المكاسب الماليـة التى كان يبيحها قانون الحرب عند كل الناس ، وتبينوا أن جهودهم يجب أن تتجه لفتح الشمال الإفريقى كله ثم الاستقرار فيه ، وعرفوا أن ذلك لا يكون بالاعتماد على مصر البعيدة كقاعدة للانطلاق العسكرى لأن هـذا كان يعنى خطا طويلا للإمداد والمواصلات ، وهذا الخط الطويل كان يتعرض دائما بطول الساحل لتهديد البحرى البيزنطى ، كما كان يعنى إجهادا عنيفـا للجيش العربى ، فكان تأسيس مدينة القيروان نقطة تحول هامة فى تطوير حركة الفتح إلى الأمام .

واطمأن العرب بعد تأسيس هذه المدينـة إلى وجود قاعـدة للإمداد والتموين كانوا يرجعون إليها بعد الغارات على الأعداء ، وفى هذه المرحلة كانوا يواجهون بجيوش ضخمة متحالفة من البربر والروم، وكأن الجيوش الكبيرة لم تقابلهم هناك إلا بعد وضوح عزمهم على الاستقرار بالمنطقة ، وحارب العرب فى هـذه المرحلة بجيوش كبيرة كانت تستطيع التعامل مع جيوش أعدائهم ، وكانوا قد أدركوا مبلغ الفائدة من اللجـوء إلى أسلوب السياسة للإفادة من الأوضاع الاجتماعية التى صحبت تطوراتهم العسـكرية ، ففـكروا فى الاستعانة بالبربر المسلمين، وأشركوهم فى إدارة المنطقة، وفى العمل بالجيش على السواء .

وعنـــد مراحل التطور الأخيرة كان بشمالى إفريقية قوتان كبيرتان ، إحداهما قوة عربيـة تشاركها فى الجهـاد قوات البربر المسلمين ، والأخرى قوة أعدائهم ، وكانت تتـكون من زمر لا تحصى من البشر ، وجاء صراع القوتين فى شبـه حالات خطيرة من المد والجزر ، وكأنها كانت فرصة الحياة الأخيرة أمام الجماعتين معاً ، وربمـا كان صحيحا أن يقال إنها كانت قصة صراع مجيدة من جانب العرب ، ومن جانب أعدائهم البربر أيضا ، وجاءت النتيجة هائلة فى صالح العرب وحـدهم ، إذ حدث الانقلاب الخطير فى حياة الشمال الإفريقى كله ، وأصبح أكثر الناس هناك مسلمين يحملون راية الدفاع عن الإسلام ، وينافسون العرب فى الجهاد لصالح هذا الدين ، حتى فتحوا معهم الأندلس فى شبـه شركة عظيمة بين شعبين مسلمين كبيرين ، ولم يبق بين البربر من ماضيهم إلا ما كان يشبه الذكريات الخافتة .

٦ — من أبطال الفتح :

وإذا لم تـكن الرغبة واضحة فى إدارة الحديث حول جهود أفراد مهما كان نصيبهم من الـكفاءات الشخصية لأن جهودهم وحدها كانت تبدو عاجزة إلا أن تضاف إليها جهود أبطال كثيرين غيرهم ، وربما لم تسمح النظم العسكرية بوضوح أدوارهم العظيمة ، أو كانت ضرورات العمـل فى وحـدة متماسكة تقتضى أن يكونوا جنودا مجهولين فى حركة كبيرة ، فإنه يبدو من جدية بعض المحاولات العظيمة التى قام بها بعض أبطال العرب درجة الإخلاص الماثلة لقضية الدين والدولة ، وتبدو درجات الـكفاءة الممتازة فى عمل القيادة عنـد بعض القواد الذين حاولوا بذل الجهـد لحسم مـواقف طال انتـظار نتائجهـا ، وعرفت أسماء بعض القادة الممتازين الذين عمـلوا فى هذه المرحلة الخطيرة ، وكأن جهودهم وحـــدها كانت ذات الأثر الواضح فى حركة الصراع كلها ،

واستمرت أسماؤهم تحمل فى التاريخ الإسلامى معانى جميلة من الشجاعة والإخلاص والإيمان والتضحية ومنهم :

١ — عقبة بن نافع . ٢ — وحسان بن النعمان .

٣ — وموسى بن نصير .

وكلهم كانوا ولاة عسكريين وأمراء لجيش الدولة بالمغرب، وجاءوا إلى إفريقية بهدف الفتح والعمل على استقرار وجود المسلمين بها ، وبهدف القيام بمحاولات ناجحة لتعريب المنطقة كلها ، ثم النصر الأخير على حركة المقاومة الرومية البربرية.

١ — وأولهم فى القيام بشرف العمل العسكرى بالشمال الإفريقى عقبة بن نافع ٥٠ هـ/ ٦٧٠ م وهو مجاهد عربى ، بدأ بوجوده هناك دور التخطيط الهادف إلى استقرار المسلمين بالمغرب ، وربما كان نشر الإسلام من أهم أغراض هذا الاستقرار فى نفس عقبة بن نافع ، لأنه كان رجلا قوى الإيمان يدفعه الحماس للعقيدة إلى ما يشبه التعصب لها ، والقسوة على مخالفيه فيها ، ويقال عنه إنه كان لا يميل إلى اللين مع أعدائه ما توفرت له أسباب العنف معهم والقسوة عليهم ، وقد خلدته انتصاراته المجيدة ، وجهوده الدائبة لنشر الإسلام فى بلاد المغرب ، ونجح فى تأسيس مدينة عربية فى إفريقية لأول مرة فى تاريخ العرب بها ، وقصد ببناء القيروان أن يفهم أعداؤه حقيقة الرغبة فى نفسه ، وفى نفوس رجاله المجاهدين ، وهى الإصرار على الاستقرار فى المناطق التى تمكنهم جهودهم من الوصول إليها.

وكان تأسيس القيروان ٥٠ — ٥٥ هـ/ ٦٧٠ - ٦٧٤ م حدثا فاصلا في تاريخ العرب بشمالي إفريقية ، أو كان الحجر الأول في بناء إفريقية الإسلامية .

ثم تكرر وجود عقبة بن نافع كأمير على إفريقية في الفترة ٦٢ — ٦٤ هـ/ ٦٨١ — ٦٨٤ م ، واستمر في تأكيد رغبته ورغبة العرب معه في استقرار القواعد العربية في إفريقية ، واندفع بحماس المؤمنين في عمليات الفتح حتى وصل إلى المحيط الأطلسي ، ودفع فرسه إلى الماء قائلا إنه لو علم أن وراء البحر يابسة لخاضه بفرسه ، حبا في الجهاد في سبيل الله .

ولم تكن منه رعاية كافية لبعض الملابسات الضرورية الخاصة بتأمين الطريق ، وضمان وسائل الرجعة عند الخطر ، فقطع عليه أعداؤه طريقه ، وتركوه يواجه المحنة ببطولة الشجعان ، واستشهد ٦٥ هـ/ ٦٨٤ م وتعرضت القيروان بعده للخطر ، وانسحب منها العرب بعد عشر سنوات من الحياة فيها .

٢ — وكان ثانيهم حسان بن النعمان ٧٣ — ٨٥ هـ/ ٦٩٢ — ٧٠٤ م وله قصة طويلة في حركة للصراع العربي بشمالي إفريقية ، وتشير قصته إلى جهوده الخاصة للقضاء على مقاومة البيزنطيين للعرب من عاصمتهم قرطاجنة ، وإلى تحطيمه لهذه العاصمة سنة ٧٩ هـ/ ٦٩٨ م ، ثم إلى بنائه بعدها مدينة تونس العربية ٨٤ هـ/ ٧٠٣ م وهي تحتفظ للآن بذكريات وجوده ببلاد المغرب ، وكان قيام هذه المدينة يعني أن العرب بالمغرب أصبحوا قوة بحرية لا تخاف أسطول الروم ، ولا تخشى بأسه ، لأن حسان بن النعمان كان قد رأى العيب في حاجة العرب إلى القوة البحرية ، فبنى لهم دارا

لصناعة السفن ، واستدعى لها الخبراء من أقباط مصر النابهين ، ونجح هؤلاء الخبراء فى سد حاجة الحكم الإسلامى فى الشمال الإفريقى إلى التأييد البحرى .

ثم كان حسان بن النعمان واعيا لضرورة التنظيم العسكرى بالمنطقة ، فدعم قوة الجيش العربى بجماعات بربرية كانت تفد إلى العقيدة الجديدة باستمرار ، وكانت ترى أن مستقبلها وأملها مع المسلمين وحدهم ، وبلغ عددها اثنى عشر ألفا وضعهم حسان بن النعمان تحت قيادات بربرية منهم ومنحهم حق المساواة مع المحاربين العرب .

وأما من خالف حسان بن النعمان من البربر فقد كان له معهم دور عنيف ، إذ قابلوه هناك بقيادة كاهنة غامضة العقيدة والشخصية ، وانتصروا عليه فى معركة كبيرة سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣م وأضاع النصر صواب زعيمة البربر ، فأرادت أن تحارب العرب بنوع من أساليب الحرب الخطرة ، وهى حرب الحياة نفسها على أرض أفريقية كلها ، لحرقت المزروعات ، وعبثت بكل ما يمكن أن يكون فيه أمل المساعدة على النصر ، أو البقاء مع الأحياء ، وأضرت بذلك قومها وبلادها فلجأ البربر إلى عدوها ونصروه ، وقتلت هى فى النهاية الموت أمام حسان ابن النعمان سنة ٧٩هـ/٦٩٨ م بعد أن أوصت أبناءها بأن يكونوا مع المسلمين (١) .

٣ — ثم جاء بعده موسى بن نصير ٨٦هـ / ٧٠٥ م وهو فاتح المغرب الأقصى وبطل العرب فى أسبانيا ، وإذا كانت لموسى بن نصير أعمال عسكرية مجيدة بإفريقية أو غيرها فإنها لا تبلغ بالتأكيد درجة الأهمية المعروفة عن أعمال هذا القائد الشهير بأوربا .

---

(١) كان لها ابنان قادا جيوش البربر فى جهادهم مع المسلمين.

المسلمون فى إفريقية

١ ــ بداية الوجود العربي :

ليس هنـاك تاريخ ثابت لوقت انتهى فيـه نشاط المسلمين العسكرى فى شمال إفريقيـة ، لأنه إذا كان من المعروف أن هذا النشاط ابتدأ بعد فتح مصر سنة ٢١ هـ / ٦٤١ م وأنه استمر بعد ذلك لفترات طويلة كانت ضرورية لتحقيق أهداف المسلمين الدينية وغير الدينية ، فليس من المعروف بالتأكيد ذلك الزمن الذى توقفت فيه حركة الصراع الطويل الذى بدأه العرب ، ثم شاركتهم فيـه بعد ذلك جماعات بربرية مسلمة كانت تفد إلى العقيدة الجديدة ، وتأخذ دورها فى العمل على طريق الإيمان ، وبقى لهذه الجماعات دور استمرت تؤديه حتى بعـد أن كونت لنفسها دولا باسم الإسلام ، وباسم مذاهبه المختلفة ، وأخذت دفعات النشاط العسكرى تسير فى الطريق نحو الغاية ، وإن كانت تبـــدو فى بعض مظاهرها مجرد محاولات خفيفة يقصد بها إعلان صوت القوة أمام طوائف رفضت دعوة المسلمين ، وظلت تعارضهم إلى أن شغلتهم عنهـا أحـداث فتـح الأندلس ٩٢ هـ / ٧١١ م ، وكان لهـذا الفتح آثار عملية كبيرة ، منها أنه كان يثير حماس المؤمنين من العرب والبربر ، ويجعلهم يندفعون نحو ميدان المعـارك الجديدة فى الأرض الجديدة ، ويتركون وراءهم إفريقية الشمالية ، وهي لا تزال بحاجة لمزيد من جهودهم .

وابتدأ الصراع فى التاريخ المذكور ، وكان أشبه بالمعـارك الجانبية التى لا تعطي نتائج حاسمة ، حتى كان العرب لا يعرفون لأعمالهم نهاية ، أو لايدرون

متى تأتيهم فرصة الراحة من الحيـاة الطويلة وسط الأخطار ، وقد حاربوا أمة كبيرة العدد وقفت منهم موقف العداء ، ورفضت حياة السلام تحت نفوذهم ، وعاشت فى مناطق واسعـة ، كانت معالمها تتوه أمام الفاتحين ، وتجعلهم يقعون فى أخطاء ناشئة عن جهلهم بها ، ولم يتسن لهم التخطيط الهادف إلى الخلاص السريع من عناء الحرب الطويلة ، وبعـد أن نجحوا فى كسب جماعات من المواطنين المغاربة إلى صفوف المؤمنين ، وبعد أن حاولت هذه الجماعات أن تتفهم أغراض العرب الحقيقيـة من النشاط كله ، لم يجـدوا فى هذا النجاح ، ولا فى هـذه المحاولة أملا كبيرا يساعد على اختصار مدة الصراع ، لأنهم أنفسهم تورطوا فى حروب أهلية أثارتهـا خلافاتهم الداخلية الناشئة من احتياج دولتهم الكبيرة إلى نظم الإدارة الكفيلة بحفـظ تماسكها ، وإلى الفطرة الجديدة لمشـكلاتها المعقدة ، وكانوا لا يملـكون النظم المطلوبة لأنهم كانو فى فجر وجودهم كقوة كبيرة لأول مرة فى التاريخ ، ولا يعرفون الاتفاق على رأى فى علاج المشـكلات الطارئة ، ودهمتهم الأحداث الخطيرة من داخل دولتهم ذاتها ، وشغلهم التنافس حول رئاسة الدولة عن الفتح أو أعجزهم عن تعهـده بالعناية والاهتمام .

وكان الفتح فى إفريقية البعيدة عن مراكز السلطة ولا يمـكن النجاح فى هذا المـكان البعيد إلا بجهود كبيرة تؤديهـا الجماعات غير المشغولة بالمنازعات الداخلية ولا يـكون النجاح أيضا إلا بنفقات ضخمة لا تستطيعها إلا الدولة المستقرة القادرة على تقديم التضحيات المطلوبة ، ووقفت مصر فى الطريق بين الشام وإفريقية تطالب بحق الإشراف المباشر على سير العمل بالمغرب ، وكان

يحكمها ولاة أقوياء ساهموا بجهدهم فى خدمة الدولة الأموية أو كانت لهم قرابة شديدة برؤسائها، ووجدوا فى هذا وذاك الأمان الكافى من غضب الخلفاء عند منافستهم فى سلطات بعيدة عن دوائر نفوذهم ، وازدادت رغباتهم فى توسيع مجال أعمالهم وفى فرض إرادتهم على مناطق تقع بعيدا عن حدود مصر الغربية ، وتعارضت السلطات وعانى عمال الولاية وقواد جيشها من التبعية المضطربة أو المزدوجة ، وعاشوا يرقبون أحداث الشرق فى خوف ، وفى كل الأحوال كان الخلاف يشتد حول من له حق التصرف فى الغنائم الإفريقية ، وكانت هذه غنائم كبيرة عرضت الفاتحين دائما لتهم الخيانة ، وأثارت فى الحكام غريزة التملك .

لقد ابتدأ العمل من مصر فى شبه غارات سريعة لا تنتهى إلى شىء غير ما يشبه الفكرة الغامضة عن طبيعة البلاد وسكانها ، واستمرت الفكرة غامضة أمام الباحثين عنها لفترات طويلة لأن جهد العرب كان رتيبا يتبع أسلوب المغامرين الباحثين عن المال وحده ، وتقوم به جماعات سريعة الحركة تفاجىء الناس بالغارة ، ثم تعود إلى مساكنها فى أرض مصر البعيدة .

ثم جاءت فكرة الاستقرار بعد محاولات استمرت ثلاثين سنة ، وبعد أن تبين المسلمون أن جهودهم لا شك ذاهبة بلا نتيجة ، ما دامت تتخذ مصر قاعدة للانطلاق والفتح ، وربما كان ذلك شيئا معروفا لهم منذ مارسوا نشاطهم العسكرى بأرض إفريقية ، غير أنهم كانوا يحتاجون لإنجاح

فكرتهم إلى تأييد الدولة المشغولة بحوادثها الداخلية والعاجزة عن عرض الإمكانيات القوية الكفيلة بحراسة معسكرات المسلمين التى تقام بعيدا فى أرض إفريقية الشمالية ، ولم يكن مقبولا أن يستمر السير على الطريق الطويل بين مصر وبين ميادين المعارك المغربية، لأنه كان يعنى التعرض الدائم للتهديد البحرى البيزنطى ، كما كان يعنى قبول المفاجآت الخطيرة بعد البعد عن مراكز الجيوش الأساسية .

ولهذا كان تأسيس مدينة القيروان مرحلة فاصلة بين عهد الحملات الاستطلاعية وعهد الفتح المنظم ، واستغرق تأسيس هذه المدينة أربع سنوات بين سنتى خمسين وأربع وخمسين للهجرة ، وظهرت بظهورها رغبة العرب فى الاستقرار وابتدأت تتضح معالم ولاية المغرب الجديدة ، وأريد بها أن تكون عاصمة لمناطق تكتسب فى المستقبل بجهود المجاهدين وعمل الأبطال ، وأشاع بناء القيروان الأمل فى تكوين الولاية الأفريقية الغربية ، ولم يكن هذا الأمل وحده كافياً لإظهار الشخصية المغربية المتميزة، أو إعلان الولاية المستقلة، لأن المدينة كانت مسكونة بجماعات مؤمنة قليلة العدد ، ومحاطة بزمر بشرية تستطيع بقوتها أن تفرض التغيير ، وتستطيع أيضاً أن تثبت وجودها بالعنف والصخب الدائم ، وصحيح أن العرب بنوا هذه المدينة بعد جهود كبيرة قدموها طوال مدة قاربت الثلاثين عاماً ، ولا بد أنهم وجدوا عند بنائها نوعاً من إمكانية الحياة هناك فى أمان إلا أن عدم الاتفاق بين رؤساء الدولة فى الشام ورؤساء السيادة على مصر — عدم اتفاق هؤلاء على الوضع المأمول لهذه الولاية جعلها تظل مدة طويلة كمعسكر للجنود لا عاصمة لإمارة تبدأ الحياة من جديد .

وجاءتها وفود المحاربين من مصر والشام وجزيرة العرب وأقاموا بها

كمرابطين على نية العمل السريع عند المفاجآت الخطرة ، بمعنى أنها كانت عند نشأتها مجرد معسكر يقيم فيه جيش المسلمين حتى تأتيه فرصة العمل ضد الأعداء ، ولوحظ أن تتحقق فيها الشروط الأساسية المطلوبة من المدن المقامة لنفس أغراضها ، ومن هذه الأغراض : محاولة التغلب عن طريقها على طبيعة المسرح الجغرافى المحيط بها ، والمساعدة على الاتصال بالسكان عن طريق التفاهم المعروف عند البشر ، ومتابعة الحرب لنشر العقيدة ، ودفع المعترضين عليها ، والبعد عن إشاعة الفهم بأن الغارات العربية لم تكن إلا نماذج لغارات النهب الخفيفة ، ثم لتكون الملجأ الأول والأخير لأهلها ، ومركز الإشعاع الروحى لمن يشاركهم فى الإيمان بالدين الجديد .

وكانت أهم شروطهم عند تشييد المدن العسكرية بعدها عن التعرض لخطر العدو المباشر ، ومساعدة موقعها على تلقى الإمدادات بما يحقق استمرار أداء رسالتها ، ووجود أسباب الحياة الرئيسية الكفيلة باستمرار البقاء فيها .

ثم حاول المسلمون بالنجاح والأمل أن يحققوا رغبتهم فى تكوين ولاية مستقلة بالمغرب، فازدادت عنايتهم بالقيروان وحاولوا تخطيطها وتنظيمها، واهتموا بمسجدها الذى جعلوه مكاناً للقيادة ومكاناً للدراسة والاجتماعات معاً — وكانت هذه وظيفة المساجد عند المسلمين — وأثاروا حماس الراغبين فى المعرفة بطلب القادرين على منحها للناس ، وتطورت قدراتهم ، ونمت جهودهم ، وأزالوا عوامل الخطر عن بلادهم الجديدة بتحطيم قرطاجنة عاصمة الروم ٧٩ هـ / ٦٩٨ م ثم أنشئوا مدينة تونس شمالى القيروان كميناء بحرى يخدم أهداف الولاية الناشئة ، وبعثوا فيه النشاط بالصناعات البحرية التى استخدموا فيها خبراء مصريين جاءوا إليها ليسدوا حاجة الحكم الإسلامى فى الشمال الإفريقى إلى التأييد البحرى .

واقترنت هذه المحاولات بمحاولات أخرى لوضع نظام إدارى يتفهم ظروف البيئة وأحوال من يعيشون فيها فقسمت البلاد خططاً تتصرف فيها وتسأل عنها القبائل المحيطة بها، وكانت هذه قبائل بربرية تثير حماسها مبادىء الإسلام فى العدل والمساواة والحرية ، وترى هذه المبادىء نقط الالتقاء الأساسية بين شعبين يجتمعان حول عقيدة واحدة ، ويعيشان فى مكان واحد ، وجاء من العرب من أدرك خطورة وجودهم وحدهم فى الصحراء بين جماعات كبيرة تبتعد عنهم بقدر ما يبتعدون عنها ، فحاول تشجيعها على المشاركة فى الجيش والإدارة ، وضمن لها الحق فى عطاء الدولة وفى مكاسب الحروب وغنائمها ، فشعر البربر بوجودهم كحلفاء عليهم بعض مسئوليات العمل فى النظام الجديد ، ولهم كل حقوق العاملين فيه ، وظهر بالزمن بين العرب والبربر ما يشبه الحلف بين جماعات تتقابل دائماً حول العقيدة ، وترى غيرها من الروم والأفارقة طوائف أجنبية ، يجب أن تنعدم آثارها من البلاد كلها .

وقد يكون التقارب بين العرب والبربر محاولة ناجحة لتفهم ضرورات العمل فى البيئة الجديدة، أو قد يكون نوعاً من الفهم الصحيح للعمل الواجب فى المكان الجديد، وقد أعطى التقارب لسكان البلاد الشعور والإحساس بأن بلادهم ردت إليهم ، وأن شركاءهم العرب جاءوا ليعيشوا بين الناس على مبادىء الإسلام وحده ، ولم يبق بين الشعبين إلا أن يجتمعا حول العقيدة الجديدة ، فيكونان شعباً واحداً يعيش فى ظلال الدين الجديد ، وعليه بعد ذلك مسئولية العمل لنشر هذا الدين بين المتخلفين عنه أو بين غير الراغبين فيه .

٢ ـ الاسلام والبربر

وإذا كان نشر الإسلام غرضا أساسياً عند المسلمين جميعاً فقد ظهرت الجهود المخلصة لخدمة هذا الغرض منذ كان للمسلمين وجود بشمال إفريقية، ويشار في التاريخ إلى بعض الجهود الموفقة التى قام بها قواد العرب المشهورون بقوة الإيمان ، وهؤلاء نجحوا فى أن يكسبوا للإسلام قبائل بربرية بعد إيمان ملوكها (١) .

وكان عقبة بن نافع عظيم الأثر كرجل مؤمن فيمن يحيطون به ، ويقال إن سلوكه الدينى وتواضعه وشدة ورعه كانت من أسباب إيمان جماعات كبيرة بإفريقية ، وقد ظل أثره الدينى باقياً هناك حتى بعد وفاته ، وكان لوقفاته الأخيرة للدفاع عن نفسه أمام خطر الموت أثرها الممتاز حتى فى قلوب أعدائه وقاتليه ، ولا يبدو أن البربر كانوا يلتزمون باتباع دين واحد له سلطان على عدد كبير منهم ، ولم تشتهر عنهم طقوس دينية ، ولا نعرف شيئاً كثيراً عن نماذج واضحة لدور عبادتهم ، غير أشياء تذكر عرضاً فى كتب التاريخ أو غيرها ، وربما كانوا وثنيين بصورة غامضة ، أو كانوا بعيدين عن الوصف بالتدين ، لأن من المعروف أن الدين البربرى لم يكن ذا أثر فى الخصومة بين البربر والعرب ، وقد ظل تأثيره بعيداً عن ساحة القتال حتى النهاية ، وإذا كان العرب يعيشون بالدين ومن أجله ويجعلون نشره هدفاً لوجودهم وتصرفاتهم ، وإذا كان بجيشهم جماعات كبيرة مؤمنة ترجو الموت فى سبيل الإيمان وحده فإن الجماعات البربرية التى قابلتهم فى ساحات الحرب ، لم تتخذ جانباً واضحاً من الدين ، أو لم تكن

---

(١) استطاع والى المغرب أبو المهاجر دينار ٥٥ — ٦٢ هـ / ٦٧٤ — ٦٨١ م أن يتحالف مع كسيلة زعيم قبيلة أوربة البربرية بعد أن اكتسبه إلى الإسلام .

تعمل لخدمة عقيدة دينية تثير حماس المحاربين منهم ، والتحالف العسكرى بين الروم المسيحيين ، والقبائل البربرية المتأثرة بالمسيحية لم يكن تحالفاً دينياً ، وإنما كانت له أغراض بعيدة عن مسائل الإيمان والعقيدة ، ولا يقال إن الروم بدورهم حاربوا من أجل المسيحية ، لأن الاسلام لم يكن أخطر على هذه الديانة من الروم أنفسهم ، ومن المعروف أن الروم البيزنطيين كانوا من أسباب القضاء على ما كان قد عرف عن المسيحية عند البربر ، وكانوا أيضاً من أسباب تضاؤل أعداد المسيحيين بشمالى إفريقية ، لأنهم خلال القرن السابق لظهور الإسلام كانوا يمارسون عمليـــــة اضطهاد شاملة للمسيحيين غير المؤمنين بوجهة نظرهم فى المسيحيـة .

واستجابت قبائل البربر البدوية للإسلام ، وظهرت الاستجابة السريعة فى القبائل الجنوبية غير المتأثرة بالمسيحية وظلت القبائل المحيطة بمساكن الروم فى الشمال مترددة فى قبول الدعوة ، وربما كانت هذه قبائل نصف مسيحية تحمى بوجودها وجهودها حياة البيزنطيين والأفارقة المسيحيين من أخطار الرعاة المدفوعين بسبب الحاجة إلى الغارات فى كل مكان .

وأوجدت مدينة عقبة والمدن الإسلامية معها حركة اختلاط كبيرة بين العرب وبين حلفائهم المسلمين ، وزاد الاختلاط بعد انتصار حسان بن النعمان على كاهنة البربر ٧٩هـ/٦٩٨ م وكان حسان يشترط لأمان أعدائه أن يشاركوه فى الجيش ، وأخذ منهم اثنى عشر ألفاً كانوا يعملون تحت قيادات بربرية لنفس الأغراض الإسلامية ، وإذا كان حسان شيخاً أميناً تشغله إرادة الحياة فى سلام بين الناس ، أو تشغله إشاعة السلام بين الناس ، وإذا كان راغباً فى محاولات التفهم الهادئة لمشكلات المنطقة وسكانها ، وإذا كان يرى طريق الوصول إلى قلوب البربر

بتحقيق العدل والتسامح والمساواة معهم كمبادىء إسلامية لها الأثر العظيم فى تقدم الحياة وتطورها فإن موسى بين نصير بعده كان محاربا نشيطاً يسىء دائماً الظن بأعدائه ، ولا يرجو معهم سلاماً إلا فى ظل القوة ، ولذلك ضاقت المنطقة بنشاطه الحربى ، وقسا فى معاملة أعدائه واندفع بالحماس الدينى إلى العمل العسكرى الصارم فخافه الناس ، وأسرعوا للإسلام أمامه ، ولم يعد الإسلام فى عهده كسباً روحياً فقط ، وإنما كان كسباً مادياً أيضاً لأنه كان يحفظ على الناس أموالهم ، ويتيح لهم فرص الاشتراك فى فتوح العرب ، ويعطيهم حق المشاركة فى مغانمها .

وجاءت النهاية تشير إلى وضوح المستقبل فى جانب المسلمين وحدهم ، وزاد نشاط موسى بن نصير لينهى الحرب فى شمالى إفريقية بعد طول الزمن ، وذهب إلى مناطق كانت بعيدة لم تصل إليها جهود من سبقوه واستجابت لدعوته جماعات كبيرة من القبائل البربرية ، وانضمت إلى جماعات أخرى كانت مع المسلمين قبله، ويبدو أنه كان إنساناً يريد أن يسابق بأعماله الزمن، وكان يحس بمسئولياته فى المستقبل ،فكون من البربر جيشاً قوياً يعمل معه فى المناطق البعيدة ، وإن لم تكن هذه ظاهرة جديدة تجيء عن طريقه وحده ، ولكنها أصبحت فى عهده شديدة الوضوح ، وعظيمة الأثر ، بعد أن أخذ قواد المسلمين من البربر دورهم مع العرب المسلمين فى الجهاد ، وقادوا الناس إلى أسبانيا ؛ وكسبوا النصر هناك بعد معارك كبيرة كشفت حقيقة إيمانهم بالدين والمستقبل.

ويقال إن هذا كان من أعظم الانتصارات العربية فى شمالى إفريقية إذ لأول مرة فى تاريخ المسلمين تحارب جماعات مسلمة غير عربية مع المسلمين وتبذل فى سبيل الإسلام كل جهد وتضحية .

لقد كان فتح أسبانيا فرصة مناسبة للمسلمين يمكن أن يكسبوا بها جماعات جديدة من المترددين فى قبول دعوة الإسلام ، وجاء نصر طارق بن زياد مع جماعته البربرية بدفعات من الحماس الدينى عنـــد البربر الذين كانوا فى حاجة للدخول مع العرب فى وحدة تجمعها العقيدة ، وزاد دخول البربر إلى أسبانيا حيث الحياة والأمل والبعد عن مشكلة الدوران حول سؤال لم تعرف الإجابة عليه ، وهو لمن تكون السيادة فى إفريقية ، ونافسهم فى دخول أسبانيا أيضا جماعات عربية كانت تفـد من الشرق مدفوعة بالاضطرار بسبب منازعات الأحزاب وتمـــدد الخصومات فى الدولة الأموية ، ومدفوعة أيضا بالرغبة فى معرفة الجديد والإفادة منـه ؛ وفى طريقها كانت إفريقية المشحونة بالبربر الراغبين فى دين العرب وفى لغة العرب وجاء الاختلاط بين الجماعتين مفيدا فى أمور الدين واللغة ، وكانت فرصة البربر فى معرفة لغة العرب ودين العرب ، وكانت أيضا فرصة العرب فى خدمة الدين واللغة ، وفى بث الدعايات لخدمة أغراضهم المذهبية .

٣ — محاولات الاصلاح :

وبعد الفتح انتهت مراحل العمل فى الغرب وما كانت تأتى به من غنائم تثير حماس الطامعين فيها وتثير أيضا تساؤلات من كانوا يفهمون أن للفتوحات الإسلامية أهدافا أخرى غير الأسرى والأموال وكان مسير موسى بن نصير من الأندلس إلى الشام بجماعات الأسرى ، وأحمال الغنائم مشهدا فريدا من مشاهد التاريخ ، قد يشير إلى أقصى مراحل القوة عند المسلمين المنتصرين ، وقد يشير أيضا إلى نوع من القسوة ، والبعد عن قصد الإسلام فى فرض الجهاد على المسلمين ، وكان موسى — كما يقـــول التاريخ — يتصرف فى

أعماله كما لو كان ملكا ، وينفق أموال الدولة كما لو كان سفيها ، وقد عين أبناءه الثلاثة أمراء على إفريقية والأندلس[1] وكأنما كان يحاول تأسيس أسرة حاكمة .

وجاءت حكومة سليمان بن عبد الملك برأى جديد تحاول به إصلاح أخطاء الفاتحين وإفهام الناس أن أعمالهم كانت مجرد تصرفات شخصية لا ترضى عنها السلطة الجديدة ، وسواء أكانت هذه حقيقة الرغبة عند الحكام الجدد ، أم أنها كانت محاولة غير طيبة لتشويه سمعة القائد الشهير موسى بن نصير فإن أول وصايا الخليفة الجديد لواليه محمد بن يزيد ٩٧/٩٩ هـ — ٧١٥/٧١٧ م هى أن يتمسك بالعدل بين الناس ، وأن يراعى الرحمة معهم ، وربما كان هناك نوع من الظلم الشائع بعد النشاط العسكرى العنيف الذى كان بطله موسى بن نصير ، إلا أن محاولات الوالى الجديد لم تدل على ما يشبه الرغبة فى إقامة العدل بين الناس ، لأنه أخذ يتتبع أبناء الوالى قبله ، ليعاقبهم وليأخذ أموالهم ، وكانت هذه وسيلة الإصلاح عنده .

وجاء عمر بن العزيز ٩٩ — ١٠١ هـ/٧١٧ — ٧١٩ م وأراد أن يحدث تغييراً شاملا فى مسيرة الأحداث بالدولة كلها ، وأن يوفر كل الجهود لصالح الإصلاح الداخلى وحده ، وكانت أمامه مشكلة التناقض المعيب بين السياسة الدينية والسياسة المالية فى الدولة بعد أن تفاقم أمرها مع الزمن ، وظهرت هذه المشكلة بعد أن وصلت دولة الأمويين إلى أقصى مراحل تطورها الجغرافى ،

---

(١) كان عبد العزيز بن موسى واليا على الأندلس ، وعبد الملك بن موسى على طنجة ، وعبد الله بن موسى على إفريقية .

وكانت لها جيوش كبيرة تدفع لها أعطيات ثابتة ، ولها جهاز إدارى كبير يعمل فيه موظفون يعيشون من عملهم ، ثم كانت تحتـــاج فى حركة تطورها إلى إصلاحات كثيرة لا يمكن الوفاء بها إلا بالمال ، وقد ضاعت موارد هذا المال بعد توقف النشاط العسكرى ، وبعد دخول الناس فى الإســلام بدافع الرغبة فيه أو بدافع الهرب من الالتزامات المالية المفروضة عليهم ، وفى الطريق إلى الحل المطلوب قسا الولاة على الناس ، ورفضوا إسقاط الجزية عن الوافدين إلى الإســلام ، وحرموهم من حقوقهم فى المساواة فى أعطيـات الدولة ، وطلبوا منهم الخدمة فى الجيش بدون مقابل .

واختار عمر بن عبد العزيز إسماعيل بن عبد الله ١٠٠ هـ/٧١٨ م واليا على إفريقية ، وكان اختياره بعيداً عن معانى المـكافأة لتأييده لقضية الدولة ، أو لكونه واحدا من ذوى العصبيات القوية فيها ، أو قريبا للخليفة أو لواحد من زعماء دولته ، وإنما اختاره لأنه كان شجاعا فى تقرير الصدق ، وقول الحق ، إذ رفض أن يحلف مع عشرة من أعيان إفريقية أمام الخليفة سليمان بن عبد الملك على أن مال إفريقية المرسل إليه كان مأخوذا بالحق والعــدل ، وأنه كان يزيد عن حاجة المحتاجين هناك .

وصرف الوالى همته إلى دعوة الناس للإسلام وإلى تخفيف أعبائهم المالية ، وبعث له الخليفة عشرة من فقهاء التابعين ليعلموا الناس أصول الدين ومبادئه ، وإذا لم يكن الطريق الذى سلكوه لتعليم الناس مبادىء الإسلام معروفا ، فإنه يقال إنهم أقاموا بالقيروان وبنوا هناك مساجد كثيرة ، ووفد عليهم فيها الراغبون فى تعلم الدين ، وكان الناس بإفريقية لا يزالون فى حال من الجهل بمبادىء الإسلام .

وقويت الدعاية الدينية ، وجاءت بنتائج قيل من أجلها إن البربر كلهم دخلوا فى الإسلام على عهد هذا الخليفة وحده ، وانتشر الإسلام فى المغرب وعم قبائله ، وبقيت بعد ذلك فى البلاد أقلية غير مسلمة كانت استجابتها للدين من جهود الأجيال ، ثم اكتملت للمغرب الأسباب ليصبح بلادا إسلامية صرفة ، يحكمها عمال الخلفاء المسلمين ، ويدين أهلها بالإسلام ، ويتكلمون بلغة العرب ، وسواء أكانت الأسباب الدافعة للإيمان هى بساطة دين المسلمين وحدها ، أو كانت أشياء أخرى ، فإن معالم المغرب القديم قد اختفت ، وحلت محلها معالم جديدة تشير إلى وجود أمة مسلمة واحدة ، ترتبط مع المسلمين وحضارتهم ومزاجهم وآمالهم ومستقبلهم .

٤ — بعد الاصلاح :

لقد نجح المسلمون العاملون بشمالى إفريقية فى عهد عمر بن عبد العزيز فى تحويل اتجاه الناس جميعا نحو الإسلام ، أو فى قبول الناس لدعوته بدافع الإيمان به ، أو بدافع الحاجة إليه ، وانتهت فى هذا العهد المعارضات القوية ضد المسلمين هناك ، ووضح المستقبل فى جانب المسلمين وحدهم ، وتكون جيش إفريقى من المسلمين العرب والبربر ، وفتحت أمامه مجالات العمل فى أركان إفريقية الجنوبية الغربية ، وظهر المسلمون هناك فى شبه وحدة قوية تربطها العقيدة ، ويزيد فى تماسكها محـــــاولة الحكام الالتزام بنصوص الدين الخاصة بالمساواة والإخاء البشرى .

غير أن هذه النتائج كانت مرهونة بوجود السياسات القوية التى تحافظ عليها ، وبوجود الخلفاء المؤمنين بضرورتها ، وبحرص الولاة على دوامها ، وقد كانت هذه النتائج من آثار الجهود التى ظهرت منذ وجد المسلمون فى شمالى أفريقية

وكانت أهدافا رئيسية تضافرت جهودهم على تحقيقها ، وتوجت أعمال الخليفة عمر بن عبد العزيز كل محاولاتهم ، وكانت له ولواليه أعظم الجهود فى الوصول إلى هذه الغاية .

لقد كان الخليفة يريد الناس كلهم مسلمين ، يعيشون فى ظل عدالة الإسلام وحده ، فأرسل لهم للمرشدين من أشهر أساتذة علوم الدين ، ومن أعظم المسلمين إخلاصا لقضية المقيدة الدينية ، ومن أحسنهم فهما لتصورات الخليفة لوظيفة الحكام فى الدولة ، فنجحوا فى عملهم وأدوا دوراً رئيسيا فى تحقيق أسمى الغايات المطلوبة لرئيس الدولة ، وهى المساهمة فى توضيح قضايا الدين ، ونشره بين غير المؤمنين به ، وكان الخليفة نفسه مؤمنا يسعده أن يدخل الناس جميعا الإسلام على يديه ، وتقتضى عدالة الإسلام فى رأيه أن يتساوى كل الناس أمام قانون الدين وأن يقوم فيهم من يؤمن بالعدالة ويحترمها ، ومن تكون عنده سلطة فرضها على الناس ، أو من يستطيع منحها للمحرومين منها ، وأرسل لهم واليا يرى فيه الكفاءة لتحقيق هذه الغاية ، وكان من أهم مظاهر المخالفة لأصول الإسلام الأساسية ما كان هناك من التفرقة بين المسلمين فى المعاملات المالية ، إذ كان العرب يعيشون مع الإحساس بوجود الدولة العربية، وكانت لهم فيها امتيازات لم تكن لغيرهم من المسلمين المطالبين بدفع ضرائب مالية فرضها الإسلام على غير المسلمين وحدهم ، وقال الولاه قبل أيام عمر بن عبد العزيز إن الالتزام بهذه الضرائب ضرورى لصالح انتظام ذاته ، لأنها تمثل نسبة غير قليلة من الدخل العام لجماعة المسلمين وبدونها تعجز إدارة الدولة عن الوفاء بالتزاماتها ، وتتخلف عن تحقيق مشروعات الإصلاح المطلوبة منها .

ورفض الخليفة أن يخالف تعاليم الإسلام الصريحة ، وأمر برفع الضريبة

المطلوبة من غير المسلمين عن المسلمين ، ولو كانت الدولة فى حاجة إليها،فهى غير مقبولة عنده ، لأنها غير مشروعة ، ولأنها مظهر من مظاهر الظلم فى مجتمع يجب أن تسوده قواعد العدل الإسلامية .

ورأى الخليفة تحقيق أفكاره بالوسائل العملية ، وأيدته طوائف المسلمين المجتمعين معه على رأى واحد فى فهم معنى العدالة الإسلامية ، وفى الاهتمام بنشر الدين كدعوة عامة لكل الناس ، ووجد هو من المسلمين أفرادا عندهم إرادة العمل لتحقيق هذه الغايات ، واستمر فى عهده القصير يسير مع معاونيه نحو تحقيق الأمل البعيد ، وقد كان الأمل بعيدا لم تساعد على بلوغه فترة قصيرة كان فيها هذا الخليفة المؤمن سيدا لدولة المسلمين .

وخلفه حكام مسلمون رفضوا السير بعده على نفس الطريق ، وأهمتهم شئون المال وحده ، ورجعوا بالناس وبنظام الإدارة المالية فى دولتهم إلى حيث انتهت قبل حركات الإصلاح التى حاولها الخليفة عمر بن عبد العزيز ، ورأوا ضرورة الوفاء أولا بحاجاتهم العاجلة ، وبحاجات دولتهم المتطورة، وكانت وسائلهم تنحصر فى تعيين ولاة يعرفون الهدف من اختيارهم ، ويعرفون الغرض من وجودهم كرؤساء فى مناطق الدولة الواسعة ، فانصرفوا إلى ولاياتهم راغبين فى رضا الخلفاء وحدهم ، وحققوا ذلك :

١ — بمراجعة النظام المالى كله ليمكنهم الوفاء بحاجات الدولة المالية ، والإسراف فى إظهار الولاء للخلفاء بإرسال الهدايا والتحف إليهم .

٢ — وبأخذ أموال الولاة السابقين ، والعمل تحت تأثير الأحقاد الشخصية التى كانت تمزق المجتمع ، وتسىء إليه .

٣ — بعدم الإيمان بمبدأ المساواة فى المعاملة المالية بين الناس والتفرقة بين العرب وغيرهم من المسلمين .

ورغم أن هؤلاء الولاة حاولوا إرضاء عواطف العامة الدينية ببعث النشاط الحربى من جديد، وبالغارات الفاشلة على صقلية ١٠٧ هـ/٧٢٥ م، ١٠٩ هـ/٧٢٧ م، ثم المناية بمدينة تونس العربية التى كانت قاعدة الأسطول الحربى الإسلامى، وتجديد دار صناعة السفن فيها وبناء المساجد وغيرها، إلا أن رغبتهم فى المال وحده وعدم الاهتمام بشرعية الوسائل المتبعة فى الحصول عليه غطت على كل محاولاتهم المكشوفة التعمية ، ورأى فيهم الناس نوعا آخر من حكام جاءوا على غير طريق الإسلام الصحيح ، وظهر التناقض بوضوح بين تصرفات العمال كممثلين لخلفاء يجلسون على قمة مجتمع المسلمين بالشام ، وبين تعاليم الإسلام الصريحة فى العدالة الاجتماعية والمساواة الأخوية ، وكانت هذه التعاليم الدينية قد أصبحت معروفة بعد إلحاح الدعاة المسلمين من كل الأحزاب الإسلامية عليها .

حتى التابعون العشرة الذين أرسلهم الخليفة عمر بن عبد العزيز للقيروان كانوا فى مواعظهم يطلبون إيقاف التيار المخالف لمبادئ الدين ، وكأن رجال الدولة أنفسهم كانوا غير راضين عن سلوك الخلفاء وعن تصرفات عمالهم ، ومعنى هذا أن تعاليم الإسلام أثارت حماس الناس فى كل مكان .

وظهر التناقض بوضوح أكثر عندما أسرف الولاة فى الاستبداد ، وجاءت حاجاتهم غريبة ، ومطالبهم غير عادية عند جماعات كانت لا ترجو إلا الخير فى عهود المسلمين .

وعمت مظاهر الاستبداد ، وظهرت القسوة فى جمع المال ، وزادت الرغبة

فى البربريات السنيات ، وفى غيرهن من جلود كانت تستعمل فى صنع الملابس الملكية، وهذه الجلود كانت تسبب للناس خسائر فادحة، وأمر ذلك «أن الخليفة وولده كانوا يكتبون إلى عمال طنجة فى نوع معين من الجلد لا يعرف إلا باختباره بعد ذبح الشاة ، أو فى جلود معينة لأجنة الغنم مما كان يتطلب ذبح الشاة دون الخراف » و « جعلوا يقتلون ألف شاة فى جلد واحد » « وكانت الصرمة من الغنم تهلك ذبحاً لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ، ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه»[1].

وقد يثار الشك حول حقيقة هذه الدعاوى العجيبة ، وربما كان فيها نوع من الإسراف والمبالغة ، والمؤرخون يذكرون ذلك فى محاولاتهم التعرف على أسباب مقبولة لثورة خطيرة قادها أحد زعماء البربر الخاضعين لدعايات الخوارج الملحة ، وقد تكون هذه الثورة نتيجة للمنازعات الحزبية ، أو العصبية التى لعبت دورا كبيرا فى حياة دولة الأمويين ، وقد كان لهؤلاء سياسة مرونة مع خصومهم السياسيين ، لأنهم بعد أن نالوا السيادة فى دولة المسلمين بسيوفهم عجزوا عن إقناع كثير من الناس بضرورة التسليم لهم ، والخضوع لسيادتهم ، واستمروا يمسكون بأسباب القسوة لتحميهم من ثورات خصومهم العنيفة ، وقد اضطروا هؤلاء الخصوم إلى أن يبتعدوا بنشاطهم عن بلاد الشام وما حولها ، وتعقبوهم فى كل مكان بالأذى والعذاب ، ووجد بعضهم فى المغرب الواسع المتشعب المسالك مجالا للعمل أو مأوى من الخطر ، واندسوا بين القبائل الآسفة لما كان يصيبها من من عنف ومتاعب على أيدى ولاة الدولة ، وأثاروا فيها حمية الغضب ليحرضوها على الثورة والعصيان .

---

(١) الطبرى سنة ١٢٧ هـ ٤ / ٢٥٥ .

٥ — العدالة الضائعة :

وسواء أكان أهل إفريقية من أطوع الناس كما يقول الطبرى ، أو كانوا غير ذلك ، وسواء أكانوا راغبين فى الحياة مع العرب فى مجتمع تتسوه فيه معالم التمييز العنصرى وينشط فى خدمة الدين ، أم كانوا دائما فى خوف من طغيان الشخصية العربية عليهم ، ومن ضياع وجودهم كأمة تحب مشاركة الزميل ، وترفض خضوع التابعين ، فإنهم غضبوا من إسراف الولاة فى ظلمهم ، وذهب وفدهم إلى الشام ليقول للخليفة هشام بن عبد الملك :

١ — إن أمير المغرب يغزو بهم وبالعرب ويحرمهم من نصيبهم فى الغنائم .

٢ — وإنه يقدمهم فى القتال ويؤخر جنده .

٣ — وإنه يقتل مواشيهم .

وكانت الدولة غير راغبة فى الاستجابة لحاجاتهم ، فرجعوا بلا أمل ليردوا عليها بثورة دينية ترفع شعار المساواة ، وعدم التفرقة العنصرية ، وتبنى دعاياتها على الأفكار الخارجية المتطرفة ، وكانت هذه الأفكار معروفة ومشاعة بشمالى إفريقية منذ ظهرت مشكلة الخوارج بالمشرق العربى .

وليس معروفا ماإذا كانت ثورة البربر ثورة خارجية مدفوعة بآمال الخوارج وحدهم وبقوتهم وحدها أم أنها كانت ثورة بربرية تتأثر بالخوارج ، وتجدهم وسيلة من وسائل القوة لمعارضة سلطة الدولة ، وربما حدث شىء من امتزاج الأفكار واختلاطها ، أو ربما وجدت آراء الخوارج قبولا عند البربر ، ووجدت رغبات البربر تأييدا من الخوارج ، فوحدت الروابط المعنوية

بين الجميع واجتمعوا حول هدف واحد هو حرب الدولة .

لقد وصل الفكر والنشاط الخارجى إلى المغرب بعد أن تبلور مذهبهم فى الشرق ، وبعد أن عرضتهم آراؤهم ونشاطهم لغضب الدولة التى كانت تملك وسائل إرغامهم على الفرار فى كل مكان ، وربما كانت القسوة معهم ، واستياء الناس منهم ، سببا فى تعديل أفكارهم ، أو ربما كان هذا التعديل الأسباب أخرى منها :

١ — تطور مفاهيمهم بسبب وعيهم لما حولهم .

٢ — ورغبتهم فى الخروج عن مواقف الجمود المهلكة .

والمهم أنهم هربوا كأفراد يختفون بين صفوف الجيش العربى الذاهب إلى مسرح المعارك الحربية فى الغرب ، أو كجماعات صغيرة راحلة تخفى فكرها ومذهبها عمن حولها وتعايش الناس وتداريهم ، حتى تجد فرص العمل فى الأماكن البعيدة ، ورأى المعتدلون[1] منهم أن خير الأمور الوسط ، فلم يقولوا بكفر ماعدا الخوارج من الناس ، ولا بإمكان الحياة والتسامح مع كل الناس ، وظهرت دعوتهم ببلاد المغرب ، وكانوا ينشرونها تحت شعار الإصلاح الدينى ، وظل دعاتهم يترددون فى الكشف عن اسم مذهبهم علنا ، ويكتفون بالمطالبة بإرجاع الإسلام إلى سيرته الأولى ، وبالمناداة بالإخاء والمساواة وعدم التفرقة العنصرية ، واستهوت دعاياتهم جماعات من الناس استطاعوا بها معارضة الحكومة وحربها بعد أن تطورت معارضتهم الصامتة إلى معارضة نشيطة علنية بالكلام المسموع ، ثم تطوت بعد ذلك إلى

(١) كان ميسرة المدغرى زعيم الثوار متأثرا بمذهب الخوارج الصفرية وربما كان واحدا منهم .

ثورة مساحة بإقليم طنجة سنة ١٢٢ هـ / ٧٤٠ م، وتكاثرت عليهم الجماعات الغاضبة كأنها كانت تنتظر صيحات الثورة على النظام كله، وضاع من العرب أمل النصر فأنجدتهم الدولة بجيش شامى سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م جمعته وحدة الهدف مع جيش إفريقية العربى، ثم فرقته المنازعات والخصومات، واجتمع الجيش الكبير حول رئاستين تؤدى إحداها أعمال القيادة وتشمر فى داخلها بالقرب من الدولة، وتزهو بحاجة إفريقية إليها، وتحارب الأخرى على أرضها من أجل وطنها. وترفض وصاية الآخرين عليها، وانتهت الحرب سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م بهزيمة جيش الخلافة أمام البربر الذين ساعد نصرهم على ضياع صوابهم فأثاروا البلاد كلها ضد العرب، ولجأ العرب إلى اللين وإلى الدين، ليكسبوا قلوب الناس وعطفهم، وانتصروا بعد ذلك باسم القرآن والإسلام، وباسم وحدة المسلمين سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م وكان الخليفة هشام بن عبد الملك أيام النصر يجود بروحه فاختلفت فى نفسه الأحاسيس المتضاربة وجاءه الخبر فى أخطر الساعات رهبة.

واختلف الأمويون بعد هشام بن عبد الملك، وزادت خصوماتهم وجاءهم العباسيون من الشرق بأهل خراسان فانشغلوا بهم وتركوا بلاد المغرب لأهلها ولمصيرها.

٦ — نحو الاستقلال :

ولم يأت انتصار قوات الدولة الأموية على الخوارج بشمالى إفريقية بنتيجة حاسمة لأن السلام هناك كان مفروضا بالقوة وحدها، وكان لا بد أن تستمر هذه القوة حتى يستمر السلام بإفريقية، ولم يبق فى الأمويين أمل بعد أن توزعت قوتهم على الأمراء المتنافسين، فبددوها فى حروب أهلية، ليس لها غاية إلا أن يعترف الناس فى النهاية بحق السيادة للمنتصر وحده، وانصرفت جهود آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد إلى مقاومة العباسيين وترك بلاد المغرب لعبد

الرحمن بن حبيب ، وهو مغامر طردته فتن الأندلس ، فجاء إلى إفريقية ليطلب الرئاسة بحق القوة وحدها ، ولم يجد أمامه من يعارضه فأقام لنفســه ملكا أو مايشبه الملك فى القيروان ١٢٧ هـ / ٧٤٥ م وتكونت حول هـذه المدينة أيضا ممالك أخرى كانت حركتها تجربة لنظم مختلفـة ، تتصارع فيما بينها تبعا لتباين وجهات نظر أصحابها .

وظلت ثورات الخوارج[1] تشغل عبـد الرحمن بن حبيب ، وكان يلعب بشعار الولاء لدولة المسلمين بالمشرق ، فهو أموى مع الأمويين يعلن لمروان بن محمد سنة ١٢٩ هـ / ٧٤٦ م تأييده فى وقت كان تأييده يعنى الوقوف على جوانب الخطر ، ثم يكون عباسيا مع العباسيين بعد انتصارهم ، ولم ينجح فى إخفاء حقيقة الزيف فى ولائه لهم بعد أن عرضوه لتجربة مكشوفة فطالبوا منه مالا يدفعه باسم التبعية والولاء ، كما يفعل غيره من الحكام فى الدولة ، وكان مشغولا بالرغبة فى البعد عن مظاهر الخضوع لأية قوة فرفض طلب العباسيين ، ورد على تهديداتهم بقطع صلتهم بإفريقية كلها ، وتحدى محاولاتهم لإعادة الوحدة لدولتهم الجديدة ، غير أنه قتل بيد أخيه سنة ١٣٧ هـ / ٧٥٥م وضاعت دولة الفهريين بعد وفاته .

واستمر أهل البلاد يطلبون العمل بقواعد الحكم السليم ، ويرون الأمل فى قيام دول إسلامية تحقق بنظمها الوحدة بين العرب والسكان وترى ضرورة الالتزام بقواعد المساواة الكفيلة بدوام هذه الوحدة بين جميع السكان .

---

(١) كان هؤلاء من الخوارج الإباضيين الذين يمثلون آخر تطورات الفكر الخارجى نحو التساهل .

٧ — بين عهدين :

مات الخليفة هشام بن عبد الملك راضيا بانتصار جيشه فى المغرب على قوات الخوارج سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٢م وإن لم يكن إنتصارا حاسماً تنتهى به العمليات العسكرية بين قوتين كبيرتين ، وإنما كان واحداً من انتصارات عديدة يحفل بها تاريخ الحرب بين قوات الدولة ، وقوات المعارضة فى شمالى إفريقية ، واستمرت القوة واضحة فى الجانبين ، وانتظر المهزومون من الخوارج فرصة العمل المناسب ليردوا على العنف بالعنف ، وليثبتوا وجودهم كقوة مؤثرة ترفض الهزيمة ، ولا تعترف بنتائجها ، وجاءت لهم فرصة العمل الطيبة عندما انعدمت الكفاءة فى الحكام الأمويين الذين خلفوا هشام بن عبد الملك ، وكانوا ضعافا ، ضيعوا بضعفهم ثمرة النصر ، وهيبة النظام ، ولعبت بهم الأحزاب الغالبة فى دولتهم حتى كأنهم كانوا شيوخا لقبائل ذات العصبيات القوية فى بلاد العرب ، وانشغلوا فيما بينهم بالصراع على السلطة ، وأفسحوا بانصرافهم إلى الخصومات العائلية المجال أمام جماعات كثيرة ظهرت فجأة على مسرح الأحداث فى إفريقية ، وأخذت تجد فى العمل لتحقق لنفسها أهدافاً سياسية ، ولو فى دوائر ضيقة قد لا تتعدى حدود بعض المدن الشهيرة ، وتمكنت قوات هذه المدن الصغيرة من أن تضمن لها شيئا من الأمن ، ومن أن تمنح للحكام فيها نوعاً من الوجود السياسى .

وفى الصحراء وقفت قوات الخوارج الكبيرة المتمرسة فى الحروب الطويلة منذ اشتراكها فى القتال ضد جيش الدولة ، وكانت قوات عظيمة تستطيع أن تتيح لأصحابها فرصا لإقامة النظام المثالى الذى كانوا يحلمون به ، ولم يكن الخوارج يملكون فقط قوات عسكرية تتكون من جماعات تندفع بالإيمان الصادق لتحقيق الأهداف المطلوبة ، وإنما كانوا يجيدون مع ذلك طريقة التصرف بالدعاية الدينية

المذهبية ، وقد ملئوا بها جو البلاد كلها منذ خبا صوت السلطة الحكومية ، ومنذ ضاع أثرها ، ونشطوا فى التحريض على العمل ضد الدولة ونظامها وقالوا إن هذا النظام لا يلتقى فى أى من جوانبه مع قواعد الإسلام الأساسية ، واستغلوا أخطاء الولاء الأمويين (1) وأخطاء الخلافة معهم، وملئوا دنيا الناس بلوم الدولة ولوم حكامها ، وحملوها مسئولية كل المآسى فى المجتمع وكل عيوبه .

وجاءت عيوب الإدارة الأموية من اعتماد الأمويين فى مواردهم المالية على موارد غير مشروعة ، وكان هذا من أخطر ما هز كيان المجتمع المغربى ، ومن أهم ما أثار الأحداث السياسية فيه وهو لا يزال فى دور تكوينه الإسلامى العربى، وزادت الإجراءات غير المشروعة فى حدة الغضب عند الناس، وأساءت إلى الأمويين وإلى سلطانهم إساءة بالغة ، وكان منها التفرقة فى المعاملات المالية بين العرب وغيرهم، فكان البربر يحرمون من العطاء الذى كان يعطى لمن يدخل الإسلام ، ويلتحق بصفوف المجاهدين ، وكانوا يحرمون أيضاً من غنائم الحرب بدعوى أن جزاءهم عند الله فى الجنة وهى سياسة تخالف القواعد الإسلامية المقررة ، ومن شأنها أن تنفر الناس من العرب جميعا .

ثم بدا أن صراع الأمراء الأمويين على السلطة قد انتهى بولاية مروان بن محمد ١٢٧ هـ/٧٤٤ م وكان مروان يعطى الأمل بكفاءته الشخصية ، وبقدرته على التصرفات الحاسمة ، وظهر بوجوده كخليفة على رأس الدولة بعض الحماس عند أنصارها بشمالى إفريقية ، فكونوا ما يشبه قوة للضغط على عبد الرحمن بن

---

(١) ومنهم عبيد الله بن الحبحاب ، وكان واليا على إفريقية لهشام بن عبد الملك ١١٦ — ١٢٣هـ / ٧٣٤ — ٧٤١م .

حبيب ، وكان قد فرض نفسه أو فرضته الأحداث على البلاد ، وحكم القيروان باسم الفهريين ١٢٧هـ/٧٤٥م — فأعلن ولاءه للخليفة الجديد ليكسب بإعلانه نوعا من الشرعية المفيدة فى حكم منطقة تحيط بها قوات الخوارج من كل جانب، ولكن جاءت فترة خلافة مروان فى مرحلة فاصلة بين عهدين ، فدهمته الأحداث قبل أن يعالج أحوال المغرب ، وكانت دعوة العباسيين أشد هذه الأحداث خطراً عليه فالتفت للشرق وحده ، وجاهد ليصرف عن نفسه وعن دولته بعض الكوارث، وأضاع وقته فى الصراع بينه وبين أعدائه العباسيين ، فتمكن الخوارج وأمثالهم من الحياة بشمالى إفريقية فى أمن من مفاجآت القوة المعادية ، ولولا أن شاعت فيهم الفتن، وعجزوا عن ضبط النفس فانقسموا وتحاربوا، وتعددت فيهم الرئاسات والزعامات لأمكنهم أن يقيموا حكمهم المثالى المرغوب فيه ولكانت هزيمتهم بعد ذلك أشد صعوبة [1] .

وجاء العباسيون بعد فترة طويلة حافلة بالتخطيط الهادىء وبالعمل العنيف معاً، وبدأت محاولاتهم فى تاريخ غير معروف ، وانتهت أو كانت قريبة من النهاية سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م ولم يساعد وجود أول خلفائهم على حل مشكلة شمالى إفريقية لأن دعاياته القوية وحدها كانت غير كافية لنصرة أنصار العباسيين هناك ، ولأن جيشه الذى حاول أن يرسله إلى إفريقية سنة ١٣٦ هـ/ ٧٥٣م لم يتقدم بعد

---

١ — كان الخوارج فى شمالى إفريقية جماعتين (ا) صفرية (ب) إباضية، ولم تتفقا على شىء رغم تقارب وجهات نظرهما الدينية والسياسيه ، ولم تتفق الجماعة الواحدة منهم أيضا ، وكانوا يختلفون حول زعمائهم ، أو على بعض وجهات النظر فى علاج المسائل العارضة .

وفاته ، إذ طلبته الحاجات العاجلة لإدارة الدولة[1] .

وكان السفاح متأنيا فى حركته لنجدة إفريقية وربما كان مدفوعا بالاضطراب لمثل هذا التأنى أو ربما كان ذلك شيئاً فى طبعه ، وقد كان اختياره لأغراض سياسية مع وجود من هو أسرع منه حركة ، وأكثر منه تجربة وخبرة ، إذ كان وجوده عاملا يساعد على تماسك الجماعات المؤمنة بهدف الثورة المعارضة للأمويين ، ومن هذه الجماعات رؤساء العلويين الذين كانت له بهم علاقات طيبة ، تشير إليها كتب التاريخ فى وضوح .

وترك خليفة العباسيين المغرب ليصبح ملجأ مناسباً للفارين من إضطهاده ، بعد أن أوصد فى وجوههم أبواب المشرق ، وبعد أن انتهى الحساب نهائياً فى الشرق لصالحه ، وخلفه أخوه المنصور ١٣٧هـ/ ٧٥٤م وهو واحد من أعظم بناة الدول فى التاريخ — فشغلته ثورة عمه عبدالله بن على ، وشغلته رغبته فى التخلص سريعا من قائده أبى مسلم عن مشكلات المغرب العربى ولم يرد على عصيان عبد الرحمن ابن حبيب حاكم القيروان بعد أن خلعه ، واستمر مشغولا بأحوال المشرق وحده حتى أرسل سنة ١٤٢هـ/ ٧٥٩م ، قائده ابن الأشعث ليدخل القيروان منتصراً سنة ١٤٤هـ/٧٦١م ، ومع ذلك ظلت قضية البلاد الإفريقية غامضة ، لان هذه المدينة كانت محاطة بأعداء يحاولون حصر نفوذ العباسيين عند حدود مصر الغربية ، وقد ثاروا بجيش الدولة وهزموه ١٥٤هـ /٧٧١م فأثاروا بفعلهم غضب الخليفة ، فبعث لهم قائده يزيد بن حاتم ، وكان انتصاره على الخوارج سنة ١٥٥هـ/٧٧٢م

---

(١) واجه المنصور بعض الثورات عند إعلان خلافته ولابد أنه طلب هذا الجيش لعمل من أعماله .

بداية عهد جديد ساد فيه الاستقرار لفترة طويلة (١٥٥ — ١٧٠هـ/٧٧٢ — ٧٨٨م) وظهرت فيه أهمية القيروان كمركز ثقافى تكثر فيه المدارس الدينية ، ويتقابل فيه الدارسون من جميع المذاهب الإسلامية .

وبعد المهلبيين[1] تكرر فشل العباسيين فى كل محاولاتهم بالمغرب، وكان الخوارج قد سبقوا إلى إقامة دولة باسمهم فى المغرب الأوسط ، وتبعهم الأدارسة الشيعة فأعلنوا بدورهم قيام دولتهم بالمغرب الأقصى ، وبقى للعباسيين ولمذهبهم مكان فى إفريقية وحدها، وكانت لا تعنى شيئاً أكثر من منطقة تونس وماحولها، ولم يكن عند العباسيين وسيلة كافية لحفظ سلطانهم فى هذه المنطقة الباقية غير اختيار أحد المؤمنين بقضيتهم ليصبح أميرا مستقلا يستظل برعايتهم، ويرضون منه بأقل الأسباب التى تربط بينهم وبين عمالهم .

واعترفت الدولة العباسية بالأمر الواقع ، وقام النظام الجديد بعد أن عجز ممثلو المذاهب الدينية الإسلامية عن الاتفاق على رأى حول الوحدة الشاملة ، وتجمعت فى إماراتهم الثلاث القوى الرئيسية المتنازعة فى شمالى إفريقية، واستمرت كلها تجذب الموالين لها ، وشاع بين الجميع ما يشبه السلام العام ، أو التعايش السلمى المفروض بالخوف ، وكلها كانت تحاول إثبات سلامة اتجاهاتها المذهبية والسياسية، وتتنافس فى نشر الدين بالدعاية والحرب، وكلها ظلت ترتبط بالشرق عن طريق الهجرات المتوالية ، وعن طريق الإتصالات الثقافية ، وبكل السبل التى جرت بها اتصالات المسلمين طول التاريخ .

---

(١) اسم لأسرة يزيد بن حاتم ، وقد حكم المهلبيون إفريقية بعده حتى سنة ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م .

٨ — الدول الجديدة

تحددت المعالم الرئيسية لثلاث دول قامت فى الشمال الإفريقى باسم المذاهب الدينية الإسلامية ، بعد أن تكونت هذه المذاهب فى الشرق ، وظهر وجودها كعامل قوى يؤثر فى حركة المجتمع وتطوره ، ورغم تنافس أصحابها منذ نشأتها حول السيادة فى الدولة وتورطهم بسبب هذا التنافس فى حروب أهلية ، فإنها استمرت كلها وحدات إسلامية ليس بينها خلافات جوهرية فى أصل الدين والعقيدة .

ومنها مذهب الدولة التى ظهرت فى عهدها هذه التقسيمات السياسية لأول مرة فى تاريخ المسلمين بشمال إفريقية،وأصحاب هذا المذهب يرفضون أن يكونوا على نفس المستوى،ولو من حيث المقارنات النظرية مع غيرهم،لأن فهمهم للنظريات السياسية الإسلامية كان فهما عاما غلب على المسلمين فى فترة من أعظم فترات الحكم أصالة عندهم ، واستمر يمثل وجهة نظر الجماعات الكثيرة المنتشرة فى مناطق الدولة ، وظل مذهبا واحدا لم يختلف عليه أهله ، ولم تفرقهم الخصومات فيه ، بالإضافة إلى أنه كان المذهب الوحيد الذى حكم ممثلوه دولة المسلمين منذ وجودها .

وبعده ظهر مذهبا الخوارج والشيعة أيام خلافات المسلمين الأولى حول رئاسة الدولة ، ودارت حولهما حوادث بدأت باختلافهما معا ، واختلافهما أيضا مع الآخرين فى مسائل سياسية ودينية تتصل بالشروط الخاصة بالخلافة والخليفة ، وقد عمق الخلاف بين المذاهب عدم الاتفاق على نصوص توضح هذه الشروط للناس أو عدم وجود النصوص الصريحة التى تريح من البحث

فيها أو الخلاف عليها [1] .

واستمر دعاة المذهبين يثيرون الناس ، ليكسبوا أنصارا لم يكن المراد من كسبهم الدفاع عن أصول العقيدة ، أو إزالة بعض الزيف عنها ، وإنما كان الغرض إذاعة دعاوى دينية لم تكن إلا ستارا يخفى وراءه أغراضا سياسية ، ظلت تكيف سلوكهم لفترات طويلة ، وكانت تعطيهم أيضا نوعا من الشرعية يساند رغبتهم فى الانفصال عن الدولة .

وازداد الخلط بين الدين والسياسة،وتبلورت الاتجاهات الحزبية،فأصبحت عقائد ثابتة يلتزم بها الأنصار والمؤيدون فى كل مكان ، وزادت كثرة الشيعة والخوارج ، فتمكنوا من معارضة السلطة وحربها ، وظهر لهم وجود قوى فى مناطق الدولة القريبة والبعيدة ، وأدى هذا الوجود إلى فرض التقسيم السياسى بشمالى إفريقية ، ولم يكن أمام العباسيين خيار فى قبول هذا التقسيم بعد عجزهم عن الوفاء بحاجات الحروب الطويلة أمام جماعات قوية فى بلاد بعيدة ، وبعد أن جاء هذا نتيجة لتطاحن عسكرى طويل كان من الممكن أن يستمر لو لم تضع له الدولة نهاية بسكوتها ، وانصرافها عن حروب مخالفيها فى إفريقية .

ولا يفهم من هذا التقسيم أنه جاء دليلا على وجود ثورة بربرية على الحكم العربى ، وإن كان البربر دائما على استعداد للثورة على هذا الحكم ، وإنما يدل هذا التقسيم

(١) لم يتفق المسلمون جميعا على الشروط اللازمة فى الخليفة منذ ظهور منصب الخلافة عندهم ، وربما لم يكن الاتفاق أمرا ممكنا ، ولكن خلافاتهم المبكرة كانت مجرد وجهات نظر عارضة لم تؤيدها أحزاب قوية تقاتل من أجلها .

على نوع من التجاوب بين المشرق والمغرب فى حركة الإصلاح الدينى والسياسى التى بدأت فى عهد الأمويين ، وعلى تعاونهما معا من أجل إقرار القواعد السليمة للحكم والإدارة ، لأن الأقاليم الثلاثة ظلت شرقية فى إدارتها وبحكامها، وكل الأفكار المذهبية التى عرفتها كانت قد نضجت وتطورت بالمشرق العربى وحملها أصحابها للمغرب مع الأمل فى أن تساندهم السواعد المغربية على تكوين الأنظمة التى أرادوها ، وعلى أمل أن تعطى الفرصة المناسبة لكل مذهب ليعيش فى المجال الحر بعيدا عن رقابة الدولة المباشرة ، وبعيدا عن كيدها وغضبها .

لقد كانت القيادة فى الإمارات الثلاث شرقية — عربية وغير عربية — ولكن الانتساب للشرق كان انتسابا بعيداً بعد أن عاش الزعماء وقتاً طويلا بالمغرب[1]، وكونوا جزءاً حياً من كيانه ، وأصبحوا ممثلين لجماعات تعيش فى المغرب ، وتريد تحقيق آمالها وحل مشكلاتها على أرض إفريقية وحدها، ولم تضعف جاذبية الشرق كبيئة حضارية متقدمة ، وفيها زعامة المسلمين وقوتهم ،واستمرت الحاجة إلى فكر الشرق وثقافته إذ كانت البيئة البربرية آنذاك عاجزة عن تقديم شيء جديد للحياة الجديدة ، وساعد الإحساس العاطفى والاقتناع الشخصى والطمع فى تحقيق الرغبة عن طريق الانضمام إلى الزمر الجديدة — ساعد هذا على تكوين تكتلات بشرية قوية كان عليها أن تمارس العمل الكفيل بتحقيق أهداف

---

(١) قد لا ينطبق هذا القول على مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب لأنه أعلن قيام دولته بعد ثلاث سنوات من وصوله هاربا من الشرق ، ومع ذلك فالغموض يحيط بنشأة هذه الدولة، ويقال إن مؤسسها هو إدريس بن إدريس سنة ١٨٨هـ/٨٠٤م وقد ولد وعاش بالمغرب .

مذاهبها وأن تحرص مع ذلك هذه الأهداف، وكان من أهم هذه الأهداف إقامة وحدات سياسة تكون فى النهاية وطناً للمذهب ولأصحابه فى كل مكان .

لقد كان تكوين الإمارات الثلاث فى المغرب العربى استجابة لرغبات داخلية فى أرض إفريقية نفسها ، واستجابة لرغبات عناصر شرقية هربت اليها لتوحد القوى الداخلية بها كى تحقق أغراضا فشلت فى تحقيقها فى وطنها البعيد، ونجحت الجهود المشتركة فى إقامة ما يشبه الدول القوية أو الإمارات المستقلة ،ولم يكن من أغراضها أن تعيش فى إطار ضيق يجمع المؤمنين بوجهة النظر الواحدة ، وإنما أريد بهذه الوحدات أن تمثل وجهة نظر المؤمنين بها ، أو أصحابها فى كل مكان ، ولذلك استمرت الهجرات اليها والاتصالات بينها وبين بلاد المسلمين طول تاريخها ، وظل الشعور بوجودها قويا عند من يشاركونها فى الرأى والمذهب .

ا — الرستميون :

وإذا كان الخوارج أنشط العاملين وأقواهم إيمانا وأشدهم فهما لحاجات الناس بالمغرب فقد كانوا أول الناجحين فى تحقيق أهدافهم ، وقد عاشوا هناك زمنا طويلا ، وعرفوا ضعف السلطة فألحوا عليها بالحرب ، وجاءتهم الحرب بالنصر والهزيمة وتوجوا نجاحهم بإعلان قيام دولة لهم بالمغرب الأوسط باسم الرستميين الخوارج سنة ١٦٠ هـ/٧٧٦م وكأنما كانت إقامة هذه الدولة محاولة منهم للاستقرار بعد الطواف الطويل بالصحراء الواسعة وجاء تواجدهم فى منطقة تاهرت الجبلية فى وقت غابت عنها فيه السلطة ، فتمكنوا من وضع أيديهم على مساحات صحراوية كانت مسكونة بقبائل بدوية استجابت لدعوتهم والتفت

حول رئيسهم عبد الرحمن بن رستم ، وكان زعيما مجربا يرجع فى أصله البعيد إلى سلالة فارسية ، وكان قد عاش فى إفريقية وشارك فى حروب الخوارج بالقيروان ١٤٤هـ/٧٦١م وطبنة ١٥١هـ/٧٦٨م وغيرها ، وطلب أخيراً السلام والأمن فى مكان بعيد يحفظ عليه وعلى جماعته الوجود ويهيئ لهم سبل الحياة كما أرادوها ، وشغله حب الدين فجاهد فى نشره بين من كانوا حوله ، وشغلته التقوى فحاول تطبيق مبادىء الإسلام على أتباعه فنصروه وأذاعوا شهرته ، وقدمت عليه وفود البصرة بالهدايا لتجده قد حقق لها الأمل بإعلان دولة الخوارج فى المغرب البعيد .

وظلت هذه الدولة تمثل التطبيق العملى للفكر الإسلامى المثالى ، وساعدها انفتاحها على العالم حولها على إنماء ثروتها وازدهار حياتها وتدعيم وجودها وسط جيرانها من القوى السياسية ببلاد المغرب ، وكانت تحاول أن تنهض بدور إيجابى فى تقوية المجتمع المغربى ، وإتاحة السبل أمامه للانطلاق فى سبيل خدمة الإسلام وحضارته .

وبعد ذلك تعرضت لعوامل الخلاف الخارجية المؤسية ، واضطر من جاء بعد مؤسسها ألا يلتزم فى تصرفاته بمبادىء الخوارج وشروطهم ، فعاش معزولا بين جماعة تؤيده وتحميه ، وحوله رقابة عدائية محمومة تحصى عليه عيوبه ، وكان هذا يعنى انقسام الدولة إلى حزبين ضاعت بينهما دولة الخوارج ومبادئهم .

(ب) الأدارسة :

وظهرت أول دولة شيعية فى تاريخ المسلمين سنة ١٧٢هـ/٧٨٧م باسم الأدراسة بالمغرب الأقصى ، وكان إعلان قيامها دليلا على قوة التأثير العلوية فى

بربر شمال إفريقية ، ودليلا على عدم التزام هؤلاء البربر بالمذاهب الدينية إذا اختفى من بينهم من يمثلها ، لأنهم عندما ضاع أثر الدولة من بلادهم فتر حماسهم لمذهب الدولة ، وعندما ضعفت سلطة الخوارج عليهم انصرفوا عن مذهبهم ليؤيدوا مذهب الشيعة ، وكان يمثل هذا المذهب الأخير إدريس[1] بن عبد الله ابن الحسن الذى جاء للمغرب هاربا من الحجاز ، بعد أن تعرض لخطر الموت على أيدى أقاربه من بنى العباس سنة ١٦٩هـ/٧٨٦م ، ولم يعش إدريس بين البربر خاملا أو مؤثرا للسلامة والأمن وإنما استطلع جوانب القوة من نفسه ليثير حماسهم لحب آل البيت المطاردين فى كل مكان بالمتاعب والأهوال ، وكسب قلوبهم بتقواه وزهده وقرابته من الرسول ، وكأنه كان جديدا على ميدان لم يسبقه اليه دعاة من الشيعة ، ولم يأت أحد قبله من أسرته ليحكم أقطار المغرب فى غيبة العباسيين بالمشرق ، وربما لم يكن الناس على جهل بدعوة آل البيت — وقد كان لها صدى فى كل مكان بالدولة — إلا أن الانفعال الشديد والمشاركة الإيجابية التى أبداها البربر لنصرة إدريس ودعـــوته لم يكن يكفى فى إظهارها بهذه القوة مجرد العلم بدعوة أسرة تعيش بعيدا فى مواطن الإسلام الأولى .

وقد تبدو أسباب نجاح الداعية العلوى فى تأسيس دولته بعد ثلاث سنوات من وصوله ، وفى وقت كان فيه عالم المسلمين مشغولا بشهرة هارون الرشيد وعظمته — قد تبدو هذه الأسباب مجهولة ، ويزيد فى غموضها أنه لم يكن يدعو لنفس المبادىء الشائعة فى أوساط البربر من شورى الحكم ، ومساواة النـــاس

---

(١) اسمه إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب .

فى شئون الدنيا ، وإن كان على كل حال يشترك مع البربر فى رغبة الخروج على الدولة ، وربما وجدوا فيه البطل الذى يقودهم الى الاستقلال بإقليمهم البعيد .

وصحيح أنه كان يعمل باسم الأسرة العلوية أكثرمما كان يعمل باسم مذهب الشيعة لأنه وجد ذلك من أسباب التفاف الناس حوله حيث كان الانتماء لهذه الأسرة أكثر جاذبية من الانتماء لمذهب لا يخالف غيره فى شىء من عقيدة الإسلام الواحدة ، فهو إذا كان علوياً يتمتع بمناقب العلويين وامتيازاتهم ، ولم يكن صاحب مذهب لا يختلف عن غيره الا فى بعض الملابسات البعيدة عن حقيقة الإسلام .

ومع قرب أفكاره ومبادئه من أفكار الجماعة ومبادئها إلا أنه استمر يمثل الرأى القائل بتوارث السلطة فى أسرة لها وحدها حق السيادة على جميع المسلمين ، وظل إماماً شيعياً يأسى لحقه الضائع، ولحق أسرته المغتصب بالعباسيين فى بغداد .

ومهما يكن من أمر فقد اشتد حماس الناس له وبايعوه إماماً ، وكان سريعاً إلى غاياته فاندفع بحماس المجاهدين لينشر الإسلام مع مريديه فى أعماق الأقاليم البربرية ، واستمر زاهدا مثالياً حتى مات سنة ١٧٥هـ/٧٩٢م، فانتظر أصحابه جنيناً له في بطن أمه ليقيموا له دولة في مكان أبيه .

وأعلنوا إدريس الثانى إماماً ١٨٨هـ/٨٠٤م وكان عربياً يشعر بقوة انتسابه لشعب عربى تملأ الدنيا أمجاده وحضارته ، وجذبته سمعة العرب كسادة لموجود هائل فى العالم حوله ، وكان أيضا يريد التخلص من وصاية البربر عليه ففتح أبوابه

للعرب واندفع سيلهم نحوه من القيروان والأندلس[1] ومن غير هاتين المدينتين حتى ضاقت بهم عاصمته «وليلى» فبنى مدينة فاس ١٩١ — ١٩٣هـ/٨٠٦ — ٨٠٩م لتكون عاصمة عربية فى بلاد البربر كما كانت القيروان قبلها.

ومات إدريس شاباً سنة ٢١٣هـ/٨٢٨م فتنافس أبناؤه على عرش الولاية من بعده، وفتحوا فيما بينهم سلسلة من المنازعات والحروب لم تنته إلا بانتهاء الدولة ذاتها.

(جـ) الأغالبة :

وكانت دولة الأغالبة آخر تنظيم سياسى شبه مستقل بين هذه الإمارات الثلاث، وأقام العباسيون هذا التنظيم بعد ظهور قوة الأدارسة بالمغرب، ومع أن هؤلاء كانوا لا يملكون قوة تهدد سلامة الدولة العباسية، ومع أن إدريس بن عبد الله بن الحسن لم يكن يمثل وجهة نظر شعبية قوية التأثير، فإن قوة العلويين الموهومة كان يمكن أن تكون حقيقة مخيفة، وكان إدريس منافساً خطيراً يثير التساؤلات حول أحقية الرشيد فى خلافة المسلمين.

والمعروف أن الصراع كان رهيباً بين العباسيين والعلويين لاختلاف وجهة نظرهم حول حقوق السيادة بالدولة، وزاد الصراع بينهم بعد نجاح العباسيين فى إعلان قيام دولتهم من فوق منبر الكوفة سنة ١٣٢ هـ/ ٧٤٩م إذ بعد هذا الإعلان ملك العباسيون وسائل العمل المضاد لثورات العلويين الغاضبين القائلين

---

(١) جاءه من الأندلس بعد ثورة الربض سنة ٢٠٢ هـ/٨١٧م ثمانمائة بيت، ومن القيروان قبل ذلك خمسمائة بيت من العرب وتوالت عليه بعد ذلك الهجرات.

بحقهم فى الخلافة ، وأصبحوا من أقوى وأخطر أعدائهم ، وألجئوهم للحياة بعيدا عن المجتمعات المكشوفة واضطروهم للهرب فى الأماكن البعيدة .

ووجد العلويون لهم فى المناطق النائية مكانا لا ليعيشوا فيه فى سلام مع الآمنين ، وإنما لينشئوا دولا تنافس سلطان العباسيين وتزعجهم ، ونجحت محاولة إدريس بن عبد الله فى المغرب الأقصى وأثارت فى الرشيد كوامن الخوف ، فرد عليها بتعيين إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م أميرا على إفريقية ليدفع عنه خطر التقدم الشيعى نحو الشرق ، وليكفيه هم التفكير فيما بعد حدود مصر الغربية ، وكانت التقارير عنه تؤيد ارتباطه بالولاء للرشيد ودولته .

لقد كان هذا التعيين محاولة لعلاج مشكلة لم تنجح فى علاجها وسائل العمل العادية وكأنه كان اعترافا من دولة العباسيين بأن نفوذها كان يقف عند آخر حدود تونس الغربية ، ولما كان شعب تونس يريد واليا يمثل وجهة نظر العباسيين فقد جاء إبراهيم بن الأغلب حاكما على شعب يقبل رئاسته ، وجاء محروسا بقوة دولة كبيرة تستطيع حمايته ، وكان هو من جانبه يرى أن روابط الولاء بينه وبين الدولة العباسية عظيمة الخطر فى علاقاته بجيرانه من الخوارج والشيعة ، إذ كانت تجعله صاحب الحق الشرعى فى الولاية على الأقاليم كلها ، وتظهرهم أمام الناس كثائرين على نظام الدولة ، أو كخارجين على وحدة المسلمين .

وتبع إبراهيم فى الحكم ابناه عبد الله وزيادة الله ، وتأكد فى عهد هذا الأخير حكم إفريقية للأغالبة ، وأصبحت بلادهم مملكة وراثية لا ترتبط بالخلافة إلا ببعض مظاهر الولاء الشكلية ، وإذا كان الاستقلال قد جاء هذه البلاد عرضا

أو نتيجة للأحداث السياسية بالمغرب كله فإنه أفاد فى تطورها وتقدمها لأن بهشعور الحكام أنهم كانوا يعملون لأنفسهم فى حرية وبغير رقابة ، وقدموا جهدا عظيما أصبحت به دولتهم خلال القرن الذى ازدهر فيه حكمهم ١٨٤ — ٢٩٧ ﻫ / ٨٠٠ — ٩٠٩م تهيمن على وسط البحر الأبيض المتوسط وتكون محورا قويا يدور حوله النزاع الطويل بين إفريقية وأوربا .

لقد استطاع الأغالبة بأسطولهم القوى أن يخضعوا جزيرة صقلية سنة ٢٩٠ﻫ / ٩٠٢م لسلطتهم لتصبح بعد ذلك قاعدة للقيام بحملات بحرية ضد أوربا، واستطاعوا بجهدهم أن ينقلوا المغرب الأدنى نهائيا من بلاد مسيحية لا تعرف شيئا عن لغة العرب إلى بلاد عربية تتكلم لغة العرب وتدين بالإسلام وحده .

٩— خاتمة :

توزعت بلاد المغرب إلى وحدات سياسية كانت تعيش تحت تأثير المذاهب الإسلامية الثلاثة : مذهب أهل السنة ، ومذهب الخوارج ، ومذهب الشيعة ، وأصبح للمسلمين هناك ثلاث عواصم هى:

(ا) القيروان (ب) تاهرت. (ج) فاس ، وبكل عاصمة أمير يرغب عن الدخول فى الصراع العسكرى بعد أن انتهت مراحله بتقسيم الأرض ، وتفتيت وحدة البلاد.

وربما كان يدفع الأمراء لهذا الميل إحساسهم بتعادل ميزان القوى بينهم ، أو كانوا يستجيبون لشعور عام بالانتماء لوحدة قومية شوهت الحروب والخصومات معالمها ، وحاولت السياسة بدورها أن تغطى عليها .

وأدركوا بالفهم السليم مبلغ حاجتهم للسلام كعامل أساسى يخدم أهدافهم المشتركة ، ويساعد على تقدم الحياة فى أوطانهم .

وربما كان اختلاف فهمهم لبعض مسائل الدين نوعا من المحاولات المعروضة لغرض العثور على حل مناسب يوفق بين مثالية الدين وواقع الحياة ، لأن الشعور بالعطف على قضية الدين ظل شعورا عاما يجمع كل الناس ، ويثير فيهم الحماس للحرب ضد الوثنية فى بلاد المغرب ، حتى شغلت الحرب الدينية هـذه الإمارات الجديدة بعد أن وفرت جهودها العسكرية لهذا الغرض وحده ، ولم تنهكها فى نزاع عقيم ليست له غاية .

وربطت الاتصالات الثقافية بين هذه الإمارات جميعاً ، وربطت أيضا بينها وبين عالم المسلمين حولها ، وكان للمسلمين آنذاك حضارة قوية تعم بلادهم ، وتؤثر فى وجودهم كله ، ولا شك أن إفريقية عرفت شيئا عن حضارة العرب وثقافتهم منذ كان للعرب وجود فيها ، وزادت معرفتها بهذه الحضارة بعـد أن استقر وجود العرب بها ، وكان من مظاهر هذا الاستقرار إنشاء المراكز الثقافية العربية فى شمال إفريقية ، ومنها القيروان وفاس وطبنـة ووهران وتلمسـان وغيرها .

واستمرت هذه المراكز مع كل أماكن التجمعات البشرية المتطورة بإفريقية تحمل مشاعل الثقافة العربية لتنير جوانب المغرب العربى كله ، ونشطت حركات الاتصال الثقافى بين المشرق والمغرب ، وكان مجال اللقاء الفكرى بينهما شاملا يساعد على نمو الحضارة وتطورها وازدهارها .

وفى المشرق العربى كانت المدينة من أهم مراكز الدراسات الإسلامية ، وكانت دائما تثير عواطف الناس واهتماماتهم ، لأنها مدينة الرسول ومهد الإسلام ، ثم هى

نقطة التقاء المسلمين جميعا مهما بعدت أوطانهم أو فرقتهم الخصومات، وفيها عاش الإمام مالك وكان يمثل المعارضة الصامتة للعباسيين ودولتهم، فجاءه الغاضبون على هذه الدولة والراغبون فى علمه وكثر تلاميذه وكون بهم مدرسة فقهية ذاعت شهرتها وعلا شأنها فى المغرب كله، وأصبحت وحدها المؤثرة فى الناس والمعروفة لديهم[1].

وزاد حظ هذا المذهب من النجاح فأصبح رجاله زعماء شعبيين حتى بين الخوارج والشيعة، وتركهم زعيم الأدارسة يأخذون طريقهم إلى قلوب الناس وعقولهم، وكان مدفوعا لهذا التسامح بالعلاقات الطيبة المتبادلة بين الإمام مالك وبين زعماء العلويين، ولم يعارضهم الخوارج أيضا وتركوهم يكسبون الأرض من حولهم ويستغلون دعواهم فى تشجيع حرية الرأى كأساس لبناء الفكر السليم.

وتبادل خوارج تاهرت والبصرة الأفكار المذهبية بينهم، والتقوا حول الدراسات اللغوية والأدبية التى عرفت فى البصرة وازدهرت فيها، وكانت هذه الدراسات من حاجات المغرب العاجلة فى أوقات اتجهت فيها الجهود إلى حركة التعريب الشاملة.

واتصل الأغالبة بالعباسيين ذوى الشهرة الواسعة فى الوفاء بحق العلم والمتعلمين وكانوا على رأيهم فى مذهب الإمام أبى حنيفة، فنصروا هذا المذهب بإفريقية، وأثاروا اهتمام الناس به، وساندتهم بغداد عاصمة الخلافة، وذات النفوذ الأدبى

---

(١) اشتهر كتاب «الموطأ» فى شمال إفريقية حتى قيل إن أهل المغرب كانوا لا يعرفون إلا كتاب الله وموطأ الإمام مالك.

والتأثير الحضارى فى بلاد المسلمين كلها، وتوالت رحلات الناس بين المشرق والمغرب ، فساهمت فى وحدة الفكر وساعدت على الرغبة فى السلام .

ولم تدم فترات السلام والأمن طويلا ، فتعرضت البلاد للخصومات والفتن الداخلية ، وضاع أمرها بسبب أعاصير السياسة التى هبت على بلاد المغرب ، وأطاحت بالقوى الحاكمة فيها ، وَزالت دولتا الأغالبة والخوارج على يد الفاطميين سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م ، وسقطت دولة الأدراسة سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤ م امام قوة الحكم الثانى خليفة الأندلس .

الفصل الثاني

(ا) أسبانيا قبل العرب

(ب) الأندلس

(جـ) الجهاد فى الشمال

(د) المقاومة

(هـ) شعب الولاة

١ ـ أسبانيا قبل العرب

يميل المسلمون عادة إلى القول بأن الفتوحات الإسلامية جاءت بعد حركات عسكرية ناجحة قام بها العرب لصالح الشعوب المغلوبة أولا، وكأن هذه الشعوب كانت على ميعاد مع الهداية، أو كانت تنتظر بعد صبر طويل شروق الشمس من سماء العرب، وهم يذكرون ذلك بعد الحديث الطويل عن مقارنات بين الظلم الاجتماعي والسياسي والديني والاقتصادي في البلاد التي فتحها المسلمون، وبين ما آلت إليه الحال بعد الفتح، وكأن الفتوحات الإسلامية كانت في حقيقتها مجرد عملية انسانية تهدف لإنقاذ البشرية كلها من حالة يأس شاملة.

وربما كانت النتيجة خيراً كثيراً عند المقارنة بالماضي، وما كان فيه الناس من متاعب تتحدث عنها كل كتب التاريخ بالتفصيل، ولكننا نتصور في نفس الوقت أن هذه الفتوحات كانت ستأخذ طريقها لتحقيق هدف أساسي التزم به العرب لأسباب نعرف عنها اليوم شيئاً كثيراً، سواء أكان هناك ظلم واضطهاد أو لم يكن، وصحيح أن حالات الظلم والاضطهاد سهلت على العرب عملية الفتح والاستقرار وأعانت عليهما، وصحيح كذلك أن الفتوحات الإسلامية من أولها كانت في فترة من الزمن كان العالم فيها في حاجة إلى عملية إنقاذ أو بعث جديد[1].

فهي لهذا حركة انبعاث ونشاط جديدة قادمة من الشرق على أيدي العرب المسلمين، وعلى أيدي العاملين معهم على طريق الخير، والمساهمين معهم في تحقيق

---

(١) ودليل ذلك ماهو معروف عن حال البلاد التي فتحها العرب في الشرق والغرب.

النصر ، وهى إذا حركة حضارية تبدو قاسية المظهر ، لأنها ظهرت فى صورة غارات عسكرية قامت بها جماعات فتية على البلاد المجاورة ، ولكنها كانت تحمل فى صميمها هداية سماوية عالمية ، كان لها هداة وأبطال يؤمنون بها، وعلى رأى واحد فى الالتزام بنصرها ، وكان لابد أن يوصلوها للآخرين استجابة لإرشادات دينهم الواضحة ، وتحقيقا لاقتناعهم ورغباتهم وميولهم الشخصية ، وساعدهم الاضطراب السائد والفوضى الشاملة ، على سهولة العمل ونجاحه ، وعلى انتشار دينهم على حساب الأديان المنهارة أو الغامضة، وظهر العرب بعد نصرهم كأنهم كانوا أهل السيادة ، وأبطال العدالة والتسامح فى العالم كله.

وإذا كان من المفيد أن نشير إلى بعض المعالم التى بدت واضحة أمام العرب فى مجال دائرة العمل فى شبه الجزيرة التى أشرفوا منها على أوربا وهى أسبانيا ، فإن حوادث التاريخ تقول إن جماعات من القوط الغربيين نجحوا فى السيطرة على القسم الغربى من الأمبراطورية الرومانية ، فى آخر القرن الرابع الميلادى ، وهؤلاء — كما يعرف من تاريخهم — كانوا جماعات همجية ، لاتربطها إلا روح المغامرة وحب العنف ، والرغبة فى الحياة على حساب الآخرين ،وقد أتوا من الشمال فى شبه تكتلات قوية وأغاروا على قوط آخرين كانوا يعيشون كإحدى الجماعات الاسبانية الممتازة ،وكان المغيرون يهدفون إلى التخريب وإثارة الرعب ، لأنهم لم يعرفوا حياة الاستقرار ولم يريدوا غيرهم أن يعرفها.

وجاءت جماعات أخرى أكثر من القوط عددا وأشد همجية، وهم الوندال الذين أعطوا لأسبانيا اسما جديدا فى لغة العرب ، فروعوا البلاد واشتبكوا مع القوط فى صراع طويل كان له أثره السيئ على كل السكان بالمنطقة .

وأسفرت نتيجة التطاحن بين جماعتين ينتسبان إلى أصل واحد عن نجاح القوط وطرد الوندال ، فعبروا البحر إلى إفريقية الشمالية ، وخربوا مدنها

سنة ٤٢٩ م وتركو أسبانيا لجيش القوط المؤلف من جماعات متبربرة غير منسجمة ،جاءت من كل مكان ، وكان لهذا الجيش مايشبه الجرأة على إعلان عدم التبعية والاستقلال [1] بأسبانيا سنة ٤٦٧ م ، وعلى حكم شعب كبير أغلبه من الأيبريين الرومان ، وخضعت الحضارة الرومانية للقوط ،وعلم سكان أسبانيا مايجر وراءه غزو المتوحشين من نكبات وأوزار ، فكم رأوا عواقب الحروب ولعناتها ، وما يتصل بها من الطواعين والمجاعات والقحط وشيوع الفوضى ، وعلمتهم الكوارث درسا لم ينسوه ، فخضعوا للقوط ، وكانوا متحضرين يشتغلون بالزراعة ويزيدون فى العدد على حكامهم ، وكان معظمهم مسيحيين يدينون بالكاثوليكية التابعة لسلطان الكنيسة فى روما .

وللمسيحيين قصة طويلة فى الخلاف حول الأسس الأولى للعقيدة المسيحية ، والمهم أن نقول إن القوط كشعب فى مكان السيادة كانت له وجهة نظر دينية تخالف وجهات النظر السائدة بين رعاياه ، فكانوا غير الكاثوليك لايعترفون بألوهية المسيح ولا بوساطة القساوسة ، وجعلهم رأيهم على الطرف المضاد لرجال الدين ذوى السلطان والتأثير فى عالم العصور الوسطى ، وكان الخلاف فى الدين بين الشعب والحكام يعنى عدم الاستقرار أو وجود نوع من الحرب الصريحة أو غير الصريحة بين الملوك والقساوسة ، وكان لكل من الجماعتين سلطان وقوة ، فاضطهد الملوك القساوسة وقسوا عليهم ، وقاومهم رجال الدين فى محاولة لإثبات الوجود ، أو لحفظ الوجود ودفع الظلم ، وملكوا عليهم عواطف الناس فلعبوا بها ضد النظام كله ، واستغلوا قوة الأعداد الكثيرة المتناثرة فى كل مكان لصالح

---

(١) ربما كانت هذه محاولة لتوحيد أسبانيا لأول مرة فى تاريخها .

قضيتهم ولتأييد مذهبهم ، وتعرض الحكام للخطر ، وكانوا يعرفون أثر الدين في حفظ الدولة ، ويدركون أن رأيهم في المسيحية يبعدهم عن قلوب النـــاس ، ويثير غضبهم .

ولم يستقر سلطان القوط بسبب المنازعات الدينية ، وبسبب الخلافات الداخلية ، وظلت البلاد طوال القرن السادس مسرحا للحروب الأهلية ، وما تأتى به هذه الحروب من فتن وفوضى ، واشتد الصراع بقسوة بين القوط الغربيين ، والقوط الشرقيين سنة ٥٥٤ م ووجد كل فريق منهم له ناصرا في جماعات من الشرق ، أو من الغرب ، ووضعت قوة الدولة الرومانية الشرقية عند إرادة القوط الغربيين الحاكمين ، وحاول هؤلاء أن يجدوا لمشكلاتهم مع السكان حلا مقبولا ، فاعتنقوا الكاثوليكية كمذهب عام كان الطريق الوحيد إلى قلوب الناس ، وأصبحوا من الكاثوليك كما كان الناس من حولهم ، أو كما كانت تقتضى ضرورة بقائهم ، ولم يكن ذلك عن إيمان وعقيدة بقدر ما كان رغبة منهم في حفظ الدنيا ، والإبقاء على السيادة ، ونادوا بالكاثوليكية [1] ديانة رسمية للدولة ، وتوثقت بذلك العلاقات الطيبة بينهم وبين سلطات المذهب الطاغية بمدينة روما الشهيرة ، وأسرف ملوك القوط في إعلان ولائهم للبابوية ، وكانوا يكشفون بذلك عن حاجتهم لتأييدها لا عن حقيقة إيمانهم بمذهبها ، وهذه كانت قد عرفت دورها في بسط سلطانها ونفوذها على الحاكمين والمحكومين معا ، فسلكت الطريق إلى هذه الغاية ، وكان رجال الدين أدواتها في تحقيق أهدافها ، وأصبح لهؤلاء إرادة قبل إرادة الملوك ؛ وقوة فوق قوتهم .

---

(١) أعلن تحول القوط عن مذهبهم الديني رسميا سنة ٥٨٧ م .

ومعنى ذلك أن حرص القوط على إعلان الولاء للكاثوليكية لم يأتهم بتأييد الكنيسة ، وكانوا يفهمون هذا التأييد على أنه دعوة من رجال الدين إلى مساندة رجال السياسة ، ولكن رجال الدين كانوا أشد طمعا فى النفوذ من رجال السياسة ، فاتخذوا الدين سبيلا ووسيلة إلى العمل لتحقيق السيادة ، وكان هذا فهم العصر وروحه .

وجاءت المخاطر من طريق آخر هو طريق الخلافات السياسية ، بين الأمراء أصحاب المصلحة المباشرة فى الدولة لأنهم لجئوا إلى سلسلة من المؤامرات ، والحروب والاغتيالات ، ولم يتفقوا على طريق واضحة لاختيار الزعيم من بينهم ، وإذا صرفنا القول عن التفصيلات الجزئية المذكورة فى كتب التاريخ ، نقول بأن أقرب الملوك إلى عهد العرب كان اسمه غيطشة أو وتيزا ٧٠٠ — ٧٠٨ م وله صورة باهتة أو متناقضة فى كتب التاريخ ، وربما كان من ذوى الشخصيات الغامضة أو الشاذة أو المعقدة ، وتذكر عن عهده حالات كثيرة من الفتن المتجددة والدائمة والمثارة بسبب تآمر كبار القواد عليه ، وكانت هذه الحال المؤسية تثير فى نفسه حالات من الشكوك فيمن حوله ، حتى أصبح لايتصرف دائما إلا بحالة انعكاسية تبعا لسوء الظن الذى يفعم قلبه ، وأصابت لعنته وعذابه جماعات كبيرة من مواطنيه ، منهم العناصر اليهودية التى اتهمها بالسير مع الفتن فى كل اتجاه ، فسلط عليها وسائل العذاب المهينة ، وأثار ضدها حماس المتعصبين من رعاياه [1] ، وتبع ذلك فى النهاية نوع من الانشقاق وعدم الولاء للدولة ، أو

---

(١) عانى اليهود كثيرا من عسف القوط . ولولا أن أدركهم العرب بالأندلس لما بقى هناك منهم أحد .

نوع من الحرص على الولاء الخاص للمصلحة المباشرة ،وكان الملك متردداً شاكاً، يخاف أن يغدر به أهله وأن يخونه من حوله ؛ وكان حوله رجال الدين الحريصون على السيادة والنفوذ والمنافع الشخصية ، وحوله الرؤساء الآخرون الذين كانت تطوف بأحلامهم أماني السيادة المثيرة ، وبعد هؤلاء وأولئك كان اليهود بدورهم حريصين على الدنيا وعلى البقاء فيها ولو على حساب الضحايا ، ولو كانوا كل من عداهم من الناس ، فضاعت وحدة القوة بالدولة وعاشت محكومة بالريبة والخوف من كل ماحولها ومن حولها .

ثم مات الملك بطريقة غامضة سنة ٧٠٨ م فاشتد الخلاف بين المتنافسين على عرشه وطال الصراع حول منصبه بعد وفاته ، وتغلب الأقوياء كما هي عادة الحياة والناس ، وجاء لذريق أوردريك ممثلا لدولة القوط وهي في الطريق إلى نهايتها، ويقال إنه كان زعيما قديرا ، لولا أن أتته المتاعب عن طريق أولاد الملك قبله ،وقد اتهموه باغتصاب حقهم في السلطة وسيادة الدولة .

وبعد أن عجز هؤلاء عن أن يكونوا في مكان أبيهم في أسبانيا فروا إلى مكان العرب في إفريقية يلتمسون معونة الأبطال الذين ذاعت شهرتهم هناك وأصبحوا قوة كبيرة بالمغرب ولم يكن أولاد الملك وحدهم الممثلين للعداوة الصريحة للملك الجديد لأن هذا لسوء حظه وجد له أعداء في كل مكان، فظل حياته متخوفا من ثورة خصومه عليه ، وكانوا معظم أهل البلاد .

وزادت المؤامرات عن توقعات لذريق فاضطر لفرض ضرائب جديدة كان بعضها نوعا من العقاب المباشر لبعض أعدائه ومبغضيه ، وكان بعضها الآخر نوعا فرضته الضرورة ، وحاجات أمن الدولة ، ولم يزده ذلك إلا ضعفا ، لأن

هذه لم تكن الوسيلة المألوفة لكسب الناس ومحبتهم ، فمالت عنه القلوب ولم يعد لأحد فيه رجاء .

جاء الخطر من الجنوب على يد العرب بعد أن نبهتهم صيحات الأمراء المظلومين .

وكان العرب بدورهم يبحثون لجيشهم عن مجال للعمل خارج حدود بلاد المغرب ، وحسبهم أمراء القوط المطرودون من بلادهم كأنهم كانوا جيش الاحتياط القادر على فرض السلام فى الأرض ، أو كأنهم كانوا من وسائل الأمن فى عالم غريب لا يستقر على حال ، فأذاعوا بعد انتصار المسلمين أنهم ما جاءوا إلا لإعادة الحق إلى أصحابه ، وأنهم سيعودون بعد تحقيق هذه الغاية .

ولم يذهب المسلمون إلى أسبانيا إلا ليقيموا عدالة الإسلام بين من لا يعرفونه ، وإلا لينشروا هذا الدين بين الإسبان وغيرهم ، وكان منهم وثنيون انتهز المسلمون فيهم الفرصة ليحولوا انتباهم إلى الدين الجديد ، ثم ذهبوا إلى هناك أيضا لأغراض أخرى كثيرة تشير إليها هجرة البربر جماعات من شمالى أفريقيـة .

جاء القوط إذا لأسبانيا كأجانب يبحثون عن مناطق النفوذ والسيطرة ، ويبحثون عن وطن يكونون فيه ملوكا ، وعاشوا هناك يرهقون أهل البلاد بما يطالبونهم به من تكاليف حكومة ضخمة تريد أن تستقصى كل شىء ، وحكموا أسبانيا كأجانب بعيدين عن روح شعبها وآماله ، ولم يغيروا شيئا من أحوال المجتمع حولهم ، إذ لم تكن لهم رسالة تلفت الناس إلى الأمل فى التقدم على أيديهم ، وكانوا أرستقراطيين ، فعاش حولهم الناس يشاهدون امتيازات

الارستقراطية السياسية المتطرفة، ويعطون من وجودهم وجهودهم وأموالهم ما يحقق مطالب الحياة الرفيعة التى ينعم بها الحاكمون، وما يغطي النفقات الباهظة للحكام المترفين، وكانوا يعملون فى دائرة واسعة، تجمعهم مع جماعات أخرى متميزة فى النظرة الاجتماعية وفى الامتيازات المالية، ولا تشارك فى تحمل الأعباء مع الكادحين المرهقين الذين فرض عليهم الجهد الدائب الشاق كمزارعين فى حالة وسط بين الرق والحرية، أو كمزارعين كالرقيق يتصلون بالأرض اتصالا مباشرا، كأنهم كانوا من آلاتها، أو من وسائل العمل فيها، أو كعبيد بقدر ما تفيد الكلمة من المعنى الصريح.

ومعنى هذا أن حكومة القوط — كما تشير إلى ذلك مصادر التاريخ — كانت ملكية مستبدة، ينفرد فيها الملك برأيه، ويقضى فى شئون البلاد كما يشاء، وتحرسه هيئة عسكرية قوية مؤيدة من الأشراف والإقطاعيين، وبقية الناس حولهم كانوا يعيشون من العمل فى خدمة هؤلاء جميعا.

وأما الدين فكان له سلطان دائما، ويضعف هذا السلطان أحيانا ويقوى أحيانا أخرى، ولكنه كان موجودا دائما ومستغلا دائما، ولدين القوط والأسبان قصة ذات فصول طويلة، يتحدث عنها تاريخ بلادهم، ولعل من أهم المعالم فى اتجاهات القوط الدينية أنهم كان يتعصبون لمذهبهم ويضطهدون مخالفيهم، كدليل من جانبهم على الولاء المطلق لمذهب القساوسة الجهلة المتحمسين بالضلال لوجهات نظرهم الضيقة، والمتعصبين لكل شيء يتصل بالعقيدة، وكان يبدو أحيانا ما يشبه التحالف بين سلطة الدين وسلطة الدولة مما جعل القساوسة يكتبون عن القوط كتابات طيبة تدل على رضاهم عنهم ومحبتهم لهم، ولا يدل هذا

الرضا وهذه المحبة على شدة إيمان الملوك القوط بالمسيحية ولا على تعلق قلوبهم بها ، وإنما يدل على نوع من التفاهم بين السلطتين ، لاقتسام خير البلاد بينهما ، ومع ظلم القوط واستبدادهم بمن حولهم فإن القساوسة لم يحاولوا الوقوف مع الضعفاء من مواطنيهم ، ولم يتقدموا بما يساعد على تغيير الأحوال السيئة التي كانت تسود المجتمع كله .

وظهر بالزمن عجز القوط عن تقديم الأسس الاجتماعية التي تساعد على تنظيم المجتمع الأسباني الشامل لنماذج كثيرة من الناس ، وجيشهم نفسه كان يتكون من جماعات كبيرة من الفقراء والعبيد ، وهؤلاء كانوا من أسباب ضعفه وهزيمته لأنهم عاشوا ساخطين لا يهمهم تغيير حاكم بحاكم ، ولم يكن عندهم ولاء إلا لمصالحهم المباشرة .

وكل هذه إشارات إلى جوانب الضعف التي ساعدت على نجاح عمليات الفتح الإسلامية ، ولكنها لا تعني في النهاية أن دولة القوط في أسبانيا كانت أقل مستوى من غيرها في مقاومة التقدم العربي ومعاندته ، وقد كان هذا التقدم مثيراً جعل الناس يلتمسون له أسبابا مقبولة وغير مقبولة ، وقد كان له ولاشك أسباب كثيرة مقبولة ، ولكنها كلها لا تفيد معنى الانهيار الشامل والتام في كل مكان من مسرح العمل بين القوط والعرب .

(ب) الأنـــــدلس

يظهر من كتابات المؤرخين ما يشبه المبالغة المقصودة عند الحديث عن فتح العرب لأسبانيا ، وتشير أقوالهم إلى أن ذات الفتح لم يكن عملا عاديا ضمن النشاط العسكرى البشرى عبر الزمن ، وإنما كان محاولة غير جادة أيدتها العناية الخفية ، أو خدمها الحظ المفاجىء ، وكان النجاح فيها أعظم عمـل بطولى قام به العرب فى تاريخهم العسكرى كله .

ويقال إنه إذا كان للعرب أمجاد عسكرية أخرى — وقـد كانت لهم أمجاد عسكرية كثيرة — فإنها لم تـكن فى مثل الأهمية البالغة لفتح جزء كبير من أوربا الغربية ، ولا يشك بعض الـكتاب فى أن حملة العرب على أسبانيا كانت أشبه بمغامرة كان التوفيق فيها أملا بعيداً ، أو كانت محاولة فريدة صادفتها السلامة ، ويقال إن الرغبة فى فتح أسبانيا ربما عرضت للعرب فى فترة من حياتهم وهم بشمالى إفريقية ، ولـكنها بدت لهم مجرد أحلام لا سبيل للوصول إليها ، أو أمنيات بعيدة كانوا لا يملـكون وسائل تحقيقها، لأن الصعوبات أمامهم كانت كبيرة وخطيرة، ومن هذه الصعوبات :

١ — رغم أن المحاربين من العرب والبربر أتوا من الشمال الإفريقى القريب من أسبانيا إلا أنهم جميعاً كانوا يمثلون الدولة الإسـلامية التى كانت رئاستها فى بلاد الشام البعيدة ، وكانوا محتاجين لعونها ، وليس سهلا على حكومة المسلمين المركزية فى البلاد النائية أن تدفع بالنجدات العسكرية إلى ميدان الحرب

عند الحاجة إليها ، وقـد أدى ذلك إلى القول الشائع بأن المسلمين وصلوا بفتح أسبانيا إلى أقصى نقطة انطلاق يمـكن الوصول إليها بإمكانيات العمل العسكرى المتاحة لرجال الحرب فى العصور الوسطى ، وجعل الناس يلتمسون للعرب عذراً فى هزيمتهم أمام الفرنج بجنوب فرنسا سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م .

٢ — الخروج عن مجال البيئة العادية المألوفة لجماعات عربية وبربرية محاربة تجيد حرب الصحراء وحدها ، وتميل للقتال فيها ، وكأن دخول أوربا عرض على العرب والبربر ملابسات جديدة لا تشابه فى شىء ما عرفوه فى حياتهم المألوفة ، ومعنى هذا أنهم كانوا معرضين لتجربة جديدة كانت عوامل الفشل أقرب إليهم فيها من عوامل النجاح .

٣ — تعرض أرض أوربية وشعب أوربى لأول مرة للسيطرة العربية المباشرة وكانت الأرض الأوربية والشعوب الأوربية تعيش حتى هذا الفتح بعيداً عن مجال السيطرة العربية ، أو كانت تستعصى على هذه السيطرة دائماً(١) .

٤ — تهديد المسيحية الـكاثوليـكية فى منطقة قريبة عن مركز الرئاسة المباشرة لهذه الديانة أو لهذا المذهب الدينى المعارض بشدة للاسلام منذ ظهوره ، وكانت هذه أول محاولة من المسلمين للهجوم على بلاد كاثوليـكية فى أوربا المسيحية ، وكان يمكن أن تتحد البلاد الـكاثوليـكية ضد المسلمين .

٥ — الاتصال المباشر فى معارك حاسمة بجيش أوربى فى مجال أوربى لأول مرة فى حياة المسلمين العسكرية .

---

(١) عجزت جهود العرب القوية ومحاولاتهم المتـكررة عن فتح القسطنطينية رغم قوتهم وحماسهم وإصرارهم على هذا الفتح .

٦ — كان القوط يملكون الوسائل الكافية لهزيمة العرب ولم يكونوا أقل مقاومة لهم من غيرهم ، وكانوا يستطيعون الانتصار عليهم لولا عوامل الخيانة من داخل صفوفهم نفسها .

٧ — كانت أوربا بلاداً مسيحية تعارض الإسلام وترفضه ، وبدخوله فيها كان يمكن أن تزيد عندها الرغبة فى دفعه ، أو محاولة حصره فى مناطق غير المناطق الأوربية .

أو غير ذلك مما يمكن إضافته من تصورات من يفهمون أن عمل العرب فى أسبانيا كان أشبه بمعجزة لا تتكرر كثيرا فى تاريخ الشعوب .

وقد يبدو لنا الآن أن فتح الأندلس لم يكن شيئاً غريباً ، أو لم يكن عملا فيه الكثير من جوانب الشذوذ غير العادية ، وإنما كان عملية على الطريق أخذت دورها بعد الفراغ من فتح شمالى إفريقية ، وكانت كذلك متوقعة بعد أن عاش العرب قريبا من أسبانيا وعرفوا الظروف التى كانت تحيط بشعبها.

وجاءت أولى المحاولات بإرسال جيش صغير ينحصر دوره فى عملية استطلاع ضرورية ثم تلا هذا الجيش جيش آخر يكون مقدمة للعمل الكبير ، ثم تأتيه الإمدادات بعد وصوله على طريقة العرب وأسلوبهم فى الفتح .

وهناك ما يكفى من الأدلة على أن فتح أسبانيا لم يكن مغامرة صادفها التوفيق ، ولم يخدم العرب فيها الحظ السعيد وحده ، وإنما كان عملية فتح منظمة استؤذن فيها خليفة المسلمين قبل الشروع فيها ، وسار فيها القواد منذ اللحظات الأولى سيرة من يريدون الفتح والاستقرار .

وليس من الضرورى أن نحاول الآن التعرف على الأسباب البعيدة أو القريبة

التى دعت العرب لفتح الأندلس ، وقد كانت هناك ولا شك أسباب مباشرة دفعت إلى التفكير فى هذا العمل العظيم ، ولكن القضية الكبرى ظلت محتفظة بكل معالمها ، وهى أن فتح الأندلس لا يختلف كثيراً عن فتح أية منطقة تقدم إليها العرب فى الأسباب والدوافع الأولى ، وقد يكون لكل محاولة أسباب فريدة مباشرة ، وأهداف أساسية مقصودة ، ولكن القول بأن فتح الأندلس كان فى الدرجة الأولى عملية متممة لفتح شمالى إفريقية لا يزال قولا مقبولا بلا حاجة إلى إجهاد الفكر فى استنباط الأسباب القريبة أو البعيدة لهذا العمل العربى الناجح ، وقد يكون ضرورياً إذا أردنا معرفة الأسباب المهمة لفتح الأندلس أن نعرف الأسباب الرئيسية لعمليات الفتح العربى كله[1] ، وأن نعرف فلسفة الفتوحات الإسلامية جملة وتفصيلا ، ولماذا نتوقف للبحث الطويل فى الأسباب الدافعة لفتح الأندلس وحدها ، وكأنه كان ظاهرة غريبة ليس لها مثال سابق ، أو كأن أوربا كانت بلاداً مغلقة أمام العرب[2] فى جميع الأوقات أو كانت منطقة اتفق على عدم الحرب فيها .

وأسبانيا التى انتصر فيها العرب كانت تتصل اتصالا مباشراً بمنطقة شمالى إفريقية التى أصبحت بلاداً عربية إسلامية ، والمنطقتان كانتا متقاربتين لا يفصلهما إلا مضيق لم يمنع من قوة التأثير المتبادلة بين الجانبين ، وكان

---

(١) مع وضوح الفرق الكبير بين أسباب هذه العمليات فى زمن الخلفاء الراشدين وبين أسبابها فى زمن الأمويين بعدهم .

(٢) ربما أصبحت أوربا مغلقة أمام العرب من الشرق بعد فشل محاولاتهم لفتحها من هذا الجانب وأما فتح الأندلس فقد كان أولى المحاولات العربية من الغرب .

للأحداث هناك آثارها العميقة فى الشمال والجنوب ، واستمر التأثير المتبادل قويا طوال مراحل التاريخ القديم والحديث على السواء .

هناك بالتأكيد أسباب[1] أساسية معروفة لحركة الفتوحات الإسلامية جملة ، ليس هناك مجال الحديث عنها ويمكن مراجعتها فى كتب التاريخ وغير كتب التاريخ عند المسلمين وغير المسلمين.

وهناك أسباب أخرى لها صلة خاصة بعملية الفتح التى نتحدث عنها ، ولهذه هنا أهميتها وضرورتها .

ويقال عادة إن الأسباب المباشرة لفتح أسبانيا كانت أموراً إنسانية خالصة لوجه الشرف وحده ، ومنها الاستجابة الكريمة لاستغاثة حاكم بيزنطى لولاية سبتة القريبة من أسبانيا ، وكان الملك قد اعتدى على شرف أسرته ، فطلب نجدة العرب فأنجدوه ، وكانوا سراعاً إلى حاجته ، كأنها كانت من أولى إهتماماتهم ، وقد يبدو هذا التعليل مقبولا من زاوية التفكير العربى وحده ، وهو تفكير يجعل الشرف وأمور العرض فوق الحياة ذاتها ، ولكن الغريب أن يكون لهذه الأمور مثل هذا الخطر والأهمية عند الروم البيزنطيين أيضاً ، فيفضل الحاكم أن يكون عوناً لشعب أجنبي على احتلال أرض حلفائه ليرد على

(١) بدت الصورة فى العصور الوسطى فى شكل صراع عالمى بين العرب و بين أعدائهم وكان أعداؤهم لا يتركونهم بعد انتصارهم يعيشون فى البلاد المفتوحة بسلام وهم بدورهم كانوا يرفضون أن يعيشوا فى خوف ، وتدفعهم شجاعتهم إلى مقابلة العدو فى بلده ، وفى كل الأحوال لم يكن العرب لعنة عامة أو أعداء لكل الناس أو لكل الأديان.

جريمة أخلاقيه ارتكبها أحد الملوك مع ابنته ، وقد كان مقبولا أن يتآمر هذا الوالى على حياة الملك وحده لا أن يساهم فى تغيير مصير البلاد كلها .

ويقال كذلك إن العرب دعوا لدخول أسبانيا ليردّوا العرش الأسبانى لأصحابه الشرعيين بعد أن أغتصبه أحد المتسلطين الأقوياء ، وإن العرب تحمسوا لهذه القضية البعيدة على حياتهم ومصـالحتهم ، وكأنهم كانوا مجرد جماعات مرتزقة تعمل لحساب الآخرين ، أو كانوا جماعات قوية تعرض جهودها العسكرية على الراغبين فيها ، أو كانوا شرطة نجدة جاءت لتقيم العدل فى بلاد يغتصب فيها الحق علناً .

وليس إلى الشك سبيل فى وجود مثل هذه المظالم فى أسبانيا ، ولـكن عملية الفتح الإسلامية لأسبانيا لا يمكن أن تكون هذه المظالم من أسبابها الأولى أو المباشرة ، ولا يمكن أن تكون رداً على هذه المظالم وحدها لأنها كانت تتمة لعمليات سبقتها ، بمعنى أن فتح مصر جاء بعد فتح الشام ، وفتح شمال إفريقية جاء بعد فتح مصر ، وجاء دور الأندلس بعد فتح شمالى إفريقية ، وكلها كانت عمليات متممة لعمليات سابقة ، وكان من أمل العرب أن يفتحوا أوربا بعد فتح أسبانيا[1] لولا أن حالت دون ذلك هزيمتهم فى موقعة بلاط الشهداء ١١٤هـ/٧٣٢م ؛ ويظهر أيضاً أن من أهم الدوافع المباشرة لعمليات الفتح أن الخطوات التالية كانت تتبع الخطوات السابقة بالضرورة بمعنى أن العرب لم يجدوا استقرارا فى مكان إلا بفتح ما يليه ؛ ولم

---

(١) يقال إن موسى بن نصير فاتح الأندلس كان يأمل فى فتح أوربا كلها ، ولم يصرفه عن تحقيق هذا الأمل إلا استدعاؤه لعاصمة الخلافة بالشام.

يستطيعوا الرجوع عن أعمال ابتدأوا فيها ، وكان لا بد أن تبلغ هذه الأعمال غايتها .

ومن المعروف أن الخليفة عمر بن الخطاب — أيام الفتوحات الإسلامية الأولى — كان يرجو أن يقف العمل العسكرى عند حدود معروفة ؛ وكان لا يود أن تقطع المسافات الطويلة أو البحر المخيف الصلة بينه و بين جيشه ؛ ولم يكن العرب باحثين عن المتاعب فى كل مكان ؛ ولا كانوا أعداء لكل للشعوب .

وصحيح أنهم خضعوا لفترة طويلة من حياتهم لفكرة سيطرت عليهم، وشغلتهم بالعمل من أجل دعوتهم ، وكانوا يأملون فى عرض هذه الدعوة على كل الناس ولكن ذلك لا يعنى أنهم اعتبروا العالم الخارج عن دار الإسلام عدواً لهم يأتى دوره على طريق الحرب فى النهاية ؛ وإنما رأوه فى حاجة لدينهم ؛ وكانوا قد التزموا بنشر هذا الدين والإعلان عنه ؛ وجاء الدين بحركة انبعاث حضارية قوية كان لا بد أن تصل إلى مداها .

* * *

أحس حاكم إفريقية موسى بن نصير ٨٦ — ٩٣هـ / ٧٠٥ - ٧١٢م أنه جاء لينهى قصة الصراع الطويل الدائر بين العرب والبربر فى شمال إفريقية ؛ ووجد أمامه دوراً كبيراً كان عليه أن يؤديه قبل أن يأمل فى الوصول إلى هذه الغاية ؛ وقد جاء متأخراً على طريق من سبقوه لتحقيق الهدف المشترك ، فوجدهم قد مهدوا الطريق قبله ؛ ونجحوا فى إثارة اهتمام الناس بالدين ، وفى إقناع بعضهم بقبوله ، ووجدهم أيضاً قد سمحوا للبربر بالمشاركة فى العمل فى صفوف الجيش، ويذكر التاريخ

حسان بن النعمان ٧٣ – ٨٥هـ / ٦٩٢ــ٧٠٤م كقائد عربى ملك قلوب البربر بطريق السلم والتعاون والمصالحة ، ولكن جهوده لم تكن كافية للنجاح الأخير فى كسب القضية ، ونجاحه لم يكن يعنى عدم الحاجة إلى تضحيات أخرى جديدة يقدمها من جاء بعده فى مناطق كان بعدها معطلا لوصول أقدام العرب الفاتحين إليها ؛ وليس مهما الآن أن نشير إلى أعظم الأبطال فى دورات الحروب الطويلة التى شغلت العرب والبربر جميعاً ، وعرضتهم للمخاطر المؤسية التى يتحدث عنها المؤرخون باهتمام ، لأن التقدم الذى حققه العرب فى الشمال الإفريقى لم يكن من عمل قائد واحد أو جماعة واحدة .

وقد جاء النصر الأخير للعرب هناك بعد جهود بذلتها جماعات آمنت بقضية الإسلام والمسلمين؛ وكان الإيمان قويا عند كل من شاركوا فى حركات الفتوحات طول تاريخ الحروب فى هذه البلاد البعيدة ، ولا شك أن مجهولين كثيرين قد ساهموا فى قرب المسلمين من هدفهم ؛ ولم تذكرهم كتب التاريخ لأنهم عملوا للدعوة من وراء ستار حجبهم عن الرؤية القوية المباشرة .

ومهما يكن من أمر فقد كان موسى بن نصير واحداً من أعظم أبطال المسلمين بشمال إفريقية ، لأنه لعب دوراً حاسماً أخضع به جماعات لم تكن تعلم عن الإسلام والمسلمين شيئاً ، وأقنع به جماعات أخرى كانت مترددة لا تعرف الطريق إلى تحقيق الأمل ؛ وفرض موسى بن نصير رأيه على جماعات ثالثة كانت ترفض قبول دعوة الإسلام انتظاراً لفرص العمل الجديدة .

وفى كل الأحوال كان هذا القائد عنيفاً فى حربه ، ومسرفاً فى غضبه فأشاع

فى المغرب كله رجة كبيرة كان لها أهميتها فى إفهام القبـــائل البربرية حقيقة الأوضاع الجديدة القائمة بالمنطقة كلها؛ وكان يريد الضغط على البربر ليصبح قبولهم للاسلام ضرورة من ضرورات حياتهم ، ومكسباً من مكاسب دنياهم، ووزع قواده وجنده فى مناطق المغرب ففرضوا هناك سلطته بالقوة ،وخافه الناس فأسرعوا للعمل معه وكثر جيشه ، واستطاع به أن يحقق أعظم الانتصارات فى تاريخ العرب بالمغرب .

ولم يكن البربر معه مجرد جنود يخضعون لأوامر القيادات الأخرى ، بل كانت فيهم قيادات بربرية كان وجودها أجمل نتائج التطور الطبيعى لعلاقة العرب بالبربر ، وترأست القيادات البربرية على جنـود من العرب والبربر ، وقامت بأعظم عملية عسكرية فى المغرب وهى فتح الأندلس .

واشتهر من قادة البربر هناك مونوسة[1] وطريف بن مالك وطارق بن زياد ، وأصبح هذا الأخير عند نهاية العمل العسكرى فى شمالى لأفريقية حاكما لمدينة طنجة الواقعة فى الشمال عند ساحل البحر القريب من أسبانيا وكان مستقلا بقيادة جيش المسلمين فى المغرب الأقصى ، وهو جيش كان يتقد حماسة عندما تزداد فرص العمل أمامه ، ووجد الفرصة فى الإغارة على حاكم سبتة[2] البيزنطى، ولما لم تنجح المحاولات العسكرية فى إخضاع هذه المدينة لجأ حاكمها طارق بن زياد إلى السلام

---

(١) قائد بربرى أصبح زعيما للمسلمين المستقرين فى أقصى الشمال من شبه الجزيرة ت ١١٢هـ/٧٣١م.

(٢) كانت « سبتة » تكون مع طنجة مدينة واحدة ذات شطرين على المجاز إلى الأندلس .

والتعاون مع الحاكم الرومى الذى كان يعرف أهداف العرب وأغراضهم من ولايته ؛ فأراد أن يبعدهم عنها بإغرائهم على العمل فى الطرف المقابل من البحر ، وكان قبل ظهور العرب حوله حليفا أو كالحليف لحكام أسبانيا القوط ، ثم ضعفت بينه وبينهم أسباب المودة بسبب ثورة قتل فيها حليفه الملك غطيشة وتشرد أولاده من بعده ، ولما حاول الاعتراض على الثوار هزموه فرجع إلى سواحل إفريقية يطلب قوات العرب الفتية ، وكشف للعرب أخبار الأسبان ؛ وأحوال بلادهم .

وبدا أمام العرب ناصحاً لهم وحريصاً عليهم ، وجاءهم بأولاد الملك القتيل يدعونهم لدخول أسبانيا ، ويهونون لهم شأن حكامها .

ولم يكن العرب بحاجة لمن يثير فيهم الحماس للعمل الجديد لأنهم بدورهم كانوا راغبين فى فتح أسبانيا ، وكانوا يرون هذا الفتح مرحلة تالية لفتح شمالى إفريقية ، أو كانوا يرونه عملا يأتى دوره على الطريق لنصرة الدين وخدمة النفس والدولة ، وشجعتهم القوة ووسائل الحرب المتاحة للتقدم نحو الميدان الجديد ، أو كان عليهم أن يبحثوا عن ميدان آخر يشغلون فيه الاعداد الكبيرة من جيش المسلمين ، وكان هذا جيشاً تكثر فيه الجماعات المؤمنة الآملة فى العمل لخير الدين ومكاسب الدنيا .

واتصل المتمردون على حكام القوط فى أسبانيا المسيحية بالعرب ، وكانوا بدورهم راغبين فى العمل وراء البحر لإتمام فتح مناطق المغرب كلها ، وكان قائدهم حريصاً على عرض خبراته وتجاربه القيادية فى ميدان جديد ، فاستشار الخليفة فنصحه باختبار المنطقة قبل أن يغامر بالعمل فيها ، ولم يرده أن ينقل جيشه

إلى بلاد لا يدرى عنها شيئاً ، واختار موسى أن يختبر نية الملتمسين لنصره ، فأرسل اثنين من قواده البربر ليستطلعا ظروف المنطقة قبل اتخاذها مسرحا للمعارك القادمة ، وكان أحدهما طريف بن مالك ٩٢هـ/ ٧١٠م وانحصر دوره فى القيام بحركة سريعة أكسبته وأصحابه بعض المغانم المالية ، وعرف شيئاً عن أحوال البلاد وأهلها ، وكان الآخر طارق بن زياد ٩٢هـ/ ٧١١م وتشير أعماله إلى أثر الإسلام فى تكوينه كقائد مسلم قام بدور من أعظم الأدوار فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، وما كان يمكن له أن يكون بدون الإسلام إلا قائداً صغيراً فى حروب البربر الداخلية ، وليس فى المصادر التاريخية ما يشير إلى حقيقة التعليمات الصادرة إليه من قيادة المسلمين فى شمال إفريقية ، وهل ذهب إلى أسبانيا قائداً لحملة استطلاعية فاضطره عدوه للدخول فى معارك لم يرسل من أجلها ؟ ثم بعد نجاحه لم يفهم معنى للوقوف متعطلا أمام نتائج النصر الأولى ؟ ، ولم يجد أيضاً خيراً فى الرجوع عن عدوه بعد الانتصار عليه ؟ وكان مرسلا ليقاتل بغرض الفتح على طريقة العرب التقليدية فى فتوحاتهم المعروفة ، وكان العرب يرسلون عادة جيوشاً صغيرة تقوم بدور الرواد أو بعمل القادمين الأول ، ثم يوالونها بالإمدادات العسكرية عند الحاجة إليها ، وحدث ذلك عند فتح مصر والشام والعراق ، وغيرها من البلاد التى حارب العرب على أرضها .

هذا ونميل إلى القول بأن موسى بن نصير عرف كيف يختار قائداً يملؤه الحماس والأمل والإيمان ، ويمثل شعباً كبيراً يريد أن يأخذ دوره فى صنع الأحداث بالمغرب ، وترك لهذا القائد حرية العمل حسب ظروف الحرب وملابساتها ، فغلبت على طارق وعلى جنوده الرغبة القوية فى العمل المثير ، فساروا مندفعين

بالحماس نحو الغاية ، وشجعهم النجاح على التمادى فى الحرب حتى نهايتها .

وبرهن طارق مع جنوده الإثنى عشر ألفاً[1] على قوة الإيمان والإخلاص للعقيدة الجديدة وعبروا البحر إلى أوربا بسفن لم تكن عربية[2] أو بربرية ، وإنما كانت مساهمة إيجابية من حاكم سبتة البيزنطى الغاضب على ملوك أسبانيا[3] .

وأثار طارق عزيمة أصحابه بإحراق السفن التى أوصلتهم إلى الشاطىء الآخر ، وطلب منهم الثبات والتضحية ، وبين لهم أهم الأخطار من حولهم ، وخيرهم بين الموت أو النصر ، فالعدو أمامهم والبحر من ورائهم ، ولا أمل لهم فى الحياة بغير النصر ، ولا عذر لهم فى الهزيمة إلا بالموت ، أو هكذا يقال

---

(١) لم يكن فى هذا الجيش غير خمسمائة من العرب ومعنى هذا أن البربر احتملوا وحدهم فى أسبانيا صدمة الفتح الأولى .

(٢) ربما كان المسلمون قادرين على المساهمة بالسفن لنقل جيوشهم لأسبانيا لأن صناعة السفن كانت قد تطورت عندهم فى تونس وغيرها ، ولكنهم — فيما يبدو — أرادوا المبالغة فى التخفى باستعمال سفن تعود الناس على رؤيتها ، ليأمنوا بذلك المفاجآت الخطرة فى البحر .

(٣) ليس من المعروف متى بدأت صلات الود بين العرب وبين هذا الحاكم الرومى ، وهل كانت سنة ٨٩هـ/٧٠٩م عند ماوصل موسى بن نصير إلى إقليم طنجة ، أو كانت قبل ذلك منذ ولاية عقبة بن نافع على المغرب سنة ٦٢ — ٦٤هـ/٦٨١ — ٦٨٤م ؟ .

فى بعض روايات التاريخ الإسلامى المعروفة [1] ،

واشترك مع جنوده فى معركة كانت أهم المعارك[2] التى دارت على أرض الأندلس كلها ، واعتبر النصر فيها تقريراً وواضحاً عن مستقبل البلاد ومصيرها، وملأت نتيجة المعركة قلب القائد بالأمل ، وجاءته نجدات عسكرية زادت فى قوته ، ودلت على حقيقة الدور الذى جاء من أجله ، فأسرع يتتبع عدوه فى صميم بلاده ، وفى وسط أرضه ، حتى أحس موسى بن نصير أن زحف طارق بن زياد وراء ملوك القوط يوشك أن يعرض جيشه للخطر الداهم ، لأن خطوط مواصلاته كانت غير آمنة وتتعرض لتهديد المعاقل القوطية المبعثرة على امتداد المسافات والمناطق التى لم تخضع للمسلمين .

وعبر موسى بن نصير إلى الأندلس ٩٣هـ/٧١٢م وخالف الطريق الذى سار فيه من سبقوه وتم له النصر بعد جهود فاقت جهود طارق ومن معه ، وأصبح بجهده ومركزه بطل الأندلس وسيدها ، ويقال إن نجاحه أثار فى نفسه

---

(١) إذا كان هذا ليس من عمل القيادات الرشيدة التى تحرص على إبقاء خطوط الرجعة عند الهزيمة – كما يقال الآن – فان طارق بن زياد لم يكن – فيما يبدو – راغباً إلا فى النصر أو الموت ، ولم يكن بقاء السفن ضروريا فى الحالتين ، وقد نعجز اليوم عن إدراك حقيقة الملابسات التى كانت تحيط بقائد غريب مع جماعات قليلة فى بلاد بعيدة ، وربما وجد فى حرق السفن اندفاعة حماسية مطلوبة تقطع الأمل فى النجاة على المترددين من أصحابه .

(٢) كانت المعركة فى سهل شريش قرب نهر وادى لكة قريبا من جبل طارق ٢٨ رمضان ٩٢هـ ١٩ يوليو ٧١١م وكانت بسالة البربر وخيانة فرسان القوط للملك رهم من أهم عوامل نصر المسلمين فيها .

الأمل فى الذهاب إلى الشام عن طريق أوربا ، وسواء أكانت هذه مجرد فكرة طارئة أملتها ظروف الانتصارات السريعة ، أو أنها كانت خطة قديمة وضعها موسى بن نصير أمامه كهدف كبير تدور حوله الجهود ، فإن كثيراً من الصعوبات عارضت ميوله ورغباته ووقفت فى طريق أحلامه ، وكان اعتراض جيشه على السير معه وراء حدود أسبانيا أهم هذه الصعوبات وأخطرها ، وربما كان جيشاً قد أرهقته الرحلة الطويلة من شمالى إفريقية إلى شمالى الأندلس ، أو كان قد بدأ ينفعل بعوامل الخلاف والمنازعات العارضة[1] ، أو أراد هذا الجيش أن يعيش بعد التعب فى نعيم الأندلس ليأخذ نصيبه من الدنيا .

وانتصر المسلمون فى أسبانيا ، ونقلوا بعد انتصارهم الإسلام إلى تلك الجهات البعيدة فى غربى أوربا ، ومع جهلهم بها فقد وجدوا من يدلهم عليها ، وتابعوا جهادهم فيها خطوة خطوة وسط شعب أوربى يتأثر بحضارة الرومان ويعيش على أسلوب حياتهم .

ورجع موسى بن نصير فى موكب نصره إلى الشام فى ذى الحجة ٩٥ هـ يناير ٧١٥ م بعد أن أدار فى جهد متصل دام أكثر من ثلاث[2] سنوات أعظم عمليات الفتوح العربية ، وبعد أن فرض سلطان المسلمين على شبه جزيرة أيبريا ، ولم يترك فيها بلداً يعرفه إلا رفع عليه راية الإسلام ، وضمه إلى بلاد المسلمين. ومات الخليفة الوليد بن عبد الملك بعد وصوله بأيام ، وجاء بعده أخوه سليمان ،

---

(١) تروى مصادر التاريخ أن أحد مستشارى موسى بن نصير اعترض عليه قائلا : « أتريد أن تخرج بجيشك من الدنيا ! » .

(٢) يقال فى تاريخ أسبانيا المسيحية إن العرب فتحوها فى أربع سنوات ولم يستطع الأسبان إخراجهم منها إلا بعد ثمانية قرون .

وفى خلافته كانت نهاية موسى بن نصير الغامضة ، وكان هذا الغموض بسبب ميل الدولة الخاضعة للتأثيرات الحزبية والعصبية إلى تغيير أبطال المسرح السياسى والعسكرى بها .

ثم صارت الخلافة بعد سليمان إلى عمر بن عبد العزيز ٩٩ هـ/٧١٧ م فانشغل عن شئون الأندلس بإصلاحات عاجلة كان يصحح بها أخطاء أسرته الأموية نفسها ، وبعد أن استقامت له الأمور من حوله اختار للأندلس واليا اسمه السمح بن مالك ، بعد أن قامت أمامه التجربة على صلاحه وتقواه .

ومن الغريب أن يقال إن هذا الخليفة المؤمن كان يفكر فى استدعاء المسلمين جميعا من بلاد الأندلس ، وكأنهم كانوا مجرد فرقة عسكرية يمكن إرجاعهم بأمر أمير المؤمنين ، وربما كان يشعر بغربتهم البعيدة ، أو ببعـــد المستقبل عن جانبهم ، فرغب فى إرجاعهم ، وإخلاء البلاد منهم ، وهو الحريص عـلى نشر الإسلام ، وتوسيع رقعته ، ولم يكونوا قد تورطوا بعد فى الخصومات القبلية ، ولما تقع بينهم حروب أهلية ، ولم يكن عدوهم قد تطورت حاله معهم إلى أن يصبح خطرا عليهم كما كان فى مستقبل أيامهم ، وفى تعليل هـذه الرغبة الطارئة على الخليفة ، أو هذا الفهم الجديد عند رئاسة الدولة يقال: إن بلاد الأندلس كانت جزءا متمما لإفريقية ، وكانت الخلافة لاتباشر شيئاً من الإشراف عليها ، وربما كانت جزءا مجهولا من بلاد المسلمين لا يعرف عنه الخليفة إلا مايصله من شكاوى أهله من الوافدين عليهم من الشام ، وربما بالغ الناس فى الشكوى فظن الخليفة أن البلاد لاتساوى الاهتمام بها ، أو أن المسلمين فيها كانوا يعيشون تحت الأخطار ، ومعنى هذا أن ميل الخليفة إلى استدعاء المسلمين من الأندلس كان نوعا من عدم الفهم

لحياة الناس هناك ، أو كان نوعا من التردد بسبب إيثاره سلامة المسلمين ،أو كأنها كانت محاولة انهزامية سريعة من جانب الدولة الأموية التى فتحت البلاد فى عهدها ، ويبدو أن حال المسلمين فى هذه المرحلة المبكرة من زمن الفتح كانت غير مستقرة ، لأنهم لم يصبحوا بعد مواطنين يألفون ماحولهم أو يأملون فى الحياة الدائمة المستقرة وكانوا فى حاجة لوقت طويل يبحثون فيه عن وسائل الاستقرار فى الوطن الجديد ، وكانوا أيضا غرباء تحيط بهم المعالم غير المألوفة من كل جانب ، وقد مضى على أيام الفتح خمس سنوات لم تكن كافية للاستقرار الهادىء فى هذه المناطق الغريبة وسط شعب غريب .

ومعنى هذا أن ميل الخليفة فى إرجاع المسلمين جملة من أرض الأندلس — إذا تأكد هذا الميل — لم يكن لعوامل انهزامية وإنما كان نوعا من الواقعية أو الخوف من تعرض المسلمين للمخاطر المهلكة ، وكان هذا الخليفة يرى أن دولة الأمويين قد جرت بعيدا فى عمليات الفتح العسكرية حتى وصلت إلى مناطق لا يمكنها الحياة فيها ، ووقفت جيوشها أخيرا جامدة فى أماكن لا يبدو فيها للمسلمين أمل ، فحاول ضغط الأعداد المجندة فى جيش الدولة ، وأراح الناس من عناء الحروب فى المناطق القاصية ، وأراد توفير الجهود للإصلاحات الداخلية وحدها .

وكان عند والى الخلافية أمل فى أن يكون للمسلمين أثر دينى وحضارى فى المجتمع الأوربى فى المستقبل ، وكان يرى حقيقة الحياة التى يعيشونها هناك ، فشرح للخليفة أحوال المسلمين بالأندلس وأبعد عنه الشكوك فى سلامتهم ، ونصحه بتركهم بعد أن استقرت أحوالهم ؛ وأسرعت الحوادث من حول هذا الوالى فمات الخليفة واستشهد هو فى سنة ١٠٢ هـ / ٧٢١ م .

ورجعت سياسة الدولة بعد أيام الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى ما كانت عليه أيام من سبقوه ، وكأن خلافته كانت ومضة ضوئية قصير المدى ، أو كانت حركة إصلاحية سريعة على الطريق ، وبحث من جاءوا بعده عن المال عند رعاياهم الآملين فى الحياة على طريقة الإسلام ، وتعارضت المصالح بين الحكام والناس ، وعصفت العصبيات بمركز الدولة وبولاياتها ، وانشغل الناس بثاراتهم القبلية عن النظر فى شئون حياتهم ، وعن الشعور بالخطر الممثل فى جماعات القوط الهاربين أمام العرب أيام الفتح إلى أماكن فى الشمال مجهولة ، وكانوا فيها صامدين ينتظرون تحقيق الآمال ، ويرجون فى صبر خلاص الأرض والبلاد من الوجود العربى كله ، وربما بدت آمالهم فى طرد العرب نوعا من الأوهام الغريبة عند تماسك المسلمين واتحادهم ، ولكن هؤلاء ساهموا بخلافاتهم فى عون هذه الجماعات الصامدة على استعادة قوتها ، وتمكين أقدامها فى نواحيها البعيدة ولم يكونوا ليخدموها بأكثر من الحروب والفتن فيما بينهم ، وإذا لم تكن هذه الجماعات القوطية وغير القوطية قادرة فى عهدها المبكر على حرب المسلمين لضعفها وانعزالها فالمسلمون أنفسهم كانوا يكفونها جهد الحرب والصدام بتنازعهم الأمور فيما بينهم .

وقفت هذه الجماعات بعيدا عن المسلمين تراقب أحوالهم ، وتسرع إلى استغلال مواطن الضعف فيهم ، ولم يكن هناك شىء يخدم أغراضها أعظم من ترك العرب والبربر مساحات واسعة من الأرض خالية لتندفع إليها فى حركة انفعالية تعلن بها استرداد الأرض وتحريرها ، ويظهر أن خسارة المسلمين بسبب خصوماتهم كانت فادحة لأنهم فقدوا — كما يقال — ربع الأرض التى فتحوها

بجهد أبطالهم ومجاهديهم ، وأخذها منهم عدوهم غنيمة سهلة لم يتكلف فى سبيلها جهدا أو تضحية .

وفى إفريقية كان الخوارج يجتهدون اجتهادا عظيما فى إثارة البربر ضد العرب ويدفعونهم للثورة عليهم ، وثار ميسرة البربرى ، وأخذ المغرب الأقصى كله من ولاة الأمويين ، وتوالت هزائم العرب أمام الخوارج سنة ١٢٣ هـ/ ٧٤٠ م ، ١٢٤ هـ/ ٧٤١ م ، وهرب جيش العرب إلى سبتة بزعامة بلج ابن بشر القشيرى [1] ، وخاف الخليفة هشام بن عبد الملك من إفلات إفريقية والأندلس من سلطة الأمويين فبعث جيشا يدافع عن مصير العرب هناك ، وانتصر هذا الجيش سنة ١٢٥ هـ/ ٧٤٣ م ، ثم مات هشام ، وحاول الأمويون بعده أن يستردوا الأرض الضائعة بإفريقية ، وأن يقيموا نفوذهم المنهار بها ، ولكن وسائلهم كانت غير كافية للنجاح ، وكانت عملياتهم غير مؤيدة بعوامل القوة اللازمة فضاعت محاولاتهم فى غمرات الفتن ، وتنازع العرب والبربر على السيادة فى إفريقية ، فأقام العرب لأنفسهم دولة فى القيروان وما حولها باسم الفهريين وأنصارهم ، ورد عليهم البربر بالاستقلال فى أماكن أخرى كانت بعيدة عن نفوذ العرب وسلطانهم .

وترددت أصداء الفتن والثورات بين المغرب والأندلس ، وإذا كان البربر قد أحسوا فى يوم بحاجتهم إلى ثقافة العرب ودينهم فإنهم بعد الإسلام قد شاركوا فى فتح الأندلس ، وكان دورهم فى هذا الفتح عظيما ، فحرصوا على أن يكون

---

(١) كان صاحب هذا الاسم واحدا من رجال العرب الذين لعبوا دورا خطيرا فى تاريخ الأندلس بعد إفلاته بجيشه من حصار بربر إفريقية سنة ١٢٣ هـ/ ٧٤١ م .

لهم حقوق الفاتحين فى بلاد كسبوها بالجهد والتضحية ، وبالغوا فى الإعلان عن أهمية دورهم ، وطلبوا عليه أعظم الجزاء ، وكأنما لم يجد العرب والبربر بعد فتح الأندلس لهم عملا إلا أن يتنازعوا بالحرب والكلام بعد أن كانوا يتنافسون فى الجهاد وخدمة المسلمين بالعمل وحده ، وتكاثرت أعداد البربر بالأندلس ، وأصابهم غرور المنتصرين ، وخافهم العرب فقسوا عليهم ، ولم يشعروا بأنهم كانوا معا على طريق الدعوة الدينية الواحدة .

وقبل اشتداد الفتن بإفريقية كان المسلمون قد هزموا فى بلاط الشهداء سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م بسبب الخصومات وعدم الاتفاق على الوحدة ، وزادت الحساسية بين العرب والبربر ، وتعمق الخلاف وانتشر الدعاة بعد ثورة إفريقية ليحرضوا الناس على الخروج على النظام والحكام ، واستغاث عرب الأندلس بعشرة آلاف منهم كانوا قد فروا [1] من إفريقية بعد حصار طويل فرضه عليهم البربر وكادت حياتهم تضيع بسببه ، وتحالف العرب على هزيمة البربر وأسرفوا فى تعقبهم بالأذى حتى رجع بعضهم إلى إفريقية تاركا البلاد للفوضى والخراب وانكمش المسلمون فى مناطق الجنوب ، وانفسح المجال لحركة الأسبان القادمين من الشمال ، وكان يدفعهم الإيمان بالنصر الأخير على كل المسلمين بالأندلس .

وكان تحالف العرب معا أشبه باجتماع الأضداد ، لأنهم كانوا طائفتين إحداهما شامية دخلت الأندلس مع بلج بن بشر سنة ١٢٣ هـ/٧٤١ م ، والثانية بلدية دخلت زمن الفتح مع موسى بن نصير ورسخت جذورها فى نواحى البلاد ولعب الجميع بعد نصرهم على البربر بنار الخصومة القبلية والعصبية الحزبية ، ودارت الحرب بينهم وانهزم البلديون فتركوا أمور السياسة والقيادة ، وتفرقوا فى البلاد

---

(١) بقيادة بلج بن بشر المشار إليه قبل ذلك

ليشاركوا الناس فى الحياة والعمل ، وكسب الشاميون السيادة على الأندلس بحق القوة وحدها ثم صرفهم عنها أبو الخطار الكلبى سنة ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م (١) وكان يحاول أن يقيم فى الأندلس نوعا من توازن القوى بين المتخاصمين من العرب، وغير العرب فوزع الشاميين فى مناطق متباعدة ، وفرقهم جماعات صغيرة لم تجد أملها إلا فى جمع الثروة والبعد عن منازعات السياسة ، وأخيرا جاء دور يوسف الفهرى ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م آخر الولاة العرب بالأندلس قبل قيام الدولة الأموية هناك ولم يكن أقل من غيره إغراقا فى العصبية ، فامتدت شرور الحرب حتى شملت الأقاليم والسكان جميعا ، وربما كان الإحساس بالخطر أحد الأسباب فى استجابة الناس السريعة لدعوة عبد الرحمن الداخل مؤسس دولة العرب بالأندلس سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م .

---

(١) جاء أبو الخطار الكلبى واليا على الأندلس بأمر حنظلة بن صفوان عامل الخليفة هشام بن عبد الملك على المغرب .

ج ــ الجهاد فى الشمال

يمكن بالمراجعة السريعة لكتب التاريخ العربية وغير العربية الاطلاع على الخطوات الناجحة للعمل العربى العسكرى فى الأندلس بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد ، وكانا قائدين سادت بينهما روح الانسجام والفهم المتبادل ، وشملتهما الرغبة فى العمل المشترك لصالح الهدف الإسلامى العام[1] ، وليس من المهم أو المفيد الآن أن تتبع بالوصف مراحل القتال بين المسلمين والقوط من مدينة إلى أخرى ، ومن حصين إلى مابعده وكانت الحرب بينهم حرب حصون ومدن منعزلة ، تحاصرها الجيوش المهاجمة ، ثم يأتى الاتفاق بين المتحاربين بعد الحصار أو النصر على التسليم بالقبول أو الهزيمة .

وليس من المعروف فى تاريخ فتح الأندلس وقوع معارك تشبه المعارك الحاسمة الواردة فى تاريخ العرب ، والتى كان يتقرر بعدها مصير البلاد كلها ،وحتى المعركة الأولى التى كان أبطالها جماعات بربرية سارت خلف قائدها البربرى طارق بن زياد ــ حتى هذه المعركة الكبيرة لم تكن معركة حاسمة ، يمكن الوقوف عندها لتقييم دورها وأثرها فى سير المعارك فى المستقبل ، وقد انهزم فيها جيش القوط الكبير تحت ضغط قوة البربر وشجاعتهم، وبأثر الخيانة من داخل

---

(١) بدأ فتح المسلمين لأسبانيا فى رجب ٩٢ هـ / ٧١٠ م ، وانتهى فى أوائل سنة ٩٦هـ/٧١٤م.

صفوته نفسها ، ومع هزيمة القوط فيها فإنهم استطاعوا أن يقفوا أمام المسلمين بعدها وقفات طويلة كلفتهم الكثير من التضحيات .

وصحيح أن هذه المعركة المهمة فى التاريخ ملأت قلوب المسلمين بالأمل وأوضحت لهم فرصة العمل المناسبة للنصر فى المستقبل ، ولكنهم ظلوا بعدها معرضين للخطر ، وكان يمكن أن تضيع جهودهم لولا النجدات السريعة التى قدمها موسى بن نصير قائد المسلمين فى المغرب ؟ وبعد مجىء موسى بن نصير للأندلس كانت لاتزال أمامه أعمال كثيرة ، ومنها حروب هائلة خاضها مع جيشه ، وشاركه فيها طارق بن زياد ، ومن معه من العرب والبربر، ثم جاءت النهاية أخيرا فى صالح المسلمين بعد معارك عنيفة كانت ضمن سلسلة طويلة من حركات الصراع بين المسلمين والقوط الحاكمين فى أسبانيا .

ولا شك أن تتبع مراحل العمل العسكرى فى مثل ظروف الحرب فى أسبانيا يجعلنا فى حالة من إعادة النفس بصورة لا تتفق مع الغرض من دراسة التاريخ فى هذا الكتاب ، وهى كما قلنا لم تكن من نوع الحروب المألوفة التى يقف فيها جيشان يباعد بينهما العداء والخصومة ، ويريدان حسم الخلاف بينهما بالقوة، وإنما كانت حربا بين جيش عربى يتقدم لفتح البلاد ، وتقابله حصون مبعثرة فى طول البلاد وعرضها لتعطل سيره ، وربما لم تختلف الحرب فى بلد عنها فى بلد آخر إلا فى طول مدة الحصار ، بسبب المقاومة اليائسة ، أو بسبب العناد والأمل فى النجاح، وتكررت المواقف الرتيبة حتى ليصبح الحديث عنها حديثا مكررا لا فائدة فيه .

ونشير إلى أن أهم المحاولات التالية للفتح والاستقرار بالأندلس كانت محاولة جريئة تقدم فيها العرب نحو جنوبى فرنسا ، بقيادة واليهم الشهير عبد الرحمن

الغافقى سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م ، ويوصف عبد الرحمن الغافقى فى التاريخ بأنه كان أعظم قائد عسكرى عرفه الأندلس فى عصر الولاة ، وكان بطلا ذا همة ومقدرة، وفى محاولة جديدة كانت تشكل مظهرا آخر من مظاهر الصراع بين المسلمين وأعدائهم فى أوربا ، أو كانت طورا جديدا من أطوار الحرب الساخنة بين الإسلام والمسيحية هناك — فى هذه المحاولة قاد عبد الرحمن الغافقى جيشا كبيرا من العرب والبربر نحو جنوبى فرنسا ، وصادف هذا الجيش فى مسيرته نحو الشمال ضروبا من الحظوظ السعيدة ، وحصل رجاله على مغانم كثيرة من البلاد الواقعة فى طريق السير نحو أرض المعركة وكانوا — كما يقال — حريصين على المكاسب المالية ، وغير مدركين لمخاطر المستقبل بما يكفى حتى لحفظ الحياة ، أو لسلامة الوجود فى ذاته .

وعرف عدوهم نقطة الضعف عندهم، فاستغلها، وانتصر عليهم فى معركة تعرف فى كتب العرب بموقعة « بلاط الشهداء [1] » ولم تتحدث عنها المصادر العربية بما يكفى لتوضيح الأسباب ، ومعرفة النتائج ، وكأن الكتاب العرب كانوا فى حالة من الأسف المتعب بعد الهزيمة الكبيرة لجيش الأبطال ، وإذا كانت أخبار هذه الحرب قليلة فى كتب العرب ، ولا تتناسب المعلومات عنها مع أهميتها فى تاريخ المسلمين ، فهناك الكثير عنها فى غير كتب العرب ويبالغ المتحمسون لها عند الحديث عنها بذكر عبارات جذابة تصور انتصار قوات المسيحية الناشئة لأول مرة

---

(١) على مسافة نحو عشرين كيلومترا من مدينة بوانييه ، أو نحو سبعين كيلومترا جنوبى باريس ، وتعنى كلمة « بلاط » القصر أو الحصن أو الطريق الممهد، وربما كان مكان الموقعة قرب قصر أو حصن له علاقة بحوادث الحرب.

بصورة خطيرة على جيش الإسلام فى أوربا ، ويقال دائما : إن انتصار جيش « شارل مارتل » الفرنجى على العرب فى معركة بلاط الشهداء كان انتصارا حاسما أوقف تقدم المسلمين عند حدود أسبانيا الشمالية ، أو حصر الوجود العربى داخل أسبانيا وحدها ، وشجع المحاولات المسيحية الجادة على العمل ضد التقدم الإسلامى نحو الشمال ، وزاد فى الجرأة على الحكام العرب ، ودفع إلى العمل الدائب ضدهم ، وأفهم غير المسلمين أنه يمكن هزيمة المسلمين وجيشهم ، وكانت تدور حول هذا الجيش دعايات عريضة ، وهالة من الغموض السرى ، وكثرت التساؤلات حول أسباب انتصاره فى كل مكان .

ويقول الأوربيون : إن هذه المعركة كانت حدا فاصلا ، وضح نقطة التراجع الإسلامية ، وبعدها لم يكرر العرب المحاولة بقصد الفتح والاستقرار في جنوبى فرنسا ، لأن المنطقة كلها أصبحت في حماية قوات تعمل لحساب المسيحية وأنصارها ، أو هكذا يقولون فى حماس وقوة ، وربما كانت الحقيقة فى الوسط بين إعلان الأوربيين وصمت المسلمين ، بمعنى أن هذه الهزيمة كانت هزيمة كبيرة لأول مرة فى تاريخ المسلمين فى الأندلس ، وأنها أعطت القوى المعارضة لهم شحنات من الأمل ، وقوت فيهم العزيمة ، وظلت تؤثر فى حياتهم وحياة المسلمين معهم فترات طويلة ، وظلت تحكم العلاقات بين الجانبين طول التاريخ ، ولكن هزيمة المسلمين فى بلاط الشهداء لم تمنعهم من تكرار محاولات الإغارة على البلاد الواقعة خلف حدود الأندلس الشمالية ، ولم يتملكهم الخوف بسبب هذه الهزيمة [1] ، لأنهم تعرضوا فى حياتهم لهزائم كبيرة كان منها هزائمهم

---

(١) يظهر أن الخوف لم يتملك العرب بقدر ما تملك أعداءهم المنتصرين عليهم، فلم يتعقبوهم فى بلادهم، وكأنهم فوجئوا بالنصر عليهم لأول مرة، وكان أملهم فى هذا النصر بعيدا.

المتكررة فى شمالى إفريقية ، وقد فقدوا فى بعض هذه الهزائم كل المكاسب التى حصلوا عليها بعد جهد طويل ، ومع ذلك كانوا يندفعون من جديد فى محاولات قوية أخرى يبدو فيها التصميم والعزم ، ولم يترددوا فى التضحية ليصلوا إلى الهدف ، حتى كسبوا النصر فى النهاية بعد محاولات طويلة وشاقة ، وكذلك كان حالهم بعد هزيمتهم فى جنوبى فرنسا ، فقد تكررت محاولاتهم ، وظهر عندهم الأمل فى تخطى الصعوبات ، وإذا كانت محاولاتهم لم تبلغ مستوى أعمالهم الكبيرة السابقة فإن هزيمتهم فى بلاط الشهداء لم تكن وحدها السبب فى ضعف جهودهم وهوان أمرهم ، وإنما كان السبب أنهم كانوا يتأثرون فى داخل بلادهم نفسها بعوامل الخلاف وعدم الاستقرار ، وقد يظهر هنا صواب القول الشائع بأن العرب وصلوا فى جنوبى فرنسا إلى آخر مراحل الانطلاق الممكنة ، ووقفت جهودهم بسبب عجزهم عن التغلب على الصعوبات التى ما كانت لتوقف تقدمهم وهم أقوياء .

وهناك محاولات للتعليلات المقبولة ، وغير المقبولة ، لهزيمة جيش المسلمين فى جنوبى فرنسا ، وكأنها كانت شيئا غير وارد فى تاريخ الأعمال العسكرية العربية ، والمعروف أن هذه المحاولة العربية غير الناجحة لم تهدف أساسا إلى تقرير مصير الإقليم الذى التقى فيه العرب بالفرنج ، وقد تكون من نوع النزاعات المتكررة بين القوتين ، وكان العرب يحاولون إظهار وجودهم كقوة كبيرة فى المنطقة ، ويحاولون الكشف عن إمكانيات القوى المحيطة بهم ، وكانت هذه القوى قد تنبهت إلى خطرهم ، فجمعت أمرها ، وصادفت فيهم ضعفا ، فنجحت فى الانتصار عليهم بعد عشرين سنة من فتح أسبانيا .

ويبدو صحيحا أن الأندلس بعد أن أصبحت إمارة أموية مستقلة سنة

١٣٨ هـ/٧٥٥ م كان حكامها راغبين فى البقاء فى داخل حدودهم المعروفة لحرصهم على الاستقرار الداخلى ، وعلى توفير الفرصة الكافية لتنظيم الإدارة وتثبيت السلطة فى إمارتهم ، ولم تكن عندهم رغبة فى التوسعات الخارجية ، حتى عندما كانوا قوة كبيرة أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ / ٩١٢ — ٩٦١ م ، وأيام الحاجب المنصور ٣٦٦ — ٣٩٣ هـ / ٩٧٦ — ١٠٠٢ م ، لم تشغلهم الرغبة فى نشر الإسلام خارج حدود بلادهم ، فلم يتورطوا فى حروب حاسمة وفاصلة ، لهذا الغرض أو غيره ، وانصرفوا للدفاع عن حدودهم وحدها وعن نظامهم الداخلى وحده ، وصحيح أنهم لم يكونوا دائما فى موقف الدفاع من أعدائهم ، ولكن محاولاتهم الهجومية لم تكن للفتح ، أو ما يشبه الفتح ، وإنما كانوا يقصدون من الحرب نوعا من الرد على إلحاح عدوهم بالضغط عليهم ، وكانوا يدركون فوات الفرصة بعد أن تنبه خصومهم الأوربيون لخطرهم ، وبعد أن أصبحت قضية المسيحية فى أوربا قضية تشغل المجتمعات كلها وتشغل الدول معها ، وبدت الحرب بين الجانبين كأنها كانت للانتقام من أجل إساءة سابقة ، أو للحراسة والدفع بعد أن وضحت دوائر الاختصاص أمامهم .

وكان لدولة الأمويين أعداء أقوياء منذ إعلان قيامها ، والعباسيون كانوا أخطر هؤلاء الأعداء ، لأنهم كانوا يمثلون عند الناس قوة الإسلام ووحدته ، وربما كانوا ينتظرون الوقت المناسب الذى تضعف فيه سلطة الأمويين بالأندلس ليعيدوا وحدة بلاد المسلمين من جديد .

ويقال إن نوعا من التحالف السرى كان قائما بين العباسيين والفرنج ضد الأمويين بالأندلس ، وإذا لم تكن معالم هذا التحالف واضحة فى التاريخ فإن هناك

شبهات حوله ، وربما كان العباسيون يشجعون الدعايات القائلة بوجود مثل هذا التحالف ، كنوع من الإرهاب السياسى لخصومهم من بنى أمية ، وربما كان الأمويون بدورهم يميلون إلى تصديق مثل هذا التآمر الدولى عليهم ، ويريدون إقناع رعاياهم المسلمين بعذرهم فى عدم نقل الكفاح الدينى إلى خارج الحدود الجغرافية للأندلس؛ ومن الصحيح فى كل الأحوال أنهم كانوا مشغولين بالفتن والاضطرابات فى داخل بلادهم ذاتها ، وكانوا يعلمون مدى الكفاءة العسكرية عند خصومهم الفرنج المسيحيين ، بعد أن تكررت الحروب بين القوتين ، ولم تثبت تفوق إحداهما على الأخرى .

ويطول الحديث عن مدى صحة القول بأن هزيمة بلاط الشهداء كانت هزيمة حاسمة ضد العرب والمسلمين، ويبالغ الفرنج فى الدعاية لأعمالهم على أنها كانت حدثا عظيما من أحداث البطولات العالمية ، ويقولون إن المنتصرين على المسلمين كانوا مواطنين شرفاء حافظوا على تراب الوطن وعلى شرفه ، رغم أن البلاد كلها لم تكن قد أصبحت بعد وطنا يتعصب له أحد ؛ وأن المحاربين ضد العرب هناك كانوا أجانب بالمنطقة ، ولا يزيدون على العرب إلا فى ميل عواطف السكان لهم ، وكان بعض السكان يشاركونهم فى المشاعر الدينية، ولم يستقر بعضهم الآخر على دين من الأديان وربما كان منهم من لا يفهم معنى للوطن والوطنية .

واعتبر « شارل مارتل » البطل القومى المدافع عن عقيدة الشعب الفرنجى ، وكان هذا شيئا جديدا لم يقابل العرب مثله فى شمالى إفريقية ، أو قبل ذلك فى الأندلس ، لأن المقاتلين ضد العرب فى شمالى إفريقية كانوا جماعات أو طوائف تقاتل للدفاع عن الوطن أو عن نظام حياتها ، ولا تجمعها دولة واحدة

أو نظام سياسى واحد ، ورغم حرب البربر الطويلة ، ورغم عنادهم وتشددهم ؛ فقد كان العرب يأملون فى هزيمتهم لعدم وحدتهم السياسية أو العسكرية أو الدينية ؛ وأما القوط فكانوا يقاتلون دفاعا عن نظامهم ودولتهم ، ولم يثيروا الدعايات القائلة بأن حربهم كانت من أجل الدفاع عن المسيحية والمسيحيين .

واختلفت التعليقات التاريخية حول نتائج هذه المعركة الكبيرة ، ويقال إن انتصار الفرنج على العرب أنقذ حضارة أوربا المسيحية[1] من خطر الضياع على أيدى العرب وحلفائهم، ووضع حدا لسيادة الشرق على الغرب؛ ونقرأ الآن التعليقات الساخرة مثل القول بأن انتصار العرب كان يعنى أن يسمع سكان أوربا اليوم الأذان من فوق المآذن فى باريس ولندن ، وأن يتلى القرآن ويفسر فى جامعات انجلترا الشهيرة ، وكأن المحاربين الفرنج كانوا يعملون أساسا لصالح المسيحية والمسيحين .

والعجيب أن يكونوا كذلك مع أنهم ربما كانوا أبعد عن المسيحية من أعدائهم المسلمين ، وكان قائدهم شارل مارتل نصف وثنى يدافع عن ملكه ، وعن استقرار[2] هذا الملك ، قبل أن يعنى شيئا فى صالح المسيحية كدين ، ولم يقم ملكه على الحضارة المسيحية ، لأنها لم تكن قائمة أو معروفة حتى تقام

---

(١) وربما قصد بذلك أيضا أن دخول العرب إلى قلب أوربا كان يعنى تعطيل تطور الحضارة الأوربية الحديثة .

(٢) كسب شارل مارتل بانتصاره على العرب الاستقرار لدولته ، وضمن بقاء الحكم فى أسرته ، قبل أن يكسب النصر للمسيحية ، وقبل أن يعطى هذه العقيدة نوعا من القوة والتفوق على الإسلام .

عليها الدول أو حتى يهتدى بها الملوك والقـواد ، أو حتى تتعرض للضياع عـلى أيدى العرب المنهزمين .

كان شارل مارتل نفسه أميا لا يعرف شيئا عن الحضارة ومقوماتها ، ولم تـكن أوربا بلادا متحضرة بالمعنى المفهوم عن الحضارة عند النـاس ، وكان البعد شاسعا بين حياة المسلمين فى الشرق وحياة الأوربيين فى الغرب ، والمسلمون وحـدهم كانوا بنـاة الحضارة فى العصور الوسطى ، وكانوا يملـكون الدولة المتقدمة والنظم الحضارية المتطورة ، وهـذا يدل على أن هذه الحرب لم تـكن صراعا بين الإسلام والمسيحية بقـدر ما كانت صراعا بين الحضارة والهمجية ، أو بين النظام والفوضى .

لم يـكن انتصار الفرنج عـلى المسلمين يعنى إذا تغلب المسيحية عـلى الإسلام ؛ ولا تغلب حضارة عـلى حضارة أخرى ، ولا عبقرية عسكرية عـلى جهد عسكرى مضاد ، وإنما كان يعنى وصول حركة الفتوحات العربية إلى المدى البعيد الذى كان يجب أن تقف عنده ، أو إلى نقطة الضعف الأخيرة بعـد الشباب والعنفوان ، ولقد اتسع مجال العمل أمام المسلمين، وساروا بعيدا عن مراكز انطلاقهم الأولى ، ومالوا برغبة إلى المـكاسب المـالية وحدها ، وحرصوا على السلامة ، فـكان لابـد أن ينهزموا أمام قوات فتية ناشئة تطلب النصر وتسعى إليه .

لقد ضاع من المسلمين الهدف الأساسى الذى جاءوا من أجله ، وهو رجاء الخير للدين والجماعة ، والعمل لتحقيق هذا الرجاء بالوسائل السـليمة ، وأصبحوا من ذوى الرغبات المهزوزة فى الانتصار على العدو ، أو كانوا يستهينون بعدوهم ،

وهو يحس بالخطر على وجوده منهم ، وزاد ضعفهم بانصرافهم إلى المنازعات فيما بينهم ، وكانت الخلافات بين العرب والعرب وبين العرب والبربر حول كل شيء ، وإلى أبعد مدى .

وعاش العرب فى أسبانيا بعد معركة بلاط الشهداء قرونا طويلة ، وأسسوا فيها دولة إسلامية ازدهرت فيها الحياة ، ونمت فيها الحضـــــارة وتطورت ، وكانت بالتأكيد الدولة الأولى فى أوربا كلها ، ومعنى هذا أن هذه الموقعة الشهيرة لم تقرر مصير العرب فى أسبانيا ، ولم تقرر مصير الإسلام فى أى مكان فيها[1] .

ثم هل يمكن القول بأن المحاربين المسلمين المندفعين إلى الشمال لم يكونوا مجاهدين بالمعنى المفهوم من كلمة الجهاد عند المسلمين ؟ بعد ما يقال بأنهم كانوا أشد حرصا على المكاسب المالية من الشهادة أو النصر ؟

وهل كان ذلك يعنى عدم وضوح الهدف أمامهم ؟ أو كان يعنى تعاميهم وتغافلهم عن إدراك قوة عدوهم ؟ أو كان غرور المنتصرين قد أصابهم فأنساهم التنبه لكوامن الأخطار ؟

وإذا أجيب عن هذه التساؤلات بالإيجاب فإن قوة الفرنج إذا لم يكن

---

(١) لم تكن موقعة بلاط الشهداء أساسا لتقرير مصير أسبانيا ، ولا أى مكان آخر بأوربا ، وإن وضحت الحدود التى كان يجب أن تقف عندها حركة المد العربى ، وإن أبعدت ما بعد أسبانيا من أوربا عن سيطرة العرب ونفوذهم .

ضرورياً أن تكون قوة كبيرة[1] حتى تهزم المسلمين هناك، لأنهم من جانبهم كانوا يجمعون فى صفوفهم عناصر انهزامية كانت تتساءل عن أسباب التوغل فى الشمال بعد الحصول على أسلاب المدن والحصون والكنائس ، وربما كانت تشك فى أن للحرب فوائد غير هذه الأسلاب ؛ وإذا كان هذا صحيحا فإن جيش المسلمين لم يتقدم بعد حدود الأندلس الشمالية ليقوم بأعمال المجاهدين الراغبين فى الحرب لخدمة قضية كبيرة كانت تشغلهم قبل الحصول على المغانم والأسلاب وإنما جاء ليقوم بما يشبه الدورات العسكرية التى كانت تتكرر بعد ذلك بين الجانبين بقصد فتح مجالات للعمل العسكرى كطريق إلى الاسترزاق المشروع ، وربما كان الهدف من ذلك مجرد الإشارة إلى اليقظة العسكرية والوجود القوى بالمنطقة ولا شىء غيره .

ويقول المؤرخون إن عدد هذا الجيش كان كبيرا ، وإن قوته كانت ظاهرة ، ولكنه — كما يبدو — لم يكن مدركا لأهمية المعركة التى جاء من أجلها ، ولم يكن مأمولا أن يقدم عصر الولاة جيشاً قويا يفتح مساحات جديدة فى المناطق الشمالية لحساب المسلمين ؛ لأن المجتمع الأندلسى كله لم تكن قد تحددت له الأهداف الواضحة التى كان يجب أن يعمل من أجلها ، ولم يكن يعرف نظاما مقبولا لاختيار الزعيم فيه ؛ ولم تكن مشكلات الخصومة بين عناصره القوية قد أخذت طريقها إلى الحل السليم .

لقد كان يمكن أن تكون لهذه المعركة أهمية مشابهة لمعركة طارق بن

---

(١) كانت قوة الفرنج التى حاربت العرب تأخذ طريقها نحو زعامة المسيحية .

زياد الأولى ، ولـكن طارق بن زياد كان مدركا لخطورة عمله ، وكان يريد أن يكتب لنفسه ولقومه تاريخا مجيدا فى نصر العقيـدة الجديدة ، وكان شـابا يمتلىء بالقوة والحماسة ، ويقود أعدادا قليلة من الناس تجمعهم به وحدة الأصـل والهدف ؛ فاستطاع أن يشحنهم بالانفعال والحماس ، وأن يفرض عليهم إرادته الصارمة ؛ ولم يـكن عبد الرحمن الغافقى أقـل من طارق بن زياد كفاءة أو مقدرة ، ولم يـكن أضـعف منه إيمانا أو رغبة فى نصر الدين والمسلمين ، وربما كان أكثر منه تجربة وخبرة ، وأعظم منه أمجادا عسكرية ولـكنه كان يقود جيشاً متضخماً يوحى تضخمه بالتعرض لأنواع الانفجارات المضرة ، وكان من جماعات مختلفـة ومتنازعة يغلب عليها روح الطمع وضعف الإرادة .

وجاءت هذه الحرب بين العـرب والفرنج فى قلب فرنسـا فى وقت كان شمالى أفريقية كله قد بدأ يعانى من أخطار الثـورات الخارجيـة والبربرية ضـد العرب هناك ، وكأن والى الأمويين بالأندلس كان يتحرك بعيدا عن الدولة فى وقت كان إشراف هذه الدولة غير مباشر على شئون المسلمين فى الغرب ، وربما لجأ هذا الوالى الشجاع لفتح مجال للعمل العسكرى خارج حدود أسبانيا مدفوعا بعوامل دينية مخلصة ، وكان معروفا بالإيمان والشجاعة وسـلامة النية ، أو لعله كان يعانى من خطر العصبيات القوية فى داخل ولايته فأراد أن يشغل النـاس بالجهاد فشغلوه بخلافاتهم الطويلة وهو فى الطريق إلى الحرب ، وهزموه فى واحدة من معارك التاريخ المشهورة .

د ـ المقـــاومة

لا ندرى ما إذا كان صحيحا على الإطلاق أن يقال إن جموع العرب والبربر المندفعة فى حماس إلى أسبانيا من شمالى إفريقية كانت حريصة على الاحتفاظ فى صميم النفس بأسباب الخلافات العصبية [1] والعنصرية المعروفة عنهم جميعاً بقدر ما كانت حريصة على النصر ذاته أو أن هذه مبالغات واردة بإلحاح فى كتب التاريخ لمجرد الإشارة إلى جوهر الأسباب التى ساعدت على تحطيم دولة العرب والمسلمين فى الأندلس أخيرا .

ويبدو واضحا أن القول بتحكم العصبيات فى نفوس العرب والبربر فيه الكثير من الاندفاع فى الحكم والجرأة على الحق والواقع ، لأن العرب فتحوا أسبانيا فى آخر القرن الأول الهجرى ، بعد أن مروا بتجارب عظيمة فى الحرب والسياسة والتنظيم والإدارة ، وبعد أن اتصلوا بعوالم جديدة من الجماعات البشرية التى كانت تختلف معهم فى الدين والمزاج والوطن والبيئة واللغة والتاريخ ، وبعد أن عرفوا جماعات أخرى كانت تتفق معهم فى بعض العناصر المشار إليها ، وأخذ العرب من الشعوب التى فتحوا بلادها ما وجدوه عندها

---

(١) لم تكن العصبيات غالبا مجرد رغبة مؤسفة فى الخلافات والتفكك الاجتماعى وإنما كانت شيئا يرون فيه معنى التماسك الأسرى والتكتل عند الخطر ، وكأنها كانت مصدر قوة للجماعات هناك .

من التجارب والثقافات وكانوا راغبين فى العلم والمعرفة ، وأعطوا بدورهم لهـذه الشعوب الدين واللغة والعروبة ؛ ولم يصبحوا بعد أولئك الأجلاف الذين عاشوا فى جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام مشغولين بالجرى وراء التعصب المسرف لمجد مزعوم أو لأمجاد موهومة .

لم يـكن العرب الذين شاركوا فى فتح أسبانيـا غير فاهمين لمعنى السـلام والاستقرار ، ولم يكونوا فى نفس مستوى جدودهم من التأخر قبل أن تظهر فيهم دعوة الإسلام ، وإنما كانوا قد تأثروا بهذه الدعوة وتعلموا معنى التسامح والأخوة والسلام والمحبة وغيرها من المعانى الـكريمة التى وضحها الاسلام ونصح بالتمسك بها ، ولهذا يجب أن نبحث عن أسباب أخرى غير أسبـاب العصبيات المتطرفة إذا أردنا أن نفهم معنى هـذه الخلافات الطويلة المتعبة التى شـغلت وقتـا طويلا من حياتهم وتاريخهم ، وأضاعت الـكثير من جهودهم وكفاءتهم .

وربما يـكون صحيحا أن نقول إن الصورة بدت كأن أحزابا قوية نشيطة كانت لها مصالح كبيرة معقدة قد تـكونت بالأندلس بعد وجود المسلمين فيها ، وفى بعض أوقات التاريخ كانت تظهر هناك جماعات صغيرة تدور حول زعامات محلية مفتتة تأبى الخضوع للسلطة ؛ ولـكن الظاهرة الـكبرى كانت وجود أحزاب ساعد على تـكوينها استيطان جماعات مختلفة فى مناطق بذاتها ، وكانت مصالحها تختلط وتتشابك مع مصالح جماعات أخرى من جميع الناس والقبائل .

لقد كان فتح الأندلس مفاجأة كبرى للسكان فرت بعده الزعامات الاقطاعية والاسرة المالـكة ، وبقيت أملاك هؤلاء جميعا مضافا إليه أملاك الـكنيسة وأملاك من ماتوا فى الحرب مع المسلمين ــ بقيت هذه كلها فى أيدى الفاتحين المسلمين ،

فظهرت مجالات واسعة للغنى والثروة وفرص النفوذ أمامهم، فاختلفوا على طرق العيش وتوزيع الثروة ووسائل التمليك، وفر بعض سكان أسبانيا بأثر الدعايات أو بسبب الخوف أو بتأثير سوء الظن إلى مناطق الشمال بحثا عن الأمن وبعدا عن الخضوع للحكم الأجنبي ، فوجد الفاتحون أمامهم فراغا كبيرا كان عليهم أن يشغلوه ، ولم يهتدوا سريعا لطريقة منظمة فى الإدارة تساعد على إقرار النظام واحترامه ، وتحدد العلاقات بين الأفراد والجماعات ، لأن البلاد كانت بعيدة عن مركز الدولة بالشام ، وظلت تسع سنوات تابعة لولاية إفريقية ، وكانت جزءا متمما لهذه الولاية .

وتشير مصادر التاريخ فى صراحة إلى أن المنازعات بين العرب والعرب وبين العرب والبربر كانت من العنف والقسوة بحيث جعلتهم يترقبون الأخطار من بينهم ، ويعيشون فى عناد مستمر حتى النهاية ، وفرضت عليهم الخصومات حالة من الحرب شبه الدائمة ، وساهمت بدورها مع الأعداء فى القضاء على أعداد كبيرة من الجانبين ، وصرفت الجهود فى أول أيام الفتح عن العمل لصالح الإقليم واستقراره ، وأعطت لخصوم المسلمين فرصة الحياة للعب بالعواطف المريضة فى كل المناسبات .

وأخطر أدوار الصراع كانت بين العرب والبربر ، وكان العرب يخافون من كثرة البربر، ويشعرون بنوع من الامتياز عليهم ، فكانوا قساة معهم، وقابل البربر العنف بالعنف ، وأساءوا بالعرب الظن ، وابتدأوا يوجدون لأنفسهم طريقا للحياة مع الأقوياء ، وساهمت أعدادهم المتزايدة فى إحساسهم بالقوة ، والقدرة على الثبات أمام الخصوم ، ودخلوا مع العرب فى حروب أهلية لم يكن لها من نتائج سوى زيادة الشكوك وتوقع الشر ، والبقاء على حالة من الخوف الدائم ، وازداد الحماس فى الجانبين للانتقام وتصفية الحساب .

ثم انهزم البربر وجاءت هزيمتهم ١٢٣ هـ / ٧٤١ م نوعا من الكوارث غير المتوقعة لقضية الإسلام والمسلمين فى شمالى الأندلس ، لأن جماعات كبيرة منهم تركت النواحى الشمالية التى كانوا يسكنونها ويكونون فيها حاجزا بشريا قويا يحمى بلاد المسلمين من مخاطر الهجوم الأجنبى ، وبحثوا عن أماكن للإقامة فى الجنوب ، ورجع بعضهم إلى مواطنهم الأولى فى إفريقية الشمالية ، وبقت مساحات واسعة (١) فى شمالى الأندلس خالية من التمثيل البشرى للجماعات الاسلامية ، ولم يكن عند العرب الأعداد الكافية لشغلها بسبب قلتهم ، واستيطانهم فى الأماكن الجنوبية الملائمة لطبيعتهم ، فتركت المناطق الشمالية للوافدين عليها من كل مكان ، وسكنتها جماعات من الرومان والقوط القائلين بأنها بلادهم ردت إليهم ، وكانوا يتخذون لأنفسهم مقرا عسكريا مناسبا فى مناطق أخرى بالشمال كانت باردة لا يستطيع العرب العيش فيها ، وفى مناطق جبلية كانوا يتخذونها حصونا طبيعية للعمل فى الظلام ، ولدفع خطر القادمين من العرب للحرب ، وتكونت نواة قوية لحركة الاسترداد الأسبانية ، وكانت هذه الحركة حلقة من حلقات رئيسية اعتبرت سلسلة طويلة للتاريخ القومى الأسبانى .

وبدأت حركة الاسترداد تنمو وتعمل فى صمت وإصرار ، وازداد نشاطها وفاعليتها وأثرها فى أول القرن الخامس الهجرى / ١١ م بعد ضعف خلافة الأمويين بالأندلس وبعد سيرها حثيثا إلى الموت لأسباب سنشير إليها فى خطوات الدارسة بالفصول التالية .

---

(١) بلغت مساحة المنطقة التى فرغها البربر ربع مساحة الأرض التى ملكها المسلمون أيام الفتح .

ويقال عادة فى تاريخ أسبانيا إن حركة الاسترداد بدأت منذ فتحها العرب سنة ٩٦ هـ/٧١٤ م ، وإن الناس لجئوا لنوع من الانكماش الاضطرارى أمام قوة العرب الغالبة ، حتى تأتى ساعة النصر عليهم ، وقد جاءت هذه الساعة الفاصلة أخيرا بعد أن امتد أمدها إلى مايقرب من ثمانية قرون ، ويقال أيضا إن الأسبان نظروا للفتح العربى على أنه حدث طارىء لا يلبث أن يزول ، وبزواله تنقضى من حياتهم فترة ليست من تاريخ بلادهم[1] ، وإن العناصر المعارضة فرت من أسبانيا لأنها لم تستطع قبول الحكم الإسلامى فيها ولم يكن من الممكن أن يقبلها حكم المسلمين كذلك ، وكانت لها إساءات عسكرية أو سياسية أو اجتماعية ، ولا يمكنها مع هذه الإساءات أن تعيش بين المسلمين ، أو كانت ذات ميول لا تساعد على الاستقرار المطلوب للحكم الجديد وكان هؤلاء جماعات[2] صغيرة ، حاربها العرب حتى بقى منها ثلاثون رجلا وعشر نساء ، وهؤلاء اعتصموا بحصن بعيد وراء الهضاب الوعرة عند أعلى جبال « كنتبرية » ارتفاعا ، وأبعدها إلى الشمال الغربى ، ولم يهتم العرب بهذا العدد القليل ، أو ربما رأوا وجوده شرا لابد منه بعد أن فشلت محاولاتهم لإخضاعه ، أو كانت محاولات إخضاعه لاتساوى عندهم الجهد الذى يبذل فى سبيلها .

---

(١) يدافع القائلون بهذا عن تاريخهم القومى ، ويأتى هذا الدفاع فى صورة من التعصب المعيب ، لأن هذا القول يخالف الحقائق الثابتة وهى أن فترة حياة المسلمين فى أسبانيا كانت جزءا عظيما من تاريخها ، ولا شك فى أهمية الدور الحضارى الذى قام به الأندلس فى حياة أوربا كلها فى العصور الوسطى .

(٢) كان عدد هذه الجماعات بضع مئات كما تقول الرواية ، وعاد بعضها إلى مواطنه الأولى ، بعد أن اطمأن إلى عدل العرب وتسامحهم ، ودخل بعضها الآخر مع غيره من أهل البلاد فى دين المسلمين .

ويتهم العرب عادة بالخطأ أو الإهمال فى عدم القضاء على العناصر المسيحية الهاربة إلى الشمال ، وتركها تعيش هناك بعيداً عن رقابتهم ، وربما كانت تشغلهم عنها محاولاتهم لحل مشكلة الزعامة بالمنطقة ، وما تبع هـذه المشكلة من خلافات ، أو لم يبدلهم فى وجود هذه الجماعة القليلة خطر يهددهم ، لأنها لم تكن تحمل راية المعارضة فى تاريخها المبكر ، ولم تكن تمثل جهاز الدولة ، ولا أصحاب النفوذ فيها ، ولم تكن رئاسة هاربة أو حكومة معلنة ، وإنما كانت مجرد جماعة صغيرة ، لم تقبل الخضوع لحكم المسلمين ، والتزمت بالصمت والسكون ، وبدأ تنظيمها السرى بعيداً عن رقابة النظام وأصحابه ، ثم انضمت لها أعداد أخرى ظهر خطرها أيام ضعف المسلمين وخلافاتهم ، وازداد تطورها وقوتها حتى تشكلت منها وحولها الإمارات المسيحية القوية بالشمال ، وقبل المسلمون هـذه الإمارات بالاضطرار بعد قيامها ، وبعد قدرتها على الدفاع عن نفسها ، ولم يجدوا معها حيلة ، وفرض الأمر الواقع وجود هذه القوة ، ولما لم تستطع دولة المسلمين أن تدخل معها فى حرب فاصلة تنهى بها قصة حياتها ، التزمت بالدفاع عن وجودها ولم تر التعرض للأخطار بعيداً عن مجال النفوذ المسموح به لها ، بعد أن خرجت على وحدة المسلمين العامة ، وكان يكفى لإثبات حسن نية الأمويين ، وقوة إيمانهم أمام المسلمين من رعاياهم أن يبقى الصراع بينهم وبين المسيحيين حيا ، وشفع لهم عند الناس أن إزالة الوجود السياسى للمسيحيين فى شمالى أسبانيا كان قد أصبح أمراً مستحيلا .

ويبدو أن العلاقات الحربية ، أو ما يشبه الصراع العنيف بين المسيحية والإسلام فى أسبانيا كان قد اتخذ صورة إيجابية فعالة كجزء خطير من تاريخ

العصور الوسطى منـذ القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميـلادى ، لأن حركة الاسترداد التى يتحدث عنهـا الأسبان طويلا كانت ضعيفة قبـل ذلك التاريخ ، وكان صوتها خافتا ، ولا يمكن رؤيتها فى مكانها البعيد على الحدود الشمالية .

وهذا يعنى أن العناصر القومية المتمردة ، والعناصر الدينية المتعصبة ، لم تقنع بالسلامة من أيدى المسلمين، وإنما ظلت تعارضهم بصبر وجلد، حتى أصبحت قوة كبيرة بالعمل والزمن ، ولم يهتم بها العرب والمسلمون ، لأن محاولاتها بدت بعيدة وغير مرئية ، ولم يشر لها الكتاب الذين لا يتتبعون إلا الظواهر البارزة من حوادث التاريخ ، وكان المؤرخون المسلمون يصرفون جهدا كبيراً من نشاطهم للأعمال الإسلامية وحدها ، وكأنما كانت حركات النشاط المسيحية عنـدهم مجرد مسائل خلفية لا يتوقع لها النجاح، وأما غيرهم من كتاب المسيحية وأغلبهم كانوا قساوسة متعصبين عاشوا فى المدن المسيحية أو الإسلامية فقد كتبوا بلغة العصر، وكانوا يعبرون عن وجهه القاتم ، واعتبروا خروج هذه الأعداد المسيحية القليلة على نظام المسلمين فى الأندلس مرحلة مهمة من تاريخ الحركة الوطنية الأسبانية، وقالوا إن فلول القوط الفارين أمام العرب منذ لحظات الصدام الأولى إلى المناطق الشمالية الباردة قد اختارت(١) هذه المناطق لأنها كانت بعيدة عن آمال العرب ورغباتهم ، وكانت باردة لا تصلح لسكناهم ، وقاحلة لا يتعلق بها شىء من أطماعهم ، ثم اجتمعت على الفارين أعداد كبيرة من القوط والرومان ، وغيرهم

---

(١) لقد لجأ الفارون لهذه المناطق القاسية بالاضطرار وحده لأنهم كانوا مطاردين من السلطة الراغبة فى تحطيم كل مظاهر المعارضة لها .

من القادمين بعوامل الانجذاب القومية أو الدينية ، وازداد عددهم وقوتهم ، وكانوا نواة لدولة صغيرة قامت فى وجه المسلمين فى شمالى الأندلس ، وأخذت تنقص من سلطانهم وتزيد فى متاعبهم وجاءتها الفرص المواتية عند حدوث حركات الصراع الداخلية بين الزعماء الذين تحكمت فيها العصبيات وأثارتهم الفتن .

وثبتت أقدام المعارضين لوجود العرب فى أسبانيا رغم عدم تفوقهم عليهم فى العدد أو الشجاعة ، أو قوة الإرادة والتصميم ، وكسبوا بعض النصر فبالغوا فى الدعايات حوله ، ونجحوا فى وضـــع أساس الدولة الإسبانية التى ناوأت المسلمين قرنا بعد قرن حتى أخرجتهم من البلاد كلها سنة ٨٩٨هـ/١٤٩٢ م .

ولا شك أن قيـام ممالك مسيحية فى الشمال أوجد بأسبانيا منـذ لحظات وجودها الأولى قوتين متعارضتين لا يمكن لهما أن ينسجما فى حياة واحـدة ، أو أن يعيشا معا فى سلام ، وظهرت إحداهما كقوة غالبة غريبة تبقى فى الوجود ما حفظت لها قوتها هذا الوجود، أو يسمح لها بالحياة ما دامت تستطيع أن تدفع ثمن هذه الحياة ، وظهرت الأخرى كقوة صغيرة مستبسلة ، ومفعمة بالحقـد والكراهية ، تذكر الوطن دائما وتغنى على أوتار الوطنية ، وتذكر الدين وتلعب بعواطف الناس من أجله .

ويقول العرب إن الفاتحين منهم لم يجدوا للمناطق الشمالية أهمية تدفع إلى العمل على فتحها ، لبعـــــدها وفقرها وبردها، وكانوا غرباء فى مناطق جديدة لا يعلمـون شيئا عن معالمها وطبيعتها ، وربما بدا لهم أن ما فتحوه كان كل أسبانيا ، ثم انشغلوا بتوطين أنفسهم وبتنظيم إداراتهم .

وكان العرب فى شمالى إفريقية حريصين على تطهير كل الأرض من جيوب

المقاومة ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك فى أسبانيا ، لأنهم أمنوا عدوهم بعد انهياره السريع أمامهم ، ولم يتبعوا طريق السلامة فى القضاء على كل محاولات المقاومة منذ اللحظات الأولى .

ومعنى هذا أن أعداء المسلمين وجدوا لهم مكانا للعمل فى شمالى الأندلس، وأن النزاع بين المسيحية والإسلام استمر هنالك لفترات طويلة ، وانتصرت المسيحية أخيراً بعد قصة كفاح مريرة وبعد أدوار مؤسية من العمل والحركة من الجانبين معاً .

وسعدت الإمارة المسيحية لفترات طويلة من حياتها بزعماء أقوياء منهم : « بلاى أو بلاجيوس » وكان أول رجال المقاومة والتحرير المسيحيين ، وحكم هذا الزعيم الأسبانى تسع عشرة سنة ، وتوفى ١٣٣ هـ / ٧٥١ م ، بعد أن هيأ لوطنه أسباب القوة ، وبعد أن مكنه من الحياة والاستمرار فى التقدم ، وجعل له بعض المعالم والحدود ، واتسعت مساحة الدولة بعد وفاته ، واستقرت أمورها ، وابتعد عنها الخطر ، وأتيحت لها الفرص للتكوين السليم ، والسير نحو القوة .

لقد كانت حركة الاسترداد حركة قومية متعصبة، لاتريد الإبقاء على شيء يمثل عدوها ، ولا ترغب فى التسامح معه [1] ، وكانت تعمل ببطء وإصرار ،

---

(١) ولم يكن التسامح من أخلاق العصر ، وإنما كان شيئاً جديداً جاء به المسلمون وحدهم .

وتعرضت لنكسات خطيرة كانت تزيدها صلابة وعنادا ، لأنها كانت مشحونة بشعور داخلي قائم ، وأحسن أصحابها بمأساة الوطن الضائع ، وبأخطار التحدى للعقيدة المسيحية .

وتكونت بعد ذلك بسبب هذه الحركة ملكيات تريد أن تستقر بالتحالف مع رجال الدين المتعصبين ، وفى الوقت الذى بدأت فيه حركة الاسترداد وكأنها كانت تسير فى بداية الطريق نحو غايتها ، كانت اتجاهات المسلمين تائهة بين فتن الأحزاب الداخلية ، وبين خطر العدو الذى بدأت القوة تدب فيه بعد الضعف ، وكان هذا العدو عند أقصى الحدود الشمالية ، وقريبا أيضاً من بلاد المسلمين فى وسط الأندلس .

هـ — شعب الولاة

عاش المسلمون بالأندلس فترات طويلة متصلة الحلقات ، ولم تكن لهذه الفترات معالم واحدة متشابهة ، لأنها كانت تختلف فى حقيقتها وفى ظواهرها معا ، واتضحت معالمها فى التغييرات الكبيرة المتصلة بشئون الإدارة الداخلية ، وفى تبعيتها لدولة المسلمين فى الشرق أو فى استقلالها عنها .

وفى كل الأحوال كانت البلاد تخضع لتطور الظروف السائدة فيها ؛ فمرة كان يديرها ولاة يعملون باسم غيرهم من حكام الدولة وهؤلاء كانوا فى الشرق البعيد فى الشام ، أو فى الجنوب القريب بشمالى إفريقية ، ومرة كان يحكمها أمراء يتصرفون فيها باسم أسرتهم وحدها ، ولا يريدون إلا حفظ سلطانهم عليها ، ومرة ثالثة كانت تتحكم فيها الطوائف المتنازعة التى قسمتها إلى دويلات صغيرة تحارب بعضها لتبقى على نفسها مايشبه الحرية والاستقلال .

ومنها الفترة الأولى ، وتبدأ بعد الفتح ، وتنتهى بقيام الدولة العربية الأموية سنة ١٣٨ هـ ٧٥٥ م ، وتعرف بعصر الولاة ، وتعنى أن الحكام المسلمين بهذه المنطقة الأوروبية البعيدة كانوا يأتون لها عادة عن طريق الاختيار المطلق لخليفة المسلمين بالشام ، أو عن طريق اختيار والى الخليفة على مصر إذا كان هذا الوالى يتصل به بنوع من القرابة أو بنوع من المودة ، وغالبا ما كان حاكم الأندلس ممثلا للوالى فى شمالى إفريقيـة ، ونائبا عنه فى إقليم استمر جزءا متمما لولاية إفريقية مدة تسع سنوات طويلة .

وكل الولاة كانوا يتصرفون مع الخضوع لإرادة عليا ، وكانوا ينفذون سياسة الدولة ، دون أن يكون لهم حق التصرف فى الأمور الأساسية إلا ما كان من اهتمامهم واهتمام شعبهم بأمور الحرب والجهاد ضد أعداء الدين والدولة.

وكانت أسبانيا بهذا النظام ، وبهذه الإدارة مجرد مقاطعة من المقاطعات الكثيرة التابعة لدولة الأمويين فى الشام ، وربما لم يكن لها ثقل خاص فى نظر حكام الدولة وخلفائها ، لأنها بدت قليلة الأهمية الاقتصادية ، رغم غناها ، ورغم ما كان يعرف عن رخاء شعبها ، وكان ذلك نتيجة لعدم استقرار الأحوال فيها ، فلم تساعد الاضطرابات السياسية والاجتماعية ، واختلاف الفاتحين لها على تنظيم عمليات الجباية المالية بها ، فكانت كل مواردها المالية تضيع فى الإنفاق على الاصلاحات الداخلية بها ، وفى تلبية حاجات حكامها ، ولهذا ظنوها فى الشرق جزءا فقيرا من دولة غنية ، وكأن الدولة التى لم تتكلف كثيرا فى فتحها أصبح مقبولا عندها ألا ترجو شيئا من مواردها وأموالها.

وقدمت الجهود فى هذه الفترة كمحاولات أولية لتأسيس دولة العرب فى الأندلس ، وكان عدم النجاح فى وضع نظام ثابت لاختيار الحاكم لهذه المنطقة البعيدة من بلاد المسلمين ، مع فشل العناصر القوية بها فى الاتفاق على زعيم من بينها عاملا مساعدا فى النهاية فى إقناع الكثيرين هناك بضرورة الوحدة والتماسك والعمل تحت علم واحد ، وحول سيادة واحدة من خارج البيئة .

وجاء بطل الموقف هاربا من الشرق سنة ١٣٨ هـ ٧٥٥ م ، ونجح فى تأسيس إمارة وراثية عاشت وسط الأحداث حتى سنة ٤٢٢ هـ ١٠٣٠ م ، ولم تكن حياتها مستقرة دائما ، وإنما كانت تخضع لظروف البيئة المضطربة وتطوراتها ، وظل الشعب هناك يحتفظ بصفات التمايز المعروفة عنه ، وظل كذلك مستعدا للخلاف

والثورة وحياة التمرد والاضطراب، وكانت عوامل الخوف والقلق تتحكم فيه وتثيره.

ومهما يكن من أمر، فقد كانت هذه الفترة مرحلة تمهيدية لقيام الدولة الأموية فى أوربا، وسنتحدث عنها بالتفصيل فى موضوع يأتى فى دوره من خطوات الدراسة، ولا يعنى ذلك أنها تعتبر فترة ركود لم تحفل بالأحداث المهمة[1]، أو لم يعرف عنها شىء كثير يتصل بتطورات الحياة بالمنطقة كلها، فقد تمت فيها أعمال عسكرية موفقة، ووضعت فيها أسس النظم الإدارية والمالية التى اتبعها الحكام بعد ذلك وساروا عليها، وحدثت فيها ظواهر كانت لها آثار دائمة، وكانت لها مضاعفات تاريخية مهمة، وقد أشرنا إلى بعض الظواهر والأحداث الخطيرة التى شغلت وقتا طويلا من هذه الفترة المعروفة[2] بعصر الولاة عند الحديث عن فتح الأندلس.

وإذا كان من المفيد أن نشير باهتمام إلى عناصر الشعب كقوة مؤثرة فى حركة الحياة خلال هذا العهد، وإذا كان من المناسب ألا ندور بالحديث حول الحكام[3] وحدهم، وألا نقف طويلا عندما ما يتعلق بحركاتهم وسكناتهم، أو عند أعمالهم التى لم تكن إلا أعمالا مضافة إلى أعمال جماعات أخرى كان

---

(١) تأكد سلطان الفاتحين المسلمين فى هذه الفترة بعد تتبعهم للفارين منهم فى كل مكان، وبعد انتصارهم على كل المناوئين لهم هناك.

(٢) يمكن تقسيم عهد العرب فى الأندلس إلى فترتين، فترة التحضير لقيام الدولة ثم تأسيسها ٩٣ – ٤٢٢ هـ، ٧١١ – ١٠٣١ م، ب فترة الانهيار ٤٢٢ – ٨٩٨ هـ/١٠٣١ – ١٤٩٢ م.

(٣) كان عددهم ثلاثة وعشرين واليا أولهم طارق بن زياد ٩٢ – ٩٣ هـ/ ٧١١ – ٧١٢ م وآخرهم يوسف الفهرى ١٢٩ – ١٣٨ هـ / ٧٤٦ – ٧٥٥ م.

للولاة عليها حق الرئاسة ، فإن شعب الولاة كان مكونا من فئات تنتسب لجنسيات مختلفة ، ومن أهمها :

١ — العرب وكانوا قوة كبيرة من شعب كان له دوى هائل فى العالم كله ، وقد اندفع العرب فى جماعات كبيرة ، وفى جماعات صغيرة للسكنى فى الأندلس بعد الفتح فى شكل تيار هجرة متصل افتتحته جماعات جاءت مع القائد العربى الشهير موسى بن نصير أيام الفتح، وكان عددها ثمانى عشر ألفا [١] من الرجال — إذا كان لذكر هذا العدد قيمة أساسية مفيدة فى مثل هذا العرض، لأننا نظن أن حساب الأعداد الخاصة بالجيوش لم يكن حينذاك دقيقا كما هو شأنه فى مفهوم العصر الحديث — وهذه الجماعة من الجنود المحاربين تبعت جماعة عربية أخرى صغيرة بلغت ثلثمائة أو خمسمائة من جنود العرب العاملين تحت رئاسة طارق بن زياد ، ثم جاءت جماعات أخرى مع الولاة القادمين من الشرق ، ومنها أربعمائة جاءوا خلف الوالى المعروف بالحر بن يوسف سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م ، وعشرة آلاف قدمت مع بلج بن بشر القشيرى سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م ، وجماعة جاءت مع الوالى أبى الخطار الكلبى ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م ، وإذا لم يكن عدد هذه الجماعة معروفا فإنها كانت قوة كافية لفض النزاع بين العرب البلديين والشاميين ، وللوقوف بين القوتين المتنازعتين لحفظ النظام والأمن ولفرض الحق والعدالة .

وكان الاستقرار فى الأندلس كافيا لاجتذاب أعداد من العرب الراغبين فى الحياة الجديدة أو الهاربين من قسوة الحياة السياسية

---

(١) ليس هذا العدد ثابتا فى كل مصادر التاريخ ، فهو فى بعضها عشرون ألفا وفى بعضها الآخر اثنا عشر ألفا ، وهذه أعداد تقريبية لأن عدد العرب لم يكن معروفا للمؤرخين بعد احتواء جيشهم لجماعات من البربر كانت تختلط بهم وتحسب منهم .

بالشرق وكل العمليات العسكرية الناجحة كانت تتلوها هجرات عربية صغيرة أو كبيرة تنجذب بعوامل الإغراء المثيرة الموجودة بالأندلس ، ولاشك أن مجموعات كثيرة كانت تمثل العرب هناك ، وأن هذه المجموعات ازداد ضغطها وظهورها بعد قيام الدولة الأموية واستقرارها، وإن كنا لانعرف دليلا أكيدا على كثرة العرب بالبلاد المشار إليها من الإحصائيات الدقيقة ، أو من التعداد الرسمى للدولة ، وإنما كان يدل عليهم وجودهم الكثيف والظاهر فى مناطق كثيرة هناك ، وقد دخلوا البلاد فى شبه هجرات متصلة ، عندما كانت دولة الأمويين تواجه حركة اهتزاز عنيفة بسبب انقسام ولاء الناس بينهم وبين العباسيين ، وبسبب ثورة الأحزاب الدينية التى كانت تشتبك مع الدولة فى صراع طويل ، ويضطر أصحابها بعد الهزيمة إلى الهرب والبحث عن مكان للنجاة ، ولم يكن هناك أمان إلا فى المناطق القاصية ، وبلاد الغرب كانت أقرب لرغبات الآملين فى البعد عن التورط فى المنازعات السياسية ، وكانت للأندلس جاذبية ممتازة لأنها كانت غرضا للراغبين فى الحياة الناعمة .

دخل العرب جنوداً يرغبون بعد النصر والاستقرار فى تكوين أسر عن طريق الزواج بالأسبانيات ، ولم يستطيعوا الانعزال بشرياً عن السكان الأصليين، لأنهم ما جاءوا مترفعين يريدون الحياة على حساب الغير ، وإنما أرادوا مشاركة الناس فى الحياة العامة ، فكانوا مضطرين إلى الاتصال الأسرى حتى يكونوا بالزواج أسراً جديدة تربطهم بالوطن الجديد ، وكانوا من الكثرة بحيث يعتبر امتزاجهم بالأسبان عن طريق المصاهرة أمراً كافياً لجعل سلالتهم أبرز العناصر

فى المجتمع الجديد وأهم مكوناته البشرية ، وظل إحساسهم قوياً إلى آخر مراحل تاريخهم بأصلهم العربى، ولم يذكر التاريخ أنهم نسوا هذا الأصل ولا أنهم بعدوا عنه ،أو تنكروا له ، بل استمروا يتغنون بالعروبة ، وبأمجاد العرب وتاريخهم، وحرصوا على الانتساب للعرب كأمة عظيمة لها حضارة وتاريخ ودولة ، وكان اعترافهم بالأصل العربى وإحساسهم به مهما فى علاقاتهم بالآخرين لوجود اتجاهات قوية مخالفة لاتجاهاتهم ، ولإحساس غيرهم بالانتساب لأصول أخرى غير أصولهم، فكان إعلان العروبة والاعتزاز بها من جانبهم رداً على تحديات من داخل البيئة الأندلسية ذاتها ، وليس مهما أن تكون فيهم جماعات عربية خالصة تحافظ على أصلها وسلالتها وقد كان من غير الممكن أن يقف الناس على معالم النسب العربى بعد اختلاط العرب اختلاطاً عظيما منذ أيام الفتح الأولى بالأسبان وبغير الأسبان ، لأن أمة العرب كان لها أمجاد تملأ دنياهم وتثير حماسهم ومشاعرهم .

لقد كان اختلاط العرب بالأسبان قوياً ومباشراً منذ لحظات وجودهم الأولى بالأندلس ، واختلط الكثيرون من العرب بعلاقات المصاهرة مع أهل البلاد ، وعاشوا معهم متجاورين متساوين ، وربما جاءت أسر عربية صغيرة مهاجرة بأهلها وذريتها بعد الفتح ، ولكن الظاهرة الكبرى ظلت واضحة وملحة ، وهى أن العرب اتصلوا بالأسبان ، وتكونت بعد اتصالهم بهم الأمة الأندلسية ، والشعب الأندلسى ، وكانت هناك روابط قوية تشد الناس بعضهم إلى بعض ، وتطبعهم جميعاً بالطابع الأندلسى المميز .

وما يقال عن وجود نوع من الخصومة أو سوء الفهم بين العرب وبين جماعات من المولدين ربما كان سببه إلحاح بعض العرب على الانتساب للعروبة،

أو رفضهم الاعتراف بالوجود الجماعى الخالى من ضغط الإحساس بالأنساب المختلفة ، وكانت تفد على الأندلس عناصر شرقية تميل إلى الاعتراف بالتمايز العنصرى ، وتصطدم بالسكان المتطورين الذين يرغبون فى البعد عن كل ما يوزعهم إلى أصول بعيدة ، بعضها فى الشرق وبعضها فى الغرب، وامتزج الناس أخيراً وأصبحوا جماعات كبيرة جديدة سميت بالأندلسيين وهم المواطنون بالأندلس وكانوا من جميع الأديان والأسر والعصبيات والأجناس .

ويبدو عجيباً أن يقال فى التاريخ إن العرب فى الأندلس فى هذا العصر المبكر لم يكونوا معاً على هوى واحد ، وقد يكون شيئاً طبيعياً فى حياة الناس ألا يكونوا على هوى واحد ، غير أن الاتحاد كان مأمولا فى فترات الوجود الأولى حينما كان العرب غرباء يعيشون ببلاد بعيدة وسط جماعات لا يعرفونها ولا تعرفهم ، وكانت الأخطار حولهم ملحة والأعداء معهم فى كل مكان ، ولم يتحقق الأمل العظيم ، إذ ظن العرب الداخلون فى مراحل الفتح الأولى أنهم وحدهم أصحاب البلاد أو ذوو الحق الأول فى امتيازاتها ، وسموا أنفسهم بالبلديين ، وكرهوا القادمين[1] عليهم ، وإن كانوا إخوة الأصل والدين واللغة ، ونفروا من الهجرات العربية ، وإن كان فيها نوع من الأمان لوجودهم نفسه ، ثم مضوا يتنازعون على السيادة مع القادمين الجدد الذين عرفوا باسم الشاميين ، وكأن هؤلاء كانوا دخلاء على العرب الذين سبقوهم فى الإقامة بالبلاد وليس لهم حق الحياة

---

(١) لم يكن البربر ينازعون العرب فى السيادة بقدر ما كانوا يطالبون بحقهم فى المساواة ، ولم يغضب العرب من هجراتهم المتوالية من إفريقية إلا لأنها كانت تزيد من أعدادهم وتجعلهم أكثر خطورة .

منهم ، وتكونت من كل جماعة تكتلات تشعر بالخوف من ضياع الحقوق المكتسبة، أو ترغب فى الاندفاع لتحصل على مكاسب جديدة .

وبدأ الصراع العنيف بين العرب بالأندلس سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١م وسنة ١٢٥هـ ٧٤٣م واحتدم فى مكان يمكن أن يتسع للجميع، ولم تفهم أطراف الخصومة أن الكثرة كان يجب أن تعنى القوة والأمن من المخاطر المحيطة ، وكانت هناك أخطار كثيرة يسببها الأعداء غير المسلمين ، ويسببها أيضاً البربر المسلمون إخوة الدين ، ولم يكن الصدام بين العرب بسبب الخصومات القبلية أو العصبيات المتطرفة بين قيس وكلب، وإنما كان نزاعاً — كما أشرنا قبل ذلك — بين العرب الداخلين للأندلس فى مراحل الفتح الأولى ، وبين العرب الذين جاءوا بعد حركة الرواد الأول ، وربما كان ذلك يعنى ما يشبه المحاولة من جانب البلديين للتخلص من سلطان الحكومة المركزية فى الشام ، لأن أكثر القادمين من الشام كانوا يحسون بسلطان الدولة وتبعيتهم لها ، وأتى بعضهم قرب نهاية حكم الأمويين بعد سنة ١٢٣هـ/٧٤١م، وكانوا هاربين من الفتن أو متهمين بالمشاركة فيها، ورأى البلديون ألا يلتزموا بالخضوع للسلطة البعيدة فى الشام وخافوا من مزاحمة الشاميين لهم فى السيادة والرزق ، فعارضوهم ورفضوا قبولهم ، ودافع الشاميون خصومهم ، وبدأت بين الجماعتين قصة طويلة من الصراع على أرض الأندلس .

ثم تطور الخلاف إلى ما يشبه الحرب بين حزبين كبيرين ، أكثرية أحدهما من عرب الشمال ، وأكثرية الآخر من عرب الجنوب ، وانضمت إلى الحزبين جماعات من طوائف شتى من العرب تميل بها مصالحها إلى أحد المتنافسين ، وتورط الجانبان فى حروب أهلية انتصر فيها الشاميون وأخذوا قيادة الأندلس سنة

١٢٤ هـ / ٧٤٢ م ، ثم وجد أهل اليمن فرصتهم فى تأييد عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م ، وقلب الأمير الأموى ميزان القوى لصالحهم ، ولكنه استطاع بعد انتصاره أن يقوم بمحاولات ناجحة لينقذ بلاد الأندلس من إسراف المتخاصمين فيها وتعصبهم .

ولم يكن الأمر قبل مجىء عبد الرحمن الداخل مجرد أمر عصبية قبلية تظهر كعامل محرك للتجمعات العربية هناك ، لأن عصبيات جديدة ظهرت كقوة رئيسية محركة لجماعات كبيرة من العرب المتخاصمين ، منها العصبية الحزبية ، أو عصبية المصالح المشتركة ، بمعنى أن طوائف كبيرة كانت تتألف وتجتمع لأنها كانت ترتبط بالمصلحة الناشئة عن الحياة فى مناطق متجاورة فكانت كقوة عظيمة متعاونة ، وقد يقع الانشقاق فى صفوف الحزب الواحد فيتحول إلى أحزاب مختلفة ، وربما غيرت الجماعات مواقفها من حزب إلى حزب تبعاً لارتباطات المنفعة ، ومع ما كان يبدو من التطورات الجديدة فى الصراع فإن العصبية القبلية كان لها مكان فى نفوس الناس وكأنهم كانوا حريصين على أن يظلوا على خصوماتهم القديمة مهما طال بهم الزمن ومهما غيرتهم البيئة .

لقد كان عدد العرب القادمين إلى الإندلس من شمالى إفريقية والشام قريباً من ثلاثين ألفاً ، دخلوا البلاد رجالا بلانساء ، أو دخلوها رجالا مع بعض النساء ، ثم أصبحوا بعد عشرين سنة ثلثمائة ألف انتشروا فى كل مكان يزرعون ويتاجرون ويختلطون بالسكان ، وكانوا لا يشعرون بالسيادة والتعالى على الناس ، أو كان إحساسهم بهذه المعانى أقل مما كان معروفاً عن من سبقهم من الحكام القوط أو الرومان ، وربما كان ذلك بسبب اتجاه العصر وروحه ، أو بسبب أن

العرب كانت لهم رسالة ، وكان لهم دين ، ويريدون أن يظهروا امتيازهم وامتياز دينهم للناس ، ليؤمن به الناس ويصبحوا معهم على طريق واحد .

فكان العرب يعتزون بنسبهم العربى وبوظيفتهم كأمناء على رسالة سماوية عامة ، ويفخرون بنصرهم ودولتهم وكيانهم ، ولكنهم مع كل هذا كانوا شعبا سمحا متواضعا ، يريد أن يشارك الناس فى الحياة العامة ، فتقربوا من الناس ، واختلطوا بهم ، وصاهروهم ، ولم يعيشوا فى مناطق[1] منعزلة عنهم ، أو فى مدن خاصة بهم ، وإن احتفظوا بكيانهم القبلى ، لأن هذا كان أسلوب حياتهم الاجتماعية ، وطريقة تكوينهما لمعروفة ، وقدعرفوا ذلك وعاشوا معه ، وكانت دولتهم نفسها ترى فى الكيان القبلى أساساً من أسس النظام فى الجيش ، وفى الإدارة المالية والسياسية وغيرها .

كانت طريقة العرب عند الفتح أن يتخذوا لأنفسهم معسكرات دائمة تكون مدنا لإقامتهم وملجأ لهم ومراحا ، ولم يفعلوا ذلك فى فتح الأندلس مع أنه كان معروفاً عنهم فى العراق والشام ومصر وشمالى إفريقية ، وربما انصرفوا عن ذلك لأن عمليات الفتح فى الأندلس كانت تتخذ لها مراكز أو معسكرات فى شمالى إفريقية ، ولم يضطروا فيها للتقهقر والرجوع بعيداً خلف الخطوط الأمامية ، ويظهر أنهم كشفوا الأمور بعد المعركة الأولى ، فكانت الحرب حرب حصون أو حرب حصار للمدن ، وبعد النصر فيها كانوا ينتشرون فى المناطق والأقاليم ليشاركوا السكان حياتهم وليعيشوا معهم فى بلادهم ، وزادت عمليات التلاحم بينهم وبين السكان ، وكانوا عناصر مسالمة وقفت تتفرج على الحرب بين العرب والقوط ، أو كانوا على الحياد

---

(١) ربما كان هناك نوع من الانعزال بين العرب وسكان أسبانيا أيام الفتح ، ولكن ذلك لم يستمر طويلا .

بين العرب وبين أعدائهم ، وأما المعارضون منهم فقد فروا هاربين إلى الشمال ، وكونوا وحدات صغيرة تنتظر فرصة الظهور مع الزمن ؛ وشفعت لهم أعدادهم القليلة فتركوا لأنفسهم ، وكان لهم مع العرب فى المستقبل شأن وأى شأن .

* * *

٢ — ويأتى البربر بعد العرب فى التدرج الاجتماعى كمسلمين لهم كل حقوق الفاتحين أو بعض هذه الحقوق ، وهم من شعب رضى بالإسلام وتحمس لقضيته ، وأسرعوا للأندلس ليتخذوا الجهاد وسيلة لخدمة الدين ، فكان لهم دور كبير فى نصر الدين وظهوره وانتشاره ، واتخذهم العرب أداة قوية للحرب فى أسبانيا، ووجد البربر أيضا فى الحرب مكاسب مالية سريعة ومغرية ، فكان بعضهم يحارب بدافع الإيمان وصدق الرغبة فى خدمة الدين ، وكان بعضهم الآخر يحارب ليكسب الرزق المشروع بحكم الدين والقانون ، وكانت حركة اندفاعهم بالغة القوة وكان حماسهم عظيما ، فوجد الإسلام فيهم أبطاله الجدد الذين فتحوا الأندلس ، أو شاركوا فى فتحه ، وكانوا جنود طارق بين زياد وجنود طريف ابن مالك قبله .

وبعد الفتح والانتصار جذبتهم بلاد الأندلس، وأثارت فيهم الرغبة فى الحياة الطيبة، فتركوا بلادهم الإفريقية القريبة وذهبوا للوطن الجديد فى حماس الباحثين عن الجديد ، وهاجرت منهم جماعات وقبائل كان لها وجود واضح فى طول

البلاد وعرضها ، وفاقت أعدادهم بالأندلس أعداد العرب ، وامتلأت بهم شبه الجزيرة الأسبانية[١]، ورغم تمايزهم بسبب وسائل العيش عندهم إلى بتر وبرانس، فهم لم يقسموا أنفسهم ذلك التقسيم الحاد المعروف عن العرب، وعاشوا معا بنوع من الوفاق ، أو عاشوا فى شبه انسجام اجتماعي ملحوظ ، ووجدوا لأنفسهم مكانا فى بلاد الشمال الجبلية الباردة ، لأنها كانت تشبه وطنهم القديم، أو لأنها كانت تهيىء لهم وسائل الحياة التى أرادوا أن يعيشوها بطريقتهم الخاصة، فكان لهم فى الشمال سيادة تدل على كثافة أعدادهم هناك ، وتوضح خضوع المنطقة لهم ، وتركوا للعرب السيادة العليا ، أو السيادة العامة ، وعاشوا معهم كقوة واحدة للدين والدولة ، ثم كقوة واحدة ترفض قبول الوافدين عليهما من الشرق، والأدلة كثيرة على أن البربر الذين دخلوا شبه الجزيرة فى سنوات الفتح الأولى اختلطوا بالعرب البلديين ، وأصبحوا معهم حزبا واحداً لا فرق فيه بين عربى أو بربرى، بل كان الجانبان معا حربا على الشاميين وأنصارهم ، ثم فرقتهم الخصومات وسوء السياسة والعنف والقسوة التى اتبعها ولاة العرب معهم ، وكانوا مدفوعين إلى ذلك بعوامل الخوف من كثرتهم ، أو بعوامل التعالى عليهم .

لقد أراد البربر أن تطبق عليهم تعاليم الإسلام الذى عرفوها، وكانت أقوال الواعظين والدعاة المسلمين ترن فى آذانهم وتجد لها صدى عميقاً فى قلوبهم، وكانوا على حداثة عهدهم بالإسلام أشد تمسكا به من العرب ، وأعظم منهم إيماناً بضرورة العمل من أجله ، لأنه كان وسيلتهم القوية للنهوض بأنفسهم والاحتفاظ بحقهم كأنداد للعرب، وفى جعلهم سادة فى البلاد المفتوحة ، وأصحاب حق فى غنائمها، وزيادة على أن الإسلام كان يكسبهم حقوقاً معنوية ومادية لا يبلغونها بدونه ،

---

(١) كان تيار هجرة البربر إلى الأندلس متصلا طول التاريخ بخلاف الهجرات العربية الكبيرة التى انتهت بنهاية عصر الولاة .

فإنه كان عندهم دستور الاحتكام بينهم وبين العرب أو قانون الفصل بين الجانبين .

وبدت هجرة البربر واندفاعهم إلى الأندلس أحيانا كأنها لم تكن للرغبة فى العيش الناعم بأسبانيا أو للهروب من قسوة الحياة بإفريقية ، أو لعلاج مشكلة اقتصادية طارئة ، وإنما كانت تهدف إلى عدم التورط فى المشكلات القائمة ، وكان أهم هذه المشكلات عدم الاتفاق على وضع ثابت أو مقبول بين العرب والبربر فى إفريقية لأن قضية السيادة عليها كانت لا تزال غير مفهومة ، أو لم تحسم نهائياً لصالح أحد الطرفين ، وكانت لهذا تثير الناس وتغضبهم ، فيستجيبون لدعوات الثائرين على الدولة ، ويشاركونهم فى الحرب ضدها بغير نتيجة ، وفهم بعض البربر أن العرب كانوا يتخذون الإسلام وسيلة للسيطرة السياسية ، وفهم العرب أن البربر كانوا يتخذون الإسلام وسيلة للمناداة بحقوق يقرها الإسلام للمسلمين جميعا ، وكأنهم قبلوا دعوة الإسلام للحرص أولا على الامتيازات التى يضمنها هذا الدين لأهله ، ولم يفهموا أن الدخول فى الإسلام كان يعنى العمل فى ميادين خدمته ، وكأن العرب لم يجدوا فى البربر دائما حلفاء أقوياء يشاركون فى تحمل أعباء الدعوة الإسلامية ، ويقفون فى وجه أعدائها ، وإنما وجدوا منهم قوة معارضة كانت تعطل تقدمهم ، وتشغلهم بالدفاع عن أنفسهم أمام خطرها وقسوتها .

واختلط البربر بالسكان ، وصاهروهم وأذاعوا بينهم الإسلام ، وتحولوا مع الزمن إلى أندلسيين كان لهم أعظم الأثر فى انتشار الإسلام وقبوله ، لأن الإسلام بالنسبة لهم كان رمزاً للسيادة ، فأظهروا العصبية له ، وجاهدوا فى سبيل نشره ، وكانوا أبسط من العرب طبعاً ، وأقرب إلى تذوق بساطة الدين منهم ،

لأن العرب - أو جماعات منهم - جاءوا إلى أسبانيا يحملون على ظهورهم آثار تاريخ طويل من التقلب فى الفتن والاضطرابات ، وكان البربر أكثر حماساً من العرب فى المطالبة بالتمسك بمبادىء الإسلام فى الحرية والعدالة والمساواة ، لأن تعاليم الخوارج بإفريقية ودعاياتهم القوية لها ، وآراؤهم الصريحة الواضحة قد جذبتهم إليها ، وفتنتهم بها ، فأصبحوا المدافعين الأقوياء عن حقوق المسلمين من غير العرب ، والمطالبين بتطبيق مبادىء الإسلام على المسلمين جميعاً .

ثم أساء إليهم بعض الحكام العرب ، وأساءوا هم بدورهم إلى الحكام العرب ، وإلى العرب جميعاً ، ولم يستطيعوا أن يتوصلوا معاً إلى اتفاق يخدم المصالح العامة للجماعتين ، ونما الشعور بالخوف وسوء الظن بين الجميع ، ولم يكن من السهل نسيان حوادث الصراع الطويل الذى استمر سبعين سنة بين القوتين الكبيرتين ، وهو صراع اختلطت فيه العوامل القومية والوطنية بحب الدين والحرية ، ولم تأت نهايته نتيجة لهزيمة كبيرة لأحد الجانبين ، وإنما كانت نوعاً من الاعتراف بتفوق العقيدة الإسلامية وقبولها ، وهذا التفوق أعطى للإسلام نصراً عظيماً ، وجعل قوة البربر تنضم إلى قوات أنصاره ، ولكنه لم يعط العرب حق السيادة على البربر ، وظلت قضية السيادة على شمالى إفريقية غامضة وغير مفهومة ،

وإذا حكمت الجماعات العربية الغالبة فإنها استمرت تواجه المعارضات القوية من الجماعات البربرية المغلوبة ، وظهرت آثار ذلك فى ثورات عنيفة استهدفت ضياع نفوذ العرب بالمغرب ، وإعلان السيادة البربرية على بلاد البربر ، واستمر الصراع وقتاً طويلا ، وكان يعنى قبول العقيدة الإسلامية والإيمان بها ورفض السيادة العربية والخضوع لها .

دخل المسلمون الأندلس فاتحين ، وهم على هذا المستوى من الفهم والتفكير ، وكانت إراداتهم متعارضة ، ورغباتهم مختلفة ، وحدث بينهم نوع من التصالح المؤقت ، ولكنه لم يسمح لهم جميعا بالامتزاج فى النهاية فى صفوف واحدة ، فلم يصبحوا شعبا واحدا منسجما ، وكان قد ظهر بينهم شىء من الانفصال فى أيام الفتح الأولى ، فكان البربر يعملون تحت زعامة بربرية ، ويريدون أن يكسبوا مجالات جديدة ، ليظهروا فى الميادين الجديدة أمام العرب كأنداد لهم ، وصحيح أنهم كانوا يعملون هناك باسم الإسلام وحده ، ولكن الإحساس باختلاف الجنس كان يخالط الإحساس بوحدة الدين فى قلوبهم .

والعرب بدورهم كانوا يحاولون تأكيد وجودهم كقوة لها شرف الزعامة ، ولها حق السيادة ، لأنها كانت تمثل الدعوة الإسلامية ، ومعنى هذا أن الولاء المشترك بين العرب والبربر للدين الواحد لم يساعد على التقائهم معا فى مجالات العمل السياسية .

وربما كان من ذلك الخلاف بين قائدى الفتح الإسلامى موسى بن نصير وطارق بن زياد ، فكان طارق بين زياد يمثل الانطلاق البربرى الذى لا يريد الاعتراف القوى بالزعامة العربية ، وكان موسى بن نصير يحاول فرض هذه الزعامة على البربر ، ولم تكن أسس التعاون واضحة بينهما ، فعملوا معا لصالح العقيدة التى التقوا عندها ، وتركوا خلافاتهم للزمن ، وربما لم تكن مصلحتهم فى مواجهة هذه الخلافات أيام الفتح ، أو ربما جاء فتح الأندلس حدثا عارضا بعد الحياة العنيفة الطويلة فى أفريقية فتجمعت حوله الرغبات ، وتماسكت به الجهود ، ونجحت عمليات الفتح باسم الإسلام ودعوته ، وعرض الجميع قوتهم وجهودهم ، ورضوا بالتضحيات فى سبيل الدين والتطور ، وساد السلام والتآلف لفترة لم تدم طويلا ، لأن خلافات جديدة

جاءت بعد الفتح ، فتنازع الفاتحون فيما بينهم ، وظهرت منهم محاولات ثورية لم يكن من أهدافها رفض الدين أو الطعن فيه ، وإنما كان من أهدافها البحث عن الحقوق المشروعة وعدم الرضا بالخضوع للآخرين ، أو رفض القيام بدور ثانوى فى حياة المجتمع الجديد .

قبل البربر إذا دعوة الإسلام وخدموا قضيته ورفضوا سيادة العرب المطلقة عليهم ، وأرادوا المشاركة فى العمل الجديد كما شاركوا فى الفتح والتضحية ، وكان الإسلام فى نظرهم طريقا صريحا لتحسين أحوالهم وتطورهم ومساواتهم بغيرهم ، وشغلتهم مبادئه فى المساواة والإخاء والعدالة وكان دعاته يلحون عليهم بها ، فأرادوا تنفيذها وتطبيقها على كل المسلمين ، وأحس العرب بتهديد سيادتهم ، وكانوا يشعرون بأمجادهم وبدواتهم ، وبحقهم فى السلطة على العالم الجديد .

وتغلب العرب فى الحروب الصريحة بين أصحاب العقيدة الواحدة ، فهاجر البربر من أماكنهم الشمالية ، وكانوا قوة إسلامية كبيرة تستطيع أن تقاوم أطماع المسيحيين فى الشمال ، وتستطيع أن توقف تقدمهم إلى الجنوب ؛ وتفرقت جماعتهم فى بلاد الأندلس الأخرى ، وذهب بعضها إلى وطن الأجداد بشمالى إفريقية .

وجاء بعد هؤلاء جيل جديد اتخذ الأندلس له وطناً ، وأسرع فى الاندماج فى البيئة الجديدة ، وكان يريد المعايشة السلمية وحدها ولا يبعده عنها أى شعور بالانفصال بسبب اختلاف الجنس والعنصر ، ودرس البربر الإسلام وتحضروا بسببه ، وساعدوا فى نشره ، وكانت لهم بعد ذلك مشاركة إيجابية فى بناء دولة الإسلام فى الأندلس .

• • •

٣ — ثم كان هناك الموالى ويقصد بهم الجماعات الموالية للدولة الأموية أو أنصارها المرتبطون بها أو بأفرادها بنوع من الرباط المعروف عند العرب باسم الولاء ، وهو أنواع كثيرة منها ولاء العتق وولاء النعمة والنصرة والاصطناع وغيرها[1] ، وكان الناس بالأندلس يحتفظون بالولاء ويعتزون به ، ويرونه نوعاً من الأمان فى الحياة فى حاضرها ومستقبلها ، وكانت تلجأ إليه الجماعات والأفراد الذين يريدون الارتباط بالدولة ، لأن مصالحهم كانت فى هذا الارتباط وحده ، وكونوا به ما يشبه الشخصية المستقلة ، وإن بدت بعض أمورهم محاطة بنوع من الغموض لغموض وصفهم ذاته ، لأن حقيقة الأسس التى كانت تبنى عليها هذه الرابطة السياسية والاجتماعية لا تزال غير معروفة، وقد تكون نوعاً من تبادل المصالح ، أو من الانجذاب نحو القوة الممثلة فى الدولة وأصحابها ، وقد تكون شيئاً يشبه التنظيم السياسى الذى أراده الأقوياء ليبقوا أنفسهم فى مكان السلطة بتأييد الذين يتلقون الجزاء منهم .

وإذا لم تكن حدود هذا الولاء معروفة بوضوح ، وإذا كان من غير المعروف شىء عن عدد الموالى بالأندلس ، فإن دورهم فى توجيه السياسة هناك كان معروفاً ، وكان دوراً إيجابياً ، لأنهم لم يقفوا متفرجين على الأحداث حولهم ، ولم يكونوا بعيدين عنها، وإنما كانوا صانعيها أو مشاركين فيها، وكانوا أشبه بتكتل سياسى نشيط متماسك تجمعه رابطة المودة للأسرة الأموية الحاكمة أو يجمعه الإيمان بقضية الدولة وأصحابها ويقال إن هذه الرابطة كانت أقوى من روابط العصبية ، لأنها لم تكن رابطة عاطفية يضعفها تضارب المصالح واختلافها ، وإنما

---

(١) نشير بمراجعة المصادر اللغوية العربية وغيرها ، لمعرفة معنى الولاء وأنواعه عند العرب والمسلمين .

كانت رابطة مبنية على ، المصلحة المباشرة لأصحابها الذين وجـدوا خيرهم فى الولاء للدولة ووجدوا مستقبلهم معها ، فأخلصوا لها وعاشوا من أجلها ، وكانت منهم جماعات عربية وجماعات بربرية جاءت من الشرق مع الولاة ، أو جاءت من الجنوب مع الفاتحين ، وكانت منهم أيضا جماعات أندلسية كانت تميل إلى الاستقرار وتؤيده ، وترفض تأييد المغامرين والثوار [1] .

كان للموالى يتبعون البيت الأموى ، ويرون مصلحتهم فى مصلحته ، ويمكن أن نسميهم حزب الدولة الأموية ، وكانوا جماعات مختلفة قوية ومخلصة ، وتتكون من كتل متناسقة من الرجال الأقوياء الذين كانوا يتمتعون بمركز اجتماعى مثل مركز العرب أو يزيد عليه .

ومما جعل للموالى أهمية قصوى فى الأندلس أنهم كانوا جماعة منظمة هادفة ترتبط فيما بينها بوحدة الهدف وتعمل من أجله رغم اختلاف عناصرها وأجناسها ، وكانوا يؤثرون فى نتائج الخصومات بين المتنازعين ، وكان المتنازعون يحرصون على كسب ودهم ، وظل الموالى كتلة واحدة مؤثرة وقوية ، ثم أصبحوا عند قيام الدولة الأموية أصحاب الدولة ولهم اليد العليا فيها واستطاع عبد الرحمن الداخل أن يغير بهم وجه التاريخ فى الأندلس ، بعد أن استغل حماسهم لصالح قضيته وقضية أسرته كلها .

وكان الجو كله مناسبا لأن يلعب الموالى دوراً حاسما فى شئون السياسية الاجتماع بالأندلس ، فلم يكن هناك أحزاب سياسة منظمة أو جماعات لها قوة تأثير عليهم ، ولم يكن لهم رئيس معروف ، ولا رئاسة مؤسسة ، وإنما هيئوا أنفسهم كجماعة تشترك فى شعور واحد ، وتربطها الاحساسات المتبادلة والمنافع الحيوية ،

---

(١) دخلت قبائل بربرية كاملة فى ولاء الأمويين ، وحصلت جماعات أندلسية أيضا على هذا الولاء .

وتحس بالخير المشترك وبالخطر المشترك معا، وفى كل الأحوال كان الموالى قوة إيجابية تمثل إرادة الدولة وإرادة أنصارها .

* * *

كانت العناصر الثلاثة السابقة عناصر إسلامية ، وهى التى وضعت أساس الإسلام والعروبة بالأندلس ، وبدأت التاريخ الذى نحاول الآن توضيح بعض جوانبه .

دخلت هذه العناصر الثلاثة فى الأندلس فى محاولة من محاولات الفتح العربية الناجحة ، التى لم يقصد منها تكوين امبراطورية سياسية واسعة يسودها الجنس العربى وحده ، وإنما قصد بها أن تكون حركة امتداد لتطور فكرى شامل ، ولتطور دينى جديد جاء عن طريق الدعوة الإسلامية فى القرن السابع الميلادى ، وكانت حركة التطور هذه عظيمة وشاملة ، وكان للعرب فيها شركاء أقوياء من البلاد التى فتحوها والتى شاركهم أهلها فى الدين والأمل ، ووجدوا مستقبلهم وحياتهم وعاطفتهم فى نشر الإسلام والعمل من أجله .

وصحيح أن الطريق الذى اتبعه المسلمون لنشر الإسلام فى الأندلس تظهر الآن غير واضحة ، غير أنه يبدو أن العمل سار فى نفس الطريق المعروفة عن الدعوة الإسلامية وعن الدعاة المسلمين ، لقد سار العمل بهدوء وتسامح وإصرار ، وبدون ضغط من المسلمين على مخالفيهم ، وكان هذا أسلوب العرب فى الدعوة لديهم ، ولاشك أنهم اتبعوا نفس الأسلوب طوال خطوات الفتح فى بلاد الأندلس وبعد استقرارهم وانتصارهم فيها .

وكان المسلمون دعاة حضارة مبنية على الدين ، ودعاة دين جاء بحضارة

متطورة ، وكان فيهم الكثيرون من دعاة الدين الذين درسوا علوم الدين وفهموا مسائله ، ثم كانت تظهر هناك دفعات من الحماس العارض للإسلام من وقت لآخر ، وأهم هذه الدفعات جاء عن طريق الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وكأنه كان داعية للاسلام وحده ، أو كأن أمر الإسلام كان يشغل هذا الخليفة وحده ، أو كأن أعمال المسلمين قبله لم تكن فى مستوى جهوده فقيل إن الاسلام انتشر فى شمال إفريقيـــة والأندلس عـلى يديه ، وجاءت النتيجة الحاسمة ، وتحول الناس إلى الإسلام ، ودخل عبدالرحمن الأموى إلى الأندلس طريداً سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥ م ، وقد أصبحت بلادا إسلامية ، أو قد غلب عليها الإسلام ، بعـد وقت يقل عن نصف قرن منذ فتحها .

ولم ينظر العرب لأنفسم كأنهم كانوا فوق مستوى الناس من حولهم ، ولم ينظر لهم الناس على أنهم كانوا شعبا مختارا من دون الشعوب كلها ، بل كانوا جماعات عملية تعيش حياة عادية ، وتشارك الناس فى العمل لخدمة التطور والحضارة ، وتنصرف عن الرغبة فى الاستغلال والسعى وراء النعيم على حساب الآخرين ، وإن امتازت بأنها كانت رمز الحركة الإسلامية ، ولدين المسلمين .



٤ — وأما بقية الناس ، أو الشعب الذى فاجأه وجود العرب فى بلاده ، فقد كان شعبا أوربيا مسيحيا ، يتجه بإيمانه نحـــو الـكنيسه الـكاثوليـكية ، وكانت له نظم سياسية ، ومعالم حضارية رومانية خالصة ، وأطلق عليه العرب اسم الروم أو الذمة أو النصارى أو العجم أو غير ذلك من الأسماء .

كانت أسبانيا أيام الفتح العربى بلادا مسيحية أو تغلب عليها المسيحية ، ولا يعنى ذلك إلا أن للمسيحيين فيها كانوا أغلب سكانها ، أو كانوا أكثر

من المسلمين فيها ، ولكن جماعات كبيرة ممن عاشوا بين الطوائف المسيحية هناك كانت فى حالة وسط بين الإيمان بالمسيحية والكفر بها لعدم فهمها ، أو لاضطرا بها بسبب اختلاف وجهات النظر بين أصحابها والتضارب بين آراء المسيحيين فى فهمها .

ووجد أنصاف المسيحيين هؤلاء فى الإسلام حلا مناسبا لمشكلاتهم الدينية ، وكانت هذه المشكلة أخطر أمورهم ، وأبعدها أثرا فى حياتهم ، فانضموا للمسلمين وشاركوهم عقيدتهم ، وزادت بهم أعدادهم ، وانضافت إلى هذه الجماعات جماعات أخرى من الوثنيين الذين لم يكن وجودهم فى المجتمع الأسبانى واضحا أو قويا ، ثم وفد العرب على البلاد من الشرق ، وجاءت جماعات بربرية كثيفة من شمالى إفريقية ، فتضخمت أعداد المسلمين ، وأصبح وجودهم ظاهرة قوية فى المجتمع كله .

وواجه المسيحيون تناقصا مطردا بسبب تزايد الرغبة فى الإسلام بينهم ، وبسبب هجرة بعضهم إلى المناطق الشمالية التى اتخذوها موطنا بعهدا انتظروا فيه دورات الزمن ليعودوا إلى بلادهم — كما أملوا — من جديد ؛ وهاجر آخرون منهم إلى البلاد الأوربية المسيحية رغبة عن الخضوع لمن كانوا يمثلون دينا غريبا يرفضونه ، ويأبون التسليم له، ودفعهم لذلك سوء الظن بالمسلمين أو خوفهم من مخاطر الحروب أو نحو ذلك من أسباب أخرى، وكان فى المهاجرين زعامات قوية لم تجد لها مكانا فى نظام المسلمين ، لتعارض وجودها مع أهداف هذا النظام .

وقبل الفتح كانت الكنيسة قد فشلت فى حل مشكلة العقيدة المسيحية ، ورغم ما كان يبدو من ظواهر اتحادها فقد كانت محاطة بأعداء مسيحيين لهم

آراؤهم وعقائدهم ونزعاتهم المخالفة لهـا ، ولم تجد وسيلة للالتقاء مع أعدائها لأن الجميع كانوا يخضعون لوجهات نظر متعصبة لا تلتقى عند شىء ، فسلطت عليهم سوط العذاب ، وتعمق الخلاف وزادت حدته بين الـكنيسة وأعدائها وضحى الناس بحياتهم فى سبيل عقيدتهم ورأيهم .

ومعنى هذا أن انتصار الـكنيسة الـكاثوليـكية فى أسبانيا فى فرض سلطتها على الدولة وعلى الناس لم يكن حلا حاسما للقضية الدينية المسيحية ، ولم يكن لجوؤها للعنف فى فرض مذهبها ، ولا وضعها رقابة شديدة على عقائد الناس وتصرفاتهم مما يساعد على سلامة العمل وتحقيق الهدف ؛ وكان تحالفها مع الدولة ، بغرض أن تشاركها فى مغانم السلطة ولتحظى بنصيب من موارد الثروة ، فكان لها جزء كبير من أراضى أسبانيا الخصبة التى عاش عليه رجالها بعيدا عن حياة المؤمنين الزاهدين فى الدنيا .

ولم تنقطع المنازعات والخصومات حول أمور العقيدة المسيحية ، وازدادت حيرة الناس فيهـا بعد تضارب آراء المتطاحنين حولها والتمسوا حقيقة الإيمان فلم يهتدوا إليه ، واشتد الغموض أمامهم ، وأسرف المتخاصمون فى العناد والعنف وهم أصحاب عقيدة واحدة ، وعسفت الـكنيسة بمخالفيها وعبثت بهم ، فزاد خوف الناس من سلطتها ومن سلطة الدولة معها ، وأصبحوا غير آمنين فى بلادهم .

وجاء تسامح المسلمين مع غيرهم — وكان طبيعية فى سلوكهم وشيئا أمر به دينهم — جاء ذلك سياسة مثلى لاجتذاب المخالفين لآراء الـكنيسة ، واستهوى تسامحهم جماعات كبيرة كانت تتحمس لوجـــودهم ، وترى سمو أهدافهم

وعدالتهم ، وتعرف الكثير عن سلوكهم بعد أن اتصلوا بالناس وظهروا أمامهم كممثلين لشعب طيب يطلب العيش بسلام مع الآخرين ، وأنست بهم جماعات كثيرة وأنسوا بها ، وعاش الجميع فى مكان واحد ، يساهمون معا فى بناء حياة مشتركة .

لقد ترك العرب المسيحيين ليكونوا مسيحيين كما يشاءون ، وأعطوهم أمان المسلمين وذمتهم ، ولم يطلبوا منهم إلا ضريبة مالية مفروضة عليهم بأمر الدين ذاته ، وكانت فى مستوى قدراتهم المالية ، وتوزعت على مستوياتهم المختلفة ، وحفظوهم بعد الالتزام بها من عنت مخالفيهم فى المذهب والرأى ، وجعلوهم فى أمان من عسف البابوية وقسوة رجالها ، وكانت هذه تمثل مراكز القوى المتسلطة التى ترى حقها على الناس فوق إرادتهم ورغباتهم .

ومع استمرار المناقشة حول العقيدة المسيحية بين المسيحيين ، وقف المسلمون فى الوسط بين المتنازعين ، وأمن الضعفاء بهم من طغيان الأقوياء ، وهدأت حدة الخصومة واستبدل الناس اللعن والتعذيب والطرد بالمجادلات التى حرص عليها المسيحيون فى مراحل تطور عقيدتهم .

ومنذ أيام الفتح الأولى كان المسلمون حريصين على أن يفهموا غيرهم أنهم ما جاءوا للقضاء عليهم وعلى دينهم ، فكانوا يؤمنون رجال الدين المحاربين ، ويعطونهم العهد بالحفظ والرعاية ، ولم يسيئوا لمن أرادوا الصلح والسلام معهم ، وضمنوا حريتهم وسلامتهم وأمنهم ، وصالحوا بعض الناس على شروط كانت تبقى لهم بلادهم شبه مستقلة ، وتجعل لهم فيها حكومات محلية يختارونها بأنفسهم .

وفى كل الأحوال ضمن المسلمون الحرية الدينية، وأعطوا للناس عهدا بالأمان كما تقضى بذلك شريعتهم ، فأمن النصارى واطمأنوا للحكام المسلمين ، وحفظت لهم كنائسهم ، والتفوا حول رجال دينهم ، ولم يتدخل المسلمون فى علاقاتهم ، فانتعشت المسيحية بعد فتح المسلمين لأسبانيا ، وثبت عليها المؤمنون بها ، وانصرف عنها المتشككون فيها ، والمترددون فى قبولها .

وعاد الرهبان الهاربون ورجال الدين المتشككون فى المسلمين ونظامهم إلى الأندلس بعد الفتح ، وعاد معهم بعض من فروا أيام الحرب ، وقبلوا شروط المسلمين ، ومارسوا حياتهم كما يشاءون ، وتبادل المسيحيون العلاقات مع رعاتهم وظلت كنائسهم تؤدى رسالتها الدينية والاجتماعية بإشراف المسيحيين وحدهم ، وكانت شئون المسيحيين بيد رؤساء منهم ، وهؤلاء كانوا مسئولين أمام المسلمين عما يتصل برعاياهم ، فكانوا يجمعون منهم الضرائب لحساب الدولة ، ويعينون لهم القضاة ، ويشرفون على أمورهم كلها ، وتشير مصادر التاريخ إلى حدوث اختلاط مبكر بين المسلمين وغيرهم من المسيحيين فى الأندلس ، ومن ظواهر هذا الاختلاط أن ثانى ولاة المسلمين هناك تزوج امرأة قدريق المسيحية وكان وفيا لها ، وتزوج المسلمون مثله من أهل البلاد وامتزجوا بهم ، وتأصلت علاقات الود بين المسلمين وغير المسلمين وظهرت شخصيات مسيحية أسبانية إلى جانب الشخصيات العربية ، ولم يصب المسلمون غيرهم بأذى أيام الخصومات والفتن التى سادت بينهم ، وكأنها كانت من شئونهم الخاصة فلم يورطوا غيرهم فيها .

لقد أعطى العرب للناس عهودا واحترموها ، ووفوا بعهودهم كلها ، وبقيت أجزاء من نصوص هذه المعاهدات لتدل فى وضوح على الروح الطيبة التى سادت العمل العربى كله ومنها قطعة لعهد موسى بن نصير لأهل ماردة وفيها :

« فذهبوا إليـه ، وقالوا : إنهم يتركون له كل ما كان لمن مات منهم ، ومن جرح ، وممتلكات الكنائس ، وما فيها ... وكل ممتلكات رجال الدين. وبعد أن تم التوقيع على ذلك فى عهود صحيحة ، فتحوا له الأبواب ، وأدخلوه البلد ، وأسلموه إياها ، ولم يمس المسلمون من أقام فى البلد من النصارى بأذى ، وأما من أراد ترك البلد منهم ، تركوه يمضى دون أذى » .

وتحفظ المراجع نص كتاب الصلح الذى كتبه عبد العزيز بن موسى ٩٤هـ/٧١٣م لتدمير بن غبدوش حاكم إقليم مرسية وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز إلى تدمير

أنه نزل على الصلح ، وأنه له عهد الله وذمته ألا ينزع عنه ملكه ، ولا أحدا من النصارى عن أملاكه ، وأنهم لا يقتلون ولا يسبون أولادهم ولا نساءهم ولا يكرهون على دينهم ، ولا تحترق كنائسهم ما تعبدو نصح ، وأن الذى اشترط عليه أنه صالح على سبع مدائن ... وأنه لا يأوى لنا عدوا ، ولا يخون لنا أمنا ، ولا يكتم خبرا علمه ، وأنه عليه وعلى أصحابه دينار كل سنة ، وأربعة أمداد قمح ، وأربعة أمداد شعير ، وأربعة أقساط خل ، وقسط عسل ، وقسط زيت ، وعلى العبد نصف ذلك .

كتب فى رجب من سنة أربع وتسعين من الهجرة .

شهد على ذلك عثمان بن أبى عبدة القرشى ، وحبيب بن عبيدة الفهرى ، وعبد الله بن ميسرة الفهمى ، وأبو قائم الهذلى » .

لقد آلت أراضى الكنيسة والملوك والإقطاعيين الهاربين والمقتولين فى الحرب

للمسلمين ، فأخذت الدولة خمسها ، وتركته فى يد المزارعين الأسبان ليزرعوه ، ويدفعوا لها عنه مالا يكون للمسلمين جميعا ، ووزعت الأرض الباقية على الجنود فزرعوا بعضها ، وتركوا بعضها الآخر للمزارعين يعيشون عليها ، ويدفعون لهم عنه مالا ، وأطلق المسلمون الأسرى ليزرعوا الأرض ويعمروها ، وأزالوا نظم القوط التى كانت تعتبر المزارع عبدا ، أو تعتبره عاملا فى الأرض قريبا من العبيد ، وأباحت الدولة حرية الحركة للمسلمين وغير المسلمين ، فهاجر بعض المسيحيين إلى البلاد التى تركها المسلمون بعد حروبهم الأهلية ١٣٣ — ١٣٨ هـ ٧٥٠ — ٧٥٥م والتحقوا بالمسيحيين فى الشمال ، وعمروا النواحي الشمالية الغربيـة والشرقية ، ووضعوا مع غيرهم أسس الدولة المسيحية التى ظلت تناوئ المسلمين قرنا بعـد قرن ، حتى أزالت دولتهم من الأندلس كلها .

ويلفت الانتباه دائما أنه لم تقم بالاندلس ثورة مسيحية أيام الفتح ولا بعده فى عصر الولاة ، ولم تـكن هناك معارضة قوية لحـكم المسلمين مما يدل على أن نصر المسلمين كان حاسما ، أو أن حكمهم كان مقبولا ، فلم تنجح محاولات الفارين فى تحريض جماعات مسيحية كبيرة عـلى الهرب من أسبانيا رغم ما كان بينهم وبين العناصر الباقية من الشعور بالتعاطف والقرابة ، وكان المسيحيون الهاربون على رأى بأن أسبانيا لم تـكن إلا موطنا لديانتهم ، ويجب أن تظل موطنا لهذه الديانة ، ولم تـكن إلا بلادهم وحدهم ، ويجب أن تظل بلادهم وحدهم ، ولهذا حرصوا على حالة من الحرب شبه الدائمة مع المسلمين ، واعتبروهم غرباء أو أجانب فى أرض الوطن ، واستمر الصراع طويلا بين المسـلمين والمسيحيين فى أوروبا[1] .

---

(١) نقصد بذلك الصراع غير المرئى ، لأن تاريخ الأندلس لا يمكن أن يكون صورة

• ـ وأما اليهود فكانوا غرباء مهاجرين إلى أسبانيا، دخلوا إليها في أيام هجراتهم المعروفة بعد اضطهادهم على يد الرومان في الشرق، وظلوا يعملون بها من أجل الحياة بعيدا عن الاضطهادات الدينية التي كانت تلاحقهم في كل مكان، ومع كثرتهم بأسبانيا، ومع أن بلادا كلها كانت مسكونة بهم، فإنهم لم يكونوا على وفاق مع القوط، بل كانوا مضطهدين في عهدهم، وتشير المراجع إلى حالات غريبة من العقاب كان القوط يمارسونها ضد اليهود في أسبانيا قبل الفتح العربي، فكانوا يطالبون منهم أن يتنصروا أو أن يتركوا البلاد لأهلها، وطردوهم من أماكن كثيرة، وصادروا أملاك بعضهم، ووزعوهم على المسيحيين كأرقاء وحرموا تحريرهم، وأخذوا منهم أولادهم، ونصروهم وصدرت ضدهم القوانين في سنة ٦١٣ م و٦٩٤ م، وكلها كانت وتفرض عليهم أن يخالفوا دينهم، وأن يخضعوا لما يعارض شريعتهم، فكانوا يهاجرون من أسبانيا ليتآمروا ضد دولة القوط، أو كانوا يستترون بعيدا عن الناس أو يتظاهرون بالمسيحية والميل إلى الحكام.

وجاء العرب فكان اليهود بجانبهم، وساهموا بطاقتهم المتاحة في عونهم على الفوز والانتصار، ونالوا من المسلمين لذلك الأمان والسلامة والرعاية والمشاركة في إدارة الدولة، وجعلوهم حراسا على المدن مع المسلمين، فاستعربوا ونشئوا بين العرب، وكانت لهم قوانينهم ونظمهم وشريعتهم ومعابدهم، وكانوا أحرارا في كل أمورهم، وأصبحت لهم الأندلس جنة الدنيا طوال فترات حكم العرب فيها.

* * *

= مكررة لصراع دائم بين قوتين، وفي القول بذلك مبالغة يقصد بها نوع من التقدير لحركة الاسترداد المسيحية التي يقال عنها إنها بدأت منذ دخول العرب أسبانيا.

تتضح لنـا الآن صورة المجتمع الإسلامى الأندلسى عند ظهوره ، وكان مجتمعا يتحكم فيه عنصر ان فاتحان قويان ، لم يتفقا معا ، ولم يتقابلا إلا عنـد هدف واحد هو خـدمة الدين ونشره ، وعاشا شـبه منعزلين فـترة طويلة من حياتهما ، وقامت بينهما حروب أهلية عمقت الشعور بالعداء المشترك عندهما ، وساعدتهما على سوء الظن ، وكانت هناك جماعات أخرى تنتسب لأصول كثيرة بعيدة ، ولا تلتقى إلا فى الإيمان بالمسيحية ، وكان يطلب منها أن تسالم الفاتحين ، وأن تسير معهم فى طريق العمل لخير الجماعات كلها و ، ذلك رغم إحساسها بحرمة الوطن والدين ، ورغم ضغوط الدعايات المعادية للمسلمين عليهـا ، وإذا لم تـكن هـذه جماعات مسيحية متدينة فإن الاسلام بدورة كان غريبا عليها ، أو كان شـيئا جديدا على حياتها ؛ وأما الجماعات المسيحية المؤمنة فلم تـكن فى حاجة إلى دين جديد ، وكان يكفيها ويشغلها أن تعيش بدينها وحده .

وبعد إدراك جهد المسلمين لخدمة الحضارة والتطور سار الجميع فى الطريق العام ، واعترف الناس بسلطان العرب فى أسبانيا ، ثم غابت من البلاد القيادات المؤثرة ، وكان يمثلها الفاتحون الـكبار من العرب ، وجاءت قيادات جديدة لم تـكن فى مستوى الأحداث حولها ، فكانت تعبر عن وجهات نظر حزبية أو عنصرية أو قبلية .

كان المجتمع الأندلسى عند ظهوره مجتمعا منطلقا ، يرفض القيـود ، ويرى إمكان الحياة فى وحدات صغيرة أو كبيرة تجمعها المصالح المباشرة ، ويربطهـا الشعور بالقرابة ، أو يربطها الفهم الواحد المشترك فى المسائل العارضة ، وجرب هذا المجتمع التـكتلات الأسرية الصغيرة ، والتـكتلات الحزبية والدينية والعنصرية

الكبيرة لمدة قاربت نصف قرن من الزمن ٩٢ — ١٣٨ هـ / ٧١١ — ٧٥٥ م ، وبدا في هذه الفترة أن رجل الشارع وحده أو الرجل العادي في الجماعة الصغيرة أو الكبيرة كان سيد الموقف بالأندلس كلها أو كان المؤثر في حركة المجتمع وتطوره وظهر الحاكم المسلم الممثل للجماعة كلها ، وكأنه كان يمثل فقط جماعة منها ، وربما كان لا يخرج في تفكيره وآماله عن الرجل العادي في أي وحدة بالبلاد ، وظل المجتمع كله مشغولا بعناصر لا تؤمن إلا بالولاء لمصالحها وحدها .

وبعد هذه التجربة التي لم تكن سليمة أو موفقة أيد المجتمع الأندلسي برغبة وبدون معارضة مؤثرة القادم الجديد ، وهو عبد الرحمن الداخل ، وتحمس لوجوده ، وربما كانت الحال السياسية والاجتماعية التي سادت البلاد قبل مجيء عبد الرحمن صورة مكررة لحياة العرب والبربر في شمالي إفريقية ، وربما كانت تعكس بوضوح قلق الجماعات العربية وغير العربية ، وعدم استقرارها في آخر حياة الدولة الأموية بالشام .

ومهما يكن من أمر فقد اختار الأمير الجديد من جانبه أقل العناصر حماسا وتطلعا للسيادة ، فأنشأ بها ملكا أو إمارة له ولأولاده ؛ ولم تعطله معارضات الأقوياء الذين كانوا قد أوجدوا لأنفسهم هناك مكانا ورئاسة ، وظل عبد الرحمن ابن معاوية الأموي سيد البلاد طول حياته ، ثم ترك لأسرته بعده دولة قوية كانت أعظم دول أوربا كلها .

الفصل الثالث

ا — دولة جديدة

تمهيـــــــد

العباسيون والأندلس

عبد الرحمن الداخل

تحقيق الأمـــــل

مرحـــــلة الاستقرار

فى مواجهـــــة الخطر

عصر القـــــوة

ضياع الوحـــــدة

١ — تمهيد :

هرب عبد الرحمن بن معاوية حفيد الخليفة هشام بن عبد الملك بطريقة روائية مثيرة من الشام إلى شمالى إفريقية ، وكان قد تعرض للموت أمام جنود العباسيين المنتصرين على أسرته بعد الصراع الطويل على السلطة فى دولة المسلمين سنة ١٣٢ هـ/٧٤٩ م ، وظل — رغم هروبه واختفائه بعيداً عن مجال الرؤية الممكنة لأعدائه — معرضاً لخطرهم وانتقامهم ، لأنهم كانوا يطلبون جميع الأحياء من بنى أمية ، ويطاردونهم فى كل مكان ، ويصرفون كل اهتمامهم للبحث عنهم ، ويجعلون القضاء عليهم هدفاً من أهدافهم .

وتعرض الأموى الهارب للعنت والإرهاق وهو فى الطريق إلى المأوى البعيد ، وبعد جهد قدم فيه كل وسائله وصل عبد الرحمن بن معاوية إلى الشمال الإفريقى ، وكان يجد فى بعد هذه المنطقة عن نفوذ السلطات العباسية القاسية ملجئاً يتلمس فيه لنفسه ولأماله سبل النجاة من الخطر ، وقضى هناك خمس سنوات فى قلق واضطراب ، وعرف فى هذه السنوات الطويلة أحوال إفريقية ، ومتاعب أهلها ، وكانت بلاداً ممزقة الروابط ، لا تجتمع ولا تتحد ، ولا تعرف لنفسها غاية أو هدفاً ، وقد ساعد على تفتتها ، وتحطيم وحدتها غياب سلطة الدولة عنها ، واختلاف أولاء فيها بين سلطات متنافسة لا تميل للتفاهم والانسجام ، ولا تؤمن بضرورة الوحدة وأهميتها ، وكانت السلطات المتعادية بها تقف كلها أمام الأحداث حولها لتراقب تطورها ، وتعرف نتائجها ، فـلا تندفع بإعلان الولاء للعباسيين ،

ولا بالخروج على طاعتهم ، لأنها كانت تهتم أولا بسلامتها وأمنها من اندفاعات الخطر القادم على الطريق مع الخوارج الثائرين على النظام وعلى الحكام فى طول البلاد وعرضها .

وكان عبد الرحمن بن حبيب — أقوى حكام إفريقية فى ذلك التاريخ — قد فرض نفسه وسلطتة على القيروان وما حولها ١٢٧ - ١٣٧ هـ/٧٤٤-٧٥٤م ، وتعود أن يستقبل الأمويين من المشرق العربى ليقيم عليهم نوعا من الوصاية وليحاول بوجودهم حوله أن يدعم حكمه بالشرعية للمثلة فى الأمراء الأمويين أبناء الدوله وربما كان يرجو أن يقاوم بهؤلاء الأمراء ضغط العباسيين عليه ،أو أن يدفع بهم عن نفسه بعض المتاعب العارضة، أو لعله كان يأمل بتجمعهم معه أن يثير اهتمام الناس به كزعيم كبير لإفريقية وأهلها وأن يلفت نظر العباسيين إلى خطورة دوره فيقابلوه فى منتصف الطريق، ويجعلوا له حظا فى الولاية على بلاده .

ولكن الأمويين اللاجئين لشمالى إفريقية لم يجدوا فى زعيمها سيدا ، ولم يتفقوا معه على غاية ، وربما رأوا أنفسهم أحق بولائه منه بطاعتهم ، فرغبوا عن الوفاء له وتعرضوا بسبب ذلك لعقابه ، فقتل بعضهم ، وفر منه الآخرون إلى الأماكن النائية فى المغرب الأقصى ، وكانوا يأملون أن يجدوا فى المغرب البعيد نوعا من الأمن والسلامة ، وما يشبه الفرصة الطيبة للعمل المناسب لقضيتهم كجماعات كانت لها السلطة على كل الناس ، أو كجماعات كانت ترى حقها فى السلطة على كل الناس .

وهرب مع الفارين من عبد الرحمن بن حبيب عبد الرحمن بن معاوية الأموى بطل الدولة العربية بالأندلس ، ووجد عبد الرحمن الأموى لنفسه بعد فراره مكانا بالمغرب الأقصى، ولم يعيش فى هذا المكان منعزلا عن الناس، ولا منصرفا

عما حوله، بل راقب حركة المجتمع وعرف بعض أسراره ، وقابل جماعات البربر الراغبين عن العمل لصالح غيرهم ، وكانت كراهية حكامهم العرب قد شملتهم ، بسبب ظلمهم لهم ، وسوء سياستهم معهم، فلم يكن أمام عبد الرحمن إلا الأمل فى السلامة وحدها ، فتجول فى نواحى إفريقية الشمالية الغربية ، وعاش حياة الخطر والاضطراب التى عرفها منذ هروبه من بلاد الشام ، وأشفقت عليه بعض قبائل البربر ، وحمت وجوده ، ورغبت فى العمل معه ، غير أنه لم يقنع بدوره فى إفريقية ، أو لم يجد له مكاناً فيها ، وخاف أن يدور هناك فى حلقة مفرغة ، أو أن أن ينتهى به السير إلى طريق مسدود ، فطلب بلاد الأندلس ، وتحقق له فيها الأمل ، وكان له فيها دولة .

والاهتمام واضح فى التاريخ الإسلامى بالحديث عن تكوين أول دولة انفصالية فى بلاد المسلمين ، وقد لا يكفى الآن أن نقول إن شاباً أموياً اضطره حب الحياة بين الأحياء إلى أن يلجأ بنفسه وآماله إلى بلاد بعيدة كان يرى عدم ارتباطها بدولة أعدائه العباسيين ، أو كان يربطه بها الشعور العاطفى الطيب نحو أمه البربرية ، ففر إليها ، وهو لا يرجو إلا أن تخفيه بين أهلها، و إلا أن تحفظ عليه حياته ثم هدته العناية، وصادفه التوفيق، وجاءه الخير المفاجىء ، فأقام لنفسه ولأسرته بالأندلس دولة ، وكان لهذه الدولة شأن كبير فى تاريخ الإسلام والمسلمين ، لأن قصة عبد الرحمن بن معاوية الأموى تبدو مخالفة لهذا القول الشائع ، ويظهر أنه كان يعيش مع الأمل فى أن يعيد من جديد دولة الأمويين بعد انهيارها فى أى مكان من أرض المسلمين ، وكان أسير الرغبة ملكت عليه شعوره وهى أن يكتب لأسرته تاريخاً جديداً بعد أن انتهى وجودها أمام أعدائها العباسيين فى كل مكان ، فجاء إلى شمالى إفريقية ليتحقق رغبته وأمله ،

وفشلت محاولاته هناك وأدرك خطورة الظهور قريباً من مجال النفوذ العباسى القوى فى مصر، وعرف الكثيرمن إلحاح المذاهب الدينية الإسلامية على البربر سكان إفريقية ، وكانت هذه المذاهب الدينية المتصارعة قد أفسدتهم ، وجعلتهم فى حالة دائمة من الغضب والهياج على حكامهم العرب ، وكلها كانت مذاهب ثائرة على الدولة وعلى نظامها ، وعلى حكامها الأمويين والعباسيين معاً ، فرأى عبد الرحمن السلامة فى أن يكون دوره بعيداً هناك بالأندلس .

ويظهر أن الغرض من المبالغة فى ذكر الصعوبات التى قابلت عبد الرحمن ابن معاوية قبل إعلان قيام دولته بالأندلس كان إشاعة نوع من الجو الدرامى حوله ، وإظهاره كبطل عربى كبير لم يسبقه غيره إلى هذا العمل الجديد فى تاريخ المسلمين ، وكان العمل الجديد مثيرا وغريبا فى ذلك التاريخ ، لأنه عبد الرحمن فصم وحدة المسلمين ، وكون لنفسه دولة قوية فى الأندلس البعيدة ، وهو فى حقيقته كان واحدا من الذين وجدوا حولهم جوا مناسبا لإنشاء دولة مستقلة فى الأندلس التى كانت تخضع لظروف تساعد على إعلان الاستقلال عن دولة العباسيين فى الشرق ، وكان الزعيم الجديد ينتسب لدولة كبيرة لها دور عظيم فى تاريخ المسلمين ، وربما كانت منطقة المغرب العربى كله لا تعرف أيام هروبه غير دولة الأمويين وحدها ، وقد ظل ذكر هذه الدولة يتردد هناك منذ أن انضمت المنطقة كلها لدولة المسلمين بعد فتحها على يد الأمويين وجيشهم، ولم يظهر فيها بعد فتحها دعاة يتحمسون للعباسيين حتى أعلن هؤلاء قيام دولتهم بالعراق.

٢ — **العباسيون والأندلس :**

اختار عبد الرحمن بن معاوية المكان البعيد عن نفوذ العباسيين ودعاياتهم،

وجاء فى الوقت المناسب الذى كانت فيه دولة أعدائه فى المشرق العربى مشغولة بشئونها الداخلية ، وبشئون المناطق التى كانت تهمها أولا ، وكانت دولة العباسيين قانعة عند قيامها بما أخذته من تركة الدولة الأموية العظيمة ، وزاد فى قناعتها بما كسبته بعد الحروب الطويلة مع أعدائها عجزها عن العمل الحاسم الكفيل بالنجاح فى المغرب البعيد ، فتركت المغرب لمصيره أو تركته لما بعد الفراغ من الشئون العاجلة، وظهر القلق بوضوح بشمالى إفريقية فى أول عهد العباسيين لأن اهتمامهم به كان ضعيفا لا يساوى اهتمامهم بمصر والشام والحجاز وغيرها من الأقاليم القريبة من مركزهم بالعراق ، فكان حرصهم على هذه الأقاليم عظيما منذ بداية عملهم وبعد إعلان خلافتهم ، لأن أهمية هـذه الأقاليم كانت مباشرة ومؤثرة على كيان دولتهم ذاتها ، وكان لابد لهم قبل أن يستقروا فى أى مكان من أرض المسلمين ، وقبل أن يعلنوا سيادتهم على بلاد المسلمين — كان لابد لهم أن تعترف بوجودهم هذه الولايات ، وأن تعلن الولاء لهم .

فمصر كانت تمثل قوة إقتصادية وبشرية ضرورية للدولة الجديدة ، وكان لها دورها العظيم منذ فتحها فى حياة المسلمين وتطورهم ، وبالشام كانت عاصمة الدولة الأموية ، وفى الشام كانت قوة هذه الدولة ومجدها ، وكانت بلاد الحجاز تمثل السيطرة الدينية والنفوذ الروحى على كل المسلمين ، وبها الأماكن المقدسة التى كان يجب أن تكون مع المنتصرين وحدهم ، ولم يكن من الممكن القول بخلافة شاملة للمسلمين بدون واحدة من هذه الأقاليم لوضوح أثرها فى الدولة وفى مواطنيها جميعا .

وأما بلاد الأندلس الواقعة عند أقصى الشمال والغرب فكان يمكن تركها

للزمن ولساعات الفراغ من الأعمال العاجلة ، وكان بعدها شديدا على العباسيين القادمين من أقصى الشرق من خراسان ، وظلت كذلك بلادا بعيدة عنهم حتى بعد ظهور سلطتهم فى العراق ، وبعد استقرارهم فيه ، ولم تكن هذه البلاد الغربية النائية من مراكز اهتمام العباسيين فى أى وقت من تاريخهم .

لم يكن ممكنا إذا للعباسيين أن يسرعوا للأندلس بعد انتصارهم على الأمويين فى شمالى العراق ، ولا بعد قتلهم خليفة الأمويين فى مصر ، ولذلك تركوا بلاد الأندلس لغيرهم ، وعاشوا بعيدا عنها ، وكأنها كانت جزءا غير مرغوب فيه عندهم ، أو كانت جزءا لا أمل لهم فيه ، ولم يكن ممكنا بالمثل أن تستمر الأندلس مجرد مقاطعة تابعة لخلافة العباسيين فى المشرق العربى بعد أن حول العباسيون مركز الخلافة الإسلامية للعراق البعيد ، وقد شاركت فى فتح بلاد الأندلس عناصر جديدة غير عربية ، وكانت لاتحس بضرورة الولاء لدولة المسلمين ، ولا تؤمن بوحدتهم الشاملة ، ولا بوجوب تماسكهم .

ولا شك أن العباسيين لم يعملوا للسيطرة على الأندلس لاقبل قيام دولتهم ولا بعده ، وقد انصرفوا عنها بدعوتهم ودعايتهم ، وانشغلوا بغيرها ، ومضت ست سنوات بعد الإعلان التاريخى لقيام دولة العباسيين بالعراق وبين إعلان قيام دولة الأمويين بالأندلس ، وكانت هذه فترة كافية للعمل على كسب هذه البلاد وضمها للك بنى العباس ، وكان فيها فراغ فى السلطة ، ويستطيع العباسيون بسبب هذا الفراغ أن يقوموا بدور سهل يضمن لهم النجاح بها ، ولكن دعوة العباسيين ظلت بعيدة عن المسلمين بالأندلس ، ولم يمنع وصولها إليهم عبدالرحمن ابن معاوية أو غيره من أعداء العباسيين وإنما لم يتقدم بالدعوة العباسية إليه

هذه المناطق النائية أصحابها ودعاتها أنفسهم وتركوها للأمويين ، ولغيرهم من المغامرين ليقيموا بها دولة إذا استطاعوا ، وكأن العباسيين ساعدوا بإهمالهم، وتكاسلهم فى إنجاح خطط أعدائهم ، وفى تمزيق الوحدة الإسلامية منذ فجر تاريخهم .

ولقد ترك العباسيون المجال مفتوحا بالأندلس أمام العمل الأموى وغيره، وأمام أنصار الأمويين هناك ، فلم يجد هؤلاء الأنصار فى بلادهم البعيدة من يؤيد العباسيين ودعوتهم ، وكأن هذه الدعوة كانت مقصورة على الشرق وحده أو كانت بعيدة عن الأندلس على كل حال ، وقد ظهرت للعباسيين محاولات لكسب بلاد الأندلس إلى جانبهم ،ولإرجاع وحدة المسلمين العامة بعد ضياعها، ولكنها كانت محاولات ضعيفة ، أو محاولات غير جادة ، فلم تؤيدها قوات كافية ، ولم تثر انتباه الناس وحماسهم، مع أنها كانت تستطيع أن تشكل تهديداً خطيراً ، وخطراً مباشراً لسلطة الأمويين بالأندلس ؛ وقنع العباسيون بما وصلوا إليه فى الشرق البعيد ، وسمحوا بعجزهم عن العمل السليم فى الوقت المناسب بإيجاد جو ملائم يؤدى فيه الأمويون الأكفاء دورهم فى الأندلس بنجاح .

وقد شغل العباسيون أنفسهم عند قيام دولتهم بالانتقام القاسى من أنصار الدولة الأموية ، قبل أن يحاولوا السيطرة على المناطق التى كانت تابعة لهذه الدولة، وتتبعوا أفراد الأسرة الأموية بالأذى فى كل مكان،وأرادوا أن يزيلوا وجودهم كله من البلاد كلها ، وأن يقيموا عقاباً غير مفهوم ، وغير مقبول ، حتى على الأموات منهم .

وكان يبدو غريبا أنه خلال محاولات عبد الرحمن الداخل الأولى لكسب

الموقف لصالحه فى الأندلس ، لم يحاول العباسيون أن يقفوا ضده ، ولم يسرعوا بالعمل لتعطيل تقدمه ، وكأنما كان هذا يعمل فى عالم غير عالم المسلمين ، وفى دولة غير دولتهم ، وانشغل أعداء عبد الرحمن عنه بمشكلات كانت تستغرق وقتهم ، وتستنفذ جهودهم ، وكانت أيضاً فوق رغبتهم فى السيطرة على كل بلاد المسلمين ، أو كانت تعجزهم عن تحقيق هذه الغاية ، وربما بدت قضية الأندلس أمام العباسيين قضية خاسرة ، فلم يظهر لهم عملاء بها فى الوقت المناسب — وكانوا يهملون أمور البلاد الواقعة غربى مصر — واكتفوا بإنهاء التمثيل الأموى للمسلمين بقتل آخر خلفاء الأمويين بمصر ، وقاموا بنوع من الإشراف الخفيف على رعاياهم ومؤيديهم فى الشمال الإفريقى وحده .

وربما كانت دعوة العباسيين تبدو غير مفهومة أو غير مقبولة عند الأندلسيين ، أو كانت تبدو أمامهم دعوة غير إيجابية ، لأنها كانت مبنية على القول بوجوب رفع الظلم الاجتماعى والاقتصادى عن المظلومين من مواطنى الدول العربية ، وكانت هذه الدعوة تتهم الأمويين بمحاباة العرب على حساب الشعوب الأخرى ، وتقول باغتصابهم السلطة من أصحابها ، وكل هذه الدعاوى كانت بعيدة عن فهم الأندلسيين وحاجتهم ، ولم يكن عندهم إحساس مباشر بقسوتها لأن الظلم الاجتماعى والاقتصادى لم يكن معروفاً فى الأندلس ولم يكن اغتصاب السلطة من أصحابها من المشكلات الأساسية لهذه البلاد ، وإنما كانت مشكلاتها الظاهرة تنحصر فى قلق شعبها ، وإحساسه بالضياع وسط الفوضى التى كان يسببها عدم الاهتداء إلى نظام ثابت يريح الناس من معارك الخلاف حول الرئاسة ، وحول العصبيات المتعددة ، لهذا ظهر عبد الرحمن الداخل هناك كأنه كان الأمل الباقى

فى السلام والاستقرار ، وطالب مؤيدوه وأنصاره بأن تتجمع حوله العناصر القوية ليعيد للبلاد الأمن والوحدة والنظام .

ثم إن سكان الأندلس لم تكن بينهم عناصر شيعية قوية تفهم مشكلة آل البيت ، وتعطف على قضيتهم ، وتدرك أهداف العباسيين من دعاياتهم القائلة بحقهم فى حكم المسلمين ، وكانوا كلهم — شاميين وبلديين — يعيشون بعيداً عن تأثير الدعايات المذهبية المنادية بحق العباسيين أو بحق غيرهم فى السلطة على الناس جميعاً ، ولم يسمع البربر بدورهم فى شمالى إفريقية غير الآراء الخارجية المعارضة لاحتكار السلطة فى أسرة أو جماعة ، وكانوا يتأثرون بقوة بفكرة المساواة فى الاسلام ، ويتحمسون لهذه الفكرة ، وأما محاولة خروج بعضهم باسم الشيعة على عبدالرحمن الداخل بعد إعلان دولته، وبعد استقرارها ، فيبدو أن هذه كانت تجربة سريعة من تجارب المغامرين الراغبين فى السلطة وحدها ، أو كانت نوعاً من الاستغلال الساذج لعواطف الجماعات البربرية الراغبة فى البعد عن سيطرة هذا الوافد الجديد .

لقد كان يناسب الأندلسيين أن يجدوا فى بلادهم أميراً يمثل أسرة لها تاريخ يعرفونه فيجتمعون حوله ، ويحققون معه وبه آمالهم فى السلام والانسجام ، ومن تاريخ الدولة الأموية المعروف عند المغاربة أنهم لم يعرفوا دولة المسلمين إلا برئاسة أموية، وبعضهم لم يعرف الاسلام إلا عن طريق الأسرة الأموية وحدها، وقد قدمت هذه الأسرة وهى فى مراكز السلطة جهوداً قوية ساعدت سكان المغرب والأندلس على الدخول فى الاسلام وفهمه ، وكان منها أبطال أتقياء خدموا قضية الدين وضحوا فى سبيله .

٣ — عبد الرحمن الداخل

وجد عبد الرحمن الداخل عيون أعدائه حوله في كل مكان، وعرف وهو في إفريقية تذبذب الحكام بين الولاء للعباسيين والوفاء للأمويين وأساءه ميل الناس عن المنهزمين مثله ، وكأن الجو كله كان قد فسد أمامه في شمالي إفريقية بالنسبة للعرب جميعاً ، ولكنه كان يريد الأندلس بجهده ، وكان يأمل أن ينجح فيه وحده ، فأقام في طنجة قريباً من الأندلس وعرف الكثير عن هذه البلاد ، وعن مشكلاتها ، واتجاهات أهلها ، وكان الأندلس كله إقليما يفسد الاضطراب أمره ، ويعاني من الفراغ في مكان السيادة فيه ، فرسم عبد الرحمن خطة العمل ، وأرسل لبلاد الأندلس وفداً من مؤيديه وأنصاره ، وفتح له هذا الوفد أبواب العمل والأمل ، وأبلغه تأييد الموالي واليمنيين له ، وتحمسهم لوجوده ، وكان بين اليمنيين وبين المضريين حكام البلاد خصومات نشأت بسبب الخلافات على السلطة هناك ، فأراد اليمنيون من عبد الرحمن الأموي أن يأخذ دوره في حكم البلاد كلها ، وأن يفسح لهم مكانا للعمل بين أعدائهم الذين غلبوهم وتسلطوا على مصيرهم ومصير بلادهم بالقوة وحدها .

ويشير المؤرخون إلى بساطة الدور الذي قامت به رسل عبد الرحمن بن معاوية في أول لقاء لهم بأهل الأندلس ، ويذكرون الكثير عن الدور الإيجابي الذي قام به موالي الأمويين هناك ، فقد نشط هؤلاء الموالي للعمل مع الأمير الجديد ، وكأنما كانوا معه على ميعاد ؛ أو كأنما كانت له هناك « شعبية » قوية مخلصة تدفعها إلى تأييده الرغبة في الخلاص من المنازعات المتكررة حول السلطة والسيادة بالبلاد ، وكان هذا الأمير يمثل أمام مؤيديه تاريخاً عظيماً لدولة

عظيمة ، فحرصوا عليه وأيدوه ، وكان ارتباطهم بأعدائه العباسيين ضعيفاً ، أولم يكن عندهم إحساس بالتبعية للعباسيين أصلا .

ودخل عبدالرحمن بن معاوية الأندلس تصحبه آماله وحدها سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م، ولم يكن همه أن يحفظ على نفسه الحياة فيها ، أو أن يعيش واحداً من أهلها ، وإنما كان يريد أن يحقق آماله القوية التي كانت تزداد وضوحا أمامه مع الأحداث والزمن ، وكانت تشغله وتزيد فى حماسه وجرأته .

وجاءته بشائر النصر بقدوم المؤيدين له من كل مكان ، ، وقدم نفسه لمؤيديه كأمير يستظل بالراية الأموية ، ويحس بقوة نفسه وحزبه ، وكان عقله يعى كل أمجاد قومه الأمويين ، وكان قلبه مفعماً بالرغبة فى بعث الدولة الأموية التى انهارت بالشرق البعيد أمام العباسيين ، ثم بقى لها من القوة فى الغرب ما استطاعت بها أن تجدد كيانها ، وأن تحقق وجودها فى المكان الذى وجدت لنفسها فيه فرصة للحياة من جديد .

جاء عبد الرحمن الأموى للأندلس البعيدة ، وكأنه كان مدعوا إليها بإلحاح وقوة ، أو كأنما كان يجذبه إليها إحساس الخبير الواعى ، فوجد فيها جماعات من الهاربين الراغبين عن الحياة مع العباسيين فى المشرق العربى ، وكان المعارضون لسياسة العباسيين قد اتخذوا بلاد المغرب وطنالهم بعد أن انتهى الحساب فى المشرق كله لصالح العباسيين وحدهم ، وكان فى وجود عبد الرحمن بن معاوية بين الناس هناك فرصة طيبة للعناصر الراغبة فى الاستقرار بعد الضياع فى الفتن التى كانت تدور دائماً حول الرئاسة أو حول مصادر الرزق الواسعة ، وشغلت الفتن بلاد الأندلس كلها منذ أيام فتحها الأولى ، وكأنما جاء هذا الوافد الجديد لمجتمع كان يبحث عنه ، أو كان فى حاجة إليه .

ولا يعنى ذلك أنه وجد الطريق أمامه سهلا ، أو أنه لم يواجه الأخطار من حوله ، وإنما يعنى أنه وجد من عناصر المجتمع القوية من استطاع بهم أن يحقق رغبات الناس حوله ، وأن يقضى على عوامل الفوضى ليؤسس بالأندلس إمارة أموية وراثية قوية .

ومعنى هذا أن محاولة عبد الرحمن بن معاوية الناجحة ببلاد الأندلس لم تكن محاولة عشوائية صادفتها السلامة ، ولم تكن محاولة أخيرة لشخص يائس يريد أن يتخلص من متاعبه وهمومه ، ولم تكن مغامرة سريعة لا يؤمن صاحبها بشيء من نتائجها ، وإنما كانت عملا آمن صاحبه بسلامة نتائجه قبل البدء فيه ، ولا شك أن عبد الرحمن الداخل كان يدرك أن تعرضه لتحدى العباسيين الأقوياء وهم فى ذروة مجدهم وانتصارهم كان يعنى الخطر عليه وعلى آماله ، وأن كل الأمويين كانوا مطاردين فى كل مكان ، ومطلوبين عند كل الحكام ، ومع ذلك فلم تستطع أعمال العنف والقسوة التى مارسها أعداؤه ضد أسرته أن تحطم إرادته ، أو أن تجعله يخفى وجوده فى بقاع الأرض الواسعة ، فسار نحو غايته ، وكانت أعماله تظهر مدى وثوقه من مستقبله ، ومدى أمله فى نجاح عمله .

وبعد نجاح عبد الرحمن الداخل بالأندلس عرض نفسه للرؤية الواضحة أمام أعدائه العباسيين ، وظهر كمتحد لسلطانهم هناك ، وكان يمثل الدولة التى قضوا عليها ، وكان فى وجوده إحياء لذكرى هذه الدولة فى نفوس مؤيديها وأنصارها ، وفيه أيضاً الأمل الكبير لأعداء العباسيين فى كل مكان .

جاء عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، وساهمت عوامل رئيسية فى نجاح خطة ، وكان منها حالة الانهيار والتمزق التى شملت عالم المسلمين أثناء الصراع

الطويل على السلطة بين العصبيات الأموية والعصبيات العباسية فى كل مكان بالمشرق العربى ، ثم شغلت الاضطرابات والفتن حكام المسلمين الجدد ، فانصرفوا عن مزاحمته ، وتركوه يعمل بعيداً عنهم ، وكانت بلاد الأندلس بعيدة عن مواقع الصراع بين القوتين الإسلاميتين الكبيرتين وهى لهذا السبب ذاته كانت تعانى من غياب السلطة أو ضعفها ، فلم تكن فيها قوة تقف بين الأحزاب المتنازعة على السيادة فيها ، ومن هنا وجدت الأحزاب هناك فرصتها للتطاحن والصراع فيما بينها ، وخضعت البلاد كلها بسبب ذلك للفتن الداخلية .

ومعنى هذا أن بعد بلاد الأندلس عن مركز السلطة بالدولة كان من العوامل القوية فى ازدياد الخلاف بين عناصرها ، وأن سلطات الدولة البعيدة كانت تعجز فى كثير من محاولاتها عن فرض نوع من الحلول الضرورية على المتصارعين حول السيادة فيها .

وتوزعت العناصر العربية إلى يمنية ومضرية ، وإلى شامية[1] وبلدية ، واختلفت دائما وتقاتلت فى حروب أهلية مؤسية ، وكانت هذه العناصر نفسها تتجمع أحيانا لتحارب الأكثرية البربرية الثائرة على السيادة العربية الغاضبة من ضياع حقوقها المشروعة .

وبسبب الصراع العنيف بين العرب والبربر أضاع المسلمون مناطق واسعة

---

(١) كان صراع العرب فيما بينهم بعد فتح الأندلس بين الجماعات البلدية (الفاتحين الأول) وبين الجماعات الشامية (الوافدين الجدد) ثم تغيرت أسماء التجمعات العربية المختلفة بعد استقرارها فى الوطن الجـــديد ، فأصبحت يمنية ومضرية ، ورجعت بهذه التسمية إلى مسمياتها التى كانت معروفة بها بالمشرق العربى .

من البلاد التى فتحوها ، وتركوا هـــذه المناطق الضائعة لأعدائهم المسيحيين ليعمروها بعدهم ، وليهيئوا لأنفسهم فيها وجودا مستقلا ، وكان الوجود المسيحى بالمناطق القريبة من بلاد المسلمين — أو المناطق التى كانت من بلاد المسلمين — بعيد الأثر فى حياة المجتمع الإسلامى الأندلسى كله .

ولم يسفر النزاع بين المسلمين المختلفين فى الأندلس عن نتيجة حاسمة لصالح أحد الفريقين ، أو عن تفوق صريح لأى من القوات المتحاربة وإنما زاد الجميع ضعفا ، وجعلهم لا يلتقون ولا يجتمعون على شىء من أمورهم أبدا ، وكان ضعفهم يعنى أن أية قوة خارجية كانت تستطيع أن توجه الموقف كله لصالحها وحدها ، ويكون لها بذلك المستقبل فى النهاية .

لقد أسهمت الصراعات الداخلية بين العناصر الأندلسية فى نجاح عبد الرحمن الداخل ، فحاول أن يضم هذه العناصر حوله ، وأن يقوى وحدتها وتماسكها ، ونجحت محاولاته فأظهر للبلاد شخصية مستقلة ومتميزة ، وأبعدها عن التبعية المباشرة وغير المباشرة لدولة الخلافة العباسية ، وكان بذلك أول العاملين على تقسيم بلاد المسلمين إلى دولتين منفصلتين ، وأقوى الناجحين فى تحقيق هذه الظاهرة الجديدة ، وربما كانت هـــذه الظاهرة شيئا غريبا عند المعاصرين لعبد الرحمن الداخل ، أو ربما كانت شيئا جديدا لم يعرفه الناس هناك ، ولكنه نجح فى بيان أهميتها ، وفى تشجيع الناس على قبولها .

وكان عبد الرحمن سياسيا فلم يسرع إلى الإعلان عن رغباته الصريحة ، ولم يرفض سيادة العباسيين على بلاده ، بل ظل يدعو لهم عن المنابر فى الأندلس ، وكأنه

كان واحدا من ولاتهم ومؤيديهم ، أو كان لا يشعر بالأسى منهم، وقصد بذلك نوعا من التغطية لأهدافه الحقيقية، أو أراد أن يتفادى غضب المتعاطفين من أهل الأندلس مع أعدائه، حتى يتأكد وجوده ، ويستقر سلطانه .

ولم يبطل عبد الرحمن بن معاوية الدعاء لخليفة العباسيين فى العراق من فوق منابر الأندلس إلا بعد ستة أشهر من إعلان قيام دولته ، وقال إن ذلك كان مطلبا من مطالب أسرته وبإلحاحها ، وبعد أن نجح فى خطواته الأولى تدعم سلطانه على البلاد كلها ، وتمكن من الاستقرار فيها ، وغلق أبوابه كلها أمام دعايات أعدائه ، ونمى بالتدريج شخصية بلاده المستقلة ، وعاش فيها أميرا يطلب من الناس الولاء لنفسه ، ويرفض أن يتولى هو الآخرين .

ولا شك أن مجالات العمل المناسبة لتكوين الدول المستقلة فى الأطراف البعيدة كانت مهيأة أمام المغامرين طول عهد الدولة العباسية ، وقد برزت هذه الظاهرة حتى فى العصر الذهبى لهذه الدولة ، ولكن أسئلة واضحة تبدو دائما للدارسين لتاريخ الأندلس وهى :

كيف تهيأ مجتمع المسلمين بهذه البلاد فى هذا العهد المبكر لقبول فكرة الانفصال عن دولة المسلمين الكبيرة الممثلة فى الزعامة العباسية ؟ .

ولماذا ساعد المجتمع الأندلسى على هذا الانفصال السريع عن جسم الدولة العباسية وكانت لا تزال تملأ دنيا المسلمين بالدعايات القوية المؤثرة ؟ .

ثم إلى أى مدى كان حرص هذا المجتمع على الدولة الأموية الجديدة ؟ .
وكيف حرسها مجتمع الأندلس ورعاها ودعمها ؟ .

وكان استقلال المنطقة برئاسة أمير أموى يمثل وجهة نظر المعارضين أصحاب الدولة المنهارة ، وهذا يعنى أن ذلك الإقليم البعيد كان يتحدى بتأييده للأمويين سلطة الدولة العباسية فى صراحة ، وكان يرفض ضياع السلطة الأموية جملة من دولة المسلمين .

وقد أشرنا إلى بعض أسباب النجاح فى تحقيق هذه الظاهرة الجديدة عند الحديث عن قيام هذه الدولة ، وقلنا إن بعد بلاد الأندلس عن مركز الدولة العباسية فى العراق ، وعدم تأثرها الواضح بالأحداث السائدة فى المشرق العربى جعل عبد الرحمن الداخل يعمل وكأنه كان بعيداً بعمله عن عالم المسلمين ودولتهم ، فلم يشعر العباسيون بوجوده أو بخطورة أعماله ، أو كانوا يدركون دوره ويغضبون لنجاحه ولكن عجزت قدراتهم عن الإسراع بالوقوف ضده ، وتعطيل عمله .

ومعنى هذا أن فرصة مناسبة كانت هناك ببلاد الأندلس أمام الراغبين فى الاستقلال بها بعيداً عن نفوذ الدولة العباسية وسيطوتها المباشرة ، وكانت هذه البلاد لا تخضع طول عهدها لإشراف الحكومات المركزية ، وقد عجزت الدولة الأموية نفسها عن فرض سلطتها عليها وعن إشاعة السلام فيها ، ومن المعروف أن الخليفة عمر بن عبد العزيز الشهير بالعدل والتقوى فكر فى إرجاع المسلمين منها ، وربما كان ذلك لبعدها ، أو لغموض أحوالها واضطرابها ، وقد ظل منصب الوالى فيها يخضع لرأى العصبيات القوية بها ، وكانت هذه العصبيات تلعب دوراً أساسياً فى شئون البلاد كلها .

ثم هى بلاد لم تكن بطبيعتها هدفاً مباشراً للدعوة والدعاية العباسيتين ،

وغربى دولة المسلمين كله لم يكن هدفا أساسيا للدعوة العباسية،وربما حدث نوع من العمل الدعائى والسياسى لصالح العباسيين فى هذه المناطق البعيدة بعد قيام دولتهم،وأما قبل قيام هذه الدولة فكان العمل كله موجها لدوائر الشرق النائية فى خراسان وما حولها ، وكانت دولة الأمويين تقف فى الطريق إلى الأقاليم الغربية من دولة العرب والمسلمين .

ولم تمر فترة من الزمن ـ منذ فتح الأندلس حتى قيام الدولة الأموية بها — تكون كافية لظهور الشخصية الاجتماعية القوية للأندلسيين ، فقد كان مجتمعهم مجتمعا موزعا مضطربا لا يستقر على حال ،وتتنازع فيه الرئاسات القوية لجماعات كبيرة كانت تشبه الأحزاب السياسية الباحثة عن المكاسب السياسية وغير السياسية فى المنطقة كلها ، فكانت حاجة هذا المجتمع الأولى فى أن يجد السبيل إلى الاستقرار حول زعامة واحدة تعرض نفسها فى داخل البيئة ذاتها ، وتكون مع ذلك بعيدة عن الإحساس بالتبعية لقوة أخرى تفرض سيطرتها على الناس من بعيد ، وكأن الأندلسيين كانوا يريدون زعيما يقيمونه بأنفسهم ليعيش معهم ، ولا يشعر بالتبعية لغير بلاد الأندلس وحدها.

وصاحب قيام دولة العباسيين أعمال عنف شديدة ، جعلت بعض العناصر النشيطة المعارضة لهم تترك بلاد المشرق العربى ، وتفر بعيدا عن خطرهم ، وتقف ضدهم فى أماكن الأمان النائية ، وقد أسرف العباسيون — كما هو معروف — فى القسوة والعنف مع أعدائهم جميعاً ، وأرادوا إقامة دولتهم ولو بالبعد عن التفاهم مع مواطنيهم ، وكانت تشغلهم أولا أمور أعظم من الرغبة فى الحرص على امتلاك بلاد الأندلس،ومنها محاولة العمل على الاستقرار فى المناطق التى كسبوها

من أعدائهم الأمويين ، لأنه بدون استقرار هذه المناطق وبدون تسليمها بسلطتهم ما كانوا يستطيعون المحافظة على مراكزهم كسادة لمجتمع المسلمين كله، وصحيح أنهم رغبوا فى أن يرثوا كل التركة الأموية وألا يتركوا شيئا لغيرهم منها ، ولكن أمانيهم ورغباتهم كانت أكبر من وسائل العمل المتاحة لهم ، فكان المغرب يحتاج لجهود كبيرة حتى يحس سكانه بوجودهم كسادة جدد لدولة المسلمين الواسعة ، وكانت كل بلاد المغرب تموج بالفتن وتتردد فى أجوائها أصداء الدعايات الخارجية المعادية للعباسيين وللأمويين معا ، وكانت أيضاً مشحونة بجيوش الخوارج الثائرين على السلطات كلها ، ولم يستطع الخليفة أبو جعفر المنصور ١٣٦ — ١٥٨ هـ / ٧٥٣ — ٧٧٤ م — رغم كفاءته — أن يتغلب على العناصر الثائرة بالمغرب العربى إلا بعد جهد كبير ومحاولات قوية ، ومع ذلك استمرت المنطقة مصدرا لمتاعبه ومتاعب أسرته بعده، وعجز هارون الرشيد نفسه — وهو واحد من أعظم خلفاء المسلمين جميعا — عن أن يمد نفوذه لهذه البلاد البعيدة ، ووجد لها الحل المناسب فى إقامة دولة الأغالبة بإفريقية سنة ١٨٤هـ/ ٨٠٠م، وكان قيام دولة الأغالبة يعنى حماية العباسيين وحماية ممتلكاتهم شرق تونس من شر أعدائهم السلديين فى المغرب والأندلس .

٤ — تحقيق الأمل :

لقد كان القادم الجديد على مستوى الأحداث حوله ، فعرض رئاسته على أطراف النزاع التى كانت تقف متحفزة لتكرار أعمال العنف فيما بينها، ولم يكن هناك أمل فى اتفاقها أو تلاقيها حول شروط مقبولة ، وانحاز له الجانب البعيد عن السلطة ، أو الجانب الضعيف المنهزم ، وكانت تشغله الرغبة القوية فى النصر

الأخير على خصومه المتحكمين فيه ، وانضمت للأمير جماعات من العرب والبربر ،فكسب بهم المعركة الأولى ضد والى الأندلس يوسف الفهرى فى ١٠ ذى الحجة ١٣٨ هـ/ ١٣ مايو ٧٥٦ م ، وكتب الأمير الأموى بعد النصر لبلاد الأندلس كلها تاريخا جديدا ، ولكن نجاحه فى المعركة الأولى لم يكن يعنى أنه سيعيش بعدها حياة مطمئنة آمنة ، لأن النصر فى هذه المعركة كان فاتحة لعهد جديد من المتاعب والفتن ، ولم يضمن عبد الرحمن بن معاوية لنفسه بهذا النصر الحاسم إلا أن يكون واليا ، أو قريبا من الولاة الذين يفرضون أنفسهم على الأحداث ، أو الذين تفرضهم الأحداث على الناس ، وبقيت أمامه بعد ذلك مشكلات أخرى كان من أهمها وهو شاب لم يتجاوز عمره ستة وعشرين عاما :

(ا) أن يثبت كفاءته كحاكم لقوى لجماعات ترجع فى أصولها البعيدة إلى عصبيات مختلفة ، وتتعارف بهذه العصبيات وتحرص عليها ، وتدور حولها ، وكانت كلها جماعات لا تعرف التماسك والانسجام فى وحدة شاملة .

(ب) وكانت أمامه أحزاب للمعارضة تتهددها الهزيمة،ويتراءى لها الفشل ، ثم هى ترفض الهزيمة ، وتأبى التسليم بها ، ومن هنا كانت تتجمع لتأخذ دورها فى الانتقام عند مجىء الفرصة .

(جـ) وكانت هناك العناصر البربرية القوية المتزايدة العدد التى تحتفظ فى قلوبها بالشك وسوء الظن بكل العرب ، وقد جربت حكم العرب قبل مجىء عبد الرحمن بن معاوية ، ومارست الحياة معهم ، وفى العهد الجديد دخلت مع

الأمير فى حروبه لتحصل بعدهذه الحروب على مكاسبها السريعة المغرية ، ولتنال حظها من مغانم الصراع على السلطة بين المتحاربين .

(د) وفى جانب الأمير الجديد وقف أنصار له وحلفاء ، ولم يريدوا من العمل معه إلا تأكيد امتيازاتهم القبلية لأنهم كانوا جماعات متميزة فى المجتمع الأندلسى المكون من أجناس بشرية متعددة وكان غريباً على هؤلاء الأنصار والحلفاء أن يجدوه رجلا يسعى لإقامة دولة ، أو رجلا مخالفا فى آماله كل اتجاهات المغامرين الذين أخذوا دورهم قبله بين المارين على طريق السيادة المؤقتة .

(هـ) وهناك فى الشمال كانت الجماعات المسيحية التى تتجمع وتتربص بهدف تخليص المسيحية من الإسلام ، واسترداد الأرض من المسلمين ، وقد وجد هؤلاء فى الصراع الداخلى بين المسلمين فرصتهم المطلوبة وشجعهم انتصار من ادعوا تمثيل المسيحية من الفرنج على العرب فى موقعة بلاط الشهداء سنة ١١٤ هـ/ ٧٣٢ م ، وقد عرف المنتصرون على العرب معنى النصر لأول مرة ، وكانت هذه المرة الأولى سابقة مثيرة ومشجعة تدعو للأمل ، وتدفع إلى الجرأة على المسلمين فى كل مكان .

(و) وطول الفترة السابقة لقيام الدولة الأموية ٩٢—١٣٨هـ/ ٧١٠ — ٧٥٥م كانت بالأندلس جماعات عربية ، وجماعات غير عربية تعيش كلها منعزلة بالمناطق البعيدة ، وتساعدها الأوضاع الجغرافية — التى كانت تختلف تبعاً للأقاليم — على الانعزال ، والبعد عن الآخرين ، ولم تكن هذه الجماعات تفهم

معنى لسلطة الدولة المركزية ، أو لم تكن تجد لهذه السلطة ضرورة أو حاجة ، وربما وجدت فيها نوعا من الاعتداء على حريتها وإرادتها ، فعاشت فى شبه انفصال وتمزق ، وتعودت على الحيــاة المتحررة من سيطرة الزعامات الخــارجية .

(ز) وكان هناك دائماً خطر العباسيين الأقوياء الذين ظلوا يلحون بالدعاية ضد الأمويين جميعا ومنهم عبد الرحمن بن معاوية ، فكانوا يتهمونه بالخروج على وحدة المسلمين المطلوبة بأمر الدين ذاته .

فكان على الوافد الجديد إذا أن يفهم الناس بلغة عصرهم أنه يريد ملكا ولا يسمح لأحد بتهديده ولا بالمنافسة فيه ، وإذا كان بعض الناس هنــاك من وسائل العمل الضرورية لإقامة هذا الملك فإن عبد الرحمن بن معاوية كان يرفض الوصاية على شيء من أموره حتى من أنصاره ومؤيديه ، وكان عليه أن يجمع الناس حوله وتحت رئاسته ، ولو بوسائل القوة بعد أن فشل التأثير فيهم بأساليب البلاغة وعباراتها ، وكانت لغة العرب قد عجزت عن التأثير فى العرب أنفسهم بعد أن ذاعت بينهم الخصومات والفتن ، وكان عليه أن يعمل مع قواته ومؤيديه ، وأن يستمر فى العمل طول حياته ليحفظ نفسه ودولته من الأخطار حــوله .

١ — وقد جاءته الأخطار فى ثورة يقودها أحد العاملين لحساب العباسيين[1] فى المغرب سنة ١٤٦ هـ/٧٦٣م وليس غريبا أن يكون عبد الرحمن الداخل مفعما

---

(١) اسمه العلاء بن مغيث ، وكان حبه للعباسيين فى درجة بغضه لأية سلطة أموية

فى صميمه بالحقد على العباسيين وعلى العاملين معهم . لأنه كان يأسى لقسوتهم مع أسرته ، وكان يدرك أيضا حجم الأخطار التى تمثلها دعوتهم بالأندلس ضده، فقد تكسب هذه الدعوة فى هذه البلاد أنصارا أقوياء يجدون فى أنفسهم لها قبولا ، ويجدون من منطقهم لتأييدها حججا، مثـــل القول بضرورة اجتماع المسلمين جميعا فى وحدة شاملة ووحدة كلمتهم حول أمير المؤمنين فى بغـداد ، والقول بأن الفرقة ضد الدين ذاته، وأن الأمويين خارجون على الدين وعلى النظام، وقد ملأت الخلافة العباسية دنيا الناس فى ذلك الوقت بالدعاية الملحة بأنها كانت تعمل لصالح كل الطوائف وكل الجماعات ، وبأنها كانت تستمد الحياة واستمرار البقاء فى السلطة من الصبغة الشرعية التى كانت تستظل بها دائما ، وقد تطورت هذه الصبغة الشرعية إلى ما يشبه التأييد الإلهى لحق الخلافة العباسية وحق رجالها فى السيادة على المسلمين جميعا .

ورغم بعد المسافة بين الأندلس والعراق ، ورغم قوة الأمويين وظهورهم بالمغرب البعيد فقد أثار أمر العباسيين عبد الرحمن الداخل وأزعجه ، ولكنه وجد من كفاءته وقدرته ما ساعده على أن يقف لينتصر على ممثل المنصور العباسى بالأندلس ، ثم قتله ، وأرسل له رأسه فى مكة أيام حجه سنة ١٤٧ هـ / ٧٦٤ م .

٢ — وتكررت على الأمير الجديد ثورات البربر المتوالية فى السنوات : ١٥٢ هـ / ٧٦٩ م ، ١٥٤ هـ / ٧٧٠ م ، ١٥٥ هـ / ٧٧١ م ، ١٥٧ هـ / ٧٧٣ م ، ١٥٨ هـ / ٧٧٤ م ، وادعى زعيمهم صلة القرابة بالرسول الكريم عليه السلام ، وكانت هذه الدعوى إحدى الخدع السياسية المعروفة ، وإحدى الطرق المباشرة إلى قلوب الناس فى كل مكان ؛ ولم تنجح دعوى القرابة من الرسول وآله ،

وراح الثائر البربرى وجيشه ضحية لسوء تقديره، ولقوة عبد الرحمن الداخل سنة ١٦٠ هـ/٧٧٧م .

٣ — ثم واجه الأموى المنتصر مؤامرة أخرى، اشترك فيها خصومه العرب فى داخل البلاد [١] مع خصومه الفرنج فى خارجها ، واختلف المتآمرون عليه حول خطة العمل المشتركة ، وتسبب اختلافهم فى نجاة عبد الرحمن وجيشه ودولته وكان معرضا فى هذه المؤامرة لاختبار رهيب يتحدد بعده مصيره ومصير بلاده ، ورجع شارلمان ملك الفرنج لى بلاده مهزوما سنة ١٦١ هـ/ ٧٧٨ م .

لقد ألحت الأخطار والفتن على عبد الرحمن بن معاوية طول حياته ، وألجأته إلى أن يعيش فى غمار المتاعب التى تواجه دائما بناة الدول فى كل زمان ومكان، وكان قد ابتدأ العمل فى مواقع العمل ذاتها ،ووعى كل الأمور حوله لينجح فى غياب سلطة الدولة العباسية،ودفعته كفاءته الشخصية،وإحساسه العميق بمحنة أسرته للعمل بثبات وعزيمة ، وأيده الراغبون فى الاستقرار والتغيير ، ونصره حزب الدولة الأموية المنهارة ، وبهذا الحزب وحده استطاع الأمير الجديد أن يواجه أعداءه فى جرأة ، وأن يهاجمهم بقوة ، وأن ينتصر عليهم فى النهاية ، ولم يكن أعداؤه يعملون تحت زعامة شاملة ، أو فى قوات موحدة ، بل كانوا جماعات

---

(١) تحالف والى برشلونة ، ووالى سرقسطة العربيان مع شارلمان الفرنجى ضد عبد الرحمن الداخل بالأندلس ، واقترحا عليه غزو البلاد الأندلسية الشمالية وتعهدا بمعاونته وبتسليمه بعض الحصون والمدن ، ثم اختلف المتآمرون معا ورجع جيش الفرنج إلى بلاده تاركا الأندلس للأندلسيين ، وكاد هذا التحالف يعرض المسلمين بالأندلس كلها لمعركة الحياة أو الموت .

متخاصمة، أو كانوا جماعات متقاتلة، انتظرت دورها معه، ووجدها مفتتة ففشلت في اعتراض مسيرته، ثم تتابعت أمامه على طريق الضياع والموت .

لقد نجح عبد الرحمن الداخل في تأسيس دولة مستقلة بالأندلس، وكانت هذه الدولة امتداداً لدولة الأمويين بالشام، وكانت نهاية لعصر الاضطراب والفوضى، ويظهر أن جماعة من الأمويين وأعوانهم كانت تشعر قبيل انهيار دولتهم أمام العباسيين بالخطر القادم عليهم من الشرق البعيد، وبعد أن ضاع جهدهم في مقاومة ضغط أعدائهم، وبعد أن فشلت كل محاولاتهم أمام الخطر الجديد أدركوا خسارة القضية التي كانوا يدافعون عنها، وفكروا في البعد عن بلاد الشام كلها وزادهم الخلاف بين الزعماء الأمويين أنفسهم في آخر أيام دولتهم رغبة في البحث عن مكان جديد، فأسرعوا للمغرب البعيد، واتخذوه ملجأ للأمن والأمان، ولم يدرك العباسيون من جانبهم خطورة العمل في هذا المكان النائي، فتركوه لمصيره، وقنعوا بأن يكون بينهم وبين أعدائهم الأمويين بالأندلس بحرا، والتمس المنصور — أقوى خلفاء بني العباس — لنفسه عذرا في الفشل أمام عبد الرحمن الداخل، وكان يثنى على كفاءته، ويرى فيه ندا خطيرا له ولدولته .

وقد استمر المنصور العباسي السنوات الأولى من حكمه الطويل مشغولا بالأعمال التأسيسية المطلوبة لسلامة دولته، وكان يواجه في أول حكمه ثورات خطيرة، كان بعضها من أسرته العباسية نفسها، وكان بعضها من أقاربه العلويين، وكان بعضها الآخر من الفرس أو غيرهم، ومع نجاحه في القضاء على هذه الثورات جميعا فقد استمر يائسا من حكم بلاد الأندلس وظل بعيداً عنها، وقد عاش عمرا طويلا، وتهيأت له خلال هذا العمر الطويل

الظروف المناسبة ، والوسائل الكافية لحرب الأمويين وراء البحر ، ولكنه لم يحاول هذه التجربة ، ولم يغامر بالعمل هناك ، وربما كان يحس بفشل محاولاته قبل البدء فيها ، لأنه كان يعرف قوة عدوه ، وقد جرب العمل معه فلم ينجح ، فا كتفى بالوقوف بعيدا عنه ، ليراقب أعماله ، ويثنى عليه ، وكان يجد فيه صورة أخرى من نفسه .

وقبل محاولة عبد الرحمن الداخل الناجحة بالأندلس ظهرت محاولات أخرى للاستقلال بهذه البلاد ، ولكن الذين قاموا بها لم يكونوا فى مثل كفاءته ، ولم تكن جهودهم فى مستوى جهوده ، وتعرض كل من قاموا بمثل هذه المحاولة قبله للفشل ، لأنهم كانوا يمثلون أحزابا تواجه المعارضة والمعارضين فى كل مكان ، ولم يكن أحدهم يفضل الآخر فى وجهة نظره الحزبية ، ولم يكن لأحدهم امتياز على الآخر فى شىء ، وظلوا يفتقدون العصبيات القوية التى تسندهم، فجاء دورهم على طريق الفشل ، ونجح عبد الرحمن وحده ، لأنه كان يمثل الأمل الباقى فى الاستقلال ، والبعد على السيطرة الخارجية ، ومن الغريب أنه لم تقم بالأندلس محاولة للعمل باسم العباسيين قبل ظهور عبد الرحمن الداخل ، وكانت قد مضت على إعلان دولتهم ست سنوات كانت كافية للتخطيط والتنفيذ والنجاح ، وظلت البلاد محكومة خلال هذه السنوات الست بولاة يوالون أنفسهم ومصالحهم وقبائلهم وأحزابهم وعصبياتهم وحدها .

كانت هناك إذا فرصة للعمل لصالح العباسيين فى الأندلس قبل مجىء عبد الرحمن الداخل ، ولكنهم لم يجدوا الداعية الذى يعلن وجودهم هناك ، والذى يستطيع أن يحمى هذا الإعلان بالقوة ، وجاءت محاولة العلاء بن مغيث

سنة ١٤٦ هـ - ٧٦٣ م محـاولة مهزوزة ليس لهـا مؤيدون أقوياء وربمـا كان العلاء إنسانا ضعيفا ، غرر به العباسيون ، وحرضوه على العمل لصالحهم ، وقووا عنده الأمل فى الزعامة، ولم يقدموا له بعد ذلك جيشا ينفذ به إرادتهم ، بل تركوه يصارع قـوة الدولة الأموية بجيش ضعيف لا يحقق غرضـه ، وظهر كأنه كان لا يعرف الطـريق إلى هدفه ، ولا يملك وسائل النصر لتحقيق هـذا الهدف ، وجاءت ثورة العلاء على عبد الرحمن الداخل بالأندلس فى وقت كان فيه هذا الأخير قد ملأ بوجوده الفراغ فى السلطة هناك، وكان عبد الرحمن يقظا يعرف مدى خطر العباسيين عليه ، ومدى خطر دعايتهم ضده ، وقد ألحوا على الناس بالقول بخروجه على وحدة المسلمين ، ولـكن الإحساس بهذه الوحدة لم يـكن قويا فى الأندلس ، لا أيام ثورة العلاء بن مغيث ولا قبل هذه الثورة ، لأن المنطقة كلها لم تشعر — منـذ أن اتضح كيانها وانتسابها للمسلمين — بالانجـذاب القوى لوحدة شاملة لـكل المسلمين فى كل مـكان ، وربمـا كانت تحـس بنوع من الوحدة العاطفية المعنوية أساسها الاشـتراك فى الدين والايمان الواحد به ، وأما الوحدة السـياسية فلم تـكن لها هناك معـالم قوية ، فكان النظام يضـطرب فى الأندلس وكانت العناصر تختلف فيه وتقوم بينها الحروب وتشتعل ، ومع ذلك تظل سلطة الدولة بعيدة لا تتدخل لتحمى الناس من المتاعب والفتن .

ولم يتردد اسم المنصور بالأندلس بعد هزيمة ممثله العلاء بن مغيث ، لأن فشل التجربة الأولى لم يشجع على الرغبة فى تـكرارها ، وقامت هناك ثورة[1] ثانية فى

(١) قاد هذه الثورة من شرقى الأندلس عبد الرحمن حبيب الصقلبى .

شرق الأندلس سنة ١٦١ — ١٦٣ هـ / ٧٧٧ — ٧٧٩ م باسم العباسيين بعد موت المنصور ، وفشلت هذه المحاولة بدورها كما فشلت التجربة الأولى ، وضاع أثرها ، لأن سلطة الأمويين كانت قد تأكدت فى البلاد ، ووجدت لها هناك أنصارا أقوياء ، ولم تكن مقدمات العمل التى عرفت عن العباسيين تعطيهم امتيازا على غيرهم من حكام المسلمين ، فلم يؤيدهم الناس بالأندلس ، ولم تجد دعوتهم استجابة من أحد ، وبدا العباسيون لأهل الأندلس مجرد جماعات قوية منتصرة ترغب فى السيادة ولو بوسائل العنف والقسوة ، وتريد السيطرة على الناس بأساليب الحصر وحدها ، ومن المعروف أن العباسيين لم يسبقوا عصرهم بمحاولة تطوير وسائل الحصول على السلطة مثل الرغبة فى رضا الناس وتأييدهم عن طريق السلم والتفاهم ، أو الحرص على السلامة والأمان للمواطنين جميعا ، وكانت قوة العباسيين تكفى لتحكمهم فى المناطق القريبة من مجال تأثيرهم ، ولكنها لم تكن كافية للنجاح فى الأندلس البعيدة بعد أن ضاعت عليهم الفرصة الأولى للعمل فيها ، وبعد أن وجدت بها الدولة القوية المالكة لكل أسباب البقاء والاستمرار .

وظهر الانقسام السياسى فى بلاد الأندلس قبل ظهوره فى مكان آخر من دولة المسلمين ، لأن المنطقة كانت مزدحمة بالعناصر المعارضة لسياسة العباسيين ، وبعض هذه العناصر كان له تجارب سابقة مؤسفة فى السياسة الاسلامية والصراع الداخلى بين المسلمين ، وبعضها كان يعرف العباسيين قبل قيام دولتهم ، ويشارك فى القول برفض قبول دعوتهم ، ويعرض جهوده للقتال ضدهم .

ولقد استقلت دول أخرى بالشرق عن دولة العباسيين ، ولكن ظهور هذه الدول كان متأخرا عن محاولات الأمويين والأدارسة والرستميين فى المغرب والأندلس ، لأن مناطق الشرق كانت تتأثر بدعاية العباسيين بقوة ، وكانت أصداء الدعايات العباسية تتردد فيها ، وتجد المنصتين لها ، ولقد انتظرت الأقلية التى خرجت على العباسيين فى الشرق حتى مرت بهما تجربة الحكم العباسى ، وعرفت بالخضوع للعباسيين وطاعتهم شيئا عن أهداف حكمهم واتجاهاتهم ، وجاء خلاف بعض هذه الأقاليم على العباسيين لعوامل قومية ، أو لاختلافات دينية ومذهبية ، أو لأنها كانت تريد نصيباً من مغانم التغيير فى السلطة ، ثم صدمتها قوة الدولة وقسوة حكامها وعدم تسامحهم ، فانصرفت عنهم لتحتمى بالروح القومية ، وكانت القوى الوطنية فيها تنمى هذه الروح وتعمل باسمها ثم ازداد الشعور القومى فى المناطق البعيدة عن مركز الخلافة ، ورفض المتحمسون لأهدافهم أن يستمر حكم دولة واحدة وجماعة واحدة مدة طويلة لأقوام يختلفون عنها فى جنسياتهم وقوميتهم ووطنهم ولغتهم وتاريخهم .

ثم مات عبد الرحمن الداخل سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م بعد أن جاهد باستمرار مدة ثلاثة وثلاثين عاما — قضاها كلها أميرا على الأندلس — ليقيم دولة عربية للأمويين فيها ، وليس غريبا أن تكون بلاد الأندلس أول المناطق الإسلامية انفصالا عن دولة المسلمين الخاضعين لخلفاء بنى العباس ، لأنها — كما قلنا — كانت بلادا منعزلة منذ البداية ، وكانت مكانا مناسبا لقوات المعارضة الرافضة لسلطة العباسيين ، والهاربة منهم ، ولقد شجعت العناصر غير المتعاطفة مع العباسيين على الانفصال عنهم ، وكانت تدرك خطورتهم عليها ، وأيدتها

فرغبتها جماعات كبيرة من البربر والعرب، كانت قد هاجرت إلى الأندلس في سنوات الفتح الأولى، وكأنها بعد هجرتها قد اكتشفت لنفسها هناك دنيا جديدة فأرادت أن يكون لها فيها وجود جديد، وحياة جديدة، وجاءتها فرص العمل المستقل، وفرص البعد عن الإحساس بالتبعية الضاغطة من جانب الدولة البعيدة فانطلقت لتملأ الفراغ حولها، وظلت تشكو من الوافدين عليها، وتظنهم غرباء عنها قد جاءوا لينالوا حظا من بلاد لم يشاركوا في فتحها، وكأنما كان يملأ هذه الجماعات الشعور الأناني بأن البلاد كلها كانت من حق فاتحيها وحدهم[1].

٥ — مرحلة الاستقرار :

استعرضنا بالتفصيل كل الظروف التي أحاطت بدولة الأمويين بالأندلس عند قيامها، وبينا أهم الأسباب التي ساعدت عبد الرحمن الداخل في عمله لإقامة هذه الدولة، وأشرنا للعوامل المعطلة التي صرفت العباسيين عن العمل في هذا المكان البعيد، وقلنا إن الأمير الأموي ظل ثلاثة وثلاثين عاما يعمل جاهدا لنجاح أهدافه، وإنه اضطر ليقاوم طول عهده كل مظاهر الضعف داخل الدولة وخارجها، وذكرنا أهم الصعوبات التي واجهته وعارضت نجاحه؛ ونضيف الآن أن هذه الدولة إذا كان قد ابتدأ تأسيسها سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م ثم استقر

---

(١) رأى السمح بن مالك والى الخليفة عمر بن عبد العزيز على الأندلس سنة ١٠٠ هـ / ٧١٨ م أن يشرك أربعمائة من العرب الجدد مع عرب الأندلس الذين كانوا قد استقروا بها منذ سنوات الفتح الأولى، فهدد هؤلاء بترك الأندلس كلها والعودة إلى بلادهم .

شأنها ، وتوالى استمرارها حتى أخذت صورة الدولة المستقلة فى عهد عبد الرحمن الداخل، فإن النجاح فى تأسيسها وحمايتها لم يكن يعنى أن الأمويين الحاكمين بها كانوا قد تغلبوا على كل العناصر المعارضة لهم ، ولم يكن لهم أن يعيشوا بعد ذلك حياة الدعة والاطمئنان ، لأن المتاعب استمرت تعرض لهم حتى بعد استقرار دولتهم فى عهد مؤسسها، وكان على الحاكمين بعد مؤسس هذه الدولة أن يتصدوا لجملة من الأخطار التى هددت دولتهم فى الداخل والخارج معا .

ومع وجود الأخطار وعنفها استطاعت دولة الأمويين بالأندلس أن تظل قوية حتى سنه ٢٣٨ هـ/ ٨٥٢ م ، وكانت خلال هذا القرن الذى مر عليها منذ إعلان قيامها قادرة على الانتصار فى المعارك كلها ضد خصومها وعلى أن تتفوق على أعدائها جميعا ، وحاولت بسبب تفوقها ، وتخلصها من متاعبها أن تعمل لتتطور الحضارة بها ، ولتزدهر الحياة فيها .

وحكمها خلال الفترة المشار إليها — ١٣٨ — ٢٣٨ هـ/ ٧٥٥ — ٨٥٢ م — :

(ا) عبد الرحمن الداخل ١٣٨ — ١٧٢ هـ/٧٥٥ — ٧٨٨ م

(ب) وابنه هشام بن عبد الرحمن ١٧٢ — ١٨٠ هـ/ ٧٨٨ — ٧٩٦م

(جـ) وحفيده الحكم بن هشام ١٨٠ — ٢٠٦ هـ/ ٧٩٦ — ٨٢١ م

(د) ثم عبد الرحمن بن الحكم ٢٠٦ — ٢٣٨ هـ/ ٨٢١ — ٨٥٢ م

وإذا استعرضنا أهم الأحداث التى حفل بها تاريخ هذه الدولة خلال هذا القرن نجد — مع البعد عن تكرار القول حول تاريخها أيام فترات التأسيس الأولى — أن هذه الدولة قامت بالأندلس وفى تاريخ واحد تقريبا مع قيام الدولة العباسية بالعراق ، وكان العباسيون هناك يلبسون مسوح الإخلاص للاسلام، ويحيطون أنفسهم بالفقهاء ورجال الدين ، ويثيرون الدعايات القائلة بأنهم وحدهم كانوا حماة الدين وأهله ، وأنهم أحرص الناس على الوفاء لهذا الدين ، وكانوا يهاجمون الأمويين الحاكمين قبلهم ، ويتهمونهم بالبعد عن روح الإسلام، وبعدم التمسك به .

فرأى الأمويون بالأندلس أن يدفعوا عن أنفسهم الاتهامات التى وجهت لأسلافهم ، وكانت هـــذه الاتهامات تؤثر فى الناس وتثير عواطفهم فساروا فى نفس الطريق مع منافسيهم وخصومهم العباسيين فى الشرق ، وحاولوا إظهار التزامهم بالتمسك بمبادىء الدين ، واحترام أوامره ، واهتموا بشئون الإسلام كلها ، وأظهروا الغيرة عليه ، وإذا كان عبد الرحمن الداخل قد عاش فترة مضطربة تأسست فيها الدولة الأموية واستقامت شئونها ، وإذا كانت المتاعب والاضطرابات قد شغلته عن العناية الكافية بأمور الدين فإنه ظل مع ذلك حريصا على الوفاء للدين ، فبدأ فى بناء مسجد قرطبة سنة ١٧٠ هـ/٧٨٦م ثم أكمله أبناؤه بعده ، واهتم بشئون المسلمين فى كل بلاد الأندلس فبنى لهم المساجد ورعى حرمتها ، وقد يكون بناء المساجد الجامعة إحدى الظواهر الواضحة عند قيام الدول الإسلامية ، وقد لايدل مثل هذا العمل من جانب عبد الرحمن الداخل على اتجاهه الدينى أو على حماسه للدين لأن هذا كان عملا تقليديا سبقه به كل بناة الدول المسلمين حتى أصبح عمـلا

لايكشف عن حقيقة الشعور الدينى فى نفس صاحبه ، غير أن ابنــه هشاما جاء بعده دليلا قويا على سيطرة الروح الدينية على البيئــة الأموية ، وكان هشام بن عبد الرحمن أميرا ورعا يشير سلوكه إلى أنه كان يخشى الله ويرجو رحمته ، وقد فهم منه ذلك رجال الدين المسلمون ، فأحاطوا به وتسلطوا عليه ، وفرضوا عليه نوعا من الوصاية الدينية المتحكمــة ، وحاولوا مع ذلك أن يقيموا لأنفسهم باسم الدين سلطة قوية فى البلاد كلها ، وأصبحت لهم دولة فى داخل الدولة ، أوكانوا هم الدولة ذاتها ، وكانوا يعرفون شعور الأمــير وإحساسه الدينى فأخضعوه لنفوذهم ، وأخضعوا النــاس معه لنوع من الإشراف على سلوكهم الاجتماعى ، فظهرت سلطة الفقهــاء بالبلاد الأندلسية ، وكانوا يتبعــون مذهبــا واحدا هو مذهب الإمام مالك ، ووافقتهم الدولة فى رعاية هذا المــذهب وحده لأسبــاب دينية وسياسية ذكرنا بعضها عند الحديث عن جوانب الإيمان فى بلاد الأندلس.

وكان من أثر سيطرة الفقهاء على أمور الدين والدولة أن أسرف الناس فى التعبير عن شعورهم الدينى ، وتحكمت فيهم العواطف الدينية ، وانساق الجميع لاتباع مذهب دينى واحد كان الفقهــاء يمثلونه ويتحمســون له ، ويعــارضون غيره من من المذاهب الإسلامية الأخرى .

ولاتعنى المعارضة المشار إليها نوعا من مطاردة المذاهب الإسلامية الأخرى لمحاولة القضاء عليها ، وإنما تعنى أن الاهتمام بمذهب واحد فى الدولة واعتبار الولاء له واتباعه شرطا ملاحظا عند التعيين فى الوظائف الدينية بالدولة ، ثم القول بأنه كان مذهب الأمير ودولته ـ كل هذا وغيره كان يعنى أن المذاهب الإسلامية الأخرى كانت لاتعيش فى جو صحى ، ولاتأمل فى تحقيق نوع من تــكافؤ

الفرص بينها وبين مذهب الإمام مالك الذى غلب على البلاد كلها ، وأسرف مؤيدوه فى الحماس له .

لقد حاول الفقهاء المسلمون أن يكسبوا الجولة الأخيرة فى الصراع بين الدين والدولة ، فدخلوا فى شئون ليست من أمور الدين فى شىء ، وكانوا يتملكون عواطف الناس ، ويتحكمون فيهم ، وزادت محاولاتهم المتزمتة مع الزمن وكانوا يدعون للالتزام بنصوص الدين كما كانوا يفهمونها ، وطلبوا من الناس أن يدوروا وراءهم فى دوائر ضيقة محاطة بالشعور الدينى والعواطف الدينية وحدها ، فتطرفت العواطف الدينية فى البلاد كلها وأسرف الناس فى إظهارها ، ووجدت الدولة نفسها محاصرة بجماعات كبيرة لاتؤمن بالولاء لها بقدر ماتؤمن بالولاء لرجال دينها ، وكانت هذه الجماعات من أسباب المتاعب والأخطار التى واجهت الدولة خلال هذا القرن .

ويبدو أن محاولة الفقهاء المسلمين أن يظهروا بقوة فى المجتمع الأندلسى كانت نوعا من الرد على سلوك غيرهم من المسيحيين الذين عاشوا فى دولة المسلمين بروح مسيحية متعصبة وكان تسامح المسلمين زمن الفتح وبعده يعطى لغيرهم الفرص المناسبة للتجمع حول رجال دينهم ، ولمحاولة الظهور فى المجتمع كقوة مؤثرة فى حياته ، بمعنى أن عمل فقهاء المسلمين هناك كان محاولة من المحاولات القوية لإظهار الوجود الإسلامى فى مجتمع تميل فيه العواطف نحو الأديان .

قلنا إن الدولة الأموية بالأندلس مالت منذ تأسيسها نحو رعاية الدين وأهله وإن الأمير هشام بن عبد الرحمن كان إنسانا تقيا ، يلزم نفسه بمبادىء الدين ، ويخلص لهذه المبادىء ، فتسلط عليه الفقهاء ، حتى حسبوا أن ذلك كان مبدأ

مقبولا أو وضعا طبيعيا في الدولة الجديدة ، وفى المجتمع الجديد ، ثم سار الفقهاء فى طريق السلطة حتى نهايته ، وجاء الحكم بن هشام بعد أبيه ، فوجد أنه لن يستطيع العمل كأمير صاحب دولة فى جو تتسلط عليه فيه جماعات كبيرة تتكلم باسم الدين وتعلن الوصاية عليه وعلى المسلمين معه باسم هـذا الدين وتمتلك عواطف الناس لتتلاعب بها ضده ، فكان ضروريا أن تتعارض قوة الأمير وإرادته مع قوة الفقهاء وإرادتهم .

وسواء قلنا إن ظهور الأمويين منـذ قيام دولتهم بمظهر الولاء للدين كان لإظهار درجة الإخلاص للدين أكثر من حقيقة الإخلاص فى ذاته ، أو كانت فيه جوانب التمثيل على الناس أكثر من وجود حقيقة الإيمان الثابت فى قلوبهم ، أو قلنا إن ذلك كان شعورا حقيقيا له واقع صادق فى عقول الحكام وقلوبهم بعد نجاتهم من مذابح الشرق الهائلة على يد أعدائهم العباسيين ، وبعـد ظهور مجدهم مرة أخرى فى بلاد المسلمين فى الأندلس — فإنهم فى الحالين وجدوا من الضرورى أن يتخلصوا من وصاية الفقهاء عليهم ، ليفرغوا للعمل فى دولة أقيمت باسمهم وحدهم .

وكان الحكم بن هشام يملك الإرادة والقوة للعمل ضد خصومه ، ولو كانوا من فقهاء المسلمين ، وكان يستطيع أن يحطم عناد أعدائه ونفوذهم بقسوة لم يعرفوها قبل أيامه ، وبعد أن قاد الفقهاء ضده جحافل(1) العامة المنادين بالتمسك بمعالم الدين ، وبعد أن ثاروا عليه ، واتهموه بالجرأة على الدين أو بالخروج عن مبادئه استعمل ضدهم قوة الدولة ، واضطرهم سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٧ م للهجرة من الأندلس

---

(١) ثاروا ضده قبل ذلك سنة ١٨٩ هـ / ٨٠٥ م ، ولم تنجح محاولاتهم للتخلص منه

كلها ، فذهبوا لشمالى إفريقية كوافدين ممتازين[1] كانوا يتحلون بمظاهر الحضارة الأندلسية المتطورة ، ورحب بهم أمير الأدارسة بالمغرب الأقصى إدريس بن إدريس ، وكانوا قوة جديدة أضيفت إلى قوته الناشئة ، وجماعة متدينة نظرت إليه كأحد حماة الدين فى بلاد المسلمين ، وكان إدريس بن إدريس من جانبه يرغب فى قدوم الجماعات العربية عليه ، ليعيش بهم ومعهم فى وسط شعبه البربرى .

وذهبت جماعات أخرى غير هؤلاء إلى شواطئ مصر[2] الشمالية، وأقامت لنفسها نظاما مستقلا بمدينة الإسكندرية ، ثم أجلتها عن الاسكندرية قوات الخليفة المأمون العباسى ، فذهبت إلى جزيرة كريت[3] ، واتخذت منها ملجأ أخيرا ٢١٢ — ٣٥٠ هـ/ ٨٢٧ — ٩٦١ م ، وشملهم بعد ذلك مظاهر الغموض والنسيان .

لقد ظهرت الخصومة إذا واضحة بين رجال الدين ، وبين رجال الدولة فى الأندلس ، ومع ذلك حرصت الدولة الأموية على أن تظل وفية للدين فى بلادها ، وأن تخاصم من يستغل هذا الدين لتحقيق أغراضه ، ومن يريد السيطرة به على الناس وعلى نظام الدولة ، وشغل رجال الدين أنفسهم بعد ذلك بأمور الدين وحدها ، وانصرف رجال الدولة الأموية لرعاية شئون الدين والدنيا معا .

وتخلصت الدولة الأموية فى عهدها الذى نوضح بعض خصائصه من

---

(١) كانوا ثمانية آلاف أسرة أندلسية .

(٢) كانوا خمسة عشر ألفا من الأسر الأندلسية، بأولادها ونسائها، وبعض متاعها .

(٣) استردها منهم البيزنطيون سنة ٣٥٠ هـ/ ٩٦١ م .

نفوذ رجال الدين لتسير فى طريق يسىء لشعور المتدينين بها ، فالتفتت إلى مظاهر التطور فى حياة الناس البعيدة عن العواطف الدينية والسلوك الدينى ، وسارت بعيدا لتعطى حياة الناس غير الملتزمين برقابة الضمير الدينى المؤثر فى حياة المتدينين — لتعطى هذه الحياة نوعا جديدا من المتع الجديدة ، فطلبت المغنين واللاهين من بغداد ومن غير بغداد ، وكانت بغداد آنذاك مثلا طيبا لمدينة النعيم والمتع والرفاهية ، وملأت الدولة على الناس بالأندلس حياتهم باللهو والمجون بعد أن هزت الشعور الدينى فى نفوسهم بضرب المنادين بسلطة الدين ، وتراجع رجال الدين المسلمون بعيدا عن التدخل فى شئون السلطات الحاكمة ، وخافوا من قسوة العقاب الذى عرفه من رفعوا صوت الدين عاليا بالأندلس .

ورغم أن البلاد كلها كانت تسير فى مراحل التطور الواضحة إلا أن قضيتها لم تكن تدور حول الأهمية الحضارية لمجتمع بشرى يعيش بالأندلس ، أو لم تكن التساؤلات قائمة حول تقدم البلاد فى ذاتها ، بقدر ما كانت قائمة حول من له حق الحياة فيها ، أو من له حق السيطرة على شئونها ، فكان المسلمون جاهدين ومخلصين فى العمل بعزيمة فى سبيل التطور الحضارى المطلوب لبلادهم ، وكان يمكن تعجيل النجاح فى هذا العمل وتعميقه بمساهمة غيرهم معهم ، إلا أن المسيحيين من جانبهم كانوا أو كان بعضهم يسير فى طريق مخالف — كانوا يعملون بالوسائل المعطلة للمشاركة المثمرة فى الأعمال الناجحة فلجئوا إلى خطة مجنونة من التعصب الأعمى للدين ، وظهرت بالبلاد ثورة منظمة ، ومندفعة بتخطيط يهدف إلى إفساد ومجالات العمل النافع أمام الحكام المسلمين .

وسواء أكان المسيحيون المواطنون فى بلاد الأندلس فى حالة من الكراهية

العميقة لتطور الحكومة الإسلامية ونجاحها ، فقاموا بأعمالهم التي بدت في شكل اندفاعات شخصية فردية نحو لعن دين المسلمين والطعن فيه ، وسب الرسول الكريم أمام المؤمنين برسالته بقصد تحطيم معالم الانسجام الظاهرة بين المسلمين والمسيحيين ، أو أن هذه الجماعة المسيحية الغاضبة كانت تستغلها عناصر مسيحية خارجية وتتخذها وسيلة مؤثرة لنصرة الوجود المسيحي في الشمال ، وسواء أكان هذا الفرض أو ذاك فإن الظاهرة كانت واضحة وقوية ، وكان الهدف واحداً بين سكان الأندلس وغير سكان الأندلس من الأسبان المسيحيين .

امتنع رجال الدين المسلمون إذاً عن محاولة العمل في مراكز القيادة السياسية بالدولة الأموية بالأندلس ، لتأتي بعدهم جماعات تمثل الدين المسيحي بثورة دينية غاضبة تسب الإسلام والمسلمين جميعاً ، وقامت هذه الجماعات المسيحية بانتفاضة غريبة في المجتمع الأندلسي لأول مرة في تاريخ البلاد منذ فتحها ، والعجيب أن الجماعات المسيحية المتعصبة التي أخذت تطعن في المسلمين وفي دين المسلمين علناً أمام الناس وأمام الحكام لم تتهم المسلمين بالتضييق عليها في شئون الدين أو السياسة أو غير ذلك ، ولم ترفع لهم مظالمها الاقتصادية أو الاجتماعية ، أو ما كان يثير خواطرها من أمور أخرى ، وإنما تسابق الأفراد من بين هذه الجماعات ليطلبوا الموت من أجل المسيح والمسيحية ، وعوقب بعضهم بالموت الذي طلبوه[1] ، وحسبهم زملاؤهم في الدين شهداء أبرارا فسجلوا أسماءهم في قوائم القديسين ، وكانت حركتهم ثورة مجنونة تسرف في الغضب على المسلمين وعلى

---

(١) يختلف عددهم في مصادر التاريخ بين الأربعين والأحد عشر شخصا ، وقتلوا في صيف سنة ٢٣٧ هـ / ٨٥١ م .

دين المسلمين ، وتستغل تسامحهم مع جميع الأديان ، وانغماسهم فى شئون الدنيا بعيداً عن الإسلام والمسيحية معاً .

وكانت هـذه الحركة أيضاً محاولة مدفوعة بدعايات صريحة وخفية تطالب بضرورة التمسك بالدين المسيحى ، وإظهاره كقوة فعالة فى مجتمع المسلمين بالأندلس[1] ، وكأنما أراد المتعصبون بأعمالهم هذه أن يكون لهم دور واضح فى قيادة المجتمع الأندلسى بعـد خلو الميدان من رجال الدين المسلمين ، أو بعد الخصومة بين رجال الدين ورجال الدولة المسلمين .

ولقد دفعت الأحقاد الدينية التى كانت تفعم بها قلوب القساوسة المسيحيين المتعصبين بسبب انتشار الاسلام بالبـلاد ، وبسبب الدرجة الممتازة التى بلغتها الدولة الأندلسية على يد العرب والمسلمين فى ذلك الوقت — دفعت هذه الأحقاد إلى قيام مثل هذه الثورة الغاضبة ، وسيطرت الروح الدينية المتزمتة على المنطقة كلها ، ولا شك أن الإسلام كان قد ظهر وانتشر ، وقويت سلطته بالأندلس أيام هذه الثورة الخطيرة ، وكأن المستشهدين المسيحيين أرادوا إثبات وجود

---

(١) يسجل التاريخ حسرات الراهب آلبرو القرطبى بسبب افتتان المسيحيين بلغة العرب وآدابهم وحضارتهم ، وإذا كانت هذه حقائق تاريخية ثابتة فإنها لم تـكن مجرد حسرات شخص حزين آسف لأحوال قومه ، وإنما تعنى أنه كان يلوم المسيحين مثله على فتور الروح القومية والدينية عندهم ، فـكان يلفت نظرهم بأقواله إلى ماضى المسيحية بأسبانيا ، وإلى وجوب العمل للمستقبل المسيحى هناك ، وكان هذا الراهب واحداً من زعماء الثورة المسيحية على الحـكام العرب فى ذلك التاريخ ، ولم تـكن كلماته الغاضبة إلا إحدى وسائله لشحن نفوس المسيحيين بالثورة على حكامهم المسلمين .

المسيحية بالبلاد كعقيدة قوية لها أنصار يمكن أن يموتوا فى سبيلها ، وأرادوا أيضاً الاشارة إلى أن الإسلام يمكن مهاجمته رغم قوته وثباته ، وأن بالبلاد قوة تعارضه ولا ترضى به ، وفى ذلك كسب لعواطف المسيحيين بالمناطق المسيحية المجاورة ، وفيه أيضاً تعطيل لحركة المندفعين للاسلام بحماس ، وكأن الحركة كلها قصد بها أن تهز ضمير المسيحيين الراغبين فى الدخول فى الاسلام

ثم انتهت ثورة المسيحين الغاضبين سريعاً ، وسار الناس جميعاً مسلمين ومسيحين فى الحياة الجديدة المليئة بالرفاهية والمتع ونعيم الدنيا .

يبدو إذاً أن ميل الأمويين للدين عند قيام دولتهم ، واندفاعهم بحماس لتأييده سبب لهم نوعاً من مزاحمة رجال الدين لهم فى السلطة ، فلم يستطيعوا الحياة كأمراء لهم وحدهم حق السيادة بالدولة إلا بعد التخلص من ضغط الفقهاء ونفوذهم ، وكما كانت رغبة الفقهاء قوية فى طلب السلطة ، وكما كان ضغطهم عنيفاً على أصحاب الدولة — كذلك كان رد الدولة عليهم عنيفاً وقاسياً .

وبعد أن انتهى الحساب فى هذه الخصومة العارضة بين المسلمين لصالح الحكام وحدهم ، أصبحت العلاقات واضحة بين رجال الدين ورجال الدولة ، وسار كل فى طريقه بعيداً عن اللقاء فى ميدان الحرب من جديد .

وإذا كانت دولة الأمويين فى هذه الفترة قد عاقبت المسلمين بعنف وقسوة ، فإنها لم تسلك نفس الطريق مع غير المسلمين هناك ، وسمحت للمسيحيين بالاضطراب فى مجال واسع بداخل الدولة التى كان يحكمها المسلمون وحدهم ، ولم تعاقب المتمردين عقاباً صارماً يعيد لهم الصواب والحكمة ، مع قدرتها على العقاب ، وامتلاكها وسائله ، وتركتهم بعد حالات من العقاب الفردى الذى

كانت تتردد فيه ولا تتحمس له ، وكأنما أرادت أن تعطيهم درساً فى التسامح مع القدرة على الانتقام ، أو كأنما رأت فى حركتهم نوعاً من الثورات الفردية التى يمكن أن تنتهى بعد دفعات الحماس الأولى ، والتى لا تستحق أن تجند لها الدولة قوتها ، وصحيح أن المسلمين فى أسبانيا كانوا متسامحين مع المسيحيين ومع غير المسيحيين فيها ، ومنذ ظهورهم بها حتى أيام رحيلهم عنها ، وكانوا فى هذه الفترة التى نتحدث عنها أقوياء لا يخافون المسيحيين ، ولا يخشون القوة الخارجية التى تؤيدهم ، وإنما كانوا يحترمون دين المسيح ، ويرون لأصحابه الحق فى الحياة فى ظل الحرية الدينية التى كفلها الاسلام ذاته لغير المسلمين ، ولا شك أنها كانت معروفة عن العاملين باسم هذا الدين فى كل مكان .

وانحلت مشكلة الدين فى الأندلس على أساس عدم تأثيره القوى فى حياة المجتمعات الأندلسية ، وأصبحت مسائل الدين أموراً تخص الدولة والمسلمين فيها ، وضمنت الدولة الاسلامية لنفسها حق العمل فى حرية بعيداً عن الرقابة الدينية المتزمتة ، ولكنها لم تعش مع ذلك بعيداً عن نفوذ الجماعات الدينية الواعية ، ولم تنصرف أبداً عن العناية بالدين ، واحترام أهله ، وظلت تهتم بشئون الدين وتحترم مبادئه ، وكانت تقيم المساجد فى كل مكان ، وترعى شئونها دائماً ، وتسمح أيضاً للمسيحيين بالحرية الدينية ، وبإقامة الكنائس ، وممارسة شعائر الدين المسيحى ، ولكنها فى نفس الوقت كانت راغبة فى التخلص من الوصاية الدينية عليها من أى جماعة دينية ، وأرادت أن تكون سيدة الأمور كلها دينية كانت أو غير دينية ، ونجحت فى ذلك فأبعدت المجتمعات الأندلسية عن الحساسيات الدينية المضرة ، ورفضت أن يكون لبعض الناس الحق فى كسب السلطة باسم الدين .

ولم يكن أحد الأمراء الذين حكموا الدولة الأموية خلال هذه الفترة متحرراً من الدين أو جريئاً عليه ، وإنما ظهرت القوة منهم فى الحرص على السلطة بعيداً عن سيطرة النفوذ الخارجى، وأرادوا أن يظهر وجه للدولة واضحاً وقوياً دائماً ، وكان هذا سلوكاً متطوراً ، وسياسة مطلوبة فى المجتمع الأندلسى الذى كانت تعيش فيه جماعات غير مسلمة تحس بتاريخها فى المنطقة ، وتتأثر دائماً بما حولها من دعايات قوية تطالبها بالعمل لصالح المسيحية والمسيحيين .

كان على الدولة الأموية أن تقنع العناصر المختلفة عليها بوجودها ، وقد نجح فى ذلك عبد الرحمن الداخل وأبناؤه بعده فى القرن الأول الذى يدور الحديث حوله ، واستطاع الحكام الأمويون خلال هـذه الفترة المهمة من تاريخهم أن يحافظوا على دولتهم، فحاربوا معارضيهم وانتصروا عليهم، ووجدوا من أنصارهم القوة الكافية للحياة فى أمن من الأخطار ، ولكن نجاحهم لم يكن يعنى إلا أنه ضمن لهم قيام الدولة واستمرارها ، وإن ظلت هـذه الدولة نفسها تعيش وسط المعارضين لها ، والقادرين على التأثير فيها ، وكانت معارضات أعداء الدولة تتجدد وتزداد كلما رأوا فيها وفى أنصارها ضعفا ، وهذا يعنى أن الدولة الأموية كانت دائماً فى حاجة لان تجدد نشاطها وشبابها، ولأن تكون قوية لتحافظ على وجودها، ولأن تكون واعيـة لخطر أعدائها من حولها .

وقد جاءتها الأخطار من بعض عناصرها القوية التى ساعدت على قيامها وساهمت فى انتصارها على أعدائها، جاءتها من العناصر العربية التى مثلت قوة المعارضة القوية للأمويين ، وكان يمكنها التهديد بسحب ولائها لهم وموالاة أعدائهم

العباسيين ، وكانت عند هذه العناصر العربية القوية الجرأة الكافية على المعارضة المؤثرة فى مراكز حكام الدولة ، لأنها كانت تعرف حرج موقف الأمويين بالأندلس وسط المسلمين بعد انشقاقهم عنهم ، ولهذا كله تعرضت العصبيات العربية القوية فى مراحل تاريخ الأمويين الطويل بالأندلس إلى اضطهادهم وظلمهم ، وكأن الأمويين فى دولتهم الجديدة كانوا يخالفون سياسة دولتهم المنهارة فى الشام ، وكان خلفاء بنى أمية — كما يقال عنهم دائما — يحتفظون فى قلوبهم بود العرب وحدهم ، أو كانوا يوالون الجنس العربى دون غيره من الأجناس التى يرجع إليها المواطنون فى دولتهم ، وربما كان من أسباب قوة الدولة الأموية فى فترات طويلة من تاريخها اعتمادها على العصبيات العربية القوية ، وميلها إلى العناصر العربية التى استطاعت بها أن تحكم عالمها الواسع ، بل وأن تزيد من مساحة هذا العالم كذلك ، ومن جهة أخرى كان الاعتماد على العصبيات العربية وحدها من أسباب ضياع دولة الأمويين وسقوطها بعد أن عجزت إداراتها المختلفة عن تصريف الأمور فيها ، وقد استغل العباسيون هذا الاتجاه ضد خصومهم الأمويين ، فأثاروا عليهم الدنيا من حولهم ، بدعوى أنهم كانوا يميلون للعرب وحدهم دون جميع الشعوب .

وسواء أكانت هذه حقيقة تاريخية ثابتة ، أم كانت مجرد دعوى غير مؤكدة ـ والمناقشات طويلة حولها ـ فإنها كانت من الاتهامات المعلنة بقوة ضد الأمويين طول تاريخهم ، ولم يحاول الأمويون من جانبهم أن يبعدوها عن أنفسهم ، ولم تتغير سياستهم مع مواطنيهم منذ قيام دولتهم حتى نهايتها ، وكانت عندهم بعض الظواهر الدالة على ميلهم للجنس العربى والعصبيات العربية ، وربما

لم يكونوا متطرفين فى هذا الميل إلى الدرجة التى اتهمهم بها أعداؤهم ، ولكن كثيرا من ولاتهم كانوا يسرفون فى عصبياتهم وفى ميولهم لأصولهم العربية ، وقد جاء الأمويون لحكم المسلمين بعد ظهور قوة العرب ومجدهم ، وبعد نجاحهم فى فتوحاتهم العظيمة زمن الخلفاء الراشدين ، فساهموا بدورهم فى أمجادالعرب، وأوصلوها إلى غايتها بفتوحاتهم فى أقصى الشرق وأقصى الغرب على السواء ، وكانوا يشاركون شعبهم العربى فى الإحساس بعظمة العرب وسؤددهم .

لقد ظهرالأمويون بالأندلس كأنهم كانوا علىهوى مخالفلسياسةأسلافهم حكام دولة الأمويين بالشام ، وقد وجد الأمويون - طول تاريخهم بالشرق - قوتهم وعصبيتهم فى العرب وفى موالى العرب معهم ، فحكموا بهم دولتهم ، واستطاعوا بهم أن يوسعوامن حدود هذه الدولة،وأماالأمويون حكامالأندلس فقد وجدوا العرب يقفون فى صفوفالمعارضين لهم، أو المناوئينلسلطتهم ، فمالوا عنهم ، وبحثوا لدولتهم عن عناصرجديدة تحفظها وتدعم وجودها، وكانالبربر هناك يؤلفون قوات كبيرة تعرض جهودها وخدماتها على الأمراء فى مقابل الرعاية والمكافآت المالية منهم ، بالإضافة إلى قوات الموالى والصقالبة والمولدين والمرتزقة المسيحيين معهم ، وكان فى هؤلاء جميعا مايكفى أغراض الأمويين فى إقامة الدولة وحمايتها ، وفى التخلص من كل أنواع السيطرة أو الوصاية التى حاولت قوات العرب المتنافسة أن تفرضها عليهم .

لقد كان العرب خلال القرن الأول من حكم الأمويين بالأندلس أقوى العناصر التي يمكن أن تخدم قضية الدولة الأموية إذا تلاقت هذه العناصر القوية معحكامها الأمويين عند وجهات نظرمشتركة ، وكان يمكن للعرب أيضا

أن يسببوا للأمويين المتاعب والأخطار بالثورة عليهم أو تهديدهم بموالاة أعدائهم العباسيين ، ولكنهم كانوا مختلفين لا يجتمعون معا على شيء ، فهيأت اختلافاتهم الأسباب للأمراء الأمويين لكي يضربوا زعماءهم ويشتتوهم ، وبقي مع الدولة منهم بعد ذلك من قبلوا الخضوع لها ، ومن أرادوا الحياة مع الناس في الدنيا الجديدة ، وكان يمكن للأمراء أن يرضوا حاجات الباقين من العرب معهم بالمجاملات الودية أو بالسخاء بالمال بشرط أن يظلوا عنصرا غير متميز بين قوات الدولة .

لقد كانت دولة الأمويين بالأندلس منذ تأسيسها تخشى منافسة العناصر العربية لها ، وتحاول أن تجد لهذه العناصر منافسا قويا في جيشها، ورغم جهود العرب في إقامة هذه الدولة فإن الأمويين لم يفهموا أن هذه الجهود كانت تقدم باسم الولاء للدولة أو لصاحبها وحده، وإنما كانت تقدم باسم المنافسة بين العناصر العربية القوية هناك ، ولم يرد أصحاب الدولة أن يحكموا البلاد باسم جماعة من مواطنيهم ، أو أن يمثلوا وجهة نظر واحدة لجماعة من الناس ، بل أرادوا أن يحكموا الجميع باسم دولتهم وحدها ، فلم يميلوا إلى أحد العناصر العربية المتنافسة ، وكانت منها العناصر اليمنية التي ساهمت بجهدها في قيام الدولة وحراستها ، وترك الأمويون العصبيات المختلفة لظروفها . وحدها ، وراقبوا تصرفاتها وقد وجدوا بالمكان نفسه — وطلبوا من خارجه أيضا — قوات أخرى قوية أعانت على حراسة دولتهم واستمرارها وكانت تساهم في ذلك مع قوات العرب التي تساوت عندهم مع غيرها .

وأما قوات المسيحيين العسكرية الهاربة إلى الشمال في انتظار ظروف العمل

للوانية ، فإنها لم تستطع تهديد دولة الأمويين قبل القرن الخامس الهجرى ، والحادى عشر الميلادى ، لأن المسلمين كانوا أقوياء خلال هذه الفترة ١٣٨-٢٣٨ هـ/ ٧٥٥ - ٨٤٢ م ، ولم يقم المسيحيون الهاربون بمحاولات عسكرية تزعج سلطات الدولة ، لأن قوتهم كانت فى مراحل تكوينها الأولى ، وقد طالت مراحل التكوين هذه ، واستمرت أربعة قرون بعد الفتح ، وليس يعنى ذلك عدم وجود ما كان يسمى بحركة الاسترداد المسيحية خلال هذه الفترة من حياة الدولة ، وإنما يعنى ضعف هذه الحركة ، أو عدم ظهورها أمام العرب أيام وحدتهم وتماسكهم ، واستمرت العناصر المسيحية القاطنة فى دولة المسلمين فى حالة من الجمود أو عدم الحركة المؤثرة فى كيان الدولة العربية ، وكانت تشارك المسلمين فى بناء الحضارة الأندلسية الرائعة ، وتندفع بقوة إلى التعريب ، حتى افتتنت بلغة العرب ، وآداب العرب ، ويثبت التاريخ لأحد القساوسة قوله :

« إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلاسفة المسلمين ، لا ليردوا عليها وينقضوها ، وإنما لكى يكتسبوا من ذلك أسلوبا عربيا جميلا صحيحا ، وأين تجد الآن واحدا — من غير رجال الدين — يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الأناجيل المقدسة ؟ ومن — سوى رجال الدين — يعكف على دراسة كتابات الحواريين ، وآثار الأنبياء والرسل ؟ ياللحسرة ! إن الموهوبين من شباب النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ، ويؤمنون بها ، ويقبلون عليها فى نهم ، وهم ينفقون أموالا طائلة فى جمع كتبها ، ويصرحون فى كل مكان بأن هذه الآداب حقيقة بالإعجاب ، فإذا حدثتهم عن الكتب النصرانية

أجابوك فى ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم ، ياللألم ! لقد أنسى النصارى حتى لغتهم ، فلا نكاد تجد بين الألف منهم واحدا يستطيع أن يكتب إلى صاحب له كتابا سليما من الخطأ، فأما عن الكتابة فى لغة العرب فإنك واجد فيهم عددا عظيما يجيدونها فى أسلوب منمق ، بل هم ينظمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنا وجمالا[1] » .

وصحيح أن المسيحيين قاموا فى آخر القرن الأول لحكم الأمويين بالأندلس بحركة دينية تعرضوا بسببها لعقاب الدولة وغضبها ، ولكنها لم تكن حركة جماعية كبيرة فلم تؤثر فى مسيرة التطور الحضارى بالمنطقة ، ولم تكن آثارها خطيرة على العلاقات بين المسلمين والمسيحيين هناك ، وظلت الجماعات المسيحية تعاون المسلمين فى حدود مصالحها وحدها ، وساعد على هذا التعاون ما كانت تشعر به من تسامح المسلمين معها .

وناب الفرنج المسيحيون عن مسيحى أسبانيا فى الاشتباك مع المسلمين فى حروب عسكرية فى السنوات ١٧٦ هـ/٧٩٢م ، ١٧٩هـ/٧٩٥م، ١٨١ – ١٨٥هـ/ ٧٩٧ – ٨٠١ م ، بعد أن اتصلت مصالحهم بمصالح العباسيين فى الشرق ، أو بعد الاتفاق على مايشبه التخطيط السرى بين شارلمان وهارون الرشيد[2] وكان الحاكمان فى حاجة إلى اللقاء معا لخدمة مصالحهما المشتركة ، وربما كانا على مزاج متشابه ، وكل منهما كان يريد من جانبه أن يثير حول نفسه دعايات واسعة بعضها صحيح ، وبعضها مكذوب ، وتقول الدعايات عنهما إنهما كانا

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسى ص : ٤٨٥ – ٤٨٦ .

(٢) حكم هارون الرشيد دولة العباسيين فى الفترة: ١٧٠–١٩٣هـ/٧٨٦–٨٠٨م.

من حماة الدين ، ومن دعاة القوة فى بلديهما ، وإنهما كانا من القوة السياسية والعسكرية فى صورة لاتتكرر كثيرا فى تاريخ الشعوب .

ومهما يكن من أمر فإن العباسيين كانوا دائما يرون فى قيام إمارة الأمويين بالأندلس، وفى ازدهارها أمرا يتنافى مع سيادتهم الشاملة لعالم المسلمين كله وهذا، كان يثير فى نفوسهم عوامل البغض والكراهية للأمويين ودولتهم ولما كانت دولتهم تسع بين مواطنيها ملايين المسيحيين الشرقيين فقد اعتبروهم وسيلة مناسبة للتفاهم مع حماة دين المسيح فى الغرب ، وكان الفرنج من جانبهم يأملون فى تأمين حدود بلادهم من خطر المسلمين الخاضعين للأمويين بالأندلس ، فالتقت رغبة العباسيين مع رغبة الفرنج عند المصالح الخاصة بكل منهم ، فكان العباسيون يؤيدون الفرنج على حساب دولة الأمويين فى الغرب ، وكان الفرنج يؤيدون العباسيين على حساب دولة البيزنطيين فى الشرق [1] .

واضطر الأمويون حكام الأندلس أن يدافعوا عن وجودهم ووجود دولتهم ضد خطر الفرنج الذى بدا فى محاولاتهم الأخيرة وكأنه كان نوعا من التحالف المسيحى ضد المسلمين هناك ، وربما كان من المظاهر المألوفة فى تاريخ الأندلس الطويل أن هذه البلاد المنعزلة ظلت وحدها تحمل مسئولية الدفاع عن عالم المسلمين فى الغرب ، ولاشك أن العواطف الطيبة للمسلمين فى كل مكان كانت تحيط بالأندلسيين وتحنو عليهم ، إلا أن العواطف الإنسانية وحدها لم

---

(١) لم يكن لهذا التأييد من الجانبين على كل حال أى نتائج تاريخية ذات قيمة، وقد يشير ذلك إلى أن القول بتعاون العباسيين والفرنج معا إنما هو مجرد دعوى مهزوزة غير ثابتة ، وليس حقيقة تاريخية مؤكدة .

تـكن تفيد شيئاً أمام قوات العدو المتطورة بالعمل والزمن ، وأمامشعور العداء الواضح عند حكام المسلمين أنفسهم .

وجاءت للدولة الأموية فى عهدها المشار إليه متاعب جديدة مفاجئة من غارات النورمان عليها سنة ٢٢٩ – ٢٣٠ هـ/٨٤٣ م ، ولأول مرة فى تاريخ الأندلس يواجه المسلمون محاولات قاسية للقرصنة البحرية تقوم بها جماعات نورمانية ، كانت تغير بسفنها الآتية من وراء البحر على السواحل الأندلسية فى المناطق القريبة من الأنهار وكانت تدخل فى الأنهار نفسها وتسبب للمسلمين خسائر جسيمة فى وقت كان فيه المسلمون لايتوقعون مثل هـذه الحروب البحرية المفاجئة .

وتعرض مواطنو الدولة الأموية بالأندلس للخطر أمام النورمانيين ، ولاسيما من كانوا يعيشون منهم على سواحـل البلاد الطويلة ، ولقد أزعجت أعمال النورمانين حكام المسلمين فى هذه الفترة التى نحاول أن نتعرف على أهم أحداثها ، واضطروا أمام الخطر الجديد إلى بناء البحرية الأندلسية ، وبعدمعاناة وتضحية تحكم المسلمون من صد غارات النورمان عليهم، وكان أسطولهم يستطيع أن يحمى حدودهم ، وأن يفرض التضحيات الجسيمة على أعدائهم ، وظهر أثر هذا الأسطول عندما تكررت غارات النومان على بلادهم سنة ٢٤٥ هـ/ ٨٥٩ م بعد انتهاء القرن الأول من حكم الأمويين لهذه البلاد .

وفى خلال هذا القرن الحافل بالأحداث أخذت دولة الأمويين تتحول إلى أساليب الحضارة ، وتطورت شئونها ، وأخذت طريقها نحو المعرفة والثقافة ، وانتقلت إليها أعداد كبيرة من المثقفين المسلمين المشارقة ، وإذا كان الوافدون

إلى بلاد الأندلس قد عرفوا طريقهم إليها منذ افتتاحها فإن كثيراً منهم جاءوها بعد قيام الدولة الأموية بسبب ترحيبها بالعلماء المتفوقين ذوى الخبرة والكفاية .

٦ — فى مواجهة الأخطار :

وبعد قرن من الزمان عاشت فيه الدولة الأموية مراحل نشأتها واستمرارها واستقرارها وتطورها ووضوح شخصيتها فى عالم المسلمين وغير عالم المسلمين حولها جاءت فترة تالية ـ ٢٣٨ ـ ٣٠٠هـ/٨٥٢ ـ ٩١٢م وحكم فيها من أمراء الأمويين :

(ا) محمد بن عبد الرحمن ٢٣٨ ـ ٢٧٣هـ / ٨٥٢ ـ ٨٨٦ م

(ب) المنذر بن محمد ٢٧٣ ـ ٢٧٥ هـ / ٨٨٦ ـ ٨٨٨ م

(ج) عبد الله بن محمد ٢٧٥ ـ ٣٠٠هـ / ٨٠٨ ـ ٩١٢ م

واضطربت في هذه الفترة الخطيرة معالم الكيان الأندلسى كله ، وتمزقت وحدة البلاد ، وتبعثرت إلى مقاطعات مستقلة ، وتعرض الوطن الأندلسى كله للضياع النهائى ، وإذا كان اسم الدولة الأموية ظل معلنا هناك على مساحات من الأرض كانت تضيق وتتسع حسب ظروف الحرب بينها وبين أعدائها ، وإذا تعاقب الأمويون وحدهم على الحكم بالمنطقة فى هذه الفترة ، وإذا كان أولهم قد حكم خمسا وثلاثين سنة ، وثالثهم خمسا وعشرين أخرى ، وكان يمكن أن تطول فترة حكم ثانيهم لولا اغتياله بأمر أخيه فإن طول عهد الأميرين المذكورين فى الحكم لا يدل على نوع من الاستقرار فى دولتهما ، ولا ينطبق عليهما ما هو معروف عند الناس من أن طول العهد فى الحكم يوحى بسلامة الدولة واستقرارها ، وانسجام عناصرها ، لأنهما حكما فى قرطبة عاصمة الدولة وحدها ،

وكان نفوذها فى فترات طويلة لا يتعدى حدود هذه المدينة وما حولها ، وكانت البلاد خارجها تموج بالفتن والحروب الأهلية بين عناصر الدولة من البربر والعرب والمولدين والنصارى ، وكأن الأمراء الأمويين كانوا سادة لدولة غير موجودة ، أو كانوا عنوانا شرعيا لنظام مزعوم ، ولم تجتمع عليهم العناصر المعارضة لسياستهم وسيادتهم لأنها كانت تختلف على نفسها ، ولا تجتمع على شىء فيما بينها .

وانشغل الأمراء الثلاثة طول عهدهم بالفتن الخطيرة التى أثارها المولدون الساخطون على كل شىء ، وكان هؤلاء مسلمين يمثلون بتصرفاتهم الوجه الكالح للمسلمين غير المخلصين ، ويمثلون بأعدادهم الكبيرة أكثر سكان الأندلس وأعظمهم شأنا ، وكانوا يرجعون فى أصولهم القريبة والبعيدة إلى المسيحيين القوط والأسبان ، ويفخرون بتاريخهم وأصلهم على المسلمين جميعا ، وإذا كانوا يتفقون مع المسلمين فى الدين ، والإيمان بعقيدة واحدة ، فإن الدين لم يجذبهم بقوة إلى حياة شركائهم من العرب والبربر ، بل ظلوا يتعاطفون مع المسيحيين الأسبان ، ويشعرون بنوع من القرابة معهم ، وكانوا دائما يتأثرون بالدعايات المسيحية التى كانت تتهم العرب بالتسلط على مصائر الناس بالأندلس ، فلم يعارضوا فى التحالف مع النصارى داخل البلاد وخارجها ضد المسلمين .

وأقوى من كان يمثل المولدين خلال هذه الفترة المضطربة من تاريخ الأندلس عمر بن حفصون، ٢٦٧ — ٣٠٥ هـ / ٨٨٠ — ٩١٧ م ، وقد تزعم عمر هذا المولدين جميعا ، أو تزعم جماعات كبيرة منهم ، وقادهم مع نصارى الأندلس فى ثورة خطيرة ضد سلطان العرب فى كل مكان ، وظل منذ ظهوره يعارض الأمويين ويحاربهم ، ويقود ضدهم أخطر العناصر الأندلسية وأقواها ، وأشدها جرأة ، وكان يعيش فى منطقة رية الجنوبية بالجبال ، ويهدد بوجوده فى جبل

« ربشتر » كيان العرب بالأندلس كلها ، ويقول بالتحرر والاستقلال عن نفوذ القادمين من بلاد الشرق ، واهب بكل شيء يمكن أن يخدم أغراضه ، فهو مرة يهدد الأمويين بالدعوة للعباسيين خلفاء المسلمين ، ومرة يهدد بالتحالف مع الأغالبة حكام المسلمين فى الشمال الإفريقى [1] ، وكان مسيحيا مع المسيحيين ، ومسلما مع المسلمين ، وقد حارب الدولة طول فترة ظهوره مع أنصاره بمناطق الأندلس الجنوبية والوسطى وانتصر عليها ، حتى كشف عن عقيدته المسيحية فى صراحة سنة ٢٨٦ هـ / ٨٨٩ م ، فهجره بعض أنصاره المسلمين وغضبوا عليه ، وجاهدوا مع دولتهم ضده فهزموه ، وأضعفوا قوته ، فلجأ للتحالف مع سكان طليطلة المتمردين على النظام كله ، وتآمر مع المسيحيين فى الشمال أيضا ، وكان يحاول فى يأس أن يبقى لنفسه بعض المكاسب التى حازها أيام انتصاره على جيش الدولة الأموية ثم مات فتفرق جنده بعده ، واختلف أبناؤه ، وضاعت منهم نتائج الجهود الطويلة التى بذلها أبوهم .

لقد سرى فى هذا العهد ضرام الفتن فى كل ولاية ، وفى كل مكان ببلاد الأندلس ، وتضاءلت سلطة الدولة بها ، ودخلت فى سلسلة لا نهاية لها من المعارك المستمرة ، حتى تمزقت أوصالها ، واهتزت أسسها إلى الأعماق ، وضاعت قواها ومواردها .

---

(١) كان الأغالبة يحكمون جزءا من إفريقية الشمالية لا كلها ، وقامت دولتهم فى منطقة إفريقية وحدها أو فى المغرب الأدنى وحده ، ولكنهم كانوا يمثلون الدولة العباسية صاحبة الحق الشرعى فى الرئاسة على المسلمين جميعا ، ولهذا كان الأغالبة يقولون بحقهم فى حكم الشمال الافريقى كله .

وإذا كان الثوار لم يستطيعوا القضاء على الدولة هناك فإن الدولة بدورها عجزت عن القضاء عليهم أيضا ، واستمرت القوتان متعارضتين ، وظل الخطر قائما على الجانبين المتعاديين ، وانحصر نفوذ الدولة فى قرطبة وحدها واعتصمت العصبيات القوية بمواقعها وحصونها ، وباعدت الخصومات بين هذه العصبيات، وانتشرت الفتن والمتاعب والمجاعات .

وجاء دور العرب فثاروا بمناطق الأندلس الشرقية ، وتجمعوا حول مدينة غرناطة ٢٧٥ هـ/٨٨٨م ليطاردوا المولدين والنصارى وجيش الدولة معا ، وحاربوا الدولة وهزموها سنة ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩ م ، وطالت أيام ثورتهم وخروجهم على النظام حتى سنة ٢٨٣ هـ/ ٨٩٦ م ، وعجزت الدولة الأموية عن حماية نفسها ومواطنيها من أخطارهم .

وهناك فى الشمال كان المسيحيون يتآمرون ضد المسلمين وضد وجودهم بالبلاد كلها ، وكانوا يسرفون فى تحريض سكان الأندلس المسيحيين والمولدين على دولتهم العربية ، وترددوا فى القيام بعمل عسكرى حاسم ضد النظام القائم خوفا من إثارة الشعور الدينى عند المسلمين ، وتركوا المسلمين وحدهم يتقاتلون فيما بينهم ليضعف جانبهم جميعا .

وفى وسط الأندلس كانت مدينة طليطلة عاصمة القوط القديمة مصدرا من مصادر الخطر على المسلمين ودولتهم ، وكانت تمثل دائما تاريخ دولة القوط المنهارة ، وتمثل تطلع هذه الدولة للحياة المستقلة من جديد ، واستمرت هذه المدينة الكبيرة طول التاريخ منذ فتح الأندلس تثور ضد حكم المسلمين ، ولم يضعف من نشاطها ، ومن رغبتها فى البعد عن السيطرة العربية ما كان من محاولة الدولة

الأموية أن تقضى على زعمائها فى حادثة الخندق [1] سنة ١٩١ هـ/٨٠٧ م. بل ظلت غاضبة بعنف طول فترات الضعف التى أشرنا إليها ، وكانت لها منعة طبيعة استغلتها فى الدفاع عن نفسها أمام جيش الدولة ومؤيديها .

وربما كان من أخطر الظواهر التى ميزت هذه المدينة عن غيرها من مدن الأندلس أنها كانت شبه عاصمة دينية لجماعات المسيحيين المتعصبين ، فكانت مثوى للتيارات المسيحية الداعية للخلاص من حكم العرب والمسلمين ، وسكنها القساوسة المتحمسون الذين لم تفترهمتهم فى إثارة غضب الشعب المسيحى على حكامه المسلمين ، وكانوا يطلبون من سكان هذه المدينة أن يدفعوا الضرائب للملوك المسيحيين وحدهم ، وكأنهم كانوا لا يعترفون بسلطان الدولة .

وظلت طليطلة عصرا طويلا تضنى حكومة قرطبة بتمردها ، وثوراتها المتتالية وليس من العجيب بسبب هذا كله أن تكون هذه المدينة أولى الحواضر الأندلسية المهمة التى سقطت فى يد المسيحيين سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، وكان سقوطها من النذر القوية المشيرة إلى زوال سلطة للمسلمين من بلاد الأندلس كلها.

٧ – عصر القوة :

ثم جاء عصر جديد ، ظهرت فيه عظمة الدولة الأموية بالأندلس وحكمت فيه كفاءات عربية ممتازة كانت تجمع حولها الراغبين فى بقاء العرب على عرش الأندلس ، وكان عهدها أعظم عهود الإسلام جميعا بهذه البلاد ، وكان أيضا

---

(١) نجح عمروس بن يوسف وإلى الأمير الحكم بن هشام على طليطلة فى هذا التاريخ فى القضاء على الزعماء المتمردين بهذه المدينة بعد أن دعاهم إلى مأدبة فى حصن بها .

الحد الفاصل بين مراحل التقدم والازدهار ، وبـــين مراحل الانحلال والسقوط الأخيرة.

وبعد أن تفاقمت الخطوب حول الدولة ، وبعد أن استنفدت الثورات مواردها جاءها عصر جديد ابتدأ سنة ٣٠٠هـ/ ٩١٢ م ، وانتهى سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨ م وحكم فيه :

(ا) عبد الرحمن الناصر ٣٠٠ - ٣٥٠هـ/ ٩١٢ — ٩٦١ م

(ب) الحكم المستنصر ٣٥٠ — ٣٦٦هـ/ ٩٦١ — ٩٧٦ م

(جـ) المنصور بن أبي عامر ٣٦٦ — ٣٩٢هـ/ ٩٧٦ — ١٠٠٢ م

(د) عبد الملك بن المنصور ٣٩٢ — ٣٩٩هـ/ ١٠٠٢ - ١٠٠٨ .

وفى هذا العهد وجد التقدم الإنسانى ، وطريق الخير النافع للناس أربعة من الحكام العرب الذين يعتبر عصرهم ذروة ممتازة لعظمة التاريخ الأندلسى والحضارة الأندلسية .

وأولهم عبد الرحمن الناصر ، وكان حاكما قويا خطط لوحدة بلاد الأندلس الشاملة ، ونجح فى تحقيق هذه الوحدة وأقام الدولة البعيدة عن الفوضى والفتن ، بعد أن قام بسلسلة طاحنة من الحروب والغزوات المستمرة ونجح فى هذه الحروب وكان أعظم حكام الأندلس وأشهرهم ، وجاءته العظمة والشهرة من الأثر الكبير الذى تركه فى تاريخ بلاده ، فكانت دولته فى الصدارة من العالم الإسلامى كله لأن العباسيين فى العراق كانوا فى أدوار انحلالهم ، ولأن الفاطميين فى مصر كانوا لم يبلغوا بعد ذروة مجدهم ، فأصبح اسم الخليفة عبد الرحمن الناصر أعظم

اسم فى تاريخ عصره ، وكانت عاصمته قرطبة زينة الدنيا[1] كلها ، ومركز الجاذبية الدبلوماسية فى العالم الإسلامى كله ، فجاءته رسل الدول من كل مكان ، وكان قد جمع حوله أسباب القوة[2] الكافية ليعلن نفسه أميراً للمؤمنين بالأندلس سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٩ م ، بعد أن كانت تدور حول هذا اللقب أوهام وتخيلات تثيرها العواطف الدينية الساذجة ، وبعد أن كان هذا اللقب محتكرا لواحد فقط فى عالم المسلمين كله ، وكان هذا الواحد فى عهد عبد الرحمن الناصر هو خليفة المسلمين فى بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية العباسية ، ولكن الخليفة العباسى كان يعانى آنذاك من انهيار السلطة ، ومن ضعف النفوذ ، فضاع بسبب ذلك بريق اللقب وأهميته ، وشك خصومه فى حقه فيه ، ونافسه على هذا اللقب العظيم سيد الفاطميين فى مصر ، وسيد الأمويين بالأندلس .

وجاء بعد عبد الرحمن الناصر ابنه الحكم المستنصر ، وكان أميراً مثقفاً ، شغف بالكتب والمكتبات ، وذاعت شهرته بالعلم والمعرفة ، وإذا قرأنا الإحصائيات الواردة من تاريخ عصره[3] تبدو لنا فيها مبالغات هائلة نقبلها

---

(١) وصفتها بذلك راهبة ألمانية زارتها فى آخر القرن العاشر الميلادى .

(٢) وثق عبد الرحمن الناصر فى الصقالبة المجلوبين من كل مكان بأوربا ، ومنحهم السلطات والمناصب والضياع بالأندلس ، وجمع حوله منهم أعداد كبيرة بلغت فى أول عهده خمسين وسبعمائة وثلاثة آلاف جندى ، ثم زادت أعدادهم إلى ثمانين وسبعة آلاف ، ثم زادت إلى خمسين وسبعمائة وثلاثة عشر ألفاً ، وكان من هؤلاء حرسه وقواده ومعظم ضباط جيشه .

(٣) راجع كتاب : الدولة العامرية ص ١٩ — ٢٥ ، وكتاب الإسلام والحضارة العربية ص ٢٦٠ — ٢٦٣ .

لورودها فى كل مصادر التاريخ التى اهتمت بالحديث عنه ، وتذكر هذه المصادر التاريخية أرقاماً مذهلة لأعداد الطلبة والمتعلمين ، والكتب والمكتبات فى مدينة قرطبة ، وفى بلاد الأندلس كلها ، وكأن الأندلس بلغت من الرقى والتطور الحضارى والثقافى فى عهده درجة تفوق ماعليه بعض الدول المتقدمة فى عصرنا الحاضر .

* * *

ثم انهت بوفاة الحكم بن عبد الرحمن دولة الأمويين بالأندلس ، لأن تاريخ هذه البلاد فى الفترة ٣٦٦ — ٣٩٩ هـ / ٩٧٦ — ١٠٠٨ م كان تاريخاً لدولة يحكمها المنصور بن أبى عامر ثم ابناه بعده ، وكان المنصور أيام نشأته يعيش على كتابة الرسائل للناس ، ثم جاءته الفرصة ليتلاعب بطفل صغير تركه الخليفة المستنصر ليكون رئيساً لدولة الأمويين من بعده ، ووجد المنصور بقصر الخلافة الأندلسية وحدات سياسية قوية ، أو مراكز قوى كانت تلعب دوراً رئيسياً فى الحياة السياسية بالدولة ، فأصبح واحداً من رجالها بمساعدة أم الخليفة الصغير ، وساهمت سيدة القصر الملكى فى تعيين المنصور بن أبى عامر وزيراً للدولة الأموية ، وجعلته شريكا فى إدارتها ، ووجد المنصور حوله فى مكانه الجديد أعداء أقوياء كان عليه أن يخوض ضدهم معارك سياسية مصيرية يعيش بعدها المنتصر وحده ، وبعد انتصاره فى المعارك السياسية الطويلة أصبح عظيما أمام نفسه وبطلا أمام أنصاره ، فتقدم فى حماس ليكون صاحب السلطة الأولى بالدولة كلها ، وكان يريد أن يزيل أسباب الضعف الكامنة فى حياة هذه الدولة ، فعمل على تنظيمها وتنظيم جيشها ، وكان الجيش الأندلسى أهم مراكز العمل عنده ، فكون فيه فرقاً عسكرية من المرتزقة البربر والمسيحيين والصقالبة والمولدين وهاجم بهم التكتلات العربية فى صفوف الجيش وقضى عليها ، فأمن بذلك على نفسه من

ثورات العناصر الجريئة العاملة بأخطر مراكز القوى فى الدولة، ثم فرغ لأعدائه وأعداء دولته فى خارج هذه الدولة فحاربهم خمسين أو ستاً وخمسين مرة[1]، ورغب فى تحطيم الممالك المسيحية المجاورة للمناطق الإسلامية فى الشمال، فعلا ذكره وأصبح بطلا قومياً عظيم الشأن، وكسبت البلاد بوجوده قوة مع قوتها، ووضعت فى المكان الممتاز من العالم حولها.

لقد انتصر المنصـور على أعدائه ستاً وخمسين مرة، وأظهر وجود الإسلام والمسلمين كقوة هائلة بالمنطقة كلها، وحاول العمل على تماسك المجتمع الأندلسى من الداخل، فحطم المعارضات القوية المؤثرة، وظهرت الدولة فى عهده وكأنه كان عبقرياً أتت به الأقدار فى وقت الحاجة، وكتب تاريخاً عسكرياً مجيداً للإدارة القوية التى يملكها رجل ليس له ماض يساعده على العمل فى مكانه الجديد بين الملوك.

ومع نجاح المنصور وكفاءته ومع تفوقه وانتصاره استمر إنساناً بغيضاً لا يميل إليه الناس، ولا يتعاطفون معه، وليس من المعروف ما إذا كان ذلك بسبب الوسائل غير الإنسانية التى اتبعها فى الوصول إلى غاياته لأنه كان يلجأ للعنف والقسوة والغدر ليكون سيداً على الناس، أو بسبب نشأته المتواضعة وحدها، أو للسببين معاً، وقد اعتبره أعداؤه وكثيرون معهم إنساناً يعمل فى غير مكانه،

---

(١) من غير المعروف ما إذا كان لهذا العدد مفهوم واقعى أم لا، والمهم أن من حقائق التاريخ أن المنصور بن أبى عامر حارب أعداءه كثيراً، وانتصر عليهم دائماً، وحقق أهدافه فى سيادة الدولة واستقرارها وإن لم ينجح فى القضاء على الدول المسيحية المعارضة لسلطة المسلمين فى شمال البلاد وغربها.

ويعتدى على حقوق غيره ، ومع أن الخليفة الناصر قبله كان يسلك سبيله ، ويتبع مثل أسلوبه فى الحرب والسياسة إلا أن الناس أيدوه ونصروه ، واجتمعوا حوله وحققوا معه أمله ، وكان عندهم أعظم الحكام .

وربما كان المنصور سيئ الحظ بنشأته المتواضعة لأنها ثبتت فى أذهان الناس ولم ينظروا إليه إلا من خلالها وحدها، فكانوا يعاملونه كإنسان رفعته المصادفات والحظوظ المفاجئة ، ولم يكن مهماً عندهم أن يكون جديراً بعمله وكفئاً له ، ولذلك كانوا يرجون للخليفة الصغير العاجز أن يتخلص من سيطرته ، وأن يتولى شئون عمله بنفسه ؛ وربما كان هذا الميل واضحاً فى بلاد الأندلس بسبب ولاء الناس وإخلاصهم للأسرة الأموية التى كان الحكام يعملون باسمها ، أو بسبب قسوة المنصور وإسرافه فى الشدة على أعدائه .

ومهما يكن من أمر فقد كان عند الناس شىء كثير من الولاء لسيد الدولة ، وهو نفسه الولاء الذى كان يؤمن به مواطنو الدولة العباسية فى الشرق لخليفتهم، فمن المعروف أن الخليفة العباسى فى بغداد لم يكن فى ذلك الوقت أسعد حظاً من خليفة الأمويين بالأندلس فكان يواجه الضغط والقسوة والعذاب وكان يعانى من تسلط العناصر الغالبة عليه ، ومع ذلك كان الناس حوله يرجون له السلامة ، ويدعون له بالخير والسداد .

والعجيب أن المجتمع الأندلسى كان يعرف أن فى نجاح المنصور وانتصاره على أعدائه حفظاً له ووقاية ، ولكنه مع ذلك كان يكرهه ويرجو زوال سلطانه لأنه كان يغتصب السلطة من صاحبها الخليفة ، وكان المنصور من جانبه يحس بشعور الناس نحوه ويعرف رأيهم فيه فكان يبادلهم سوءا بسوء ويرهقهم بالحروب الدائمة ، ويضطهدهم لأقل الأخطاء ، وقد دفعه النصر الدائم على أعدائه

إلى أن يسرف فى الاعتراف بذاته ، وإلى أن يتعالى على غيره ، فطغى على الناس وظلمهم ، وربما كان مدفوعا لذلك الطغيان بطبيعته ذاتها أو بالأحداث حوله ، وهو لذلك كان بغيضا لكل الناس ، وكان أيضاً سيء الظن بكل الناس (١) .

ومن الغريب أيضا أن بعض الناس فى عهد المنصور بن أبى عامر كانوا يطالبون بإرجاع السلطة لصاحبها الخليفة ، وبعد موت المنصور ظهرت الانقسامات فى بلاد الأندلس كلها ، وأقيمت بها بعد ربع قرن من وفاته عشرون دولة ، وكان أصحاب هذه الدول يعملون فى دوائر نفوذهم الضيقة وحدها ، وعاش الناس حولهم ومعهم ، وكأن هذا كان وجه الحق والسلامة فى العمل السياسى والاجتماعى ولا شيء غيره ، ولم تحدث فى المجتمع الكبير فى ذلك التاريخ تساؤلات قوية عن صاحب الحق فى حكم البلاد وأهلها بعد أن أصبح كل قوى صاحب حق بالمنطقة التى فرض عليها إرادته وبسط عليها نفوذه ، وصار الأمر الواقع مقبولا ، بل وكان مؤيداً بالحماس والرغبة ، ورضى الأندلسيون جميعاً بتفتت وحدتهم ، واختلفت آراؤهم وتنازعوا حول مصالحهم المتضاربة .

ثم هل نقول بأن المجتمع الأندلسى كان مجتمعا غريبا يلتزم بالصورة المعروفة له وإن كانت ضعيفة أو منهارة ، ولا يجد للتغيير معنى ما دام صاحب الحق معروفا للناس وليس مهما أن يكون هذا جديراً بمكانه أو قادراً على أداء دوره ، فإذا غاب صاحب الحق المعروف لجأ الناس بعده إلى الأقوياء الذين كانوا يستطيعون بناء النظم الجديدة ، ولو كانت هذه النظم الجديدة تدور فى حدود ضيقة لا تزيد على معالم المدينة الواحدة أو ما حول هذه المدينة من الأماكن المتأثرة بها .

(١) كأن جزءا كبيرا من الشعب الأندلسى فى عهد المنصور نسى هوايته فى نقد الحكام والإسراف فى مراقبتهم ولذلك ترك المنصور يستبد به حتى النهاية .

لقد استطاع المنصور بتفوقه العسكرى وبنفوذه المطلق فى بلاد الأندلس كلها أن ينجح فى حروبه ، وأن يخفف من ضغط أعدائه على بلاده ، ولكنه رغم محاولاته القوية للقضاء على المعارضة المسيحية فى الشمال والغرب لم يحسم قضية هذه المعارضة ، ولم يقض عليها ، واستمر الصراع العقيم متبادلا هناك بين المسلمين والمسيحيين أجيالا طويلة ، وأصبحت الحرب بين الجانبين تقليدا عسكريا يرضى العواطف الدينية المتطرفة عند المسلمين والمسيحيين جميعا ، ولقد كانت هذه الحرب فى الوقت نفسه خطرا عظيما على القوتين معا ، لأنها كانت تستنزف مواردهما المالية ، وتعطل تطورهما الحضارى .

هذا ونشير فى وضوح إلى أن حكام الدولة الأموية فى هذه الفترة العظيمة من تاريخها وجدوا فى دولتهم ومجتمعهم العناصر القادرة على تحقيق أغراضهم الأولى ، وكان من هذه الأغراض :

(ا) إنقاذ الدولة من الانهيار بعد عهود الفتن والثورات .

(ب) والعمل على التقدم الحضارى الشامل للمنطقة كلها ، فأصبحت الأندلس من أعظم المراكز الثقافية فى العالم كله .

(جـ) ظهور قوات الدولة العسكرية ، وتفوقها فى الحروب على أعدائها فى كل مكان

(د) تحقيق الرخاء الاقتصادى والازدهار الاجتماعى الشامل .

(هـ) ثم ظهور شخصية البلاد الأندلسية ، واحتلالها مكان الصدارة فى عالم المسلمين .

٨ ـ ضياع الوحدة :

وجاء بعد المنصور بن أبى عامر ابنه عبد الملك ، ثم ابنه الآخر عبد الرحمن، ويقال فى التاريخ الإسلامى إن الدهشة فى نجاح المنصور فى حروبه الكثيرة لا يقابلها إلا الدهشة من سرعة انتهاء دولة سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م ، إذ قامت بالأندلس ثورة غوغائية على ابنه الأخير تنادى بالحرية والخلاص من تسلط العامريين على الناس ،وأسرف أصحاب هذه الثورة فى العنف حتى هددوا النظام والأمن بالانهيار ، وبدأوا بأعمالهم المحاولات المؤسية لإفساد الحياة بالبلاد كلها ، وشملت الفتن كل مكان ولم تنته إلا بانهيار الحكومة ، وتمزيق وحدة البلاد من أساسها.

وفى الفترة ٣٩٩ — ٤٢٢ هـ / ١٠٠٨ — ١٠٣١ م زاد عدد الخلفاء الأمويين زيادة كبيرة ، وبرزت العنصرية البربرية والعربية والصقلبية وطوائف المولدين وغير هؤلاء وهؤلاء ، واستعان كل فريق على إخوته فى الوطن بكل وسائل الكيد والتحطيم ، فوجد المسيحيون فى الشمال فرصتهم بسبب هذا التمزق للحصول على مواقع جديدة ، وأدى ذلك فى النهاية إلى سقوط الدولة الأموية ، وأعلن الوزير أبو الحزم بن جهور زوالها فى : ذى القعدة سنة ٤٢٢ هـ / نوفمبر سنة ١٠٣١ م .

وبعد سقوط الأسرة الأموية زاد انقسام البلاد الأندلسية إلى ملكيات صغيرة تحكمها طوائف متعادية ، وكأن تجربة المنصور الناجحة فتحت المجال أمام من كانوا فى مثل درجته الأسرية من المغامرين والراغبين فى السلطة للعمل على الظهور فى المجتمع المضطرب، أو كأن ولاء الناس وطاعتهم كان يمكن أن تكون

لواحد من الأمويين وحدهم، وأما أن يكون الحاكم واحدامن الناس فسيجد هذا الواحدالكثيرين الذين ينافسونه فى مكانه، أو الذين يبحثون لأنفسهم عن أماكن يكون لهم فيها نوع من السيادةمثله، وقد حدث هذا فى بلاد الأندلس .

وبدت القصةهناك كأن الأمراء الأقوياء وحدهم كانوا يستطيعون بجهودهم وحماسهم وكفاءتهم أن يبنوا الدول القوية المتماسكة، وكانوا يستطيعون الإبقاء عليها سليمة التنظيم من الداخل، وقادرة على تحدى أعدائها والصمود أمامهم، وأما العناصر المختلفة المكونة للمجتمع فكانت تنجذب إلى قوة الأمير وتؤيد وجوده وتساهم فى نجاحه، وتظهره وهو فى مكان القيادة كأنه وحده أساس القوة فى المجتمع كله، ويأخذ الحاكم دوره فى طليعةالمتقدمين للعمل المؤثر فى حياة الناس كلهم ويبدو فى جميع حالاته كأنه صاحب الفضل الأول فى كل نجاح يمكن تحقيقه .

وبعد غياب أثر الأدوار الشخصية للزعماء الأقوياء تتوزع القوى فى المجتمع ويظل هذا المجتمع تائها يبحث بغير جدوى عن واحد يضعه فى مكان الرئاسة فيه، وقد تجتمع الآمال وتميل القلوب وتتعلق الرغبات المكتومة بمن يأتون على الطريق وهم لا يزالون فى ضمير الغيب، وفي أثناء المحاولات السلبية لتحقيق الأمل تقدم الجماعات القوية رؤساءها فيأتون ليعبروا عن رأى قطاع واحد من قطاعات المجتمع المتعـــدده، ويتكلم كل واحد باسم جماعته وحدها، ويميل إلى توضيح دورهـا وكأنها كانت تعيش وحدها أو تعيش لنفسها فى المجتمع الكبير .

وإذا جاء للناس حكام ضعاف ظهر فى المجتمع أثر ضعفهم، ونافستهم فى السلطة على الدولة، أو على بعض أجزائها زعامات محلية مستغلة غير قادرة على النجاح فى الأعمال المساعدة على تماسك المجتمع وتوحيده، وهؤلاء

يملئون صفحات التاريخ الأندلسى منذ ظهوره وبسببهم تعرضت دولة المسلمين بالأندلس للضياع ، وعانت المجتمعات الأندلسية من المتاعب الخطيرة المؤسية وهم يظهرون عادة فى التنظيمات السياسية التى لم تنجح فى التخطيط الدقيق لاختيار رئيس الدولة ، وكانت هذه كما هو معروف مشكلة المجتمعات الإسلامية منذ ظهورها .

لقد كانت تظهر بوضوح آثار الجهود الفردية للزعامات القوية بالأندلس ، وهذه الآثار تظهر دائما فى كل المجتمعات البشرية إلا أن التاريخ الأندلسى يحتفظ جيدا بالأدوار المهمة التى قام بها عبد الرحمن الداخل منشىء الدولة ، وعبدالرحمن الناصر بانى عظمتها وجلالها ، والمنصور بن أبى عامر أقوى رجالها ، وليس هناك كثيرون غيرهم من الأقوياء الذين ظهروا على مسرح الأحداث السياسية والعسكرية والاجتماعية فى الأرض الأندلسية التى عاش فوقها المسلمون لفترات طويلة .

كان الزعيم القوى يظهر بالأندلس فى الوقت المناسب بعد الاضطرابات الخطيرة التى كانت تعرض المجتمع كله للفتن والضياع ، وكأن كل حركات النشاط الفعالة المؤثرة فى حياة الدولة ومواطنيها كانت مدفوعة فقط بجهد شخص واحد تلتف حوله القوى المنجذبة إليه بحكم مصلحتها ، أو بأثر إحساسها بتفوقه وامتيازه .

وإذا فقد المجتمع مثل هذا الفرد القدير بدا مجتمعا مفتتا مضطربا يموج بالفتن والمتاعب ولا يستطيع أن يحمى نفسه من فوضى تعدد العناصر فيه ، ولا يهتدى سريعا إلى تقديم زعيم يكون وجوده ضروريا لاستقامة الحياة فيه من جديد .

وقدم المجتمع الأندلسى دائما زعامات محلية كانت تساعد على التفرق

والانقسام ، وقدم أيضا زعامات صغيرة لم تكن تعيش إلا وسط الفتن ، ولم تتهيأ الظروف المساعدة لتكوين الشعب المنسجم ، وفى العصور الذهبية نفسها كان من عمل الزعيم هناك أن يجرى سريعا وراء غاياته ، وأن يطلب من المجتمعات الخاضعة لسيطرته أن تتابع سيره ، وأن تطيع أمره ، ولم يفكر زعماء الأندلس طويلا فى كيفية الوصول إلى تكوين المجتمعات التى تفخر بها الدول المتقدمة اليوم (١) .

لقد تطور الناس مع الحياة بالأندلس — وتشير إلى ذلك كتب التاريخ كلها بوضوح — وكان هناك شعب عظيم متحضر له من قوة الوجود والأثر ماخدم قضية الحضارة الإنسانية فى كل مكان ، ولا تزال آثار هذا الشعب العظيم قائمة إلى اليوم تشير إلى عظمته البالغة وإلى تفوقه وامتيازه ، ولكنه مع ذلك لم يسبق الزمن فى الإحساس القوى بضرورة الوحدة الشاملة لكل عناصره ، ولم يعمل كثيراً لهدف التماسك حول زعامة واحدة يقف منها موقف المؤثر فيها والحريص عليها .

لقد كان الموجود بالمنطقة شعبا قلقا يحس بالبعد والغربة ، ويشعر بالأخطار من حوله ، وكان هناك شعب متمرد ناقد لا يثق فى كثير من زعمائه ، ولا يؤمن بسلامة مصيره ، ولذلك بدت تصرفاته فى كثير من أموره تصرفات عصبية ليس فيها اتزان الأقوياء ، ولا حكمة الآمنين ، ولا شعور المواطنين فى البلد الواحد بالهدف الواحد والمصير الواحد ، حتى فى ساعات الخطر كان الجميع يحسون بضرورة مواجهة هذا الخطر فى وحدة متماسكة ، ولكنهم مع ذلك

---

(١) كان من المأمول أن يخطر هذا التفكير لبعض قادة المجتمع الأندلسى ، لما هو معروف من تطور الحضارة الأندلسية وتقدمها .

كانوا يحرصون على تمايزهم وانفصالهم ، أو كانوا يحرصون على وجودهم كقوات متميزة ووحدات منفصلة .

وقد يكون ذلك بسبب انقسام العناصر المكونة لشعب الأندلس ، وكلها كانت ترجع في أصلها البعيد إلى أجناس مختلفة ليس بينها قرابة ، وحتى المجتمعين منهم في أصل واحد ما كانوا يميلون إلى الوحدة الشاملة ، وربما كان ذلك لأن العناصر الأساسية في المجتمع الأندلسي كانت قوية تستطيع الاعتماد على نفسها في المحافظة على وجودها المستقل بالمنطقة التي تعيش فيها ، وفي المحافظة على انفصالها كوحدات ترفض الخضوع لأي جنس مهما كانت أسباب تفوقه ، ومهما كانت امتيازاته ، وكلها كانت ترى في استقلالها ، وفي الشعور القوي بمصالحها الخاصة نوعا من استمرار وجودها ذاته ، أو نوعا من عدم التعرض للانصهار المؤدي إلى التلاشي وضياع الشخصية .

ب – ملوك المدن

عشرون دولة

بنو عبـــاد

المرابطون

ضغط الأعـــــــداء

غرناطة

١ — عشرون دولة :

قبل سقوط الدولة الأموية ببلاد الأندلس سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م كانت الإدارة بها قد ابتدأت تتوزع بين الزعامات والعصبيات القوية ، وبعد سقوط الدولة المشار إليها جاءت الفرصة الملائمة للمغامرين الباحثين لأنفسهم عن مقاطعات تتسع لرغباتهم وأطماعهم ، وانفسح الأمل أمام الراغبين فى العمل فى مجالات مناسبة يمارسون فيها سلطتهم ونفوذهم ، ولم يكن تحقيق الرئاسة واستمرارها ممكناً إلا بالعصبيات المتغلبة على الأقاليم المختلفة ، لأن هذه العصبيات كانت تملك القوة الكافية للسيطرة على المناطق المنعزلة ، وساعد على وضوح دور هذه العصبيات القوية وتميزها ، وظهورها فى المجتمع بصورة مؤثرة فى كيانه كله ظواهر كثيرة لعل منها :

(ا) ما كان من تفاعلها القوى مع الأحداث الدائرة بالمنطقة التى عاشت فيها ، فكانت الوحدات البشرية المتجمعة تتأثر بهذه الأحداث وتؤثر فيها ، وكانت تصنعها أحياناً وتخضع لها فى حركة إيجابية واضحة وقوية .

(ب) وضياع العصبيات الأموية المتميزة التى كانت الدولة تحرسها وتؤيدها، وتعطيها الأمان والشرعية ، فتقوى وجودها ، وتثبت كيانها ، وتوضح أثرها ، وتزيد من فاعليتها .

(حـ) وجود عوامل جغرافية بارزة كانت تجعل البلاد المنعزلة كأنها

وحدات طبيعية منفصلة ، وقد أسهمت هذه العوامل الجغرافية المتباينة فى تمزيق وحدة البلاد وتفتتها وساعدت بدورها على قبول الحياة الانعزالية فيها .

(د) ثم تعدد الجنسيات بالبلاد واختلافها ، وتنازعها منذ فجر تاريخها ، وقد عمق تعدد الجنسيات واختلافها فى البلد الواحد شعور الناس بالانفصال ، وقوى رغبتهم فى الاستقلال ، وجعل المحافظة على الوحدة أمراً عسيراً .

وإذا كانت العصبيات القوية تستطيع أن تحمى حكام البلاد من خطر الثورات الداخلية ، وأن تكفل لهم الأمن والسلامة من مفاجآت الزملاء المجاورين فإن الحماية الخارجية من خطر القوات المسيحية المعادية كان يمكن أن تقوم بها هذه القوات نفسها بعد أن تدفع لها الإتاوات والأثمان المطلوبة .

وانفصمت وحدة البلاد الأندلسية بعد سقوط دولة الأمويين ، وتوزعت الرئاسات فيها بين جماعات كانت تعيش فى نهم إلى السلطة ، ولو كانت هذه السلطة على حساب غيرها ، وكانت تعيش فى خوف من الآخرين ، ولو كانوا رفاق الماضى ، وشركاء المصير ، وإخوة الدين والجنس والقومية والتاريخ ، وكانت هذه الجماعات كذلك تراقب الأجنبى وتخشاه ، وإن كان هذا الأجنبى ضعيفاً يمكنها دفعه ، والانتصار عليه بالجهد والشجاعة والتعاون والتضحية .

وأصبح للمسلمين فى الأندلس عشرون دولة[1] ، أو عشرون إمارة

---

(١) كانت الدويلات الأندلسية الصغيرة أشبه بوحدات إقطاعية متميزة تتخذ لنفسها مكانا منعزلا تعمل فيه بعيدا عن الآخرين ، وكان حكامها إما وزراء لهم دور سابق فى العمل مع =

أو مملكة، أو أية تسمية أخرى كان يريدها الحاكمون فيها، وتميزت الجماعات بهذه الوحدات المنفصلة بأجناسها وعنصريتها فهى عربية أو بربرية أو صقلبية أو من المولدين، واتخذت كل جماعة[1] لها مكاناً فى المناطق متى كان لها فيها أكثرية سواء فى الشرق أو الغرب أو الشمال والجنوب أو الوسط، وأقام الخائفون منهم فى مناطق قريبة من مناطق الفرار بإفريقية الشمالية، وكأنهم كانوا على شعور غالب بأنهم فى الطريق إلى الضياع أو إلى النهاية، وتأكد شعورهم بهذا الضياع بعد أن ضلوا سبيل الوحدة، وبعد انشاغلهم بالصراع الطويل لتحقيق الرغبة فى الحكم والسيطرة، أو لتحقيق الأمل فى توسيع الممالك ولو على حساب مصيرهم كله.

وترأس الحكام هناك على جماعات متفرقة لا تتحد فيما بينها، ولا تتعاون ضد أعدائها، ولهذا خسرت هذه الجماعات بالتدريج ثمرات الجهود العظيمة ونتائج الكفاح الطويل الذى بذله الأبطال السابقون، وانتصر أعداء المسلمين المتحدون عليهم فى أهم معاركهم، وحطموا آمالهم، وأخذوا منهم بلادهم ثم قضوا بعد ذلك على وجودهم كله.

وكان هؤلاء الأعداء يعرفون طريقهم إلى الانتصار، وطريقهم إلى العمل الناجح،

= الدولة الأموية للنهارة، أو بعض قوده هذه الدولة، أو مغامرين أظهرتهم الأحداث وحدها، أو شيوخا من رجال القضاء المشهورين، أو زعماء كانت تسندهم الثروة والعصبية والكفاءة الشخصية.

(١) ظهرت العناصر الغالبة بالمناطق الأندلسية، وعاشت لنفسها فى عالمها وحدها، وأما غيرها من الناس فكان ملزما بقبول سلطتها.

فترة كانوا يظلمون بعض المسلمين ، وإخوة المصير معهم ينظرون إليهم فى جمود ، وكأنهم كانوا فى عالم غير عالمهم[1] أو فى دنيا غير دنياهم ، ومرة كانوا يضربون بعضهم ببعض فى شبه مهزلة مكشوفة من التلاعب السياسى والعسكرى ، ومرة كانوا يفرضون عن بعضهم نوعاً من الحماية المؤقتة فى مقابل ضرائب مالية كانت تزيد عليهم كلما ازدادوا ضعفا ، وكلما ازداد أعداؤهم قوة .

لقد كانت جهود حكام الطوائف أو ملوك المدن بالأندلس موجهة لتحقيق غرض الاستقلال فى المناطق المنعزلة التى كانت تحرسها قواتهم القليلة ، ثم إلى محاولة أن يعترف جيرانهم المسلمون بحدودهم التى كانت تضيق وتتسع تبعا لنتائج الحروب الأهلية المؤسية ، وتبعا لظروف القوة العارضة أو المتغيرة ، وأخيراً كان حكام المدن يرغبون فى بناء معالم أثرية كانت تكاليفها تزيد عن قدراتهم المالية المحدودة ، وهذا يعنى أن آثارهم المعروفة لم تكن تدل دائما على رخاء شامل للبلاد فى زمانهم ، ولم تكن تعنى دائما أن الناس هناك كانوا يطمئنون لحياة معهم ، وإنما تشير غالبا إلى الإسراف وسوء التقدير ، وإلى التطرف فى الاستغلال لتحقيق وسائل الترف الذى كان يعيش فيه الحكام وحدهم .

---

(١) عندما سقطت مدينة طليطلة فى يد حكام قشتالة المسيحيين سنة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م — وكانت من أعظم مدن الأندلس أهمية وشهرة — كان ملوك المسلمين حولها يخضون بالصمت ، ويسكتون على أعمال أعدائهم خوفا وعجزا وترددا ، وكأن انهيار إحدى الممالك الاسلامية بالأندلس كان عملية موت ليس لأحد فيها حيلة .

وصحيح أن قوات أعدائهم لم تتحد ضدهم منذ نشأتها ، وأنها اتحدت عليهم أخيراً بعد ظهورها وتطورها ، وأنها فى كثير من مراحل وجودها كانت أبعد ما تكون عن التماسك والانسجام فيما بينها ، وصحيح أن القوات الإسلامية المتفرقة كانت تقابل قوات مسيحية متفرقة مثلها ، وأن قوات المسلمين بالأندلس كانت تمثل وحدات سياسية غير متفاهمة ، وأن قوات أعدائهم بدورها كانت تمثل وحدات سياسية مستقلة وغير متفاهمة كذلك، غير أن هذه الأخيرة كانت تتلاقى وتتفق على هدف واحد لم يتغير طول تاريخها ، وقد انحصر هذا الهدف عندها فى طرد المسلمين من أسبانيا كلها ، وجميع القوات المسيحية كانت تحاول أن تظهر البطولات القومية ، والإخلاص للعقيدة المسيحية على حساب المسلمين مهما اختلفت أماكن تواجدهم ، ومهما تغيرت أسماء دولهم .

كان النصارى أعداء ملوك المدن المسلمين إذا مختلفين فيما بينهم، ولكنهم جميعا كانوا يجتمعون على المسلمين ، وعلى الإضرار بهم ، وكانوا يتنافسون دائماً على تحطيمهم ، وإضعاف شأنهم ، ثم كان لاتحادهم الأخير سنة ٨٨٤هـ / ١٤٧٩ م غاية صريحة أعلنوها ، وهى أن يتغلبوا على غير المسيحيين بأسبانيا ، وأن يطردوهم من البلاد جملة ، وإذا كانت قوات أعداء العرب لم تتحد إلا فى نهاية الدور عند آخر مراحل الصراع بينهم وبينها ، فإن المسلمين لم يردوا بالمثل على خطط أعدائهم ، فلم تتحد قواتهم بعد تمزقهم إلا فى بعض اللحظات العارضة، وكانت هذه اللحظات غير كافية لعمل من أعمال القوة والتفوق ، ثم كان المسلمون دائماً ينتهون إلى التفرق والانفصال من جديد ، وكأنهم كانوا يحسون دائماً بفشل التجربة ، أولا يؤمنون بضرورتها ، رغم الحاجة إليها ، ورغم أهميتها فى وقت كانوا فيه كلهم يتعرضون للمواقف الحرجة ، أو يتعرضون لمراحل الضياع الأخيرة

والعجيب أن أعداء المسلمين كانوا يصابون أحياناً بنكسات قوية ، وبهزائم عسكرية كبيرة أمام قواتهم المستبسلة ، ولكنهم كانوا يسرعون دائما إلى الوقوف أمامهم من جديد ، ولم ينسوا الهدف الذى كانوا يعملون من أجله ، بينما كان المسلمون حتى فى أوقات الضعف والخطر يشغلون أنفسهم بالعداء الصريح فيما بينهم ، وكأنهم كانوا لا يحسون بالمتاعب ، أو لا يدركون مداها ، وربما كانوا يحاولون أن يتناسوا الخطر بعد عجزهم عن مدافعته ، والتغلب عليه ، وقد لجئوا فى بعض محاولاتهم للرد على التحديات التى واجهت بلادهم إلى استدعاء قوات المرابطين الناشئة بشمالى إفريقية ، ولكنهم لم يتحدوا معها طويلا ، ولم يسمحوا لها بحرية العمل بعد انتصارها على أعدائهم ، بل اشترطوا عليها قبل دخولها بلادهم أن تلتزم بالرجوع عنها ، ليعودوا من جديد إلى التفرق وللنازعات والفتن .

وبدا من أعمال الممثلين للمسيحية فى أسبانيا أنهم كانوا يتقدمون ببطء وإصرار ، وعلى أساس من التخطيط والتنظيم والثقة ، فكانوا يلحون بالضغط على المسلمين فى كل مكان ، ويأخذون بالعنف بلادهم واحدة بعد الأخرى ، ولا يجد المهزومون أمامهم وسيلة لاسترداد بلادهم الضائعة ، أو تجيء محاولاتهم عاجزة لا أمل فيها ، وربما ترك هؤلاء بلادهم نهبا للأعداء ، أو ظلوا عاجزين ومعترفين بالعجز عن استردادها ، وقد كانوا فى ذبول دائم ، أو فى حالة من الانكماش المطرد ، ولم يعرفوا السبيل إلى دفع الخطر عن أنفسهم أو عرفوه وعجزوا عن الوصول إليه

وكان على كل دولة من دول الطوائف أن تتوقع الأخطاء من الثورات الداخلية التى كانت تقودها العناصر المتمردة فيها ، وكان عليها أيضاً أن تحمي

وجودها من المسلمين المجاورين لها[1] ، ومن المسيحين المتقدمين إلى أهدافهم ضدها ، ومعنى هـذا أن الخطر كان يحيط بهذه الدول جميعا من كل جانب ، وكان خطرا عاما لا أمل لأحد فى النجاة منه ، ومعنى هذا أيضاً أن الاتفاق كان مفروضا على هـذه الدول بالضرورة ، أو كان أمرا لازما من أجل السلامة الوطنية أولا ، ومن أجـل الشرف القومى ثانيا ، ومن أجل كل شىء يحرص عليه الناس فى حياتهم أخيرا ، ومع ذلك فالأمل الكبير لم يتحقق ، والشىء اللازم لم يكن له وجود ، فلم يتعاون المسلمون لرد الخطر عن أنفسهم ، وإنما انتظروا أدوارهم متفرقين أمام أعدائهم المتعصبين عليهم ، وقابلهم الأعـداء الأقوياء وهم متفرقون متنازعون فهزموهم ، وانتصروا عليهم ، وكأن المسلمين فى فترة حياتهم هذه لم تنفعهم كل مواعظ الدنيا ، ولم تؤثر فيهم تجاربها ، ولا شك أن قصة الثور الأبيض كانت معروفة فى أدب العـرب وأنها كانت متداولة فى بلاد العرب كلها، ولا بد أن تـكون هذه القصة معروفة أيضاً فى بلاد الأندلس البعيدة وهى بلاد الأدب والمتأدبين، ومع ذلك غاب عن سادتها وحكامها مثل هذا الأثر العربى الصادق المؤثر ، فلم يكن له — وهو من المواعظ الجيدة الموروثة — أثر فى سلوكهم وتصرفاتهم .

ثم يبدو أن تقسيم البلاد الأندلسية بعد وحدتها لم يكن شيئاً غريبا أو مثيرا عند الناس ، وكأنه كان الطبيعة العادية لمثل هذا المجتمع الغريب المزدحم

(١) اتسع ملك بنى عباد بإشبيلية على حساب بنى جهور ملوك قرطبة ، بعد أن احتلوا بلادهم سنة ٤٦٢هـ/١٠٧٠م وحطموا نفوذهم ، وكانت دولة بنى جهـور أول دول الطوائف الكبيرة الساقطة ببلاد الاندلس .

بالعصبيات المتنازعة ، وكأن هـذه العصبيات المتنازعة لم تـكن تدور إلا حول نفسها ، ولم تـكن تتقابل إلا من أجل مصالحها وحدها ، فلم تجد حلا لمشكلات الوطن الواحد المتداعى إلا بتقسيمه بينها ، وقبلت العصبيات الأندلسية هذه الحياة الشاذة الغريبة حتى بعـد نجاح تجربة الوحدة فى عهد الأمويين الطويل ، ولم تقم بمحاولات مجدية للمطالبة بوحدة بلادها الممزقة المتناحرة ، وربما كانت تنتظر أن يفاجئها زعيم قوى يأتيها من وراء البحر كما أتى عبد الرحمن الداخل منذ زمن بعيد ، وتـكون لهذا الزعيم إرادة أقوى من إرادة رؤسائها ، وقوة أقوى من قوتهم .

لقد تعقدت قضية الوطن الأندلسى ، وضاع تماسكه ، وأصبحت وحدته غير مقبولة ، أو غير مفهومة رغم ضرورتها ، ورغم الحاجة إليها ، ولم يدر أحد من الناس كيف يمكن أن تتجمع عناصر المجتمع الأندلسى المتنافرة فى وحدة شاملة ، وكيف يمكن العمل على ترابط هذا المجتمع المضطرب ، وربما لم يكن عند الناس — كما قلنا — أمل فى الاتحاد إلا حول زعيم يقدم من مكان بعيد ، ليـكون بعيداً عن خصوماتهم ومعاركهم ، وليـكون غير خاضع لتأثير جماعة منهم ، أو إلا حول زعيم تحرسه القوة الـكافية التى تفرض على المختلفين إرادته ، وتلزم الجميع بطاعته .

وعجزت البيئة الأندلسية عن أن تقدم للمجتمع الأندلسى زعيمه المطلوب ، وعجز المشرق العربى بدوره عن تحقيق هـذه الرغبة ، وكانت الأسباب قد تقطعت بين المشرق العربى وبين الأندلس منذ قيام دولة الأمويين فى الغرب ، وقيام دولة العباسيين فى الشرق فى العقد الرابع من القرن الثانى الهجرى ، ثم كان

المشرق بدوره موزعا بين رئاسات متخاصمة ، فضاع الأمل فى الوحـدة حول زعيم من داخل البلاد ، وحول زعيم من خارجها على السواء ، وظل الفراغ فى السلطة قائما ؛ أو كأن هذا الفراغ كان مشغولا بجماعات لم تتفق أبدا على واحد منها .

ومن الغريب ألا يكون تفتت البلاد الأندلسية وضعا شاذا عند الأندلسيين، وأغرب من ذلك أنهم لم يتلاقوا عند غاية إلا أن تترك المناطق الأندلسية المستقلة لشأنها، وأن تترك الجماعات المتنازعة لمصيرها ، وأما هدف الدفاع عن الوطن عند الخطر فلم يصبح هدفا مشتركا بعد أن تقسم الوطن الكبير إلى أوطان صغيرة مستقلة ، وبعد أن ترأست فى هذه الأوطان الجديدة جماعات كانت ترى مصالحها ومستقبلها وأملها فى التجمعات الصغيرة وحدها .

وكان على أصحاب هـذه الممالك الصغيرة وحدهم عبء الدفاع عنها ، وإذا كانوا جميعا غير غافلين عن أهداف أعدائهم، وإذا كان خطر هؤلاء الأعداء واضحا بحيث لا يمكن لأحد أن يقول بعدم وجوده ، وإذا كان هذا خطرا مباشرا بحيث لا يمكن تجاهله ، وإذا كان عدوهم لا يفهم معنى لاستثناء بعضهم من سخطه فلم يكن هـذا كله كافيا لنجاحهم فى تحقيق وحدتهم ، وبسبب العجز عن تحقيق هذه الوحدة ضاعت منهم أسباب القوة ، وترددوا فى تقديم التضحية ، وانتظر كل صاحبه ليقوم بالعمـل وحده ، أو انتظر كل دوره أمام عدوه ، والتمسوا كلهم الوسائل لتأخير النهاية المؤسفة، وربما جاءت منهم بعض المحاولات الهادفة للوحدة والتماسك، ولكنها كانت محاولات كلامية لا تلتقى عندها الإرادة الواحدة، ولا تؤيدها الاستجابة السريعة من الأفراد أو الجماعات ، لأن تأييد هؤلاء كان يعنى تضحية

الأفراد ببعض امتيازاتهم ، وتضحية الجماعات ببعض مكاسبها ؛ ولم يكن سهلا أن تضحى الجماعات الحاكمة بشىء وهى تسعى فى الوقت ذاته للمتع فى كل مظانها ، ثم هى لم تكن تعرف معنى للتضحيات خارج حدود وطنها الصغير .

كان لا بد لنجاح الأمل فى تحقيق وحدة البلاد الأندلسية من أن يتخلى الكثيرون من الزعماء ومواطنيهم عن أماكنهم ومراكزهم ، وكان على هؤلاء أن يسيروا فى الطريق العام وراء واحد منهم ، ولكن ذلك كان ثمنا كبيراً للوحدة المطلوبة حتى وإن كانت هذه الوحدة هى العلاج اللازم للمنطقة المضطربة .

ولم تنجح المحاولات الهادفة لوحدة البلاد رغم أهمية هذه الوحدة وضرورتها، وربما لم تكن الوحدة الأندلسية موضوعا للجدل فى فترات طويلة من تاريخ دول الطوائف بهذه البلاد ، أو لم تكن واردة حتى فى أساليب الدعاية السياسية المتبادلة بين هذه الدول الصغيرة .

لقد اتخذت كل جماعة من العناصر الإسلامية لنفسها مكانا ببلاد الأندلس، وحكمت الجماعات هناك باسم القوة وباسم الكثرة ، ثم تنافست فيما بينها على الامتيازات ومراكز الصدارة وأدى تنافسها إلى قيام حروب أهلية انتحارية بينها ، وزادت هذه الحروب فى ضعفها وفى تباعدها ؛ فلعبت بها قوات أعدائها ، وأخضعتها لإرادتها ، وألزمتها بدفع إتاوات مالية كانت تزيدها ضعفا وتهالكا .

وكثر عدد الجماعات الحاكمة ، واتخذت المدن الأندلسية مقراً لحكمها وحكومتها ، وأحاط بهذه المدن ما كان حولها من القرى الصغيرة المتجمعة بأثر

العوامل الطبيعية أو بأثر الرغبات العنصرية، وكان لكل منها حصونها وقلاعها، وقوتها التي تحاول أن تحميها من الأعداء حولها، وعاشت الدول الصغيرة بين الأعاصير فترات كانت تطول أو تقصر تبعا لكفاءة جيشها، وتبعا لإرادة أهلها، وتبعا لقوة الضغط عليها من أعدائها ولم يكن بينهما جميعا مجال للتنافس المقيد إلا فى نشر العلم، ورعاية الثقافة، وربما كان هذا هو الوجه الوحيد المشرق فى تاريخ هذه الدويلات الصغيرة، ومن المعروف أنه خلال الانحلال الشامل لكل المدن التى أعلن فيها قيام هذه الدول كانت ممالك الطوائف تبدو فى أثواب زاهية من العلم والمعرفة، وإذا لم يسدها النظام والاستقرار لفترات طويلة من تاريخها فإنها استطاعت خلال الفترات القصيرة التى كانت تتجنب فيها الحروب الأهلية أن تنعم بالنشاط والرخاء، وظهر الملوك هناك كأنهم كانوا جميعا حماة للعلوم والآداب، وكان من أبرز ظواهر عصرهم رعاية الثقافة والعلم والمعرفة، فأسسوا الجامعات والمدارس والمكتبات، وكان ملوكهم أنفسهم من كبار الأدباء والشعراء[1]. وكانت قصور هؤلاء الملوك منتديات زاهرة ومجامع للعلوم والآداب والفنون، وحفل عهد ملوك الطوائف بجمهرة كبيرة من العلماء والكتاب والشعراء وقادة الفكر الممتازين.

وكانت هذه الدول الصغيرة تجد مجالا آخر للتنافس فيما بينها، فاستغلت شعوبها وأرهقتها بدفع الضرائب المالية الكافية لما يطلبه أعداؤها ثمنا لحمايتها وقبول

---

(١) مثل عمر بن الأفطس حاكم بطليوس المتوفى ٤٨٤هـ/١٠٩١م والمعتمد بن عباد ملك إشبيلية المتوفى سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م والمعتصم بن صمادح صاحب المرية المتوفى سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م.

وجودها؛ والكافية لإشباع رغبات حكامها والمتسلطين عليها، وكلهم كانوا يسرفون فى بناء الحصون والقلاع التى كانت تحمى وجودهم وسلطتهم، وكلهم كانوا يسرفون أيضا فى بناء القصور والبساتين ليزدادوا من متع الدنيا.

أراد كل واحد من ملوك الطوائف أن يكون سيداً فى مكانه ومتسلطا على من حوله، وحاول أن يصل إلى غاياته بوسائله كلها، وكان من هذه الوسائل التحالف مع أعداء الوطن والدين، وبعد أن وضحت معالم الحدود بين هذه الدول الصغيرة حاول جميع الحكام بها البحث عن الحماية الضرورية، ولو بالتواطؤ مع الأعداء خوفا من خطرهم وبأسهم، وظهرت بالبلاد محاولات غير طيبة لتعاون المسلمين مع غير المسلمين ضد مسلمين آخرين.

ومع ذلك لا يمكن القول بأن جميع ملوك الطوائف بالأندلس كانوا ينسون اعتبارات الكرامة الوطنية والشخصية بتحالفهم مع أعدائهم المسيحيين المتغلبين عليهم؛ لأن ما كان يحدث هناك كان يظنه بعضهم نوعاً من الشعور بالقرابة بعد التواجد فى بلد واحد، وكان المسلمون يمثلون شعبا متسامحاً لا يعرف التعصب ولا يميل إليه، حتى ليقبل هذا الشعب التحالف سياسياً وعسكرياً مع غير المسلمين ضد المسلمين، أو ربما كانت مسائل الدين واعتباراته قد أصبحت أموراً جانبية ليست لها عندهم حرمة أو رعاية، أو ربما كان الدين فى حقيقته مهزوزاً فى نفوس بعض منهم، وبعد أن واجهوا الخطر، وضاع منهم الأمل كان المهم عند أقويائهم أن يحافظوا على استمرار وجودهم وعلى كيان جماعتهم داخل حدود جماعتهم وداخل حدود المنطقة المزدحمة بأعدادهم المتزايدة.

لقد تسامح المسلمون مع أعدائهم، وأهملوا أمور دينهم واعتبارات

سلامتهم وسلامة أوطانهم ، ودفعهم لذلك عوامل الضعف الواضحة فى جانبهم بعد أن تعرضت قضية وجودهم ، وقضية وطنهم للخطر الداهم وبعد أن عجزوا عن مقاومة ضغط الأعداء عليهم ، ولقد اعترفوا بضعفهم السياسى والعسكرى، ودفعوا لأعدائهم ثمن وجودهم ببلادهم ، وصحيح أنهم رفضوا التسليم بنهايتهم المؤسفة، وأنهم قاوموا هذه النهاية بشجاعة كبيرة ، ولكن موقفهم الشجاع جاء بعد ازدياد الخطر عليهم ، وبعد ضياع الأمل منهم ، فسقطت بلادهم واحدة بعد الأخرى ، وسلموا لأعدائهم فى النهاية .

والغريب أن التحالف مع القوات المسيحية كان أمرا يلجئون إليه أحيانا بالضرورة ، ويلجئون اليه وأحيانا أخرى بالطلب والرغبة ، ولم يكن هذا التحالف ضد قوات مسيحية أخرى معادية ، وإنما كان ضد قوات المسلمين شركاء الدين والمصير والتاريخ ، فكان المسلمون يتحالفون مع المسلمين ضد مسلمين آخرين ، وأما أن يتحالف المسلمون معا ضد المسيحيين ، فلم يرد ذلك فى تاريخهم، أو لم يكن ظاهرة مألوفة فى سلوكهم وسياستهم ، وهذا يعنى أن سوء الظن والعداء كان واضحا بين المسلمين أنفسهم ، كما كان واضحا بالمثل بينهم وبين خصومهم المسيحيين .

ولذا كان من الممكن تقسيم الجماعات الإسلامية الحاكمة بالأندلس فى هذه الفترة إلى طوائف متميزة كالعرب والبربر والصقالبة والمولدين ، فإن من غير الممكن القول بأن كل طائفة من هذه الطوائف كانت تتحالف فيما بينها على أساس من وحدة الأصل والجنس ، إذ لم يكن هناك نوع من تبادل الثقة حتى بين الحكام المنتسبين إلى جنس واحد ، ولم تكن أمورهم تدور دائما حول الجنس المشترك،

أو العقيدة الواحدة ، أو المصالح المشتركة لجماعة واحدة ، وإنما كانت أمورهم وأحوالهم تتأثر غالبا بوحدة القوة عند جماعة تعيش فى منطقة تعلن عليها سلطتها ، وإذا كانت هذه الجماعة تعلن انتسابها فى منطقتها إلى جنس أو أصل واحد ، فإنها لم تكن تلتزم بنصر شركائها فى هذا الجنس أو هذا الأصل ماداموا خارج حدود المنطقة التى كانت تعيش فيها ، وكأن انتساب جماعة تعيش فى منطقة واحدة لأصل واحد كان وسيلة مقبولة من وسائل تجميع القوى لحفظ المصالح المشتركة ولحفظ الوجود داخل المنطقة وحدها .

ولم تتقابل العصبيات القوية الكبيرة فيما بينها ، ولم تجمع الطائفة الواحدة كل عناصرها ، ولو بدافع العصبية للأصل الواحد ، وظل الجميع حتى أصحاب العصبيات الواحدة يعيشون فى أماكن متباعدة ، ولا يلتقون فى شىء ، ولا يجتمعون على شىء ، وتسابق أمراؤهم مع الزمن فى الحصول على المتع السريعة ، وفى امتلاك نعيم الدنيا ، ولم يكن من أغراضهم إلا تكوين الجيوش القادرة على الدفاع عن الممتلكات الداخلة فى مناطق نفوذهم وحدها ، وكان العداء وحب الانتقام متبادلين بين المتخاصمين إذا تقاربوا فى المكان وتعادلوا فى القوة ، كما كان الخوف والطمع يزداد بين الضعفاء والأقوياء المتجاورين فى الأقاليم الواحدة ، أو المناطق القريبة ، ولم تكن هناك مسئولية وطنية واضحة أمام واحد من الحكام ، أو أمام جماعة من الجماعات ، وإنما كانت المسئولية حول قضايا الوطن موزعة على جماعات متفرقة ، ولا تشعر هذه الجماعات بأهمية القضايا الوطنية ، أو لا تريد أن تتحمل أعباءها .

لقد جاء ملوك الطوائف ليمثلوا وجهة النظر الحقيقية الكامنة فى مجتمعهم المفتت ، فكانت هناك جماعات إسلامية تتصل عن طريق النسب بأجناس بعيدة

القرابة، وكانت بطبيعتها تتعاطف مع أصولها البعيدة، وتتخذ هذه الأصول وسيلة للوحدة العنصرية لتعيش بها فى أمن من خطر الآخرين، ولأن الوحدة الكبيرة الشاملة كانت تهدد هذا الشعور العنصرى الضيق فى صميمه فإن الجماعات كلها أبت أن تتلاقى فى وحدة واحدة تحت زعامة واحدة، وكأنها لم تكن من روح العصر أو لم تكن لها سابقة معروفة فى تاريخ البلادالأندلسية، أو كأن التجربة لم تكن موفقة أو لم تكن صالحة للبيئة الأندلسية وظروفها.

وانقسمت رقعة الوطن الأندلسى من الناحية الأقليمية إلى مناطق رئيسية كان منها:

(ا) منطقة قرطبة، وحكمها بنور جهور : ٤٢٢ - ٤٦١ هـ/ ١٠٣٠ - ١٠٦٨ م

(ب) منطقة طليطلة، وحكمها بنوذى‌النون : ٤٢٧ - ٤٨٧ هـ/ ١٠٣٥ - ١٠٧٥ م

(ج) منطقة إشبيلية، وحكمها بنو عباد : ٤١٤ - ٤٨٤ هـ/ ١٠٢٣ - ١٠٩١ م

(د) منطقة غرناطة، وحكمها بنو زيرى : ٤٠٣ - ٤٨٣ هـ/ ١٠١٢ - ١٠٩٠ م

(هـ) منطقة بلنسية، وحكمها العامريون : ٤١٢ - ٤٧٨ هـ/ ١٠٢١ - ١٠٨٥ م

(و) منطقةسرقسطة، وحكمها بنوهود : ٤١٠ - ٥٣٦ هـ/ ١٠١٩ - ١١٤١ م

(ز) منطقة بطليوس، وحكمها بنو الأفطس: ٤٢١ - ٤٨٧ هـ / ١٠٣٠ - ١٠٩٤ م

وبقى غير هذه المناطق الكبيرة عدد آخر من المدن والقواعد الأندلسية التى استقلت بنفسها، وكونت إمارات قائمة بذاتها داخل منطقة أو أخرى، ثم اختفى بعض هذه الإمارات بانضمامها للأقوياء، أو بخضوعها لهم، وكلها كانت تختلف من حيث اتساع الرقعة والأهمية السياسية، والعسكرية والثقافية، وكلها كانت تنقصها العناصر اللازمة لتكوين الدول المستقرة، ولم تكن واحدة منها تستطيع أن تعيش وحدها، أو أن تستقل بشئونها لصغر رقعتها الإقليمية، ولضعف قدراتها ومواردها.

وتشابهت هذه الدول الصغيرة فى المظاهر العامة المشتركة بينها، وبقى لكل دولة منها بعد ذلك تاريخها وظروفها وأحوالها، ومعنى ذلك أن الحكم العام عليها كلها لا يكون صحيحا أو سديداً دائماً.

ولم يزد عهد ملوك المدن على ثمانين سنة ٣٩٩ — ٤٨٣ هـ / ١٠٠٨ — ١٠٩٠ م التأم بعدها شمل البلاد فى رعاية المرابطين ٤٨٣ — ٥٤١ هـ / ١٠٩٠ — ١١٤٦ م، وفى رعاية الموحدين بعدهم ٥٤١ — ٦٣٣ هـ / ١١٤٦ — ١٢٣٥ م واستردت بلاد الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين تفوقها العسكرى القديم فى شبه الجزيرة ولكنها لم تستطع أن تسترد وحدتها الإقليمية، ولا تماسكها أيام دولة الأمويين، لأن القوة التى وحدتها كانت من خارج حدودها، وكانت تمثلها جماعات وافدة من شمالى إفريقية، وهم المرابطون أو الموحدون البربر الذين

كانت تحس بوجودهم العناصر البربرية الأندلسية وحدها ، ولم تكن العناصر البربرية غير إحدى القوى الكبيرة المتنازعة مع غيرها فى طول البلاد وعرضها .

وازدحمت بلاد الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين بوفود المهاجرين البربر ، وأصبحت هذه البلاد وحدة من الوحدات الكثيرة التى كونت إمبراطورية المرابطين ثم إمبراطورية الموحدين بعدها ، وكانت رئاسة بلاد الأندلس تعيش بعيدا عنها فى صحراء إفريقية ، وكانت رئاسات غريبة عن المنطقة ولا تشاركها الشعور بمشكلاتها ، فأحس الأندلسيون أيام حكم البربر بمأساة بلدهم ، وضياع سيادتهم ، ووجدوا فى المرابطين ومن جاء بعدهم مجرد جماعات متخلفة لا ترقى إلى مستواهم الحضارى والثقافى ، فلم يساندوهم ، ولم يدعموا سلطتهم ، وكأن الأمويين وحدهم كانوا أصحاب الحق فى حكم بلاد الأندلس ثم ذهبت بذهابهم روح الوحدة والانسجام حتى النهاية .

٢ – بنو عباد :

وإذا كان هناك نموذج مناسب لهذه الجماعات المبعثرة ، أو لهذه القوى المتهالكة فإن بنى عباد ملوك إشبيلية ٤١٤ – ٤٨٤ هـ / ١٠٢٣ – ١٠٩١ م كانوا أوضح الأمثلة على أحوال المسلمين بالأندلس كلها ، وربما كانوا أحسن النماذج ، وأكثرها صراحة وقوة ، لأنهم كانوا أقوياء ، أو كانت قوتهم فوق المستوى العام للممالك الإسلامية حولهم ، ثم كانت لهم أعظم شهرة بالبلاد كلها .

وعاش بنو عباد حياتهم وسط النعيم والرفاهية مع الإسراف والتطرف ومع المبالغة فى طلب الزيادة حتى غايتها ، وكانوا يرعون التقدم الحضارى فى

بلادهم ويهتمون به ، فدعوا لها الممتازين من المفكرين والعلماء ، وذاعت شهرتهم بالمشرق العربى كله فجاءهم الباحثون عن العلم والدارسون له من كل مكان، وكانت بلادهم أول الممالك الأندلسية التى أمل الناس فى الخير معها ، ورجوا أن تلعب أهم الأدوار فى حياة الأندلس كلها ، وكان الرجاء فيها أن تحمى بقوتها مستقبل الإسلام والمسلمين ما استطاعت .

وظل اسم بنى عباد يتردد فى بلاد الأندلس وقتا طويلا وكانت لهم مملكة شهيرة تذكر أحوالها كتب التاريخ باهتمام ، وكأنها كانت النموذج الممتاز للدولة المتطورة فى ظل تفتت العلاقات بين من كانوا يمثلون أمة واحدة، وإذا كان مقياس العظمة مايعرف عن الحكام من حياة الرفاهية ، ومايروى لهم من الآثار الأدبية ومايقال فى مدائحهم من قصائد الشعر الجيد ، وما كان لهم من أثر فيمن حولهم ، أو فى تاريخ بلادهم فإن ملوك بنى عباد بإشبيلية كانوا النموذج الفريد لهذه الصورة كلها .

لقد تأسست هذه المملكة الواسعة الأرجاء فى إشبيلة وما حولها بعد انهيار دولة العامريين بالأندلس سنة ٣٩٩ هـ / ١٠٠٨ م ، وفى هذه السنة كان القاضى أبو الوليد إسماعيل بن عباد يحاول أن يأخذ طريقه إلى الشهرة والسيادة ، ويعمل فى صمت وإصرار ليملك السلطة فى مدينة إشبيلية التى تركت لقدرها ومصيرها كغيرها من بلاد الأندلس بعد سقوط الدولة المشار إليها .

وجاد ابن عباد بماله على الناس فأثار اهتمامهم به وجذب انتباههم نحوه ولكنه لم يحقق شيئاً كثيرا فى حياته فمات تاركا لأسرته بعده المال والشهرة والأمل فى

السيادة على إشبيلية وما حولها ، ولم يكن العمل بعده سهلا أمام ابنه محمد بن إسماعيل ، لأن أحداً من بنى عباد لم يكن قد أصبح رئيسا قبله ، وإنما كانت السيادة هناك لأسرة بربرية من بنى حمود ، وبعد أن تنازعت هذه الأسرة فشلت فى البقاء فى مراكز السيادة على المنطقة واختار الناس لرئاستهم ثلاثة كانوا يمثلون وجهات النظر السائدة بينهم ، وكان منهم محمد بن إسماعيل بن عباد ، وساعد هذا ماله وجوده ليفوز على شريكيه فكسب قلوب الناس وأسرع لتأكيد وجوده سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م باختبار قوته أمام بنى الأفطس أمراء بطليوس ولكنهم هزموه وتفوقوا عليه ، وضاعت جهوده معهم سنة ٤٢٥ هـ / ١٠٣٣ م ، وسنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م ثم مات سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤٢ م .

وجاء بعده ابنه المعتضد عباد بن محمد فأرهق جيرانه الحاكمين فى قواعد الأندلس القريبة منه بالحروب والإتاوات المالية ، وفرض عليهم سيادته السياسية والعسكرية ، وحارب أيضا بنى الأفطس سنة ٤٣٩ هـ / ١٠٤٧ م ، ٤٤٢ هـ / ١٠٥٠ م كما فعل أبوه قبله ولم تكن حروبهم إلا محاولات تخريبية لم يكسب بسببها شيئاً فصالحهم سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م ليفرغ من جديد لجيرانه الأمراء المسلمين المستضعفين ، وبسبب نتائج الحرب معهم والغدر بهم ٤٤٥ هـ / ١٠٦٣ م ، ٤٥٨ هـ / ١٠٦٦ م أصبحت إشبيلية مركزاً مهما لمنطقة واسعة كانت تشمل جزءا كبيرا من جنوبى شبه الجزيرة الأندلسية ، وعاش فيها المعتضد سيدا قويا يرجو تحقيق آماله فى النصر الدائم على من حوله .

ولم يتركه أعداؤه غير المسلمين ليعيش طويلا مع أحلام نصره فغزوا بلاده وهددوا سلطته بها سنة ٤٤٥ هـ / ١٠٦٣ م فصالحهم بماله ، وظل يدفع لهم

الإتاوات المالية طول حياته ، وصان منهم بالمال ملكه ومكاسبه من حروبه الطويلة مع جيرانه المسلمين ثم مات سنة ٤٦١ هـ/ ١٠٦٩ م .

وتولى ملك إشبيلية بعده ابنه المعتمد بن عباد سنة ٤٦١ — ٤٨٤ هـ/ ١٠٦٩ — ١٠٩١ م ، وكان أشهر ملوك الطوائف وأعظمهم شأنا ، وذاعت شهرة المعتمد بالشعر والأدب والفروسية وحب الحياة الناعمة ، وسار على طريق من سبقوه من بنى عباد فتنازع على أخذ قرطبة من حكامها بنى جهور مع المأمون ابن ذى النون أمير طليطلة ، وكان المأمون بدوره ينافس المعتمد فى الشهرة وحب السيادة ، ولما أحاط الخطر ببنى جهور استنصروا ببنى عباد ضد ابن ذى النون ، فبعثوا لهم جيشا قويا قضى عليهم وأخذ بلادهم سنة ٤٦٢ هـ/١٠٧٠م ، وبذلك انضمت قرطبة عاصمة الأندلس الشهيرة لأشبيلية ، واتسع ملك أصحابها ، وأصبحت لهم المكانة الأولى فى عالم المسلمين حولهم ، وزادت شهرتهم ونفوذهم وتضاعفت قوة المعتمد بن عباد ، فحارب بها بنى زيرى ملوك غرناطة ، واستولى على بعض قواعدهم الشمالية سنة ٤٦٦ هـ/ ١٠٧٤ م ، ولكنهم رفضوا الهزيمة أمامه ، ولم يجدوا من وسائل الكيد المؤثرة فيه إلا أن يستعينوا بعدوهم ألفونسو السادس ملك قشتالة المسيحى ، ودفعوا له الثمن الوافى لخدمات المرتزقة من جنوده وأغاروا بهم على أملاك بنى عباد وهددوهم ، فأسرع المعتمد بدوره للتحالف مع ألفونسو السادس نفسه ، وتعهد ملك قشتالة لابن عباد بأن يعاونه بالجنود المرتزقة ضد أعدائه المسلمين ، وتعهد ابن عباد لملك قشتالة بدفع المال اللازم له ، وبعدم الاعتراض على مشروعه لفتح طليطلة وكانت من بلاد المسلمين ، وقبل الملك المسيحى أن يتعاون مع أمير إشبيلية ضد أمير غرناطة ، وكان قد اتفق مع أمير غرناطة على أن يشاركه فى خصومة أمير إشبيلية ، وكان يأخذ المال من

الجانبين معاً ، وقبل المعتمد من جانبه أن يظل صامتا أمام تحديات الأسبان المتعصبين للامارات الإسلامية الأخرى ، وأن يقف متفرجا على المسلمين حوله وهم يصرعون بيد حلفائه واحدا بعد الآخر لكى يفوز بالسيادة على الإمارات القريبة من بلاده .

وفى محاولة لإثارة الغضب فى نفس المعتمد بن عباد رفض رسول ملك قشتالة أن يقبض منه الإتاوة المفروضة عليه سنه ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م بحجة أن ماله كان زائفا ، وهدد الرسول القشتالى ملك العرب باحتلال أرضه : وضياع بلاده فغضب الملك العربى وثار وقتل الرسول الجرىء وسجن أصحابه، وبان الشر صريحاً بين الحليفين: المعتمد بن عباد ملك اشبيلية وألفونسو السادس ملك قشتالة، وأسرع النصارى بحصار إشبيلية ، فدافع عنها أهلها ببسالة الشجعان ، ولكن دفاعهم لم يقنع ملكهم بجدوى العمل منفردا ، ففكر فى استدعاء المرابطين حكام إفريقية لنجدته ، وكانت هذه فكرة عارضة لم تتأكد بعد فى نفسه ، فاستعاض عنها بالتفاهم مع أعدائه ، وترك لهم الأسرى وتنازلوا له عن بعض ما طلبه .

وفى سنة ٤٧٢ هـ / ١٠٧٩ م أعلن ألفونسو السادس الحرب على طليطلة وكان يحكمها بنو ذى النون وطالت الحرب ستة أعوام ثم سقطت بعدها المدينة العظيمة فى يد المسيحيين سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م بعد أن حكمها المسلمون اثنتين وسبعين وثلثمائة سنة، ووقف المعتمد هزيمة المسلمين فى طليطلة جامدا لا يغضب ولا يثور ، ولا يأسف ولا يعترض، وربما كان يسرف فى إظهار الولاء لأعدائه المنتصرين ، وكان يظن أنه بالمال وحده يستطيع أن يعيش حياته وسط الخطر ، ومع أن سقوط طليطلة كان ذروة النصر للمسيحيين فى بلاد المسلمين ، وكان نذيرا بالنهاية لحكم

المسلمين جميعاً فى بلاد الأندلس كلها إلا أن المعتمد ظل بعيدا عن أحداثها بجهده وماله وكأن أى محاولة منه لم تكن تفيد شيئاً فى دفع الكارثة .

وزادت جرأة أعداء المسلمين عليهم بعد سقوط طليطلة ، وظهر من الحرب حول هذه المدينة مدى عجز أصحابها عن الدفاع عنها ، ومدى ضعفهم أمام عدوهم ، ورأى المسلمون بعد فوات الوقت كيف قدموا بأنفسهم بسبب تفرقهم إلى عدوهم الوسيلة المناسبة لظهور سلطانه عليهم ، ورأو جميعاً شبح السقوط أمام أعينهم ، فشاعت بينهم فكرة استدعاء المرابطين حكام افريقية ، وكان حماس الشعب[1] الأندلسى لهذا الاستدعاء عظيما ، لأنه كان يدرى حجم الخطر المحيط بكل شىء حوله ، كما كان يدرك عجز حكامه عن دفع هذا الخطر .

وزادت الرغبة فى استدعاء المرابطين للأندلس بعد أن جاء دور بنى عباد ملوك إشبيلية على طريق الضياع أمام العدو المشترك لكل المسلمين ، فبعد سقوط طليطلة أخذ ملك قشتالة يغير على أملاك بنى عباد ، وكان يريد أن يتقدم فى سيره المظفر ليفتح الولايات الإسلامية كلها ، ولاحت للمعتمد طوالع المصير المروع الذى سوف ينحدر إليه إذا لم يبحث عن الطريق الصحيح للنجدة السريعة

---

(١) كأن استدعاء المرابطين للأندلس كان رغبة شعبية قوية ، وقد تعرض شعب الأندلس الواعى المتحضر لخطر المباشر ، ولم يجد أمامه طريقاً للنجدة إلا الاستغاثة بالمسلمين فى افريقية ، وقد كرر الأندلسيون رجاءهم للمسلمين فى مصر وتركيا عندما وضحت أمامهم النهاية المؤكدة : راجع نهاية الأندلس الصفحات ١٦٢ — ١٧٢ .

فرأى أن يستنصر بالمرابطين حكام المغرب ، واتحد أمراء الأندلس معه فى الرأى لأول مرة ، وتطورت فكرة المعتمد بن عباد إلى خطة حماية أيدها [1] سائر ملوك الطوائف ومعهم شعب الأندلس كله .

٣ ـ المرابطون :

وقبل المعتمد بن عباد – ملك العرب وأقوى حكام المسلمين بالأندلس – أن تأتيه المخاطر من المرابطين المسلمين سادة المغرب ، ولا تأتيه من أعدائه المسيحيين حكام قشتالة ، وكان عليه أن يختار بين أن يسحقه المسيحيون أو أن يلقى بنفسه فى يد المرابطين ، ففضل – إذا لم يكن من أحد الأمرين بد أن يسوق الجمال فى صحراء إفريقية على أن يرعى الخنازير فى شمالى أسبانيا .

وأحس شعبه معه بحرج الموقف وخطورته ، فأسرعت الوفود الأندلسية للبحث عن النجدات العسكرية ، وتزعمها فقهاء المسلمين وقضاتهم ، وكسب هؤلاء بتوسلاتهم قلب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين ، وبعدهم أرسل الأمراء والملوك الأندلسيون استغاثاتهم بدورهم [2] .

---

(١) عارض والى مالقة فى فكرة استدعاء المرابطين ، وكان يرى أنهم أشد خطراً على الأندلسيين من النصارى أنفسهم ، وأنه يمكن دفع الخطر بالاتحاد والتعاون والتضحية : انظر تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ١/٥٨ – ٨٠ .

(٢) وقع على الرسالة التى وجهت ليوسف بن تاشفين ثلاثة عشر أميرا من حكام الأندلس .

وجاء استنصار الأندلسيين بالمرابطين بعد سقوط طليطلة فى يد الأعداء، وكانت هذه المدينة من أعظم مدن الأندلس وأشهرها، وجاء بعد تهديد المسيحيين المعتمد بن عباد ملك اشبيلية، وكأن المعتمد عندما طلب النجدة من المرابطين بافريقيه كان يخشى أن تتكرر مأساة طليطلة فى بلاده، أو كان يرجو السلامة لنفسه ولدولته ولمن كانوا معرضين للاخطار مثله، وأما قضية بلاد الأندلس كوحدة كبيرة، أو كوطن عام يعيش فيه المسلمون القاطنون فى إشبيلية وفى غير إشبيلية، فربما لم يكن هذا الملك يحس بها إحساساً مباشرا.

ويبدو غريباً أن تساؤلات الناس وحكامهم بالأندلس لم تكن تدور حول الطريقة المناسبة لاستئناف حياة جديدة فى البلاد المهددة بالأعداء من كل جانب، ولم يكن الحديث هناك مثارا حول وحدة القوى الإسلامية تحت زعامة واحدة، أو حول نوع من التماسك القوى الذى يظهر البلاد كوحدة قوية أمام الخطر الداهم، ولو كان مثل هذا التساؤل معروضا أمام الناس لوجدوا له نوعاً من الإجابة الصحيحة، وإنما أراد الناس وأراد الحكام معهم دفع الخطر عن أنفسهم ولو بهزيمة سريعة تؤخر ساعات الموت وتؤجل النهاية المؤكدة وتشعر أعداءهم بخطر اندفاعاتهم المتهورة.

وانتصر المرابطون على المسيحيين فى سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦م، واسترد عالم المسلمين المتنازعين بالأندلس بانتصارهم بعض أنفاس الحياة من جديد، ولم يكن انتصار المرابطين حلا جزرياً للمشكلة الأندلسية من أساسها، وإنما كان حلا لمشكلة عارضة: وهى دفع أخطار المعتدين الذين هددوا سلامة إشبيلية وما حولها، وتراجع المسيحيون للشمال بعد هزيمتهم حانقين يرجون أن تأتيهم فرص العمل

للضاد من جديد؛ وتراجع المرابطون لبلادهم في المغرب التزاما بالشروط الصريحة التي كانت تفرض عليهم العودة بعد النصر ؛ ورجع حكام المدن الأندلسية إلى مراكز نفوذهم وسلطتهم ، ولاشيء بعد ذلك إلا جثث الضحايا من الجانبين .

وقبل رجوع المرابطين اجتمع حولهم ملوك الطوائف وكانوا زعماء جماعات صغيرة العدد أنانية الغاية ، كل واحد منهم كان يشتكي الآخر ، ويتهمه بالحرص على الأطماع الشخصية ، ولم يذكر أحدهم مشكلة البلاد الأساسية ، وكأن هذه المشكلة كانت بعيدة عن مجال تفكيرهم ، أو كانت غير واضحة أمامهم ، فلم يسأل أحدهم عن الطريقة المأمونة لجمع الناس والبلاد تحت قيادة واحدة يختارها الشعب أو تختارها هيئة تحكيم يتفق عليها ، وإنما أراد كل منهم أن يستأنف حياته بعد انتصار المرابطين بنفس الأسلوب الذي كانوا يتبعونه قبل مجيئهم .

لقد جاء المرابطون إذا كعلاج سريع لحالة خطيرة طارئة ، وبعد نجاحهم في إبعاد الخطر عن ملوك المدن الأندلسية رجع هؤلاء الملوك إلى سيرتهم الأولى ، وإلى حالتهم المؤسية من الانقسام والتفتت والمنازعات ، وكأن هذه العناصر الأندلسية كانت لاتريد أن تجتمع أبدا ، وقد عاشت حياتها متباعدة ، وألفت الحياة في وحدات منفصلة ، ولهذا انصرفت كلها بعد النصر الكبير الذي شاركت فيه بجهدها إلى تثبيت كيانها المنفصل ، ولم تحاول أن تتجمع في وحدة جديدة تقوى وجودها ، وتعطيها نوعا من الترابط الذي يتعارف عليه الناس .

ولم يفعل المرابطون شيئا سوى أن انتصروا على أعداء المسلمين في موقعة واحدة ، وبعد انتصارهم رجعوا للمغرب دون أن يتعقبوا الأعداء في بلادهم ، ودون أن يستردوا منهم ما كسبوه من المسلمين ، ودون أن يبحثوا قضية الوطن

الأندلسي ، وقضية المسلمين فى هذا الوطن ، ودون أن يتفقوا على نوع من التعاون أو التحالف بين المسلمين هنا وهناك ، ولم تعرض للبحث وجهات نظر جديدة تحاول علاج الأحوال القائمة ، وكأن تفرقة الإمارات وتوزيع السلطة فيها على جماعات متعددة الأهواء والرغبات كان نظاما ثابتا أو كان أمرا مقبولا حتى بعد ظهور عجزه وفشله عن حماية الناس ورعاية مصالحهم .

لقد كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين زعيم المرابطين بالمغرب يحس بكفاءة قواته ، ويعرف رغبتها فى الجهاد عندما استنصره أهل الأندلس ، وكان قد صادف فى معاركه بإفريقية قبل دخول الأندلس نجاحا عظيما ، وربما كان ينسبه كمسلم قوى الإيمان إلى تأييد خارجى من قوة الله سبحانه وتعالى ، وقد انتصر يوسف بن تاشفين فى إفريقية ، وأقام هناك لنفسه دولة كبيرة ، واتسعت رقعة هذه الدولة ، واستقرت أمورها ، ولم يبق أمامه إلا أن يؤدى دور الزعيم المسلم المسئول عن العمل فى ميادين الجهاد ضد أعداء الإسلام والمسلمين ، ووجد أمامه مجال العمل واسعا ، فتحمل بأمانة ورغبة شرف العمل لصالح المسلمين ودينهم ، وكانت تسانده قوة عسكرية مؤمنة تتحمس للجهاد ، وترغب فى ظلال الجنة .

وقد يساعد ذلك على فهم بعض الأسباب التى دفعت المرابطين إلى التقدم للحرب فى الأندلس بعيدا عن بلادهم ، ومع ذلك فلا يبدو أن زعيم المرابطين كان يخطط لعمل حاسم وراء البحر ، بمعنى أنه لم يقصد نظر القضية بجملتها ، ولم يهدف إلى حل مشكلة بلاد الأندلس من أساسها ، وإنما ترك الأمور غير واضحة بين المسلمين والمسيحيين هناك ، فرجع المسيحيون لبلادهم بعد هزيمتهم ولم ينقذ منهم مدينة طليطلة الساقطة فى أيديهم قبل ذلك بعام واحد ، ورجع

الامراء المسلمون مع جيوشهم ولم يسالهم عن أعمالهم للمستقبل ، ولا شك أن أحداً من المرابطين أو الأندلسيين لم يكن يؤمن بزوال الخطر عن المسلمين بعد الانتصار فى موقعة الزلاقة الشهيرة[1] ، وظل الخطر قائما وتعرض له الاندلسيون بعد رحيل المرابطين من جديد .

وإذا كانت قضية الأندلس فى جملتها تهم المسلمين الأقوياء بشمالى افريقية فكان المأمول فى يوسف بن تاشفين ألا يكون مجرد رئيس لجماعات مسلحة تعيد الأمن للمناطق الإسلامية المضطربة هناك ثم تعود دون عمل حاسم ، وإنما كان الأمل فيه أول مرة أن يعالج الأمور كلها بما يضمن سلامة الناس وأمنهم فى حاضرهم ومستقبلهم ، وكان يعرف أخطاء أمراء المسلمين ، ويعرف الأخطار التى كانت تهدد كل الناس بهذه البلاد ، ولكنه كان وافدا جديدا على العمل فى هذا الميدان الجديد ، أو كان يعمل فى غير بلاده هو ملتزم بشروط يجد من واجبه الوفاء بها ، ولذلك أدى العمل الذى طلب منه ، ولم يزد عليه ، وترك العمل الأخير لأيامه القادمة .

ويبدو أحيانا من بعض الظواهر القوية أن حرب المرابطين بالأندلس لم تكن لأغراض إنسانية خالصة ، ولم تكن أيضا لوجه العقيدة الدينية وحدها ، وإنما كانت مع ذلك للأمل فى خدمة المصالح المباشرة لبطل بربرى مسلم كان يريد أن يقوى سلطته فى بلاده بإرضاء عواطف شعبه الدينية ، وقد حقق له الانتصار على المسيحيين فى الأندلس الشهرة الكبيرة والذكر العظيم فى عالم

---

(١) كانت هذه الموقعة فى مكان قريب من بطليوس فى : ١٢ رجب ٤٧٩ هـ /٢٣ أكتوبر ١٠٨٦ م ، راجع تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ١ /٦٧-١٢٥

المسلمين كله (١) ، وخدم هـذا الانتصار وجوده كحاكم قوى على امبراطورية واسعة بإفريقية ، وإذا كان المسلمون بالأندلس فى حاجة إلى قوته فإن العمـل فى ميادين الجهاد الدينية كان فيه تجديد لنشاط جيشه الصحراوى ، وكان فيـه إشباع لرغبات هذا الجيش فى الكسب والثروة ، ثم كان فيـه مع ذلك تأمين لحدود إفريقية من الشمال .

رجع الأمراء المسلمون إلى مناطق نفوذهم ليستأنفوا الحيـاة التى ألفوها ، ورجع المسيحيون بعد هزيمتهم ليعودوا من جديد للعمل ضد للسلمين ، بعد أن عطلهم انتصار المرابطين عليهم عن بلوغ غاياتهم وأهدافهم ، وفاجأ الخطر المسيحى المسلمين مرة أخرى ، فطلبوا المرابطين من جـديد ، وعاد المرابطون للأندلس ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م ، ولم يكونوا فى هذه المرة مجرد قوات احتيـاطية للمسلمين المظلومين فى الأندلس ، ورفضوا أن يحصروا دورهم فى المساعدات عنـد الحاجة إليها ، وإنما جاءوا ليقضوا على ملوك الطوائف جميعا ، وليعيشوا فى الأندلس حكاما مسلمين يمثلون النماذج الطيبة للمجاهدين المخلصين .

وإذا كانت المكاسب المالية وحدها هى التى تدفعهم للحرب فهذه كانت فى الأندلس لا فى إفريقية ، وإذا كانوا يريدون دفع الخطر عن المسلمين المظلومين بالأندلس فلم يكن الخطر ممثلا فى المسيحيين وحدهم ، وإنما كان الخطر قائما أيضا فى وجود الأمراء المسلمين الذين كانوا يغرقون فى العصبيات والأطماع والفتن ،

---

(١) راجع : قيام دوله المرابطين الصفحات ٢٣١ — ٤٢٤ .

وكان لايمكن تحقيق الأمل فى النجاة والسلامة للمسلمين ودينهم إلا بالقضاء على ملوك المدن جميعا ، ثم إذا كانت الغاية أن يحصل المرابطون لبلادهم على امتيازات عسكرية فالأندلس كانت تمثل خط الدفاع الشمالى لهذه البلاد .

وجاء يوسف بن تاشفين فى المرة[1] الأخيرة لبلاد الأندلس ليعمل باسم الدين والشرف ، وليدافع عن المسلمين وحياتهم ومستقبلهم ، ولم يجد وسيلة سليمة لخدمة القضية التى جاء من أجلها إلا بالقضاء على الحكام المسلمين قبل أن يواجه وحده الجيوش المسيحية ، وكان يعرف أن هؤلاء الحكام يدركون رغبات قلبه ، وقد حاولوا بسبب ذلك أن يتحالفوا مع أعدائه وأعدائهم ضده ، فخشى أن يقاتل فى ميدانين فى وقت واحد ، ويظهر من محاولة أمراء الأندلس المسلمين التعاون مع المسيحيين بعد أن كشفوا رغباتهم فى القضاء على المسلمين جميعا بالأندلس أن قضية الوطن عند هؤلاء الأمراء كانت أمرا ثانويا إزاء مصالحهم المباشرة فى السيادة على المنطقة .

وعاش المرابطون فى الأندلس سادة لهم نشاط المحارب بين الشجعان ، وفيهم خشية الزاهدين الأتقياء ، ولكن لم يطل بهم عصر القوة ، أولم تدم عندهم عناصر القوة ، فشملهم النعيم ، وفتنوا بالدنيا بعد حياة البداوة المرهقة فى صحراء إفريقية القاحلة ، فضعفت همتهم ، وضاع حماسهم ، وجاءت نهايتهم بعد أن هاجمتهم جماعات أخرى

---

(١) بعد أن عاد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى المغرب سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٦م استنصره المعتمد بن عباد مرة أخرى سنة ٤٨١هـ/١٠٨٨م ، وأخفقت محاولته فى هذه المرة فرجع لبلاده ، ثم عاد للأندلس فى المرة الأخيرة بعد أن انتهى إلى قرار الاستيلاء عليها .

من المجاهدين الجدد القادمين مثلهم من صحراء إفريقيـــــة ، واندفع المجاهدون الجدد بالحماس الديني إلى تكوين دولة واسعة شملت لأول مرة في تاريخ المغرب كل شمالي إفريقية والأندلس.

وجاء دور المرابطين في الهزيمة أمام الموحدين الأقوياء، وكانت بداية نهايتهم قد ظهرت قبل انتصار الموحدين عليهم بوقت طويل ، ثم انتصر الموحدون على المسيحيين[1] أيضا بالأندلس وحكموها بعد ذهاب المرابطين سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م ، ولم تطل بهم الحياة الطيبة بعد النصر لأن أوربا كلها أعلنت عليهم حربا صليبية صريحة[2] ، فانهزموا أمامها سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٣ م ، وفقدوا السيادة على المنطقة كلها وفقدوا الأرض معها ، وضاعت ثمرات كفاحهم الطويل ، وعاد ممثلوهم إلى إفريقية من جديد ، وتركوا المسلمين الأندلسيين سنة ٦٣٣ هـ/١٢٣٥م ليواجهوا نهايتهم القريبة المؤسية .

ولم تكن محاولات المرابطين والموحدين ذات نتائج مصيرية نهائية ، وإنما كانت لتأجيل الفصل الأخير في المأساة ، ولتأخير ساعات الموت، لأن الخطر كان ملحا ومستمرا ، ولم تقابله خطط هادفة ، ولم يحاول المرابطون ولا الموحدون بعدهم أن يقضوا عليه بعد انتصارهم ، بل عاشوا مع الأعداء في مكان واحد والتزموا معهم جانب الحذر ، وتركوهم مع آمالهم في انتظار ساعات النصر الأخيرة عليهم ؛ ومعنى هذا أن تبعية الأندلس للمرابطين والموحدين لم تحل

---

(١) في معركة الأرك: ٩شعبان ٥٩١هـ/١٩/٧/١١٩٥م

(٢) راجع تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ٧٦/٢ — ١٢٤ .

المشكلة الأندلسية المستعصية ، وبقى العدو فى مكانه تتجسم فيه أشباح الخطر ، ولم تستطع قوات إفريقية الصحراوية أن تستمر هناك قوية فخضعت للحياة الناعمة ، وخضعت لضغط القوة ، ورغم أن جماعات أندلسية كثيرة كانت راغبة فى حكم المرابطين والموحدين لأنهن جميعا كانوا يمثلون جماعات متدينة تقيم السنة ، وتتمسك بمبادىء الدين ، وتلغى الضرائب المخالفة لرأى الإسلام إلا أن جماعات أخرى من الأندلسيين أنفسهم كانت ترى وجودهم يمثل السلطة الأجنبية ، وكانت مع ذلك تحس بتفوقها الحضارى عليهم .

٤ — ضغط الأعداء :

واندفعت نحو بلاد الأندلس قوات المسيحيين المشتركة ، ودفعتها الإرادة القوية والحماس الطاغي ، ولاشك أن أعظم الأخطار التى واجهت المسلمين منذ وجودهم بالأندلس كانت تتمثل فى مقاومة العناصر المسيحية الهاربة منهم إلى الشمال ، وكانت هذه عناصر قوية كونت لنفسها شبه دولة فى الخفاء والصمت منذ وقت بعيد وربما لم يشعر المسلمون بوجودها فى مراحل تطورها الأولى ، أو شعروا بوجودها وصرفتهم عنها أمور أخرى وجدوا لها أهمية عاجلة ، ثم فاجأتهم هذه الدولة ، بعد أن أصبحت قوة تستطيع العدوان والمقاومة ، وكانت تتخذ فى دعايتها حججا قوية مثل تحرير الوطن والعقيدة من سيطرة المسلمين الأجانب ، واستطاعت أن تبلور هدفها بوضوح فى القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى ، وكانت تتخذ لنفسها كيانا متميزاً إلى جانب دولة المسلمين ، وعبر هذا الكيان المتميز عن وجود مرحلة من مراحل الصراع

الطويل بين المسلمين والمسيحيين فى أسبانيا ، وجاءت الصورة القوية الجديدة بعد مراحل طويلة من العمل فى الظلام ، وبعد أن كان القوط المنهزمون أمام العرب أيام الفتح ٩٣ هـ/٧١٢ م يعيشون حياة متواضعة وراء الصخور فى أسبانيا الشمالية الغربية أصبحت له دولة راسخة الدعائم تدعو لدخول معركة الحياة أو الموت مع الدولة الإسلامية فى الجنوب ، وقد شغلت هذه المعركة ، وقتا طويلا من تاريخ العرب فى أسبانيا ، وإذا كان صحيحا أن المقاومة للنفوذ العربى بدأت فى أسبانيا منذ معارك الفتح الأولى ، وأنها كانت ظاهرة إيجابية قام بها القوط المنهزمون أنفسهم بعد الهزيمة ، وأنهم اختفوا وراء الجبال بغرض الحماية المؤقتة فى وقت الضعف والخوف فمعنى هذا أن الروح القومية الأسبانية ظهرت فى الوجود مبكرة ، ولم تحركها الاعتبارات الدينية وحدها بل ساهمت عوامل أخرى سياسية واجتماعية وجغرافية فى تقوية هذه الروح ، وفى اطراد نموها .

واجتمعت حول هذه الحركة عناصر كثيرة مختلفة كانت تتأثر بالدعاية لمستقبل المسيحية ولحرية الوطن ، وكانت أوروبا المسيحية المتعصبة تثيرها دائما ضد المسلمين فى كل مكان ، ولا شك أن الحروب الأخيرة بين المسلمين والمسيحيين فى الأندلس كانت تتخذ صورة المعارك الصليبية الصريحة ، فقد نشطت أوروبا فى هذه الحروب ، وكانت تقف خلف الدفعات المسيحية المتقدمة للعمل ضد المسلمين فى أسبانيا ، وإذا كان المسلمون يجاهدون فى بلاد بعيدة عن مراكز الثقل الإسلامية فى الشرق ، وإذا كانوا فى الوقت نفسه متفرقين تحكم عواطفهم وتصرفاتهم أحقاد صغيرة معطلة فإن أعداءهم كان يحاربون فى بلاد قريبة من مراكز الثقل المسيحية ، وكانوا يعملون معا لصالح الهدف الواحد

المشترك وهو الانتصار على المسلمين فى النهاية ، وفى نفس الوقت كان المسلمون هناك يعملون وحدهم ، ويشتركون فى صراع مصيرى طويل ضد قوات كبيرة متعصبة ، ومن المعروف أنه منذ ظهور شخصية الدولة الأموية بالأندلس سنة ١٣٨ هـ / ٧٥٥ م وهى تعمل وحدها ، وكأنها كانت جزءاً منفصلا عن عالم المسلمين ، أو جزءاً غير مشارك فى أحداث هذا العالم ، أو جزءاً غير مرتبط مع المسلمين في آمالهم ، وغير خاضع لمصيرهم ، واستمرت بلاد الأندلس بعيدة بكيانها وسياستها وذوقها ومزاجها وآمالها عن أن تشارك فى حياة المسلمين بالمشرق العربى ، ولم يشارك المسلمون بدورهم فى مشكلاتها ، فتركوها لشأنها ولظروفها ومصيرها وقدرها ، وكان عليها أن تصارع الأخطار طول حياتها وحدها ، وإذا كانت أيام قوتها تمثل جانباً قوياً من عالم المسلمين ، فانها فى أيام ضعفها لم تجد من المسلمين عونا كافياً لأن بلاد المسلمين كانت تتعرض مثلها لضغط الأعداء عليها فى كل مكان .

ونشطت حركات التقدم المسيحية ضد المسلمين ، وسارت بخطوات ثابتة نحو تنصير أسبانيا وتوحيدها ، وكسب المسيحيون من المسلمين مواقع جديدة ، وسقطت أمامهم المدن الاسلامية واحدة بعد الأخرى ؛ وغدت قواعد الأندلس الكبرى مثل سرقسطة ، وبطليوس، وقرطبة[١] ، وبلنسية ، وقرطاجنة، ومرسية وإشبيلية مدناً أسبانية مسيحية[٢] ؛ ومال ميزان القوى فى شبه الجزيرة الأسبانية لصالح مملكة قشتالة المسيحية وحدها ، وفى منتصف القرن السابع الهجرى

(١) كانت قرطبة عاصمة للدولة الإسلامية منذ سنة ٩٧هـ/٧١٦م
(٢) كان سقوط هذه المدن الأندلسية الشهيرة فى السنوات الآتية :
٥١٢هـ/١١١٨م ، ٦٢٨هـ/١٢٣٠م، ٦٣٣هـ/١٢٣٦م، ٦٣٦هـ/١٢٣٨م ، ٦٤٠هـ/١٢٤٢م ، ٦٤١هـ/١٢٤٣م ، ٦٤٦هـ/١٢٤٨م .

والثالث عشر الميلادى كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطي كلها قد سقطت فى يد أسبانيا المسيحية ، وفقد المسلمون قواتهم ومواردهم تباعا ، وانكمشت رقعة بلادهم تدريجيا ، حتى انحصرت مساحة الوطن الأندلسى الكبير فى مملكة غرناطة وحدها ٦٣٠ — ٨٩٨ هـ / ١٢٣٣ — ١٤٩٢ م وكانت مملكة غرناطة الصغيرة هى كل ما تبقى من بلاد الإسلام بالأندلس ، أو كانت الإشراقة الأخيرة لشمس الاسلام الغاربة هناك كما يقول المؤرخون .

٥ ـ غرناطة :

وبقيت غرناطة مركزاً إسلامياً تلتقى فيه الفلول المحاربة المتراجعة ، وتجمعات اللاجئين من كل مكان ، وظلت تعيش وسط الأخطار والأحقاد والمؤامرات ، وكانت ترمز ببقائها إلى إرادة الحياة عند المنهزمين ، وأثيرت حول بقائها التساؤلات الكثيرة ، وقدم الكتاب الكثير من التعليلات المقبولة وغير المقبولة حول بقائها وسلامتها طول هذا العهد الطويل ، وكان منها لجوؤها لحسن السياسة ، ودفعها ضريبة البقاء لأعدائها بسخاء ، وتقبلها لأبطال الإسلام الباقين بالأندلس ، ولم يكن مأمولا ولا متوقعاً أن يكون الانهيار سريعاً لجماعات بشرية قوية متحضرة ، ولشعب عظيم عاش فترات طويلة على أرض الأندلس ، وكانت له على هذه الأرض حضارة ممتازة وأمجاد عظيمة .

وعاشت مملكة غرناطة مائتين وخمسين عاماً بين قوات معادية تحيط بها من كل جانب ، وقاومت وحدها بشجاعة بعد أن جاءت نهاية المسلمين بالأندلس ، وبعد أن ضاع منهم الأمل والمستقبل ، وكان أعداؤها يستغلون ضدها عوامل الزمن ، وكلها كانت فى صالحهم وحدهم ، وأرادوا الكسب بأقل التضحيات ، وشغلتهم

عنها أيضاً انتصاراتهم على المسلمين بعد الصراع الطويل ، وكانوا يترددون فى العمل ضدها بعد أن أصبحت ملجأ للشجعان القادرين على العمل ببسالة فى حرب الحياة أو الموت الأخيرة ، وبعد أن ارتبطت بنوع من التحالف مع بنى مرين حكام إفريقية .

ثم اتحدت مملكتا قشتالة وأراجوان المسيحيتان سنة ٨٧٤هـ / ١٤٦٩ م ، وكان هذا الاتحاد نذيراً نهائياً بضياع نفوذ المسلمين كله من الأندلس ، وأسرع الدمار إلى غرناطة سنة ٨٨٨ — ٨٩٠ هـ / ١٤٨٣ — ١٤٨٥ م بعد أن تورط حكامها فى حروب أهلية مدمرة ، ولعبت بهم قوات أعدائهم ، وانتهى دورهم ، وسقطت دولتهم ، وضاع وجودهم كحكام فى بلاد كانت تخضع لأثر العوامل الجغرافية والقومية والدينية ، وكل هذه العوامل كانت ضد وجود المسلمين فى غرناطة ، واضطر الحاكم المسلم إلى التسليم للأعداء سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م وقبل أعداؤه له سبعاً وستين شرطا ، وكانت كلها تبدو ملائمة لأحوال ضحايا الصراع الطويل بين المسلمين والمسيحيين فى بلاد الأندلس ، ووجد الملك أبو عبدالله محمد بن على آخر ملوك الأندلس فى هذه الشروط نوعا من الراحة النفسية بعد الهزيمة ، وكان يتوهم وجود الشرف عند أعدائه ويظنهم سيلتزمون بشروط التسليم المفصلة ، فيضمنون له شيئا من الحقوق الإنسانية المقبولة .

ولكن أعداءه كانوا يخضعون لسلطات الكنيسة المتعصبة ، ويعملون باسم الدين قبل الوطن وكانوا كأى جماعة متعصبة لا تهتم بعهودها ، ولا تفهم معنى للاحتفاظ بهذه العهود إذا كانت تتعلق بالمخالفين لها فى الدين ، وإذا كان المسلمون يمثلون فى رأى رجال الدين المسيحيين خطراً على عقيدتهم فقد حرصوا على الإشراف على عذابهم ، وكانوا يمثلون روح العصر الصليبية المريضة .

وبدأت سنة ٩٠٥ هـ / ١٤٩٩ م حملة لإكراه المسلمين على التنصر ، وواصلت محاكم التفتيش عملها في مواطن المسلمين بالأندلس ، وفي سنة ٩٠٧ هـ / ١٥٠١ م صدر قرار بتخيير المسلمين بين التنصر أو ترك البلاد كلها للمسيحيين وحدهم ، فترك المسلمون أسبانيا ولجئوا لشمالي إفريقية ، وفي سنة ١٠١٨ هـ / ١٦٠٩ م كانت آخر مرحلة من مراحل جلاء المسلمين عن أسبانيا كلها وانتهت قصة الصراع الطويل بطرد المسلمين من الأندلس وضياع بلادهم كلها ، وكان بأسبانيا عند سقوط غرناطة ثلاثة ملايين مسلم تعرضوا كلهم للمحن والآلام فمات بعضهم بالعذاب ، ولجأ الآخرون منهم إلى شمالي إفريقية ليعيشوا مع المسلمين هناك .

الفصل الرابع

حركة المجتمع

١ — تمهيد

٢ — بعد الفتح

٣ — مجتمع المسلمين

٤ — الانجذاب للشرق

٥ — حياة الاستقرار

٦ — حول الدين

٧ — عناصر جديدة

٨ — مجتمع الأقوياء

٩ — وحدات منفصلة

١٠ — النهاية

١ - تمهيد :

تعرض كتب التاريخ إشارات واضحة عن حال المجتمع الأسبانى عند ظهور حركة النشاط الحضارى العربى فى شمالى إفريقية ، وتشير إلى أن هذا المجتمع كانت له معالم الصور العادية المعروفة عن مجتمعات العصور المتخلفة ، بمعنى وضوح التشكيلات المنفصلة غير المتعاطفة التى لم تتلاق عند أى وحدة مقبولة ، مثل وحدة الرأى فى العقيدة ، أو وحدة الاتجاه السياسى ، أو وحدة الفلسفة الأخلاقية ، أو وحدة الميول المتشابهة فى النظم الاجتماعية ، وكان اجتماع هذه التشكيلات يدور غالبا حول الاحتفاظ بمكاسب غير مشروعة ، أو حول الرغبة فى الابتزاز والطمع المتزايد ، أو حول أساليب المهنة التى كانت تؤدى فى النهاية إلى تعميق التفاوت بين الطبقات(١) .

ويقال إن بعض الوحدات الكبيرة كانت تبدو غير منظمة وغير مؤمنة بالقيم المعروضة فى مجتمعها التائه ، وإن جماعات كثيرة هناك كانت تعيش فى حال من الجهل والتأخر والضياع ، أو كانت تخضع للظلم وترى بضرورة القبول لما هو موجود فى مجتمعها، وكأنه كان شيئاً أخذ صورة الشرعية الملزمة أو لا حيلة فيه، وإذا كان هناك ما يشبه عدم الرضا الدائم إلى الاعتراض أو الثورة فإنما كان الباعث عليه صعوبة الحياة ذاتها ، أو عدم إمكان قبولها لفترات طويلة ، وجاءت الصعوبة من

---

(١) ولا يبدو أن للمهن كانت لهـا قيم أساسية بقدر ما كانت تشير إلى درجات اجتماعية محددة للعاملين فيها .

وضع اقتصادى واجتماعى متخلف بسبب الإهمال وابتزاز مراكز القوى لكل الخير الموجود كى تحفظ لنفسها الحياة الناعمة بين جماعات من الفقراء يتزايد عددهم بالزمن ، ويقال عن أهم الشركاء فى مراكز القوى إنهم كانوا سلطة السيادة العليا بالدولة التى كانت ممثلة فى جماعات أجنبية تحتكر العمل السياسى وحدها ، وتقيم نظاما للرئاسة عرف باسم الملكية المنتخبة ، أى أن الملك كان حاكما مستبدا جاء إلى أعلى مناصب الدولة عن طريق أصوات الناخبين ، وهؤلاء الناخبون لم يكونوا إلا أفراد أسرته وحدهم.

ولما كان الاتفاق لا يدوم طويلا حول واحد يعترف الناس بتفوقه أو يعطى سلطة العمل المنفرد وحده ، فقد تظهر الخلافات دائما وتوجد أسباب للتآمر والحروب بين جماعة قليلة تدور الدولة حولها ، ويخضع المجتمع كله لظروفها.

وظهر الصراع على السلطة قويا ، وفقد الملك عرشه ، ولجأ حزبه وأقاربه سريعا إلى الزعامات العربية بشمال إفريقية يطالبون بالكيد الصريح للمغتصبين.

وأدى النزاع على العرش إلى تسلط من يستطيعون القيام بفرض إرادتهم عن طريق القوة العسكرية ، أو عن طريق نفوذهم فى دوائر العمل ، وكوسيلة مقبولة لتأمين المصير واستقرار الأوضاع الطيبة فى أعلى مراكز الحياة الانسانية ، تحالف الحاكمون غير المؤمنين بوجهة نظر الكنيسة مع دعاتها الدينيين ، وازدادت بالتحالف جماعات المستغلين وأتباعهم ، وبعض هؤلاء كان يطالب باسم الدين وبعضهم الآخر كان يطالب باسم الدولة ، واتضح الاتجاه فى محاولة فرض الخضوع بالقوة لصالح القيادة السياسية ، وفرض المذهب الدينى الواحد لصالح القيادة الدينية ، وأسرفت الدولة فى عرض قوتها على خصومها السياسيين ، وعلى خصوم مذهب الكنيسة

الرسمى (١) الذى تؤيده واعتبرت المعارضات الدينية مخالفات سياسية داخلة تحت عقوبة الخيانة للدولة ذاتها ، وكانت مسائل الدين من أشد الأمور تعقيدا وغموضا ، حتى أصبحت شغلا دائما ، أو مصدرا للقلق والاضطراب لأعداد كبيرة من الناس ، ولم يكن الهدف توضيح وجهات النظر الدينية لأن أمور العقيدة المسيحية ذاتها لم تكن واضحة حتى للباحثين فيها ، وإنما كان الغرض من ذلك فرض الرأى والالزام به .

وكحركة مضادة قامت معارضة لسيادة الدولة ، ولسيادة المذهب الذى تدعو إليه ، وتطرفت الجماعات فى عنادها ، وأمسك رجال الدين بقوة الدولة يضربون بها خصومهم ، ويظهرون بها سيطرتهم ، وأطاعتهم الدولة فى ولاء مصطنع لتأخذ فى مقابله حرية التصرف فى العمل ضد مصالح الناس المباشرة ، واندفع الأقوياء مع النهم وحب الدنيا إلى وضع اليد على كل مصادر الرزق المعروفة ، وكانت منهم جماعات إقطاعية تعيش مشغولة بإنماء الثروة دون الاهتمام بشرعية وسائل الحصول عليها .

ويعطى لنا فكرة عن مبلغ ضخامة الممتلكات الخاصة بالحاكمين والإقطاعيين ورجال الكنيسة ما يقال بأن الكنيسة وحدها كانت تملك خمس الأراضى الصالحة للزراعة ، وبأن الأسرة الحاكمة كانت تملك مساحات كبيرة من الأراضى التى سمح العرب بعد الفتح برد بعضها لأولاد الملك المخلوع كمكافأة لهم على التعاون معهم فى كسب النصر إلى جانبهم وبقيت بعد ذلك مساحات أخرى كانت كافية لإرضاء عدد كبير منهم ثم إعلان الباقى « ملكا » عاما للنظام الجديد ، يستغل بواسطة المزارعين كعمال لهم حق فى الأجر وليس لهم حق فى الملكية .

---

(١) انعقد مجمع كنسى فى طليطلة سنة ٦٩٤ م وقرر اتخاذ اجراءات عنيفة ضد يهود أسبانيا .

ومعنى هذا ظهور ضغوط كثيرة متسلطة تحرسها قوة الدولة ، وقوة من كانوا يمثلون العقيدة ، أو من كانوا يملكون الثروة، وأن هذه القوى المتضامنة تجمعت لتحارب الضعفاء الكادحين من عامة الناس .

٢ — عند الفتح :

ثم كان فتح أسبانيا بعد عمليات عسكرية نجحت أخيراً فى شمالى إفريقية ، وظهر منها أن الصراع الطويل بين العرب والبربر هناك لم يعط لأحدهما نتيجة نهائية تضعه فى مكان القيادة السياسية أو الاجتماعية بالبلاد .

وقيل إن خضوع البربر كان سكوتاً عارضا أو كان قبولا مؤقتا للأمر الواقع ، وظهر أنهم بعد ممارسة الحرب سبعين سنة ضد العرب وجدوها عملا بلا نهاية ، أو جهوداً ضائعة من الأحسن الكف عنها انتظاراً لأمل جديد ، وساعدهم طول العشرة والاتصال — ولو عن طريق الخصومة — إلى نوع من التفاهم ، أو مال بهم الإحساس بامتياز العرب إلى الاعتراف بهذا الامتياز ، وكان لتفوق العرب مظاهر كثيرة منها صدق العزيمة والإخلاص للهدف .

ثم وجد البربر مكانا مناسبا للعمل العسكرى بعد طول المران والتجربة ، وكانوا يعرفون أسبانيا فنقلوا إليها حركة الصراع كتجربة جديدة ترضى الرغبة وتستوعب الحماس والطاقة ، فتقدموا إليها يعملون باسم الدين الجديد ، وباسم الفتوة الناشئة ، وباسم الحاجة معا ، وعملوا تحت زعامة بربرية تمتزج فى قلوبهم رغبات كثيرة ، أهمها التطلع لحياة أفضل فى ظل الدعوة الجديدة والبعد عن الجو القاتم الكئيب الذى شاع بعد حوادث الحروب الطويلة ، وكانت بلادهم فى أصلها بلاداً صحراوية فقيرة ، فزادتها الحروب خللا وفقراً ، حتى أصبحت ممارسة الحياة فيها عملا شاقاً ، فتقدموا لأسبانيا تحت زعامات بربرية مرتين ، وكان

العرب لايزالون فى بلادهم ينتظرون نتائج أعمالهم ، فأظهر البربر شجاعة ورغبة ، واندفعوا فى الحروب للنهاية ، وكأنهم كانوا فى حركة انطلاق بعيدة عن الخضوع لأى قيد، ولأول مرة يعمل جيش بربرى باسم الاسلام بزعامة بربرية .

واندفع البربر فى الفتح فى شبه حركات فدائية ناجحة ، وكأنهم أرادوا الانطلاق بعيدا عن الإرادة العربية والنفوذ العربى ، ونتصور أن اندفاعاتهم كانت أشبه بالحركات الشعبية التى قام بها جنود لايمثلون الدولة تمثيلا قويا ، لأنهم لم يكونوا فى ديوان جيشها ، ولم ترتبط بهم عن طريق التعهد بضمان رزقهم الثابت .

وتقدم موسى بن نصير بعد ذلك بجيش من العرب ليضفى على المشروع كله صفة العمل الرسمى الصادر باسم الدولة أولا ، وكأنه كان يخشى فقدان السيطرة على البربر ، أو انقلاب موازين القوى لصالحهم وحدهم ، ومعنى هذا أن عمليات الفتح الأولى ظهرت فيها زعامات بربرية على جنود من البربر ، وزعامات عربية على جنود من العرب .

وبعد اتصال موسى بطارق سار كل قائد بجماعة أغلبها من جنسه وتقدما نحو الشمال يقودان جيشين منفصلين ، وليست القضية الآن أن نقول إن هذا كان من أسباب الحماس والاندفاع للعمل ، وإظهار البطولات التى تنسب لهؤلاء وأولئك ، لأنه يبدو من واقع التاريخ ذاته أن الجميع كانوا يعملون تحت راية واحدة ولخدمة قضية واحدة كان قد حدث التفاهم عليها تلقائيا ، أو بعد اتفاق مستور ، واندفعت القلوب نحو الإخلاص لها وقدمت الجهود لصالحها ، ولكننا نقول إن هذا الانفصال فى القيادة وفى تجمعات الجند ، وفى حركة السير ، وفى الإقامة

بعد ذلك فى مناطق منعزلة ، كل هذا عمق الانفصال وجعلهما — كشعبين — يحسان بالبعد فيما بينهما ، ولم تحدث محاولات المزج الإيجابية المقصودة لا فى زمن الحرب ولا فى زمن السلم ، وبقيت الجماعتان تعتز كل واحدة منهما بجهودها المظيمة ، وبتوفيقها وإخلاصها ؛ وتريد على ذلك جزءاً كبيراً من مغانم الوطن الجديد ، أو على الأقل يريد البربر مساواة مطلقة كما يأمر الدين ، وكما كان يتوقع المحاربون منهم .

وشغلت القضية الكبرى كل العرب وأثارتهم السيادة المعترف بها لدوائهم العظيمة فى الشرق ، وقد يبدو الخلاف الوارد فى كتب التاريخ جميعا بين القائدين موسى بن نصير وطارق بن زياد كأنه خوف أو إشفاق من أن تضاف عمليات الفتح كلها لحساب جيش واحد أو جماعة بذاتها ، وكأن موسى بن نصير كان يتكلم باسم الجماعة التى كان لها حق السيادة ، وكأن طارق بن زياد كان يحاول الهرب من الالتزام بالتبعية القوية للعرب ، وكان يود العمل فى حرية كقائد يمثل شعباً كبيراً له تطلعاته وآماله .

٣ — مجتمع المسلمين :

جاء المسلمون للأندلس فى شبه موجات متدافعة تقدمت منها عناصر مغامرة أو مؤمنة من البربر الباحثين عن العمل والحياة الجديدة والراغبين فى المساهمة فى نصر الدين الجديد الذى خضعوا له ورغبوا فى العيش فى ظله ، ودخلت جماعات بربرية بقيادة بربرية وأسرعت فى العمل الحاسم لتعطى لنفسها حق الدعوة فى احتكار مكاسب النصر ، ثم جاءت جماعات عربية أخرى لضرورة النجدة أو للإسراع نحو المشاركة فى الحرب حتى لايذهب لغيرها شرف العمل وحدها ، وهذا

يعنى أن جماعات المؤمنين العاملين تحت ظـل الدعوة الإسلامية لم يدخلوا كجماعات منسجمة أو راغبة فى نسيان الفروق العنصرية أو متطلعة إلى حيـاة الوحدة الشاملة .

دخلت جماعات المسلمين واستمرت تعمل منذ أيام الفتح حتى النهاية مع الإحساس بالانفصال العنصرى أو ببعد القرابة ، وكأنها كانت جماعات غير مهيأة للعمل سويا بعد حروب استمرت سبعين عاماً ، وكأن عمليات الفتح قصدت منها العناصر النشيطة عملا إيجابياً نافعلا حتى لايضيع الوقت فى البحث والخـلاف حول من له حق القيادة أو حق السيادة فى إفريقية .

وازداد عدد العناصر والأجناس المكونة لشعب أسبانيا بوجود عنصرين آخرين جاءا بعد أجناس كثيرة كانت موجودة بها ، وبدأ الاختلاط المباشر بين الفاتحين والسكان ، وظهر أن اندفاع الفاتحين للاختلاط كان قوياً ، لأنهم وجدوا مجالا طيباً للحياة المناسبة بين جماعات لم يكن وجودها كثيفاً بالمنطقة ولم تعارض هذا الوجود ، أو لم يكن لها حق المعارضة فيه ، ولم يكن للحرب معها أثر متعب أو خلفية مؤسفة ، لأن عمليات الفتح كانت خفيفة الأثر على الفاتحين والسكان معاً ، ولم تعط تجربة الفتح الصورة المعروفة عن العمل العسكرى فى شمالى إفريقية أو غيرها .

وخضعت عمليات الفتح لرئاسة قوية فترة قصيرة من حياتها الأولى ثم فقدت هذه الرئاسة الحازمة سريعا بعد ذهاب موسى بن نصير وطارق بن زياد للعيش بين الخاملين ، أو إلى حياة الظل والغموض ، وبقى الناس هناك كجماعات تتصرف فى حرية كأنها كانت بعيدة عن الشعور الواجب بالمصلحة المشتركة فكل قبيلة أو جماعة أوجدت لنفسها مكانا ، أو دفعتها إليها الصدف وحدها ، أو حددتها لها الظروف العارضة ، وربما وجد منها نوع من الاختيار تبعا للميل إلى عدم البعد عن خصائص البيئة القديمة ، وتكونت وحدات تدور حياتها حول المصالح المحلية المشتركة ، أو حول الاتجاهات الحزبية أو القبيلية أو العنصرية ، وربما كانت هذه هى الصورة الطبيعية المقبولة أو الصورة القريبة من أفهام الناس.

لم تكن هناك إذا حركة تنظيم أساسية فى مجال التخطيط والإسكان، إما لأن الفاتحين كانوا لا يملكون اتجاهات معينة لعمليات التخطيط والإسكان ، أو كانوا يفقدون السيطرة الواحدة الناظرة إلى صالح الجماعة، أو كأن النصر كان مفاجأة سريعة تبعها عمل سريع ، وكان من صالح الجماعات القادمة أن تعرف الطريق إلى الاختلاط المباشر بالآخرين ، لأنها كانت جماعات وافدة أتت لتقيم وسط جماعات أخرى غريبة عليها ، وكان الفاتحون يريدون تمييع معالم النظام الطبقى القديم ، ويرغبون فى هروب الاقطاعيين والمسيطرين على الأرض، ليمكن توزيع ثرواتهم بطريقة أخرى مغايرة على أنفسهم ، وعلى العناصر الأكثر عددا والأكثر خطورة ، وكانوا ينادون بالحرية ليجذبوا العبيد لجانبهم ، وكان يهمهم نشر دينهم لإيجاد الكيان المساعد على بقائهم ، وكانت تهمهم العدالة الاجتماعية والالتزام بالحرية الدينية كوسيلة ناجحة لكسب القلوب نحو الدين إذا ظهر ميل لهذا الدين ، أو نحو الحكام إذا رفضت فكرة قبوله .

وإشارات التاريخ واضحة فى أن جماعات العرب كانت أقل عـددا من البربر ، وأنها لجأت إلى الأماكن المنبسطة فى الجنوب والشرق والوسط ، لأنها كانت أكثر خصوبة ، وأدفأ جوا ، وربما اندفعت للاختيار بالإحساس بحقها فى السيادة، أوحقها فى الامتياز على الآخرين

وتقدم البربر أو لجئوا بالضرورة إلى المناطق الشمالية الباردة أو الجنوبية القاحلة ، وكانوا أكثر عددا من العرب وكونوا بعدالاستقرار بالشمال ما يشبه الحاجز البشرى أمام قوى الضغط المسيحية القادمة من الشمال والغرب ، أوكانوا عند الفتح فى منطقة متوسطة بين الوجود العربى فى الجنوب والوجود المسيحى فى الشمال ، ولـكنهم لم يعيشوا طويلا منعزلين فى أماكنهم الشمالية لأن حياة الانفصال والبعد المـكانى بين العنصرين الأساسيين فى عمليات الفتح لم تضعف أسباب الخلاف بينهما :

ولقد وقعا فى صراع اجتماعى وعسكرى أدى فى النهاية إلى هزيمة الاكثرية البربرية أمام العرب الأقوياء ، وأدى إلى التفـكير من جديد فى عـــدم التفرد بالحياة فى مناطق بعيدة أو فى مناطق قريبة منعزلة (١) وهذا كان يعنى أن تعيين مكان الإقامة لجماعات تنتسب لجنس بذاته قد يعطيها معنى التماسك والشعور بالمصير المشترك والقوة القريبة المتعاونة ، ولـكنه فى ذات الوقت كان يعرضها لهجوم الأقوياء عليها ويجعلها غرضا لأعدائها، ولم تـكن الـكثرة العددية وحدها من ظواهر

(١) أدى الصراع بين الجماعتين إلى حال من الفوضى السياسية والى الخراب الاقتصادى بعد إهمال الزراعة واختلال الأمن .

الأمل فى النصر فى الحروب ، أو عند الخلافات بين الشعوب أو المجتمعات المكونة لوحدة سياسية واحدة .

فهاجرت [1] جماعات بربرية كثيرة كانت قد دخلت منذ أيام الفتح و بعده من مناطق الشمال بعد الضغوط العسكرية العربية من الجنوب والضغوط المسيحية الأجنبية من الشمال ، وتركت مساحات واسعة كانت على مرأى قريب من القوى المسيحية الحريصة على اتساع مناطق النفوذ فى أسبانيا الإسلامية ، وكان العرب أقلية ليست عندهم إمكانيات بشرية تشغل هذا الفراغ المتروك للوافدين من الشمال .

وهاجرت بعض هذه الجماعات إلى مناطقها الأولى فى قلب إفريقية الشمالية الغربية ، وقنعت بممارسة السلوك البربرى فى وطن الأجداد عن التطلعات المثيرة لما هو أحسن فى ظل الخصومات الجديدة العنيفة فى الوطن الجديد .

وهاجرت جماعات مماثلة كانت أكثر أهمية وأكثر واقعية إلى مناطق أخرى فى الجنوب وتسللت إلى الاندماج الجزئى فى الحياة العامة الشاملة لكل الناس من كل الأجناس ، وكان الانفصال المكانى فى الإقامة بين عنصرى الفتح الإسلامى مما يثير دائما السؤال التقليدى عمن له شرف العمل فى الفتح والجهاد ، ولم يكن هذا التساؤل للتساؤل وحده وإنما لتحديد مراكز القوى ولتوضيح حق الزعامة فى المجتمع الجديد المتطور ، وبدأ هذا التساؤل طبيعيا بعد النجاح فى حركة كبيرة كفتح أسبانيا على يد المسلمين من العرب والبربر الذين لم يكونوا قد عاشوا

---

(1) تشير كتب التاريخ الى حدوث مجاعات خطيرة بسبب الخلافات والحروب الاهلية بين المسلمين فى ذلك الوقت .

فترات طويلة أو قصيرة متحدين فى مكان يجمعهم ، وعندما حدثت الإقامة المختلطة بدا فى المجتمع مايشبه التكوين الحزبى الشامل لكل العناصر النشيطة المتفقة على وجهة نظر واحدة تجاه المصالح اليومية ، ثم وجد فراغ كبير فى الجو السياسى ، ووجدت فرص للثروة والسيادة ، مما جعل الفاتحين يدورون فى مساحات واسعة ، وفى مجالات عريضة للعمل والاكتساب ، ولاسيما بعد أن فقدوا الزعماء والقادة الفاتحين الذين كانوا يجمعون بوجودهم الناس حولهم ، ثم كانت تثار حولهم الدعاوى والدعايات القوية التى كانت تعطيهم فرص السيادة والسيطرة ، وتجعلهم دائما فى مقدمة الصفوف المتحركة .

وبقى الناس هناك منذ سنوات الفتح الأولى بلا زعامة قوية مؤثرة تفهم المقصود من عمليات الفتح فى أساسها ، فانصرف غير المسلمين إلى نوع من السلبية ، أو إلى الانتظار المعيب لنتائج الحركات القائمة بعد هروب الجماعات الإيجابية المعارضة إلى مناطق الشمال للحياة بعيدا عن النفوذ الجديد .

وكونت الجماعات المسيحية الهاربة مجتمعا صغيرا يعيش فى شقاء من الخوف والفقر ، وإن كانت حياتها مفعمة بالأمل والحماس ، وتركت أشياء كثيرة لجماعات متفرقة بلا قيادة وبلا وحدة ، أو لجماعات تتجمع فى وحدات صغيرة حول قيادة بلا كفاءة تكرر نفسها ، وتعيش لتدور حول المصالح العاجلة فى محاولة لكسب الزعامات المحلية ، وشاع الشعور العام بعد الفتح بالرغبة فى المكاسب العاجلة ، واتجهت الحركة الشعبية إلى أن الفتح يجب أن تغطى بسببه المصالح الخاصة للجماعات القوية ، وانقسم العرب إلى جماعتين على أساس أولية العمل وأهمية الجهد ، وانصرفوا إلى صراعات طويلة قاسية ، وإلى حروب فى الميادين الأهلية ، وكان الداخلون

أولا ينظرون إلى الجماعات الوافدة عليهم لا على أنها قوة جديدة تؤمن وجودهم وتحفظ كيانهم بالبلاد البعيدة وإنما كانت فى نظرهم قوة خطيرة غير مرغوب فيها لأنها كانت تشارك فى الرزق ، وتزاحم فى الصف وربما جاء الإحساس بالكراهية من عدم الشعور بالخوف أو من عدم الحاجة إلى الحماية بعد الاطمئنان على النجاح السريع .

وظهرت أسماء جديدة لجماعات عربية لا يفصلها اختلاف التاريخ أو الهدف ، وإنما يفصلها أسبقية العمل التى أعطت السابقين شعورا بالإصرار على التمسك بما جاء فى أيديهم من مغانم الفتح .

واندفعت جماعات بربرية كبيرة من أفريقية للوطن الجديد وكان لها وجود واضح فى أماكن كثيرة بالأندلس ومع ذلك لم تشر لها كتب التاريخ بوضوح [1] وكأن دخولها كان حركة عادية لا تثير انتباه المؤرخين ، أو كأنها كانت مجرد جماعات لها أهمية ثانوية تنتقل فى دار الإسلام ، أو جماعات جاءت لتعيش وسط الأرزاق الغامرة لكل المسلمين فى دولة المسلمين ، وكان لقرب المكان أثر فى حركة التنقل السريعة .

وجاءت جماعات عربية تذكرها كتب التاريخ باهتمام لأن الدولة كانت عربية ، وكانت هذه عناصر متميزة تمثل تطورا جديدا وحضارة متقدمة ولم تأت لمجرد الحياة بين الأحياء وإنما أرادت السيادة والسلطة والثروة وكان يتم بانتقالها وبجهدها حركة التعريب ونشر الدين ، واتخذت كأمثلة لأمة تمثل الدين الغالب ، ثم نشطت عمليات الاختلاط لأن العرب دخلوا رجالا بلا نساء ،

---

(١) قد يكون فى هذا نوع من الميل نحو الجماعات العربية وحدها .

وكان لا يمكن انعزالهم اجتماعيا حتى لو كان ذلك من رغبتهم ، أو من صالحهم، فكونوا أسرات هناك ، وكانوا يريدون المشاركة والمساهمة فى إدارة النظام وتطور الحيـــاة بالبلاد .

ولقد كان للحكام الجدد وجهات نظر جديدة مغايرة لما عرف عن الحكام السابقين، فاندفعت نحوهم جماعات كبيرة ربما كانت نصف مسيحية تجد راحتها الدينية فى قبول الدعوة الاسلامية وتجد حياتها وأملها ومستقبلها فى الحياة الجديدة ، وبقيت جماعات مسيحية كبـيرة تتخذ وضعا سلبيا رغم تحسن ظروفها الدينية والمـالية والاجتماعية ، وكانت تطبق عليها قوانين الإسلام الخاصة بغير المسلمين ، وطلبت منها ضريبة مالية اعتبرت رمزا ضروريا للمشاركة فى إقامة الدولة التى حمتها من فتن الاضطهادات الدينيـة المذهبيـة ، وكان من صالحها أن يتخذ المسلمون جانب الحياد بين المتخاصمين على تفسير الأسس الدينية ، ولـكن هذه العناصر التى كانت فى أمن من الاضطهاد الدينى كانت تختلط بعناصر أخـرى مسيحية تؤمن بسلطة الـكنيسة وتعيش فى رعايتها وكان يسوؤها تسلط دين آخر على مجال العمل فى دائرة النفوذ المسيحية بأسبانيا ، وهذه كانت عناصر قوية ونشيطة تنظر إلى أملاك الـكنيسة المسيحية المصادرة لحساب قوات العرب على أنها شىء ضائع يثير العواطف ويغضب الشعور ، وكان يمثل هذه العناصر المتحمسة رجال دين متعصبون بقى بعضهم فى البلاد تمسكا بالحياة فى أرض الوطن ، وهرب الآخرون ليشيعوا إرضاء لشعورهم الدينى المتطرف أنهم لم يستطيعوا الحياة وسط الأعداء، وقالوا إن أعداءهم كانوا جماعات متعصبة يكيف سلوكها الإحساس الدينى وحده ، ولا تؤمن بالحلول غير المؤدية إلى انتشار دينها ، واستمر هؤلاء على اتصـــال بأتباعهم ، وشجع على ذلك روح التسامح الطيبة المعروفة عن تاريخ من حملوا دعوة الإسلام فى كل مـكان .

لقد وجد المسلمون الفاتحون إذاً مجالاً مناسباً للسيادة والكسب فى مناطق واسعة وسط جماعات كبيرة ولم يتفقوا على تقسيم دوائر النفوذ أو لم يتفقوا على توضيح جوانب الاختصاص فيما بينهم ، وكأنما خلت لهم الدنيا ليصبحوا فى حالة من عدم الاستقرار أو التفاهم ، فلم يجدوا حلولا مرضية ، وحدث بينهم صراع سياسى خطر ، زاد من حدته غياب الزعامة القوية ، وظهور قوتين متنافستين لم يتقابلا عند نقطة التقاء واحدة ، وجاءت الخلافات عنيفة وحادة وتطورت إلى حروب أهلية ، وربما كانت من أساليب العصر فى التفاهم عند انغلاق معالم المستقبل .

ومثل سكان البلاد دور المتفرجين على الخلافات بين العرب والعرب وبين العرب والبربر ، واعتبر هؤلاء جميعا خلافاتهم شيئاً يخصهم وحدهم ، فلم يورطوا الآخرين معهم فى خصوماتهم الداخلية ، إلا أن أعمالهم كان يمكن رؤيتها والاحساس بخطرها المباشر ، وقامت أنواع من الحروب المحلية الصغيرة التى تورط فيها المسلمون فيما بينهم ، وكأنهم كانوا يعيشون وحدهم فى منطقة لا تسعهم جميعا ، وتروى كتب التاريخ الكثير عن أسباب الخلافات والكثير من صورها .

واستمر الصراع طويلا خلال فترة معروفة عند المؤرخين بعهد الولاة ٩٣ — ١٣٨ هـ / ٧١١ — ٧٥٥ م ، ويظهر أن تعليل هذه الظاهرة بالخلافات العصبية رغم ورودها فى كتب التاريخ ، ورغم سهولة اتهام العرب بها غير مقبول على إطلاقه ، لأن الإحساس بأثر القبيلة ما كان مثيراً دائماً ، وما كان يمكن أن يأتى النجاح المعروف عنهم مع وجود أسباب الخلاف الحادة ، وصحيح أن فكرة اليمانية والمضرية أخذت تتضح فى صورة حروب جزئية صغيرة فى بعض المناطق

إلا أن هــذه الحروب كانت غير الحروب الكبيرة التي كانت تدور حول الأسس والاتجاهات الحزبية ، والتي قامت بعد الفتح منذ أن بدأ التساؤل حول من له الحق في الرئاسة ، وكان ذلك انعكاساً لما كان موجودا في الدولة نفسها ، وهذه لم تكن حروبا بسبب العصبية وإنما كانت حروبا حزبية ، بعد تجمع العناصر المنتسبة للأصول العربية المختلفة حول الاتجاه المشترك والرأى الواحد ، والانتساب كان للأغلبية أو للعناصر القوية في الحزب ، وقام الخلاف حول المصالح المشتركة أولا ، ولم يحدث الانفصال المكانى على أسس من اختلاف النسب عند العرب ، وإنما دخل العرب كعرب في مجموعات قوية متماسكة ، وكان يملؤها الاعتزاز بالأمجاد العسكرية وبالتاريخ والدعوة الدينية والدولة القائمة .

وهذه المجموعات الفاتحة دخلت أسبانيا في آخر القرن الأول الهجرى ، بعد أن تطورت بها الحياة وبعد أن تحضرت واتصلت بالعالم المحيط بها ، وبعد أن عرفت الشعوب في إيران والعراق والشام ومصر وشمالى إفريقية ، ولا شك أن هؤلاء كانوا في الصميم غير العرب الذين كانوا في صحراء جزيرة العرب قبل الإسلام .

وقد ساعد على التنافس وعدم الاتفاق دخول عنصرين من عصبيات مختلفة أو وجود العصبية البربرية ، وكانت عصبية ناشئة قوية تريد لها مكانا بين العرب ، ولكن البربر لم يكونوا على نفس المستوى من الخلاف حتى يمكن اتهامهم بالعمل في دوائر ضيقة ، ولم يسجل لهم التاريخ صراعا داخليا قويا بسبب الخلافات القبيلية الحادة ، لا في أيام بداوتهم ولا في أيام تطورهم ، وقد يقال إن الفتح كان زمن الأمويين المعروفين باللعب فوق رؤوس العصبيات المختلفة ، أو بمحاولة السيطرة على العناصر القوية عن طريق إحياء العصبيات العربية

الـكبيرة ، وإضعاف واحدة بالأخرى ،غير أن بلادالأندلس كانت مكانا بعيدا لا يتأثر سريعا باتجاهات السياسة الأموية فى الشرق .

وأهم الصراعات حول الرئاسـة قامت بين الشاميين والبلديين أى بين القادمين من الشام حيث مركز الحـكم والدولة ، — وكانت نفوسهم تمتلىء بالإحساس بأنهم من قوة الدولة ذاتها — ، وبين البلديين الفاتحين الذين اندفعوا للجهاد فى عملية للبحث عن مواطن جديدة وعن مجال جديد للعمل المفيد ، فهم أصحاب الجهـد وأصحاب الأثر ، وكانوا يحسون بدورهم ويريدون عليه أجرا عظيما ، ومعنى ذلك أن الخلاف بينهم كان بعيدا عن أسباب العصبيات القبيلية ، وكان قريبا من الخلافات الحزبية بين أهل الشام وبين أهل أسبانيا الجـديدة ، وكانت العناصر المـكونة للجماعتين عناصر مختلطة تتمثل فى كل منها جملة القبائل العربية ، ثم انحصرت السلطة أخيرا بين الأقوياء من جماعتين من العـرب [1] الذين نقلوا لمجتمع الأندلس البعيد صورة غير طيبة لحياة الصراع العربى القديم زمن الفوضى والضياع ، وكان المفهوم أنهم بعدوا عن هذه الحياة بعد تقدم الزمن وتطور المفاهيم وزيادة التحضر ، وانشغلوا بمحاولة كسب السيادة السياسية على المنطقة بطريقة العنف ، وتركوا أمور التنظيم السياسى والإدارى ، وأمور الثقافة المعروفة حتى تظهر العصبيات القوية القادرة على تقديم الرئيس وتأييده وحمايته ولا يبدو أنهم كانوا بعيدين عن إدراك حقيقة الحياة فى داخـل الدولة ذاتها ، وربما كانت حياتهم صورة من حياة الدولة الإسـلامية التى تصارعت فيها

---

(١) هما الشاميون والبلديون ، وكانت عناصر كثيرة من أصول عربيـة مختلفة تجتمع فى الجماعتين معاً .

القوى حول الرئاسة فى ذلك الوقت ، ولم تستطع أن ترى بوضوح حقيقة الكيان الإسلامى بهذه المنطقة البعيدة التى جاء فتحها قبل فترة قصيرة من تعرض الدولة ذاتها لخطر السقوط أمام العدو القادم من مطلع الشمس فى الشرق ، ولقد انشغلت الدولة الأموية بأخطار الشرق وتركت التطورات تسير بالمسلمين فى الغرب إلى غايتها .

واستقرت جماعات قوية منفصلة فى بلاد جديدة ، ولم تجد لها رئيسا تشعر بكفاءته الجذابة ، لأن الدولة أبعدت قواد الفتح خوفا من سيطرتهم ، أو خشية إسرافهم فى الجرى نحو العالم المجهول .

وتعرض أول الولاة للقتل [1] بعد اتهامه بالخضوع للنفوذ الأجنبى الممثل فى زوجته الأسبانية ، وجاء ولاة من شمالى إفريقية يمثلون روح العصر واتجاهاته ، وكان عليهم أن يحكموا هذا الخليط البشرى العجيب المكون من جماعات مسيحية تحس بأثر المفاجأة وتميل للانتظار ، وتتجه بالعواطف الطيبة نحو الشمال حيث جماعات الهاربين المبالغين فى إشاعة الكذب عن تعصب العرب وقسوتهم ، ومن جماعات يهودية تدعى التعاطف مع الفاتحين والقبول لحكمهم ، وتريد من أجل ذلك نصيبا من مغانم التغيير ، ومع هؤلاء وأولئك جماعات عربية قوية تجد مجالا واسعا للحياة الطيبة ، وتؤمن بالحق فى السيادة بحكم تمثيلها للدولة ، وبحكم العمل والجهد أيضا ، ولكنها كانت جماعات قليلة متفرقة تلجأ للعنف لإثبات الوجود ولتحقيق الأمل حتى فيما بينها ، وجماعات بربرية تزداد مع الأيام كثرة ، وتثير دائما المطالبة بأحقيتها فى المساواة والعدالة المكفولة بحكم الدين ذاته ، ولا تجد سبيلا

---

(١) هو عبد العزيز بن موسى ٩٥-٩٧هـ /٧١٣-٧١٦م

للوفاق أولا تريده ، وتصادم العرب لتقيم الدليل على جـدية للطالبة بالحقوق ، وعلى قوة الوجود بالمنطقة .

وأعطي كل هذا للمجتمع الأندلسى منذ ظهوره صورة قلقة لجماعة تشعر بالبعد وبالعيش وسط جماعات أجنبية لم تـكن قوية أو محاربة ، ولـكنها لم تـكن أيضا ضعيفة أو مستسلمة ، وازداد عدد المسلمين ولم يأت تزايدهم بالشعور بالأمن ، أو لم يأت بالانسجام المعروف عن الجماعات المتجهة فى عقيدتها الدينية نحو وجهة واحدة ، وإنمـا ساعدت الزيادة على تطور الخلافات وتشعبها ، وإذا كان هناك الاشتراك فى اللغة والتاريخ والأمل والعقيدة والمصير فإن هذا كله لم يعط الانسجام الـكافى لهذا المجتمع الغريب الذى ظل منذلحظات وجوده الأولى وكأنما كانت وحداته تشعر بقوة وجودها المنفصل ، وإذا كان هنـاك رغبة فى التلاقى ، فلم يكن هناك ميل نحو انعدام الوجود المستقل .

٤ — الانجذاب للشرق :

ولقد كان من الطبيعى أن تتبع المنطقة بعـد فتحها دولة الذين فتحوها ، أو الدولة التى فتحت باسمها ، وهى الدولة الأموية بالشام ، وهـذه كانت امبراطورية عظيمة الأثر فى حياة العالم المعاصر لهـا ، وكان هذا يعنى أن تصبح المنطقة كلها مجرد مقاطعة من المقاطعات التابعة للدولة الـكبيرة ، وهى مقاطعة تقع عند آخر نقطة البعد التى وصلت إليها الفتوحات الإسلامية فى الغرب ، فلم يكن من السهل إذا أن تعرف الدولة عنها شيئا مباشرا أو أكيدا ، حـتى تسعى إلى تـكييف السياسة الصالحة لحياة الاستقرار فيها ، أو حتى تختار الحاكم الواعى العمل المفيد بها.

وجاء أول الأخطار عندما استدعى القواد الفاتحون سريعا قبل تمام الاستقرار وتركت البلاد مع قوات لاتؤمن بولاء قوى الزعامة الجديدة ، لأنها لا تجد لها سابقة جذابة ، أو نوعا من الامتياز المؤثر ، فتدخلت فى أعمال الحاكم الشخصية ، واتهمته بالخضوع للسيطرة الأجنبية عن طريق الطاعة لإرادة زوجته الإسبانية ، فقتلته [1] واختارت بعده واليا آخر ، وجاء الاختيار تعبيرا عن إرادة جديدة ، وهى إرادة الجماعة الراغبة فى إبداء الرأى فى القيادة ، وإذا كانت هناك قوة واحدة أو إرادة واحدة لكان من الممكن أن يكون الحاكم الجديد سيداً جاءت به الإرادة الغالبة لجماعة من الناس ، ولكن حق الاختيار الذى اكتسبته الجماعة بالممارسة من جانبها وحدها وجد من يعارضه ومن يحارب ضده ، ووجد من يرفض رغبة الجماعات القوية فى تعيين قادة ينتسبون إليها ، ورأى غيرها أن يكون الاختيار من حق الدولة وحدها ، وترددت الدولة فى عرض الرأى الحاسم ، لأن بعض المعالم الأساسية عن حياة المجتمع لم تكن قد اتضحت لها بعد ، وكأن أسبانيا كانت فقط مجرد منطقة تابعة لحكام شمالى إفريقية الذين تقدموا لفتحها وساندتهم فى النجاح بعض الظروف المحيطة بها ، واختلفت وجهات النظر وإرادة الحكام ، فجاء ولاة من الشرق أو من الجنوب وكانت فترات حكمهم قصيرة [2] لم تساعد على تكوين ما يسمى بتقاليد الإدارة أو بسياسة العمل بالمنطقة ، وكان حاكم الأندلس يختار مرة عن طريق شعب الأندلس ، أو عن طريق أقوى عناصره

(١) قد تكون هناك أسباب أخرى للتعدى بالقتل على ثانى الحكام العرب بالأندلس ، ولعل منها إرادة الدولة ضياع نفوذ بنى موسى بن نصير فى كل مكان ، ولكن الجريمة ارتكبت فى حال من الهياج الشعبى الذى يدل على ظهور الكيان الجماعى وتدخله فى إدارة التنظيم منذ فترات الوجود الأولى .

(٢) حكم بلاد الأندلس أربعة وعشرون واليا فى خمسة وأربعين عاما فى الفترة السابقة لإعلان قيام الدولة الأموية بها

وهذه كانت ظاهرة جديدة تعطى انطباعات سريعة عن ميول هذا الشعب منذ تكوينه ، وساعده على ذلك أن البلاد لم يفتحها عنصر واحد بل عنصران أساسيان لم يتقابلا معا فى وجهات نظر مشتركة ، وكان عنصر البربر تمثله جماعات كبيرة تنسب لنفسها وحدها شرف العمل هناك، ثم لم يكن ولاؤها للدولة عميقا ، أو لم تشعر بضرورة اللجوء إليها ، وكانت تود التحلل من الشعور المباشر لسيطرتها، ولاسيما فى المسائل المتصلة بشئون التنظيم السياسى والإدارى التى تخص أهل المنطقة وحدهم ، أو أرادت هذه الجماعات أن تظهر دورها فى بناء الحياة الجديدة، وفى إدارة العمل فى المستقبل ، ولم ترد أن تعيش حياة عربية من كل جوانبها ، فكانت ترى أن يكون لها اختيار حاكمها وإن كان يجب أن يكون له جاذبية الانتساب للعرب.

والعرب بدورهم كانوا يشعرون بأن اختيار الحاكم كان أمرا من شئونهم الخاصة، وإن لم يكونوا على وفاق فيما بينهم بعد أن توزعوا إلى أحزاب رئيسية يريد كل منها حق العمل كجزاء مطلوب على الجهود المبذولة ، ويريد كل منها السيادة عن طريق فرض الإرادة بالقوة ، وكان الجميع يشعرون بنوع من الامتياز أو بنوع من الإحساس بظل الدولة العربية .

ومرة كان الوالى يأتى من الشرق البعيد ليحل إشكالات الصراع بين المتنازعين من العرب أو من غيرهم ، وكان الخليفة القوى يرى ذلك من عمله كنوع من التمسك بحق السيادة ، أو بحق الاختيار فى أمور الادارة ، وربما كان يعتبر ذلك حلا وسطا يرضى به جماعتين مختلفين ، ومرة كان الوالى يعين باختيار والى إفريقية ويعمل تابعا له ، وتظهر بوجوده رابطة قوية بين العرب فى شمالى إفريقية

والعرب فى الأندلس ، مما كان يعطى للبربر حججا لدعوى سوء الظن ، أو فرصا للعناد ، ورفض الخضوع والإصرار على المقاومة ، ومعنى هذا عدم الاتفاق على سياسة مرسومة .

واستمرت هذه الإدارة المضطربة التى كشفت عن عدم الوضوح فى سياسة الدولة ، وكانت هذه الدولة تعيش تحت عوامل الاضطراب والخطر ، ثم كان الولاة غرباء يفدون على منطقة بعيدة عن مجال رؤيتهم المباشرة ، وكانت قوة الاهتزاز فيها تظهر أكثر عنفا عند ما كانت العواطف المريضة تتحكم فى الوالى الذى كان يميل إلى حماية نفسه بإرضاء من كانوا يمثلون قوة التأييد له ، ولا يعنى ذلك عدم ظهور بعض الحكام الأقوياء مثل عبد الرحمن الغافقى (١) أو غيره إلا أن هذا الوالى رغم تمثيله لدور الزعيم الواعي للأحداث حوله فإن الأحداث نفسها فرضت عليه الفشل بعد أن تورط فى حرب فى الشمال البعيد بجيش تمثلت فيه كل عيوب المجتمع الذى كان يحكمه ، ولم تنجح محاولات بناء علاقات طيبة بين العرب والبربر ، واستمر الود المفقود شائعا بين الجماعتين ، لأن الانسجام كان بطيئا لم تساعد عليه الإرادة أو العمل ، وظهر فى هذه الفترة حكام (٢) حاولوا إخماد الخصومات ، والسيطرة على شئون الإدارة بالبلاد كلها ، وحاولوا دفع حركة الفتح للشمال كعملية يشغلون بها المجتمع النابض بالحركة ، أو يرضون بها الشعور الدينى عند الناس ، وأتى آخرون كأنهم كانوا مجرد زعماء جاءت بهم الرغبات الحزبية فكانوا يعملون فى هذه الدائرة وحدها ، وكأن الدولة الأموية عندما ما كانت

---

(١) ١١٢ — ١١٤ هـ / ٧٣٠ — ٧٣٢ م

(٢) ومنهم أبو الخطار الكلبى : ١٢٥ هـ / ٧٤٣ م

مشغولة بواجب الدفاع عن النفس أمام الثورة العباسية فى الشرق تركت العمل فى الغرب للعناصر القوية المتقلبة ، ولهذا عانت الأندلس من فترات عصيبة بعد تحكم العصبيات والإدارات العاجزة ، وجاء من سوريا أو من شمالى إفريقية ولاة ضعاف غمرتهم الفتن ، أو ساهموا فى انتشارها ، وولاة أقوياء كانوا يفرقون قوات المتنازعين فى مناطق متباعدة ، ثم يضعفون أخيرا أمام حركات الخصومة القوية وأمام ضغط المجتمعات المضطربة .

٥ ـ حياة الاستقرار :

ثم قامت الدولة الجديدة ١٣٨ ـــ ٤٢٢ هـ / ٧٥٥ ـــ ١٠٣٠ م ، وقيامها يثير التساؤلات عن مدى توافق المجتمع مع مؤسسها ، وكيف استطاع شاب هارب يمتلىء قلبه بالحقد والكراهية ، ويسىء الظن بكل من حوله أن يتغلب على صعوبات الخلاف الشائع بين الجماعات الرافضة لقبول فكرة الوحدة منذ أيام الفتح ؟ وكيف وجد استجابة تبدو سريعة من عناصر نشيطة فى هذا المجتمع القلق ؟ ثم كيف حاول أن يوجد نوعا من الانسجام بين عناصره القوية ؟ وكأن المجتمع نفسه كان على هوى مع الفكرة الجديدة ، ويريد أن يستقر حول راية يرفعها زعيم له جاذبية الانتساب لأسرة ملكية ، واستمر القلق طويلا مع محاولة النجاح فى إشاعة الانسجام بين أغلب العناصر المتحركة بالمجتمع ، وكان للقلق أسباب ودوافع كثيرة ، فكانت الثورات ترفع الشعارات الجذابة مثل الحرص على وحدة المسلمين بإعلان الولاء لدولة العباسيين فى الشرق ، أو بإرجاع الحقوق المغتصبة برد الحكم لأصحابه الشيعة المظلومين فى كل مكان ، أو بالتساؤل الخطير حول أحقية المسلمين فى حكم البلاد أساسا ، وظهرت محاولات الثورة

واستمرت طول حكم المؤسس الأول لهـذه الدولة ١٣٨ — ١٧٣ هـ / ٧٥٥ — ٧٨٩م ، بدأت فى هذه الفترة أن العناصر الإسلامية كانت تأخذ دورها الرئيسى فى الحركة السياسية والاجتماعيـة ، وإذا كان صحيحا أن أول زعيم أموى جاء ليحكم شعبا تتضح فيه الصبغة الإسلامية الغالبة، أو أن أسبانيا عند دخوله كانت تسير نحو قبول دعوة الإسلام وتعميمها ، أو أن الإحساس كان واضحا بالمستقبل للإسلام والمسلمين هناك ، فإن هـذا كان يعنى أن العناصر الإسلامية كانت تمثل المجتمع لغلبتها ، وكأن حركتها كانت حركة المجتمع كله ، أما بقية العناصر سواء أكانت منجذبة للدين أو الجنس أو منسوبة إليهما معا فإنهـا رجعت إلى المراكز غير المؤثرة بالدرجـة الكافية فى حركة المجتمع الذى كان يأخذ دور المجتمعات الإسلامية الشرقية ، وإذا كان المراد تأسيس دولة باسم أسرة معروفة فإن أقوى العناصر هناك تصارعت فى شبه حركات نشيطة حتى تستقر أوضاع العمل أخيرا عند قوة واحدة وإرادة واحدة ، وهذا كان يعنى تقديم جهود كبيرة من جانب الدولة لأنصارها لاستقرار الأوضاع فيها ، وكأنما كان المجتمع كله مشغولا بحرب الفوضى وإقرار النظام ، واستمر مدة طويلة يعمل فى ميدان النزاع الداخلى ، ويدفع الخطر القادم مع جماعات مسيحية كانت عوارض القوة تصيبها فى فترات الإحساس بضعف المسلمين .

وأحست الدولة الناشئة بضرورة بعث الحركة العقلية ، وعـدم الانشغال عنها ، فأخذت تشجع الدراسة وتعين على العمل العلمى ، فسافر الأفراد الباحثون عن المعرفة إلى مناطق الدراسات الإسلاميـة التى لم تـكن تعنى عنـدهم إلا بيئة

الإسلام الأولى فى مكة والمدينة ، وفى هـذا إشارة إلى وجود شيء يمـكن أن تتلاقى فيـه وجهات النظر المتعارضة ، وفيـه أيضا إشارة إلى التمسك بروح العناد بين الجماعتين الإسلاميتين المختلفتين، وقد ظهر مذهب الإمام أبى حنيفة بالعراق واحتمى بالدولة العباسية، ورأت هذه الدولة الوفاء له كنوع من الإيمان به والدعاية له، وبقى مذهب الإمام مالك كأنه كان يقاوم اتجاه الحـكم العباسى ولا يؤمن بدعاياته، وكانت علوم الدين شائعة ومطلوبة ، وغالبا ما كانت تفتح لأصحابها جوانب الأمل وصفحات المستقبـل ، فذهب الناس للشرق للتعليم ، ووفدت جماعات من الشرق تفهم طريق العمل لنشر الدين وتوضيحه ، وتريد أن تكسب الحياة والرزق عن طريق عرض المكاسب العقلية على الناس بالأندلس ، وسمعت أصوات التشجيع على الهجرة لأنصار الأمويين فى الشرق، بعد أن فتحت أمامهم مجالات الحياة والأمن والاستقـرار فى رعاية الرئاسـة الأموية بالغرب ، وتقـدم أنواع من المهاجرين للأندلس ، واستمرت البـلاد تجذب عناصر طيبـة من الباحثين عن الجديد أو المفيد ، أو من المتفقين فى الهوى مع حـكام الغرب من المسلمين ، أو من الراغبين عن الحيـاة فى بيئة كان العرب يمثلون فيهـا جانبا واحـدا من جوانبها الـكثيرة ، أو كان العرب فيهـا مجرد عنصر يخضع لطغيان عناصر أخرى قوية تحاول تمييع وجوده ودوره ، وظهر الوجود العربى كثيفاً فى كل مكان بسبب الجماعات العربية الوافدة من كل مكان أو بسبب الجماعات الراغبة فى التخفى تحت الاسم العربى والسلوك العربى ، وكان الانتساب للعرب يعطى أمانا وشرفا ومستقبلا معا .

ومنذ لحظات الوجود الأولى بدت هـذه الدولة وكأن فيها قوة الحماية لمن

يرى الحياة فيها، وكان اتجاه دولتى المسلمين فى الشرق والغرب عدم الانفصال الثقافى بينهما، أو عدم إقامة حواجز قوية تباعد بين البشر، ولهذا يشار إلى فهم متطور يرمى عرض الثقافة على الجميع ويرى ملكيتها لكل الناس، ثم جاء التنافس بين الجماعتين وظهر تفوق الشرقيين وتقدمهم، فرأى الأندلسيون واجبهم فى سرعة العمل ليلحقوا بغيرهم وكأنهم كانوا فى سباق مشروع مع مواطنى الدولة العباسية فى الشرق، وساعد على الانصراف إلى الدراسة وضوح الاستقرار وقوة الدولة وشدة الحاجة إلى العلم، ووجود فرص العمل الممتازة أمام المتعلمين وحدهم، ثم عدم ميل الدولة إلى الحروب الخارجية بعد أن تعينت حدودها، وبعد أن أدركت خطورة التورط فى حروب وراء الحدود مع وجود العداء التقليدى مع المسلمين حكام بغداد ومع المسيحيين حكام بلاد الفرنج (١) وجاء تكوين الجيش الأموى بالأندلس فرصة مناسبة لتنافس العناصر الإسلامية على احتلال مكان الصدارة فى الوجود بالبلاد، ولعبت جماعات الموالى دوراً قوياً فى دعم قوة الدولة، وظاهرتها القوات العربية ذات الأهمية فى حياة المجتمع ومستقبله وتطوره (٢)، وكأن هذه وتلك أصبحت جماعات مرغوباً فيها، ووضعت لها الأدوار الأساسية فى حركة التمثيل السياسى، وكان الرأى الشائع عن الأمويين أنهم يحتفظون فى قلوبهم بالعطف على الجماعات العربية، غير أن هذه الجماعات كانت تشعر فى الأندلس بخطورة دورها، وكانت تسرف فى إظهار هذا الدور أمام الجماعات البربرية القوية، وحاولت الدولة أن تحفظ التوازن بين العنصرين وأن تحكم بهما المناطق التى كانت تخضع نفوذها

(١) قنعت الدولة الأموية بالأندلس منذ تأسيسها وإلى نهاية وجودها بما كان موجوداً داخل حدود النفوذ العربى الإسلامى.

(٢) ومن أهمها العناصر اليمنية التى وجدت فرصة طيبة للتفوق والظهور على خصومها المضريين.

— مع الفهم بوجود مناطق أخرى مسلمة لم يكن يشملها النفوذ الأموى، لأن جماعات أخرى من البربر والعرب كانت لا تفهم معنى لتركيز السلطة فى يد جماعة أموية تفرض السيطرة فى كل مكان، ولذلك استمرت هذه الجماعات تحرص على سلطتها الخاصة داخل المنطقة التى كانت تعيش فيها.

وأراد الحاكمون إيجاد ترابط سياسى واجتماعى حول الدولة وزعامتها بما كان يعنى تكوين ما يشبه الحزب الحاكم بالبلاد، غير أنهم تعرضوا لنوع من الوصاية التى حاولت الجماعات العربية القوية أن تفرضها عليهم، وكأن بعض العناصر العربية القوية أرادت الأمير حاكما لا يؤثر دوره فى حرية التصرف المضمونة للجماعات كلها، واشتدت محاولات الظهور بين عناصر المجتمع المختلفة، ولجأت الدولة إلى رعاية العصبية البربرية كقوة تتصل بهما عن طريق الولاء أو غيره، وتعرضت الزعامات العربيـة للاضطهاد، وكانت زعامات قوية مؤثرة تملك الحجج الكافية لبعض الدعاوى السياسية ضد الحكام، وتملك أيضاً التهديد بالاتصال بالقوى العباسية فى الشرق، وتعرف مواطن الضعف عند الأمويين، فظهرت كأنها كانت عناصر متمردة ترفض الخضوع لسلطة الدولة، ولا ترضى بغير العمل أمام الصفوف جميعا؛ وتحاول أن تكسب بسبب جهودها فى أيام الفتح مراكز الصدارة كلها.

ويظهر أن العصبية العربية لم تكن كافية لاقامة الدولة الأموية بالأندلس لأنها كانت عصبية واحدة من عصبيات قوية، ثم إنها كانت عصبية مغرورة ومتطرفة وغير متحدة، فلم يحدث فى الأندلس تماسك أو انسجام بين الحاكم العربى وبين الجماعات العربية

كمنصر ممتاز حريص على السيادة، وبدا أن الحاكم العربى كان يخشى العناصر العربية أولا لأنها كانت تريد إخضاعه، وإذا كان الأمراء فى حاجة إلى عصبية فيمكن أن تكون عصبية بربرية تتعاون معهم فى إقامة دوامهم فى مقابل السخاء والرعاية، ويمكن تكوين جماعات مستوردة من العبيد المعروضين فى الأسواق[1]، ومعنى هذا أن الحاكم الأموى لم يجد من السلامة أو من الممكن أن يقول إنه سيد عربى يقيم حكما للعرب فى الأندلس، لأن الفكرة كان قد ضاع وقتها بعد أن ظهر فى الشرق نظام جديد شامل يحاول المزج بين كل العناصر الاسلامية، ثم إن الحياة فى الأندلس لم تكن تقبل فكرة الحكم على أساس من العصبية الواحدة لجنس واحد، فحاولت الدولة تكوين عصبية لها من بين مؤيديها، وساعدها تفتت العرب وتنازعهم على المصالح العارضة، حتى أصبح من الصعب تجميعهم وحكم البلاد بهم وكان ثوارهم ينافشون أحقية الحاكم فى الرئاسة ويطالبون بالحق فى الامتيازات كجنس ممتاز، أما البربر فكانوا ينادون بالمساواة التى ضمنها الدين الاسلامى للمسلمين، وهو طلب متواضع أو مقبول إذا قورن بحاجات العرب ورغباتهم المتطرفة، واستمرت بلورة الحياة الاجتماعية والسلوك السياسى وقتا طويلا حتى وضحت معالم الطريق أمام الجماعات الأندلسية، فرأت فى الحاكم رجلا قادرا على التصرف وجديرا بالطاعة، وكان وجوده يساعد على الوحدة والتماسك، أو يشير إلى نوع من الشرعية فى الحكم، ولكن الجماعات الأندلسية مع ذلك استمرت ترفض الخضوع التام وتأبى سيطرة الفرد، وكأنها كانت جماعات واعية لضرورة الرقابة المباشرة على

(١) عرف هؤلاء فى تاريخ الأندلس باسم الصقالبة، وكان هذا اللفظ يطلق على أسرى الحروب الذين كانوا يقعون فى أيدى الجرمان ثم يباعون للمسلمين بالأندلس.

أعمال الحكام ، وبسبب هذا تعرض أمراء الأندلس إلى نوع من الصراع الطويل مع العناصر القوية فى مجتمعهم الحر القلق الذى لا يدين بالولاء إلا لمصالحه وحدها، ولا يريد أن تتقيد تصرفاته أبدا، وكأن الناس ذهبوا إلى هناك فى محاولة من محاولات الانطلاق من قيود الضغط المعروضة أو المفروضة على الناس فى الشرق ، وقد أوقعهم الانطلاق بلا حدود فى النزاع الداخلى العنيف بعد تكوين التجمعات الكبيرة والصغيرة منهم وظهر مايشبه العصبيات الموروثة للأصل القريب أو البعيد والعصبيات الغريبة للمنطقة أو المدينة، وكانوا يفهمون الحياة كأنها كانت حركة نقد لا تتوقف ،ولذلك عاش الأقوياء من حكامهم فى صراع داخلى طويل كان أقوى من الصراعات الخارجية وأخطر منها ، وخضع الضعفاء منهم للفوضى وتعرضوا بسببها للضياع .

واستمرت عصبية الدولة تعتبر نفسها مسئولة عن وجودها، وتتخذ لنفسها دورا كبيرا فى تطور الأحداث وتفاعلها وظهرت جماعات كان منها رجال الإدارة والسياسة والجيش وغيرهم، وتدافعت العناصر المختلفة نحو الانتساب للقوة العسكرية، وحاولت أن تظهر تفوقها فى العدد أو الكفاءة الشخصية ليكون لها النفوذ والصدارة ، وانتشرت جماعات أخرى أخذت تنمو مع الزمن ، وتنشط فى البحث عن مجالات العمل والاسترزاق ، ووجدت بالبلاد فرصا هائلة وأرضا طيبة انشغلت بها عن الاهتمام بالدوران حول الرئاسة للسيطرة، وكونت لنفسها وجودا مستقلا فى مناطق منعزلة ،لا كرها للنظام والتماسك ، وإنما رغبة فى ممارسة الحرية المطلقة التى كان الاحساس بها عميقا فى نفوس الجماعات كلها ، واستمر الاجتهاد فى إنماء الثروة بإدخال زراعات جديدة ، وصناعات جديدة، ونشطت حركة التجارة وامتلأت أوقات الفراغ، وزاد الرخاء الاقتصادى، وازداد وعى الناس بما حولهم، ولم يجدوا

معهم إلا رئاسات محلية صغيرة تأتى بها الأحداث ، أو تقتضيها ضروريات الإقامة بالبلاد المنعزلة، ووجدوا أنفسهم ينتمون إلى عنصرين أساسيين اتخذ كل منهما لنفسه مكانا شبه مستقل فى مناطق بعيدة كان وضعها الجغرافى يساعد على تعميق الانفصال ووضوح الخلافات بين الناس، وعدم الشعور بالحاجة إلى الآخرين، وضاع وقت طويل فى شبه صراع عميق بين العنصرين القويين بالمنطقة، وإن كانت أسباب الخلاف لا ترجع فى أساسها إلى تاريخ قديم بقدر ما كانت ترجع إلى عدم وضوح الرؤية أمام الجميع ، ولا يبدو أن البربر كانوا يريدون حكم الجماعة الأندلسية ، وإنما كانوا يريدون للعرب الحكم والرئاسة على أن يكون لهم دور مؤثر أو جانب قوى فى سير العمل كله ، فكانوا لا يريدون خضوع التابع وإنما يريدون مشاركة الزميل، وكانوا يحسون بإمكانية الدفاع عن وجهة النظر المعروضة ، وتلح عليهم تعاليم الدين بطلب العداله وبدا ذلك فى نظرهم جانبا مشرقا للاسلام كدين، وربما كانوا أشد حرصا على هذا الجانب وحده من بين تعاليم الدين ، وأما الإشارة فى الدين الى التسامح والى الأخوة والاعتصام برباط يجمع كل الناس فكانت أشياء غير مرغوب فيها ، أو لا يميلون إلى محاولة فهمها، وفى ذات الوقت كانت الجماعات العربية تحس بكبرياء العنصر الممتاز ، وبظل الدولة العربية العظيمة ، فتجدد الصراع وكأنه كان ضغطا من جانب ورفضا للتبعية من الجانب الآخر ، وانهزم البربر فى أغلب معاركهم مع العرب ، ولا تبدو الهزيمة إلا نوعا من إخفات الصوت المؤقت ، ثم انصرفوا بعد هزيمتهم عن المناطق التى تضعهم أمام غرض الهجوم عليهم من جديد وكأنهم كانوا شعبا منفصلا أو مواطنين من الدرجة الثانية - انصرفوا للحياة فى تكتلات صغيرة فى داخل المناطق التى كانت تموج بالسكان من كل الأجناس ، وبعد أن كان المسلمون منذ حركات العمل العسكرى الأولى أشبه بأمتين تسيران فى اتجاهات متعارضة قرب الاختلاط

المباشر بين وجهات النظر المختلفة، وأفهمهم إمكانية الحياة معا، وظهر اختلاط العناصر حول تجمعات جديدة ، مع الإحساس فى داخل النفس بالانتماء لرابطة أساسها الجنس والعصبية ، وسار ركب الحياة بكل الأحياء ، وجاءت فرص العمل الممتازة للجميع ، وظهر المجتمع النامى المتطور العامل على تقدم الحيـاة فى الداخل ودفع الأخطار القادمة عليه من الخارج ، وساعد على إقامة الحضارة المشتركة أن الأسرة الأموية الحاكمة قدمت حكاما أقوياء نجحوا فى المحافظة على تماسك هـذا المجتمع وعلى وحدته، وظهرت الدولة كقوة سليمة قادرة على حماية أبنائها ، ثم انكشف دور الحكام الأقوياء كعامل مؤثر فى مجتمع كان فى حاجة إلى قوتهم الشخصية واستمرت الحاجة إلى جهد الحكام المساعد على التقدم ، وجاء التطور الحضارى الذى بلغ أقصى مداه فى القرن الرابع الهجرى ، وفى نفس الوقت ظهر خطر الإرادة المسيحية الهادفة إلى إزالة الوجود العربى كله من أسبانيا ، على أن حياة التماسك والانسجام لم تلاحظ لفترات طويلة وكـان المجتمع يبـدو دائما معرضا للتفتت والانقسام لولا ضوابط القوة غير المادية عند بعض الحكام ، لأن مشكلة العلاقة بين العناصر المختلفة لم يتفق على حلها ، وكل جماعة كانت تجذبها مصالحها الخاصة وحدها ، وكانت تتعاطف مع الميول العنصرية حتى لم تنجح الجهود الهادفة الى صهر العناصر المتعارضة فى وحدة إلا لفترات قصيرة، وساعد على ذلك الإحساس بعدم الأمان(١) والتعرض الدائم للخطر، نظرا لعلاقات طويلة من سوء الظن وعدم الثقة بين هذه العناصر، ورغم وحدة المصير والهدف فقـد كان هناك إحساس بالانقسام

---

(١) ولا سيما بعد وضوح الغرض من حركة الاسترداد المسيحية بعد تعاظمها فى أوائل القرن الخامس هـ/١١م .

فى المجتمع الذى كان يضطرب بالعناصر المختلفة، ثم كان هناك انقسام فى العواطف القوية الدائرة حول العقائد الدينية، وهذه العقائد كانت تلعب أهم الأدوار فى تكييف الحياة للناس جميعاً.

٦ — **حول الدين :**

لقد حاولت دولة الأمويين منذ نشأتها أن ترعى عقيدة المسلمين وتحرسها، وكانت تجد بعض سلامتها فى حماية هذه العقيدة فقربت الفقهاء الذين وجدوا فرصتهم فى إقامة نفوذ مباشر على الأمير ذاته (١) وفى ممارسة ضغط مباشر وغير مباشر على المسلمين وعلى غير المسلمين معا، وإذا كان صحيحا أن روح الاسلام وتعاليمه تشير بالتسامح وإفساح المكان للآخرين ليعيشوا مع الحرية الدينية والاجتماعية بنظام مالى مقبول فان تحمس الفقهاء وحياتهم فى مجال واسع سمح لهم فيه بحرية العمل كمشرفين على حياة الناس الاجتماعية جعلهم يبتعدون عن روح التعاليم الاسـلامية الطيبة، ويحاولون إقامة حكومة دينية مفروضة على كل الناس وقد يكون من غير الممكن الإشارة إلى حركة اضطهاد دينية أو اجتماعية مقصودة أو غير مقصودة لغير المسلمين بالأندلس ولكن ظهور صوت أى دين فى منطقة من المناطق أو إباحة حرية العمـل بلا ضوابط لرجال أى دين كانت تعطيهم فرص الانطلاق البعيد عن التعاطف مع الآخرين، وتعطى لهؤلاء الآخرين شحنات عاطفية مضادة يكون فيها الأسف والمرارة والحقد والكراهية، وقد قام شعور معارض لهذا الاتجاه بين غير المؤمنين بالحاجة إلى ظهور رجال الدين كقوة مؤثرة مفروضة على الآخرين، وغير المسلمين كانوا يحسون لفترات طويلة وربما إلى النهاية بغربة الاسلام فى أسبانيا، وأنه دين وافد عـلى بلاد كانت مسيحية

(١) ظهر ذلك بوضوح فى تسلط الفقهاء على الأمير هشام بن عبد الرحمن ١٧٣ — ١٨٠ هـ/٧٨٩ — ٧٩٦ م.

وكان ؤسفهم ظهوره وتفوقه كعقيدة، وشجعتهم مراكز الاتصال المسيحية النشيطة، وكانت تعيش فى جو كئيب من عدم التسامح والحماس غير الواعى للعقيدة الدينية، وكأن هذه العقيدة كانت معرضة لخطر الانهيار، واشتدت مراكز الدعاية الدينية وكثرت فى بلاد الأندلس وحولها، ونجحت فى قيادة القلوب والعقول المشفقة على دين المسيح، وجاءتها الفرصة عندما اصطدم المسلمون الذين كانوا يقودون الاتجاه الدينى القوى بمن كانوا فى مراكز السلطة منهم، وحاولوا تهديدهم بعد أن ملكوا عليهم عواطف الناس، وبعد أن جعلوا حياتهم كلها محاطة بالإحساس الدينى الملتزمت الذى كان يفرض نوعا من الرقابة على حركة المجتمع كله، وكان لابد أن يسود أحد الجانبين، وأن يكون الحكم لاحدى القوتين، فظهرت خطورة الصراع على النفوذ والتحكم فى المصير، وقامت ثورة(١) إسلامية شعبية ترفض سيادة الفرد غير الملتزم بتعاليم الدين، وتتهم الأمير بالخروج على الاسلام والكفر به.

وأدى النزاع إلى إعلان الحرب بين قوة السلطة وقوة الداعين إلى العمل تحت الإشراف الدينى، وانهزم العاملون باسم الدين، وحرمت جماعات منهم من الحياة فى أرض الوطن، فانصرفت كارهة فى عدد يزيد على عشرين ألفا إلى شمالى إفريقية، وكانت جماعات لاجئة تحاول أن تجد لها مستقرا على الأرض، ووجد بعضها لنفسه مكانا فى مدينة فاس الشيعية التى ساعد حكامها على إيجاد فرص الإقامة الطيبة للوافدين عليهم، وكانوا عناصر مسلمة متطورة يمكن استغلال خبرتها وجهودها فى تقدم الحياة بالمغرب، ويمكن أيضا أن تفيد بالدعاية للأدارسة كحماة للاسلام والمسلمين، وسار بعضها الآخر ليبحث لنفسه عن مكان فى

---

(١) عرفت بثورة الربض سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٧م وقامت ضد الأمير الحكم بن هشام ١٨٠ — ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ — ٨٢١ م

الاسكندرية ، ودخلوها لاجئين كالمهاجمين ثم طردوا منها إلى جزيرة كريت [1] بأمر من وإلى المأمون أمير المؤمنين ، وكان هذا يعنى هزيمة الشعور الدينى المتطرف أمام قوة الدولة الأندلسية، ولقد هزم الشعور الدينى لأنه ظهر بلا قيادة أو لأن المدافعين عنه كانوا لا يملكون وسائل الانتصار الكافية ، ومع ذلك استمرت الدولة حريصة على الزعامات الدينية ومنها بعض زعماء الثورة نفسها، لأنها أرادت هزيمة الاتجاه الثورى لا هزيمة الافراد المتدينين ، وربما كانت تخشى تهمة اضطهاد الدين وأهله بالأندلس فضربت القاعدة وحدها ، وتركت القيادة لتدافع بوجودها عن نفسها عند مواجهة المسلمين الآخرين .

ثم حاولت السلطة أن تشغل المجتمع بحياة اللهو والمجون بدعوة اللاهين إلى الأندلس من بغداد وغيرها ، فانشغل الناس بأمور الدنيا بعد انشغالهم بأمور الدين ، واعتبرت تصرفات المغنيين والعابثين نماذج للتطور الحضارى المطلوب، ولم يوافق ذلك شعور المسيحيين المتزمتين، فقاموا بحركات ثورية كنوع من إثبات الوجود فى غياب الروح الدينية الإسلامية ، وكان المجتمع كله قد سار بعيداً عن مراعاة الشعور الدينى للمسلمين والمسيحيين معا ، وظهر التحلل من الدين والجرأة على تعاليمه، فهوجم المجتمع الكبير فى عقيدته الدينية من جماعات مسيحية قليلة العدد قوية الإيمان ، وأخذ أفرادها يسبون دين المسلمين ونبيهم علنا أمام الناس وأمام الحاكمين أنفسهم؛ ففرضت الدولة عليهم عقوبة الموت وكانت هذه العقوبة تزيدهم حماسا واندفاعا إلى الإسراف فى السباب واللعن ، ثم لم تأت هذه الحركة المتعصبة بالنتيجة المأمولة لأن الدولة لم تسلك الطريق المعارض لها، ولم تستعمل القوة فى فرض

---

(١) فتح الأندلسيون جزيرة كريت سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧م وأسسوا بها دولة استمرت حتى سنة ٣٥٠ هـ/٩٦١ م

الأدب على غير االتأدبين من المسيحيين ، واستطاعت صرفهم إلى الطريق العام بعد حالات معدودة من العنف والقسوة، واندفع المجتمع كله بعد ذلك نحو العمل المتطور البعيد عن الضغوط الدينية المباشرة ، واستمر هذا وقتا طويلا مع الاحساس الشامل بأهمية التعاليم الدينية ،ومع التظاهر باحترامها والتمسك بها ، ومع البعد عنها وعدم الخضوع لها فى الوقت ذاته(١) .

٧ ـ عناصر جديدة

لقد نشأت الدولة الأموية بالأندلس كاستجابة لوجهات نظر قوية معارضة لسياسة العباسيين فى وقت كان هؤلاء مشغولين بتنظيم شئونهم فى الشرق ، وعلى أساس قوة متسلطة يرأسها أمير قوى استمر طول حياته يجاهد العناصر المعارضة له ، حتى تغلب عليها وفرض عليها نفوذه ، ولم تكن أمامه إلا فرصة الضغط بالقوة وحدها إذ لا أمل له فى قبول كل هذه العناصر لنفوذه، أو فى اتفاقها عليه، وجاء الذين بعده وكانت تميل معهم الدنيا بقدر كفاءتهم الشخصية ، وبقدر استجابة المجتمع لهم وبقدر قوة دولتهم واستعدادها لحماية نفسها من أعدائها ،لأن تقلبات المجتمع كانت قوية وخطيرة ودائمة ، وكانت الأخطار الخارجية قوية ودائمة أيضا ولهذا جعلت الناس يعيشون فى قلق ، ويترقبون الخطر فى كل الاوقات.

وفى غير عصور الحكام الأقوياء كان مجتمع الأندلس يرجع إلى حالة شاذة من الفوضى السياسية والتفتت الاجتماعى ، وقامت ثورات سياسية فى مناطق منعزلة، ثم ظهر عنصر جديد قوى أخذ دوره بعنف على مسرح الأحداث وهو عنصر

---

(١) ثم فاجأت غارات النورمان البحرية هذا المجتمع اللاهى فصرفته إلى الاحساس بضرورة اليقظة العسكرية من جديد .

المولدين،أو الأسبان المسلمين،وكانوا على شعور غامض مختلط فكانوا يوالون الدولة، لأنها دولة المسلمين وهم منهم ويريدون أن يتخذوا لهم طريقا واضحة فى إدارتها والمشاركة فى شئونها ، وكانوا أيضا يحسون بنوع من التعاطف الغامض مع المستعربين الأسبان غير المسلمين لوجود الصلة القريبة بينهم جميعاً ولقوة الاختلاط بين الجميع وللشعور بالانتماء للماضى الواحد .

ويتحدث التاريخ عن ثورات للمولدين فى الفترة ٢٣٨ — ٣٠٠ هـ/٨٥٢ — ٩١٢ م ، بقيادة ابن حفصون وغيره، وكان هذا رجلا متلونا فى الدين والسياسة ، وقد اجتمعت فى جيشه عناصر قوية من المسلمين والمسيحيين معا ، وكان يرضى المسلمين بدعوى الإسلام ، ويرضى المسيحيين بدعوى المسيحية فى الوقت الواحد، ورفع بالحرب صوت العناصر المتمردة ، وكان يقسو على العرب ويظلمهم فكانوا يتجمعون ليردوا بدورهم على العنف بالعنف بعد ان زادت الفوضى عند غياب السلطة .

واستمر الحكام فى حال من الضياع وكانوا يواجهون الزعامات القوية من البربر والعرب والمولدين ، وكل هؤلاء كانوا يثورون ويقاتلون بحجة حماية الوجود المستقل، والمصالح المباشرة والمطالبة بامتيازات جديدة،وأسرع الحكام إلى الالتجاء نحو العصبيات الناشئة وكان أظهرها عصبية الصقالبة الذين وجدوا فرصتهم فى السيطرة على مجال العمل العسكرى والإدارى معاً ، وكان هؤلاء جماعات من الأسرى المعروضين فى أسواق العبيد بأوروبا، ونشأوا بعد ذلك فى وسط جديد وعرضت عليهم حياة جديدة كانت تهدف إلى تكوينهم كجنود يقومون

بخدمة الدولة ، فتكونت منهم برعاية السلطة [1] قوة قادرة كانت تنافس قوة العرب وقوة البربر جميعاً، وكان عليهم أن يواجهوا كمثلين لسلطة الدولة كل الثورات فى كل مكان ، ولم ، تكن هذه الثورات بسبب مظالم اقتصادية غير مشروعة، أو بسبب اختلاف وجهات النظر السياسية فى الدولة الواحدة، وإنما كانت ثورات أنانية انفصالية تصرفها العصبيات المتحكمة فى المجتمع كله ، واستمرت الفتن وقتا طويلا كانت الدولة تعلن فيه عن وجودها الإسمى فى دائرة ضيقة داخل العاصمة الأندلسية وحدها ، وأما فى خارجها فكانت ثورات البربر المنادين بالعدالة والمساواة والاشتراك فى الامتيازات مشتعلة، وكانت ثورات العرب القائمة باسم حقهم الأول فى الصدارة، وباسم الخوف من ضياع النفوذ والقوة فى كل مكان، وكانت هناك أيضا ثورات المولدين الراغبين [2] فى المشاركة الإيجابية فى أمور السياسة والقيادة .

وربما كانت أسباب ثورة المولدين بعيدة عن معنى عدم المشاركة فى العقيدة الدينية ، لأنهم كانوا جميعا مسلمين ، وبعيدة أيضا عن معنى عدم الشعور بالمصير الواحد لأنهم كانوا يتعرضون لنفس المصير ويحسون به ، وإنما كان من أسبابها الانفصال العاطفى بينهم وبين غيرهم من الناس ، وتعارض المصالح بين الجماعة التى كانت تتوارث الحكم بالدولة ، وتؤمن بأحقيتها فيه ، وبين جماعات كبيرة أخرى أصبح لها وجود ضاغط على كل جوانب الحياة فى البلاد ، وكان المولدون يمثلون طوائف كبيرة تمتزج

---

(١) كان عددهم فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر قريبا من أربعة آلاف جندى ، ثم زادوا بعد ذلك إلى مايقرب من أربعة عشر ألفاً .

(٢) كان المولدون أكثرية كبيرة فى المجتمع الأندلسى فى ذلك الوقت .

فى عروقها دماء مختلطة ، وتمتزج فى أذهانها ثقافات وحضارات مختلفة ، وتجد نفسها خاضعة لوجهة نظر واحدة تدور فى جملتها حول السيادة العربيــة أو حول أهمية هذا الجنس البشرى المتحضر .

* * *

لقد حدثت عمليات اختلاط كبيرة منذ سنوات الفتح الأولى بين الفاتحين والسكان ، وكان الفاتحون لا يترفعون على الجماعات القابلة لنفوذهم ، والراغبة فى التعاون معهم ، وظهرت أجيال جديدة بعضهـــا كان ينتسب للعصبيات البربرية وبعضها كان ينتسب للعصبيات العربية ، واختلطت الدماء بين الجميع وازدادت الصلات بين العرب والبربر والاسبان المسلمين وغير المسلمين، وتكونت أجيال جديدة كانت لها شخصيات جديدة، اتضحت فيها صورة المواطن الأندلسى المتميزة، وهذه الصورة الجديدة أضعفت حدة العصبيات مع الزمن، وبين هؤلاء جميعاً ظهرت جماعات الأندلسيين المسلمين المعروفين بالمولدين وكانوا يؤمنون بدين الإسلام ويختلطون بالمسلمين ويخضعون لمصــيرهم غير أنهم لا يلتقون معهم لتاريخ واحد ، ولا يشعرون معهم بالأصول الواحدة ، وكان لهم مزاجهم وآراؤهم وآمالهم التى تلائمهم ، حتى كونوا مايشبـه القوة المتميزة ذات الميول الخاصة، ولذلك قاموا بدور ثورى خطير ضد الحـكام المسلمين، وكان لهم تمثيلهم الواضح فى كل مكان ، وكانت لهم أغلبية عددية ساعدت على إضعاف الشعور بالأصل القديم، ولولا وجود الزعامات العربية والبربرية القوية التى كانت تنمى الإحساس بالأصل البعيد لـكان من الممكن انصهار جميع العناصر الأندلسية فى العناصر الإسلامية الجديدة، ولظهرت الشخصية الأندلسية فى هؤلاء جميعاً، ولولا أن أوقات الضعف فى سلطة الدولة كانت تلجىء جماعات كثيرة إلى الالتفاف حول العقيدة الدينيــة ، أو حول المبادىء السياسية أو حول الإحساس بالأصل

الواحد لكان من الممكن — لو توالى على مراكز السلطة حكام أقوياء — أن تنصهر كل العصبيات في قوة واحدة هي قوة مواطني الدولة، ولكن يبدأون الإحساس بالانفصال في الأصل والعواطف ظل موجوداً لفترات طويلة من تاريخ البلاد، ثم وجد من ينميه من الزعامات المستفيدة، وساعد عليه عدم الأمن والطمأنينة والشعور بالخوف الدائم، وكان اختلاف الدين عاملا خطيرا من عوامل الصراع الطويل بين المسلمين والمسيحيين بالبلاد، وقد ظلت الجماعات المسيحية على أمل التخلص من المسلمين جميعاً، وكانت لها اتصالات جانبية مع القوى المسيحية الخارجية وكانت تمثل خطرا مباشراً على الكيان الإسلامي بالأندلس، ورغم تأثرها بالحضارة العربية ورغم مشاركتها فيها وافتتانها بها إلا أنها كانت تجد دائماً أمثال ذلك القس[1] الذي كان يلومها على الافتتان بحضارة العرب وثقافتهم وينمي فيها روح العداء لهم والإحساس بغربتهم

واستمر مجتمع الأندلس يحتوي العرب المتمسكين بالانتماء للأصول العربية القادمة من الشرق والمنتسبة لها علنا. والقائلة بنوع من نقاء الدم ولو من جانب الأب وحده، وكان يقوي وجود العرب وإحساسهم بقوتهم وفود جماعات جديدة ضاقت بها سبل الحياة في الشرق، أو طردتها أساليب السياسة هناك، أو جذبها بريق الدعاية للحياة بالأندلس، ورغم اختلاط العرب الشديد بالسكان إلا أنهم كانوا يحسون بالانتماء للدولة العربية وبأن السيادة جاءت للأمير في الأندلس عن طريق النسب العربي وعن طريق مجد العرب، ولهذا ظلت جماعات كبيرة منهم تتمسك بالأصل العربي وتعتز به.

---

(١) تثير شكوى رجل الدين المسيحي الإحساس بأن كل الناس كانوا صائرين إلى وحدة شاملة هي الوحدة الاندلسية التي تجمع الشعب الأندلسي وكان معنى ذلك قرب انصهار كل العناصر الاسلامية والمسيحية في وحدة كبيرة.
انظر: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٤٨٥ — ٤٨٦.

واختلط البربر بدورهم بالعرب بعد حياة العزلة الأولى واتصلوا بالأسبان عن طريق المصاهرة والمصالح اليومية المشتركة، وتمسكوا من جانبهم بالأصل الإفريقى البربرى كنقطة التقاء تتجمع حولها الجماعات الراغبة فى السلامة عند الخطر، أو الجماعات الآملة فى الخير عند ظهور فرص الطمع، وظلت الطوائف البربرية ترى فى الأصل الواحد نوعا من الحماية القوية، وشجعها على ذلك الزعماء المنتفعون بالتكتلات البشرية، وربما كان هـــذا الشعور من مفاهيم العصر واتجاهاته، وكان هذا الإحساس يظهر بقوة عند البربر عند قيام الدول الافريقية البربرية فى الشمال الإفريقى وعند دخول هذه القوى إلى الأندلس منجدة للمسلمين أو محتلة لبلادهم.

وأما الأسبان المسلمون أو من ضاعت أمامهم أو فى نفوسهم معالم النسب فكانوا لا يريدون الوقوف عنده، ولا يحسون بالانجذاب إليه، وربما كانوا أعمق فهما، وأعظم تطورا من غيرهم، لأنهم أرادوا التبعية للوطن وحده، وقد تسموا بالمولدين أو الأندلسيين الذين يحسون بالولاء لأرض الأندلس وحدها، وهؤلاء كانوا أكثرية طغى وجودها على الكثير من جوانب النشاط الحضارى بالبلاد، وصحيح أن انجذاب العرب للشرق ولتاريخ العرب كان مسألة عاطفية تتجمع حولها العواطف الطيبة أو الاحساس القوى بعظمة التاريخ والأصل العربيين وكذلك كان انجذاب البربر للأصول البربرية فى إفريقية وتأثرهم بنشاطها فى بلادها، وربما كانوا يشاركون بجهودهم فى حركتها بإفريقية الشمالية لقربها من الأندلس — غير أن الحقيقة ظلت قائمة وهى إحساس الكل بالانتماء لأرض الأندلس وحدها وأن كل واحد منهم كان يمثل المواطن الأندلسى الجديد، ونقول بوجود أمة أندلسية أخذت معالمها تتبلور بالزمن وأخذت عناصرها تتكون بالتدريج، إلا أنها لم تتفق

على الانصهار الكامل رغم طول المدة التى عاشتها هناك ، ورغم الاشتراك فى الأمل والمصير ،وقد يكون صحيحا أن نقول إن بلاد الأندلس كانت تحوى أمة أندلسية واحدة انجذبت عناصرها القوية إلى أصولها البعيدة التى كانت تتجمع حولها هذه العناصر عند الصراعات الداخلية ، وكان الانقسام يأتى عند ضعف الرئاسة أو عند اختلاف المصالح بين الجماعات الكبيرة القوية التى كانت تعيش فى تكتلات يساعد اختلاف التضاريس الجغرافية على انعزالها .

وقد ظهر ضعف الرئاسة أيام حكم الأمراء الذين جاءوا خلال الفترة ٢٣٨ — ٣٠٠ هـ / ٨٥٢ — ٩١٢ م فاشتدت الفتن والانقسامات وضاع أثر الدولة بالمنطقة واحتدمت الخصومة بين العرب والبربر والموالدين والمستعربين والصقالبة ،واستمر مجتمع الأندلس طول هذا العهد مضطربا غير مستقر، وساعد على غليان الشعور فيه ما كان من اختلاف عناصره ، وعدم خوفها من السلطة القائمة، وعدم رعايتها للنظام السائد ثم الاحساس بالوحده فى المكان البعيد، وظهور الأطماع الشخصية أو الحزبية والتعرض للخطر الملح ، ولم يكن هناك ثقل لأى موازين معروفة مثل ضغط الدولة أو الالتزام بالتقاليد والقيم .

٨ — **مجتمع الاقوياء :**

ثم جاء الخليفة عبد الرحمن الناصر فى بداية القرن الرابع الهجرى ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ/٩١٢ — ٩٦١ م وكان المجتمع الاندلسى نفسه — كما كان عند دخول عبد الرحمن الداخل سنة ١٣٨ـ ١٧٣ هـ / ٧٥٥ ـ ٧٨٩ م — فى حاجة إلى قوة موحدة تجمع المتفرقين بعد الصراع الطويل، وحاول هذا الأمير القوى خلال خمسين سنة أن يعيد وجود الدولة الأموية وأن يفرض نفوذها على الناس بالقوة، ورأى طريق النجاح

والنصر فى تشجيع الخاملين من رعاياه كى يستطيع عن طريقهم فرض إرادته الحازمة، ثم هاجم بهم الزعامات كلها، وأحدث الكثير من التغيير بين من يسيرون فى صفوف القيادة السياسية والاجتماعية ، فازدهرت الحياة بالناس وتطورت ، وأقبلت عليه السفارات الأجنبية لأنه كان يمثل مركز الجاذبية الدبلوماسية فى العالم الإسلامى كله ، وبعده جاء المنصور بن أبى عامر ٣٦٦ — ٣٩٣ هـ / ٩٧٦ — ١٠٠٢ م ليحكم مجتمعاً نشيطا متماسكا يحاول دفع الأخطار وحراسة الاستقرار ، وينتصر الحاكم الجديد، فتلتف حوله العناصر المختلفة فى محاولة للتفاهم أو للسير معا نحو الغاية المرجوة، وضرب الناصر والمنصور أعداءهما بقوات المسلمين المتحدة ، وقسوا على المعارضين لهما ، وحطما زعماء الجماعات المتمردة ، وحاولا لفت الاتجاه نحو سيادة واحدة هى سيادة رئيس الدولة ، فجاءت لهما القوة والأمن، وكسبا النصر عن طريق التفاف العناصر القوية حولهما، وإن استمرا على حال من دوام المراقبة وتوقع الأخطار .

وظل أعداؤهما فى الخارج ينتظرون لهما فرص الضعف المفاجئة لفرض الإرادة عليهما واستكان أعداؤهما فى الداخل توقيا للعقوبة القاسية، وخوفا من الظلم والتعدى وظهرت فى عهدهما صورة المجتمع الأندلسى المنتصر ، أو المجتمع الاسلامى الغالب ، وإن كان مجتمعا مرهقا، يضيع نشاطه ودخله على طريق الصراع الدائم مع الأعداء ، ولم تنته قضية الخلافات بين عناصر المجتمع الكبير فاستمرت الدولة تبذل جهودا دائمة لتحفظ وجودها ضد عوامل الضياع الطاغية ، ولتبدو قادرة على العمل ضد الأعداء فى كل مكان .

ثم حدث الانفجار السياسى سريعاً وزال سلطان بنى عامر ٣٩٩ هـ/١٠٠٩م لأن مؤسس نفوذهم كان رجلا قوى الإرادة ، يحس بأنه كان فوق مستوى نشأته المتواضعة ، ويشعر الناس حوله بأنه كان يعمل فى غير مكانه ، وقد ظهر

كشخص قوى له أمل الأقوياء وغاياتهم ، حتى استنزف موارد الدولة فى حروب طويلة أظهرته كقائد عسكرى ناجح يسود مجتمعا يجرى وراء السراب والأمل الكاذب، وكأن هذا المجتمع كان يتكون من جماعات منجذبة إلى عوامل القوة عند سيدها ،ولذلك خفتت صيحات المعارضة له خشية التعرض لبطشه ، أو اعترافا بعظمة مواهبه ، واشتغل المجتمع كله بالقتال فى عهده ، وخضع للطغيان المسرف ونسى هوايته فى مراقبة الحاكم ونقده .

وكأنما تكونت فى زمنه من المجتمع الأندلسى قوة واحدة لصالح السيد وحده، وكان هذا السيد يعيش بأحلام النصر الدائم وبغرور القوة الغالبة،حتى تغنى الناس فى مجتمع بلا إرادة بانتصارات القائد وبطشه ، ونسوا بذلك مظالمه وعنفه(1)،حتى جاءوقت الغضب بعد أن طمع عبد الرحمن بن المنصور فى التلاعب بعواطف الناس ، وأراد أن يكون خليفتهم وسيدهم فثاروا عليه وقتلوه ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩ م وألغوا دولة الأمويين نفسها من بلاد الأندلس سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣١ م وكان المنصور وأبناؤه بعده يعملون فى خدمة هذه الدولة وباسمها ، فتفتت الوحدة بين المسلمين وكثر عدد الآملين منهم فى القيادات الصغيرة الضعيفة ، وزاد انفصال المجتمعات الإسلامية فى الأندلس .

٩ ــ **وحدات منفصلة**

وبعد ذلك لجأت الجماعات إلى تكوين الدول ذات الحدود السياسية، أو إلى الاستقلال بالمدن البعيدة المنعزلة ، وتوزعت الزعامات بين هذه المدن، ولم تتلاق عند وجهة نظر

---

(1) حارب المنصور المعارضين له بقسوة وحارب أيضاً حرية الفكر وفرض على الناس رأى الفرد الواحد وتسلطه ، وأقام من نفسه وصياً على جميع الناس .

واحدة مقبولة ، وعاشت الطوائف الإسلامية داخل حدودها الضيقة مع الإلحاح بالمحاولات الهادفة إلى اغتصاب أملاك الجماعات الأخرى ، وتكونت قوات صغيرة تتجه نحو العدوان الدائم على الجيران المسلمين وحدهم ، وأصبحت هناك مجتمعات عسكرية تحارب في الميادين الأهلية ، ويرهقها الحكام بفرض الضرائب لهدف الاستعدادات العسكرية الدائمة، ولشراء البقاء في مراكز السلطة بدفع الإتاوات المالية لملوك المسيحية ، ولصالح حياة الأمراء الخاصة ، وكانت هذه مجتمعات واعية ، يحكمها بعض الأدباء الفاهمين لأثر العلم في التقدم ، فكان أكثر الحكام يتنافسون في رعاية التطور وخدمة العلم والعلماء ، وحضارتهم معروفة تتحدث عنها كتب التاريخ باهتمام ، وإن كانت هذه الكتب تنقل صورا زاهية من حياة الأمراء ، وتشير إلى الحياة داخل قصور الحكام وحدهم ، وحول الدائرة الضيقة التي كانت تحيط بهم ، ولقد كان يمكن لشعوب الطوائف — بعد الانتصار في كثير من جوانب التطور البشري[1] — أن تكون سعيدة لو عرفت لنفسها طريقا واضحة ، ولكنها كانت تعيش وحولها الظلمات من كل جانب، وأحيانا كانت تلجأ للعمل كنوع من الهروب بعيدا عن الإحساس المؤلم بالخطر الملح والنهاية المؤسفة .

ورغم ذلك قدم مجتمع دول الطوائف للحضارة الإنسانية مفكرين كان لهم أثر عظيم في تطور ما كان معروفا عندهم من العلوم رغم ضياع الأمل ووضوح النهـــــاية والعيش تحت ضغط الظلم المستمر ، والخوف من خطر الإبادة ، ونشطب حركة العمران ، وعاش الحكام وســـط النعيم

---

(١) كان زمن الدولة الأموية فترة تحضير تجمعت خلالها مواد وافرة في كل العلوم المعروفة وقد تفرق العلماء بعد سقوط الدولة الأموية في كل مكان ، وتوزعت مجموعات الكتب في أرجاء البلاد وأبيحت حرية الفكر حتى في شئون الدين ذاتها .

يشعرون بعظمة الحياة الملكية ، وكثرت المساجد فى محاولة للشعور بالأمن مع عدم الالتزام بمقتضيات التدين ، وساء تعامل المسلمين بعضهم مع بعض، وزادت الخلافات والحروب بينهم مع وجود دواعى الوحدة والتماسك ، وأصبح هناك مجتمع فيه أغلبية مسلمة تعجز عن دفع الخطر المتمثل فى أقلية مسيحية معادية تعيش فى أمن القوة المحيطة بها ،وتعمل لحساب الأعداء خارج الحدود الأندلسية، وعاش بعض المسلمين فى بلادهم الساقطة كرهاً عند الأعداء ، وكان الفرض أن يشهم سوء تصرف المسلمين مع رعاياهم المخالفين لهم فى العقيدة فيقول المسيحيون بحماية شركائهم فى الدين ، ويقومون بطرد المسلمين من مناطق نفوذهم فى بلاد الأندلس! ، ومعنى هذا أن دول المسلمين ومجتمعاتهم بعد تفرقهم كانت تحيامع الضعف ،وكانت تشعر بقوة الخصم وخطره .

وفى كل الأحوال كان شعب الأندلس يعمل لحساب الأقوياء ويشقى من أجلهم ، حتى ازداد عليه القلق وشك فى مصيره ، والتمس العون من الآخرين، وطالب بدفع الخطر عن نفسه حتى وجد الاستجابة عند أمير المسلمين بالمغرب ، ونجحت محاولة المرابطين فى تعطيل حركة التقدم المسيحية ، وفى منح الأمل للمسلمين بالأندلس من جديد .

لقد كان تقسيم الطوائف على أساس من ثقل الوجود بالمناطق المختلفة ، وإن كان تقسيما عشوائيا اتخذ كوسيلة مأمولة للحماية من الأخطار المحيطة ، ولم يظهر بسبب هذا التقسيم ترابط قوى مع الاعتراف بوحدة الأصل الحقيقية أو المزعومة، وظل حلم الاتحاد بعيدا حتى بين العصبيات المتشابهة التى كانت الروابط تزول بينها حتى بعد اجتماعها فى داخل النظم الجديدة،وربما قدمت بعض الإمارات القوية[1]

(١) ومنها مملكة إشبيلية التى حكمها بنو عباد سنة ٤١٤-٤٨٤هـ/١٠٢٣-١٠٩١م

صوراً ممتازة للتماسك بين أعداد كبيرة من الناس إلا أنها خضعت فى النهاية لعوامل الضعف الشائعة، وطلبت المرابطين فدخلوا الأندلس (٤٧٩هـ/١٠٨٦م) كجماعات مجاهدة تريد الحياة الآخرة و نصر الدين ،ورأى هؤلاء بعد النصر عوامل الهزيمة عند الأندلسيين ، وواجهوا خطر المؤامرات المسيحية باجراءات عنيفة كان منها طرد أعداد كبيرة من المسيحيين، وربما كان هذا إجراء عسكريا اقتضته حاجات الأمن والسلامة للجيوش الغريبة فى البلاد البعيدة ، ولكن تفسير هذا الطرد جاء موافقا لروح العصر واتجاهاته واتهم المرابطون بالتعصب ضد المسيحيين فى كل مكان بالأندلس، ولقد عايش المرابطون مجتمعا أندلسيا يطلب نجداتهم العسكرية، ويتعالى عليهم بسمو الشعور ، وتقدم الحضارة فلم يحدث تقارب مؤثر بين الحكام والمحكومين فى هذه البلاد ، وكأنهم كانوا قوات أجنبية غير مرغوب فيها ، مع أنهم كانوا مسلمين ينجذبون للإيمان بقوة ويلتزمون بروح الدين وتعاليمه بين شعب كبير يبدو بعيدا عن الولاء لكثير من أوامر الدين ، ولذلك اتهم المرابطون بالتزمت وعدم المرونة ، وإذا كان البربر فى الأندلس يجدون فى المرابطين قوة تؤمن حياتهم وتضمن سلامتهم فقد رأى العرب والمولدون فيهم جماعات متخلفة لا تزال فى حاجة لأن تعيش طويلا فى عالم متطور ، وخافوا من تأخر الحياة بهم ومعهم ، وشكوا فى نياتهم ولم ينجذبوا إلى مظاهر القوة العسكرية عندهم مع حاجتهم إليها ورغبتهم فيها ، ورأى فيهم المسيحيون جماعات متعصبة تخضع لنفوذ الفقهاء واستشاراتهم ، ورأواهم بدورهم فى المسيحيين مواطنين غير مخلصين لحكم المسلمين أو متآمرين على سلامتهم ، فلم يكن هناك إذا مجال للتفاهم أو الثقة بين الحكام والمحكومين، وهاجرت جماعات مسيحية كانت تسرف فى القول بتعصب المرابطين وظلمهم.

وجاءت جماعات بربرية من أفريقية لتعطى جيش المرابطين قوة وتأييداً وازداد الحماس الدينى بين المسلمين جميعاً بعد انتصار المرابطين ولم يستمر المرابطون أقوياء يرفعون راية الإسلام وينصرونه حتى جاء بعدهم الموحدون فأخذوا مكانهم على طريق الجهاد الدينى وانتصروا فى معركة الأرك ٥٩١هـ/١١٩٥م وأعادوا للمسلمين بانتصارهم دورهم بالأندلس، وهدأوا حركة أنفاسهم المتلاحقة، ولكنهم انهزموا سريعاً فى موقعة العقاب ٦٠٩هـ/١٢١٢م، فتعرض بعدهم مجتمع الأندلس لصراع البقاء أمام أعداء يتحالفون على العمل ضد وجود الإسلام والمسلمين بالبلاد كلها، وظهرت أصالة هذا المجتمع وقوته فقاتل الناس ودفعوا ضياع بلادهم واحدة بعد الأخرى ثمنا لضعفهم، وحملوا مسئولية الدفاع عن الأوطان بشجاعة، وحافظوا على الشرف بالقتال حتى النهاية.

١٠ - النهاية.

ولم يبق هناك بعد ذهاب الموحدين إلا وحدات إسلامية ممزقة لا تملك وسائل العمل أمام إتحاد المسيحين المتعصبين، وتركت هـــــذه الوحدات لمصيرها، وظلت تقاتل وهى محاطة بجماعات يهودية تتخفى بين صفوف الأقوياء، وتحاول النجاة بعرض الجهود الخائنة، ومحاطة أيضاً بجماعات مسيحية تعرف مواطن الضعف وتدل عليها، حتى تحولت حركة المجتمع الأندلسى كله إلى التصادم بين القوى المتعادية، وتحكمت عواطف البغض والكراهية بين الجميع، وأريد تصفية النزاع بين المسلمين والمسيحين لحساب المسيحيين وحدهم، وساد الشعور الدينى المتعصب، وتبع الحكام المسيحيون رجال الدين المتزمتين ونادوا بالولاء للعقيدة المسيحية أولا، وظهرت الخيانات الصريحة بين المسلمين أنفسهم

لتتعجل النهاية الحاسمة ، وظهرت المحاولات العقيمة لتؤخر ساعة الموت ، ولم يبق بالأندلس كلها ما يمثل حياة المسلمين الضائعة إلا مملكة غرناطة وحدها وقد عاشت هذه المملكة طويلا ٦٣٠ — ٨٩٨ هـ / ١٢٣٢ — ١٤٩٢ م وكأنها كانت جزيرة مزدحمة بالسكان المرهقين بالمتاعب وسط طوفان من الأعداء المتوحشين .

وأطال بقاءها جماعات مسلمة باسلة كانت تأبى الخضوع وترفض الهزيمة ، وكانت هذه الدولة الصغيرة مشحونة بعناصر عربية مجاهدة تثيرها ذكريات الماضي الطيبة ، وتأتى بجهدها فى حركة التطور ، ثم انكشفت جوانب الخطر ، ووقف المسلمون شجعانا فى ميادين الحرب الأخيرة وكان يدفعهم الأمل فى البقاء ، وتثيرهم الرغبة فى الحياة ، مع الأحياء ، وانصرف بعضهم باليأس إلى البحث عما يزيد على نصيبه من الدنيا ، وكان لابد أن تأتى الهزيمة فى النهاية ، وأن تظهر محاولات شاذة لتنصير المسلمين ولم يكن لهذه المحاولات بديل إلا الموت ، وتردد الناس بين أمرين ليس فيهما خيار : ترددوا بين قبول المسيحية أو قبول الموت ، ثم خضع المسيحيون الأقوياء للشكوك القاتلة ولسوء الظن المهلك وقرروا طرد المسلمين جميعا من بلادهم ، واندفع المسيحيون وراء حدة الغضب المعيبة ، وكانوا لا يملكون وقتا لحساب النفس ومراجعة الضمير ، ولا يعرفون معنى للرحمة ، ولم يكن غريبا أن تسود الرغبة فى هلاك المسلمين كلهم بلا شفقة وإنما كان الغريب أن يلتزم المسلمون بالتسامح طول عهدهم فى هذه البلاد ، وأن يتركوا كل الناس يعيشون معهم على طريق الحياة العادية .

وطرد المسلمون من الأندلس وكان فى طردهم تعطيل لحركة التطور الحضارى بالبلاد ، ولكن القضية لم تكن تطور البلاد أو عدم تطورها ، وإنما كانت خلوها إلا من المتعصبين الذين لم يعملوا إلا تحت ضغط الأحقاد الطاغية وحدها ، ولم يندفعوا إلا بتأثير القوة الغالبة ، ولم يتغنوا إلا بخلاص العقيدة المسيحية وكانت نفوسهم مفعمة

بشحنات الكيان الخاص، وبالرغبة فى نصر المسيحية المقدسة بعد أن زادت أسباب الصراع بين الإسلام والنصرانية فى كل مكان .

وعادت طوائف اللاجئين إلى شمالى إفريقية من جديد ، وسواء أكانوا ثلاثة ملايين كما تقول بعض مصادر التاريخ أو كانوا غير ذلك ، فإنهم رجعوا فى النهاية إلى مواطن أصولهم البعيدة القادمة إلى الأندلس منذ ثمانية قرون ، وعادوا ليعيشوا بين المسلمين فى إفريقية، وكانوا قد أصبحوا بعد الحياة الطويلة بالأندلس جماعات أندلسية لا تشارك الإفريقيين المسلمين إلا فى وحدة العقيدة والثقافة واللغة .

الفصل الخامس

أ — جوانب الإيمان

١ — البربر والاسلام

٢ — الاسلام فى أسبانيا

٣ — الأمويون ومذهب الإمام مالك

٤ — نفوذ الفقهاء

٥ — ثورة مسيحية

٦ — السلام من جديد

٧ — دول صغيرة

٨ — فى عهد المرابطين

٩ — وأخيرا غرناطة

١ — البربر والاسلام :

يظهر من تاريخ نشر دين المسلمين فى شمالى إفريقية أن العرب كانوا فى حال من سوء الظن أو الاحتقار لعقائد البربر ، لأنهم عجزوا عن أن يقدموا للوافدين عليهم نموذجا مناسبا لعقيدة دينية متطورة ، وظهروا أمامهم كأنهم كانوا مجرد جماعات شبه بدائية تحس فى ميلها الدينى بالخضوع للوثنية ، أو تدور فى غير نظام حول جملة من العقائدغير الواضحةوغيرالمفهومة ، وكان بعضها مجرد عقائد وثنية تختلط فيها الآراء المبهمة المتصلةبالوجود أو الخالق بغيرهامن الأفكار ، وقد فهمهاالعرب على أنها كانت وثنية صريحة أوفى بعض حالاتها كأنها كانت نوعا من الوثنيةالغامضةالتى تثير فيهم حماس المعارضة ، وتدفعهم بقوة إلى مقاومتها.

وإذا كان العرب يرون نقل الهداية الدينية إلى الجماعات البربرية الوثنية واجبا إنسانياأو مسئولية دينية فرضت عليهم بأمر الدين نفسه فقد وجدوا فى معارضة دينهم نوعا من العناد غير المقبول ، أو نوعا من الرفض الذى لا يمكن التسامح فيه ، ولهذا تبادلوا القسوة والعنف فى الحروب بينهم وبين البربر ، وقدموا تضحيات كبيرة لايماثلها إلا تضحيات أخرى من جانب أعدائهم كدليل على الرغبة المخلصة فى تحويل اتجاه البربر نحو عقيدة المسلمين وحدها ، وقبلوا هذه التضحيات استجابة للواجب الدينى ولغيره من دوافع الشرف التى شغلت وقتهم كله، وأخذت منهم الفتوحات زمنا طويلا، واستمروا حريصين على النصر حتى النهاية وكانوا يقدمون كل الجهود من أجله وضحى كثيرون من قوادهم بحياتهم فى سبيله وكانت تبدو على هؤلاء القواد دلائل الاخلاص للدين ودعوته ، وكأنهم جاءوا رسلا لدعوة دينية لاقواد الجيش .

وطال أمد الصراع ، وكان من أهدافه تحويل الناس إلى الاسلام بطريق لفت الانتباه نحوه ، أو صب الايمان فى قلوب المخالفين له عن طريق الدفع القوى ظهر أن من أكبر هموم العرب بافريقية أن يفتحوا لدينهم مجالا واسعا كى يعيش على حساب الوثنية وبعدها ، ولهذا ذكرت فى التاريخ محاولات كثيرة ومريرة لفرض الإرادة العربية على سكان المنطقة .

ولما كان البربر وثنيين أو لما كانت فيهم أغلبية وثنية فلم تضعف رغبة العرب فى هدايتهم ، ولم يلتمسوا الأعذار للبعد عنهم ، وساهم العمل والإرادة فى البحث عن طريق الاتصال بقلوبهم ، وغلب أسلوب القسوة المتطرفة فى التعامل معهم ، وبدا المحاربون المسلمون كمجاهدين يهمهم فى الدرجة الأولى نشر دعوة الإسلام فى مناطق لا تتحمل حضارتهم الإنسانية المتطورة بقاءها وثنية لفترة طويلة من الزمن ، وكان هذا يعنى البعد قليلا أو كثيرا عن سياسة التسامح التقليدية المعروفة عن المجاهدين العرب .

وانتشر الدعاة المسلمون بمناطق العمل العسكرى ، وكان بعضهم من قواد الجيش ، فكسبوا قبائل بربرية لدعوتهم الدينية عن طريق التأثير بالإغراء والدعاية ، أو عن طريق الإصرار على الهداية ، ولكن الجهود الأولى بدت وكأنها كانت محاولات غير ناجحة ، أو لا تؤدى إلى نتائج مرضية ، لأنها كانت تختلط دائما بالعنف المتبادل بين الجماعتين القويتين ، وبالعناد والاصرار على الرفض من جانب البربر ومعروف أن صيحات المسلمين عند الحرب هناك كانت باسم الإسلام وحده ، وباسم دولة المسلمين أيضا ، وأن صيحات البربر لم تكن تشير إلى وحده دينية أو إلى إيمان بدعوة واحدة أو إلى تبعية لدولة معروفة ، مما يدل على الاضطراب العام أو على عدم الاتفاق حول رأى فى العقيدة الدينية أو حول رأى فى السياسة ،

وكأن الاسلام كدين لم يقاومه فى بلاد البربر جماعات تعمل باسم أى عقيدة دينية، وإنما كانت تقابله جماعات مختلطة لا تقبل الدين ولا ترفضه ، ولا تريد البحث فيه أولا تفهمه .

ولا نشير بذلك إلى أن اندفاعات العرب بإفريقية فى أساسها كانت اندفاعات دينية متعصبة وإنما نقول إنهم وجدوا مجالا واسعا لإظهار حماسهم الدينى ، وصحيح أنه ليس من المؤكد أنهم فى جولة الفتح الثانية — التى نعالج بعض موضوعاتها فى هذا الكتاب — كانوا فى نفس المستوى من الحماس للدعوة الدينية حتى بين الوثنيين مثل ذلك المستوى المعروف عمن سبقوهم من الفاتحين المسلمين ، غير أن الوثنية فى ذاتها بدت لهم وكأنها كانت شيئا يجب أن يزول طاعة للدين واستجابة لدوافع التطور .

ولا يظهر أن وجود العرب كان فى خطر أيام تمام عمليات الفتح فى شمالى إفريقية ، أو حتى عند بداية العمل الإيجابى هناك ، لأن وضعهم ووجودهم كان قد استقر وثبت بالمنطقة، وأصبح مجال العمل لهم وحدهم، وكان النجاح متوقعا بعد الإصرار عليه منذ زمن طويل ، وظلت هناك بقية للحساب بين القوتين بعد أن استقرت دولة المسلمين ورأت من واجبها الدفع للأمام فى فترات الضعف عند أعدائها . فالحماس الدينى كان موجودا ، ونشر الدين كان غرضا أخذ دوره وسط الأغراض والدوافع الأخرى .

وطالت فترات العرض من جانب العرب ومحاولات الرفض من البربر ، وأدرك بعض الفاهمين من الدعاة المسلمين أن محاولة الهداية الدينية وأسلوب العمل من أجلها لا يكون إلا باتباع طريق الدين ذاته، وقد أمر الدين بالحكمة والموعظة الحسنة، ونصح بالبعد عن العنف فى عرض مسائله على الناس، فاتصلوا بالرئاسات البربرية وكسبوا

قلوبها لتحاول التأثير فيمن يسيرون فى الصف الطويل وراءها ، وابتدأ الاتصال المباشر عن طريق الفهم والعلاقات الإنسانية ، أو عن طريق المصالح المباشرة ولا سيما بعد أن وضح المستقبل فى جانب الفاتحين وحدهم .

وأرسلت بعد الفتح وفود من الفقهاء إلى إفريقية فى عهد الخليفة المؤمن عمر بن عبد العزيز وفى عهد غيره من خلفاء المسلمين، ويحفظ التاريخ أسماء عشرة من كبار الدعاة المسلمين الذين أرسلوا بهدف شرح مبادئ الدين وتوضيح نظامه ، ولا شك أن الجهود المخلصة المتحمسة استمرت طول تاريخ الصراع العسكرى والسياسى بين الجانبين ، وأن هؤلاء الدعاة جاءوا للشرح والبيان بعد القبول والاعتراف ، وقد كان هؤلاء جماعة شبه رسمية ، أو وفداً حكومياً صرفه إلى هذا العمل الطيب رغبة الخليفة المؤمن فى خدمة الدين فى كل مكان ، وإن كنا لا ندرى كيف كان تقسيم العمل بين هذه الجماعة ، ولا كيف كانت الدراسة والعمل الذى جاءوا من أجله ، ولعلهم جاءوا كاستجابة لرغبة معروضة من جانب البربر أنفسهم بعد أن قبلوا الدين وأعلنوا الاعتراف بمبادئه الأولى، وربما كانت هناك جماعات سابقة أخرى قامت بدور الشرح والتوضيح ، وجاءت مع الفاتحين أو بعد الفتح بدافع الرغبة والحماس لنشر العقيدة الدينية، لأنه يقال إن النهاية كانت حاسمة تماما، وإن السكان كلهم تحولوا إلى دين المسلمين المنتصرين، وإن شمالى إفريقية أصبح بعد وقت قصير من زمن الفتح منطقة إسلامية فيها مجال مناسب لكل الأفكار والمذاهب الدينية المختلفة ، ونقصد بالسكان عادة جماعات البربر الوثنيين الذين شاركوا فى حروب المعارضة للنفوذ العربى أو الذين كانوا على طريق العمل العسكرى ضد العرب .

ثم انتشرت عملية التحول الدينى بفعل الناس والزمن وشاع الرأى بين كل

القيادات العربية والبربرية بأن حرب الوثنية فى الصحراء الإفريقة واجب دينى مرغوب فيه، وعمل عظيم يكسب أصحابه أجر الآخرة ويهيء لهم سيادة الدنيا، وبعد الجهود الأولى قدمت الأعمال كلها باسم الدين ، وظهر الحماس الشديد للإسلام كدعوة لا بديل لها ،وقامت بعد ذلك دول إفريقية وجماعات سياسية تحمس زعماؤها إلى حرب الوثنية فى إفريقية ، وحاولوا القضاء عليها فى الصحراء كلها ، وسلكوا طريق القوة فى فرض دينهم على القبائل البربرية والزنجية الوثنية ، ومعنى هذا أن جهوداً كبيرة بشمالى إفريقية جعلت من بعض سكان المنطقة قوة إسلامية هائلة وطورت الجماعات البربرية المتأخرة ، وأظهرت الدول التى كانت تؤمن بالإسلام ،وتعمل الكثير من أجله .

وحتى هؤلاء الذين رفضوا سلطان العرب ونفوذهم، وقاموا ضدهم بثورات كبيرة كان من أهداف ثوراتهم محاولة التخلص من الوجود "عربى وحده ، ولم تكن من أهدافها الخروج من الإسلام أبدا فظلوا يعملون باسم المسلمين ولم يجدوا للاسلام بديلا، ولفترات طويلة من التاريخ قام صراع صريح بين الإسلام والوثنية فى شمالى إفريقية وغربها ووسطها ، وأبدى فيه دعاة الإسلام من العرب والبربر حماسا وصبرا عظيمين، وقدموا تضحيات كبيرة كسبوا عن طريقها النصر فى النهاية.

٢— الإسلام فى أسبانيا :

وكنتيجة سريعة لإسلام البربر كان قيامهم بجهود عظيمة فى فتح أسبانيا تحت راية الإسلام والمسلمين ، غير أن قصة الدعوة الإسلامية فى هذه البلاد كانت تبدو لها بعض الجوانب المخالفة لصورتها المعروفة فى شمالى إفريقية ، ومن أهم هذه الجوانب إخفاء الرغبة الصريحة فى نشر الدين الاسلامى وإشاعة الاهتمام بالمعاشرة السلمية بين الإسلام والمسيحية هناك ، وكانت

معاملة المسلمين لغير المسلمين تسير على أساس من المبدأ المعروف من تصرفات العرب كشعب تهمه شئون الدين ويهمه انتشاره ، غير أنه كان يلجأ فى ذلك بطريقة متطورة بعيدة عن الضغط والإرهاق .

ومنذ عمليات الفتح الأولى تقدمت جماعات بربرية بقيادة بربرية مرتين قبل دخول العرب ، ومن المؤكد أن البربر بجانب رغبتهم فى تحسين أحوالهم الاقتصادية وبجانب بحثهم عن وطن يعيشون فيه حياة مناسبة كانوا يقومون بعمل يرضى عواطفهم الدينية وعقيدتهم الجديدة ، غير أنهم لم يكونوا يمثلون الإسلام كنماذج واضحة للمؤمنين به، ولم يكن عندهم ما يعرضونه للراغبين فى معرفة شىء عنه ، لأنهم أنفسهم كانوا فى حاجة إلى من يعلمهم أصول الدين الأساسية ، وقد قام بذلك دعاة مؤمنون كانوا يعلمونهم فرائض الدين وإن لم يقصروا خدماتهم على الجيش وحده

لقد دخل البربر أسبانيا لا ليزيلوا الوثنية منها لأنها لم تكن بلادا وثنية، وإن كانت فيها وثنية فلم تكن ممثلة بها بصورة واضحة ، لأن الوثنيين كانوا مختلطين اختلاطا كبيرا بجماعات مسيحية كثيرة ، أو بجماعات نصف مسيحية لجأت للمسيحية كدين جديد وكانت عند أولى خطوات الإيمان بها ، وكانت أسبانيا فى ظاهرها بلادا مسيحية أو كانت بلادا تغلب عليها العقيدة المسيحية ، وإن كانت المسيحية لم تصل بعد إلى قلوب كثير من سكانها ، لعدم اتصالهم بها أو لاختلاطها واضطراب أمورها ، ولا شك فى أن الجماعات المسلمة التى عاشت فى شمالى أفريقية قريبا من أسبانيا كانت تعرف شيئا عن مدى الإيمان بالعقيدة المسيحية عند الأسبان ، وربما وجد هؤلاء المسلمون فرصة للتنافس مع المسيحيين

على كسب قلوب البائسين الذين كانوا يمثلون جماعات كبيرة كانت تعيش مهملة فى مجتمع إقطاعى متطرف ، وللتنافس على كسب قلوب المترددين الجاهلين بالمسيحية وبالأديان كلها ، غير أن كل إشارات التاريخ لا يفهم منهما أن الناس الذين عقد رجال المسيحية أمامهم دين المسيحية كانوا يرجون دينا جديدا بقدر ما تمنوا أن تتاح لهم فرصة فهم المسيحية ذاتها ، وصحيح أنهم لم يكونوا فى حاجة إلى دين جديد ، ولكنهم كانوا فى حاجة إلى نوع من العدالة الاجتماعية التى كانت أكثر تناسبا مع رغباتهم العاجلة .

لقد دخل العرب أسبانيا لأنهم كانوا قوة تحس بوجودها المعنوى والمادى ، وتعرف عن طريق الجوار والاتصال مدى ضعف الحكام وبعدهم عن الصلاحية للعمل بين شعب جعلوه فى حيرة من كل أمور دينه ، وكان للدين دور عظيم فى قيادة التصرفات البشرية فى هذه العصور ، وكانت هناك محاولات غير واضحة للتسابق على كسب القلوب نحو الهداية ، وقدم الاسلام شيئا جديدا مقبولا غير معقد كان فيه أمل الدنيا وأمل الآخرة معا ، وأسرع المؤمنون به نحو عرضه على من يبحثون عن الأيمان فى عصر تكوين العقائد ومحاولة تثبيتها واستقرارها فى قلوب البشر .

وكانت تظهر حول العقيدة المسيحية صور مكشوفة من الخلافات الكبيرة والصراع المفرق عند ظهور قوة المسلمين قريبا من أسبانيا فى شمالى إفريقية ، والصورة واضحة ومكررة فى كتب التاريخ كلها ، وتشير إلى أن رجال الدين هناك كانوا عند المراحل الأولى فى محاولاتهم لإزالة الغموض المحيط بأصول الإيمان المسيحى ، وكانوا يلجئون إلى المناقشات التى كانت تتخذ صورة التعبير الحر عن الآراء الدينية ، ولما كانت مسائل الدين غير واضحة وغير مفهومة فلم تؤد البحوث

والمجادلات إلى نتائج فى صالح الهدف بقدرما أثارت من خلافات جديدة كانت كلها تدور حول آراء لم تكن موجودة هناك من قبل، وظهرت المذاهب المختلفة وازداد عددها بالزمن واستقرت الدولة أخيراً حول الآراء المؤيدة لوجهة نظر واحدة هى الوجهة الكاثوليكية ، وتحمس لها الملوك بغير إيمان بها أو اعتقاد فيها وقد لجئوا إليها بعد تحويل إيمانهم من مذهبهم الآريوسى كمحاولة مكشوفة للحرص على مكان السيادة على الناس ، وحاولوا عرض المذهب الدينى بالقوة ، ولم تكن القوة من وسائل الاقناع فى مسائل الإيمان ، وأسرفوا فى فرض سلطانهم ، ولم يأت هذا الإسراف إلا بحدة الصراع بين من كانوا يختلفون حول الآراء الدينية وهذه كانت تملك على أصحابها مجالات واسعة من تصرفاتهم، وتجعلهم يبعدون عن محاولات التلاقى معا ، ولو كانت هذه المحاولات فى صالح العقيدة وفى صالح أصحابها .

واشتد الغموض على الناس ولم تتبلور حقائق الإيمان فى صيغ نهائية متفق عليها ، ومعنى هذا عدم شمول العقيدة المسيحية بأسبانيا لعدد كبير من الشعب وعدم رسوخها، وشغلت البحوث[٢] الدينية وقت الناس ولا سيما هؤلاء الذين كانوا يرون الحياة الدنيا مجرد فرصة محدودة الزمن للعمل فى خدمة الحياة المقبلة ، وانصرف الذين تهمهم شئون الإيمان إلى البحث فيه ، وتأثرت كل جماعة بوجهة نظر شائعة فى الشرق أو الغرب وكأنما كانت الآراء الدينية مجرد محاولات متعصبة لنصرة مبدأ على مبدأ ، أو كأن البحث كان فى غير عقيدة واحدة ، ووقف الناس حول هؤلاء وأولئك يتفرجون على ما يأتى به التطرف فى الرأى والتعصب للمذهب من خلاف وتفتت، ولا يفهمون من ذلك شيئاً لأنهم كانوا بطبيعتهم أميين لا يحسنون المشاركة فى البحث حتى لو عرضت عليهم مسائله ، ولأن هذا البحث كان عميقا يتطلب مستوى معينا من العقول البشرية التى يمكن أن تدرك الفروق الدقيقة بين وجهات النظر المعروضة.

وجاء الإسلام فى وقت لايبد وفيه أن جماعات كبيرة من الأسبان كانت قد آمنت بالعقيدة المسيحية للانصراف عنها أو لصعوبة فهمها ، فخاطب الناس بمبادئه البسيطة الواضحة ، وكانت محاولات المسلمين تنصرف إلى كسب مزيد ممن كانوا يريدون تحسين أحوالهم فى الدنيا، فتكلموا عن المساواة والأخوة والعدالة ، وجميع المعانى الإنسانية الكريمة التى كأنما كان الإسلام وحده يتحدث عنها لأول مرة فى تاريخ البشرية كلها أو فى تاريخ الأديان جميعا ، لقد تحدثوا عن ذلك قبل أن يتحدثوا عن نعيم الآخرة وعذابها ، وعن مصير الإنسان وحياته بعد الموت ، وأباحوا لغير المسلمين حرية العبادة مع الإلحاح بتوضيح رأى الاسلام فى الاتصال المباشر بين الله والناس، وأن لا واسطة بين الله وعباده ، ويظهر أنهم ألحوا تماما على الجوانب الدنيوية الممتازة فى دين المسلمين ، وكان اهتمامهم بتنظيم العلاقات البشرية وحفظ حقوق الإنسان يفوق الإشارة إلى بساطة العقيدة الإسلامية فى ذاتها ، فانجذبت إلى الإسلام جماعات كبيرة وجدت فيه الأمل والمستقبل والراحة والأمان ، واستمع الناس إلى مبادىء الدين الجديد ، وقبل بعضهم المبادىء المعروضة عليهم، وساعد على قبولها عمليات الاختلاط الكبيرة وروح التسامح الواضحة عند الفاتحين ، وكان هذا شيئاً جديداً بالغ الأهمية فى حياة الناس هناك وكان يعنى إمكانية السماح بممارسة الحياة الطيبة للمخالفين فى العقيدة ، ولم يكن ذلك شيئا معروفا فى أسبانيا حتى بين أصحاب المذاهب المختلفة المحسوبين على الدين المسيحى الواحد ، ثم كانت مع المسلمين فرص المستقبل وآماله بعد أن وضح المستقبل فى جانبهم وحدهم ، فسارت معهم جماعات تريد الحياة أولا ، لأنها كانت محرومة من الشعور بها ، أو تريد المحافظة على ما كان موجودا فى دائرة اختصاصها وملكيتها .

فليس من الصواب إذا أن نقول إن جماعات البربر التى اندفعت نحو أسبانيا

فى حركة نشيطة وسريعة للفتح والاستقرار كان من الممكن أن يوكل لها أو لبعضها تعليم الناس مبادىء الدين الجديد ، لأن أعظم الجهود الهادفة إلى نشر الوعى الإسلامى فى شمالى إفريقية جاءت من الشرق بعد فتح الأندلس بخمس سنوات ، ويشار بسبب ذلك إلى أن قضية الدين لم تكن مثارة بوضوح عند حركات الفتح الإسلامى لأسبانيا ، وقضية الفتح ذاتها لم تثر على أنها كانت للتوعية الدينية وحدها ، لأنها لم تكن من الضرورات العاجلة آنذاك ، ولم تكن حركات الاتصال بين المسلمين فى شمال إفريقية وبين العناصر المسيحية الداعية لهم والمؤيدة لدخولهم أسبانيا على أساس الترحيب بدينهم الجديد ، وإنما كانت بسبب الحاجة للقوة الجديدة التى تصوروها خطأ كأنها كانت قوات نجدة جاءت لتعيد معالم الحق فى مناطق يغتصب فيها الحق علنا ، وفهم المسلمون هذه الحاجة الملحة واستغلوها لصالحهم بمهارة فلم يتحدثوا كثيرا عن الاسلام كدين يريد أن يزيل معالم الأديان قبله ، ولم يشيروا إلى عوالم الغيب ومكافآت الصابرين فى الدنيا ، إذ لم يكن هناك مجال للصبر الطويل عند جماعات كانت تعانى لفترات طويلة من آثار الظلم وويلاته ، وإنما تحدثوا عما لم يكن معروفا من المساواة والأخوة والعدالة وعدم قبول الطبقية ، وكان هذا يضمن لهم استجابة سريعة تلقائية من جماعات مسيحية مضطهدة ومن جماعات مترددة غير فاهمة أو غير راغبة فى الفهم الدينى بعد أن ارتبطت به الخلافات المؤسية .

ثم انتصر جنود الدعوة الاسلامية وصحبهم دعاة للدين من زملائهم ، وكانت فيهم جماعات عربية تود نشر الإسلام وتؤمن بالوفاء له ، إلا أن جهود الدعاة والعاملين فى مجال العمل الدينى بدأت كأنها كانت مقصورة على حاجة الجيش وحده وعلى حاجات قليلة جاءت من بعض الراغبين فى الهداية السريعة ، واستمر العرب والبربر جميعا فى محاولاتهم الهادفة أساسا إلى المعايشة السلمية مع الأسبان ، وكانوا يريدون لأنفسهم مكانا فى

أسبانيا مع ترك المسيحيين على دينهم الذى لم يكن مثيرا للغضب أو الاعتراض ، وكانوا يريدون وقتا بعد أن فاجأتهم سهولة الفتح وجعلتهم وجها لوجه أمام شعب غريب لم يثر فيهم عوامل البغضاء .

ولم يشر التاريخ إلى أى نوع من الإلحاح على مسائل الدين والتبشير به أو إلى أى نوع من الصراع الدينى المبكر بين الإسلام والمسيحية، وقد كان أمر الدين يهم العرب ويهم المسلمين معهم، إلا أنهم جميعا كانوا يسلكون له أسلوبا متطورا من العرض البطىء ثم أصبح العمل ممكنا أمام المسلمين بعد نصرهم، ونقصد بأمكانيات العمل أنهم وجدوا جماعات كثيرة يمكن أن تقبل مبادىء دينهم البسيطة ، ويمكن أن تدرك أهميته لحياتها ولوجودها ومستقبلها ، فدخلت فى الإسلام جماعات كبيرة زادت كثرتها بعد اختلاط المسلمين بالأسبان وزواجهم من بناتهم وزادت حركات العمل الدينية قوة وإن لم يكن إسراع الناس إلى الأيمان بالعقيدة الجديدة تابعا لنشاط حركة الدعوة ذاتها ، بقدر ما كان نتيجة لظروف مواتية خلقتها جماعات المسلمين الذين ظهروا فى فترات حكمهم الأولى كجماعات لا تشغلها أمور الدين وحدها ، وإنما يشغلها البحث عن الحياة الجديدة ، أو محاولة الفراغ من مشكلات الصراع العسكرى فى أسرع الأوقات [1] .

والقصة طويلة عن صراع المسلمين حول الرئاسة والعمل السياسى، وعن صراعهم حول مجالات الاسترزاق الواسعة بالأندلس ، وكأنهم أرجئوا شئون الدين لوقت الفراغ والاستقرار ، ولم يشر التاريخ بوضوح إلى وجود أعمال منظمة لجذب الأنظار نحو الدين الجديد، ولا لمجهودات كبيرة قامت بها الدولة أو الأفراد كعمليات منظمة هادفة لتوضيح الإسلام وشرح نظرياته . وصحيح أن الإجراءات

---

(١) ولاشك أنهم كانوا نماذج طيبة للشعب الواعى للتسامح.

على الدراسة والبحث المتطور ، وكانت بعيدة عن المدارس الدينية المتقدمة في المشرق العربي، ولم تكن قد أصبحت بعد مكانا متميز الدراسة فروع المعارف العربية المختلفة ، وجاءت الإشارة إلى أخذ مسائل الدين من عاصمة الإسلام الأولى وهي المدينة فذهب الدارسون إليها في حماس ورغبة ، ويذكر في التاريخ أسماء أعداد من هؤلاء الذين ذهبوا لطلب العلم باسم الدولة أو في رعاية حكامها ، ولاشك أنهم كانوا على هوى معها ، ويريدون كسب مجال العمل فيها.

وطول حكم الأمير عبدالرحمن الأول ١٣٨ — ١٧٣هـ/ ٧٥٥ — ٧٨٩ م لم يظهر نفوذ ديني على تصرفاته ، إما لأنه كان إنسانا غير منجذب إلى الدين بقوة أو لأنه كان محاطا بمخاطر سياسية وعسكرية تحتاج منه لتصرفات استبدادية أو ظالمة تخالف روح الدين ومبادئه، وهو لا يريد أن يكون خاضعا لرقابة محرجة من داخل نفسه أو من خارجها ومع ذلك بدأ في عهده نوع من الصراع غير المرئي بين إرادته في إقامة الدولة على أساس حكم الفرد بعيدا عن أي رقابة خارجية ، وبين محاولات الفقهاء الذين لبسوا حاجة الدولة الأموية في إشاعة عنايتها بأمور الدين ، ثم استمرت المحاولات وانكشفت بوضوح في عهد ابنه هشام (١٧٣ — ١٨٠هـ ٧٨٩ — ٧٩٦م)، وكأن هذا الأمير كان حاكما سياسيا وواحدا من رجال الدين أيضا، وظل سلوكه واضح الإشارة إلى أنه عاش حياته في بيئة دينية ، مما يجعلنا نقول بأن ظهور مثل هذا الشعور الديني العميق عنده يدل على إدراك الأمويين منذ لحظات وجودهم بالأندلس لأهمية الدين كعامل فعال لحفظ نظامهم واستقراره .

وظهر نفوذ فقهاء المذهب المالكي على هشام بن عبدالرحمن وكان متأثراً بصاحب هذا المذهب وله فيه رأي حسن ، على أن اختيار هذا المذهب الديني لم يكن على

أساس الاقتناع به وحده ، وإنما كان لخدمة الغرض السياسي الذى أراده الأمويون، أو لإظهار التدين بالجوء عند طالب العلم إلى مكان الوحى ذاته ، وكان هذا يرضى عواطف الناس ويسعدهم ، وساعد على ذلك ما كان يوحى به هذا المذهب من المعارضة للعباسيين أو عدم الوفاق معهم ، وكانت قد أصبحت للمذاهب الدينية عند المسلمين دلالات سياسية ، وبحجة أن للمكان المشترك بين المسلمين جميعا هو بلاد الدعوة الإسلامية الأولى، وأن أى مذهب يظهر فى غيرها إنما كان يعبر فى بعض اتجاهاته عن وجهات النظر المحلية ، أو عن أثر البيئة البعيدة فيه كان على الشاميين الذين كانوا يتبعون[1] مذهباً آخر غير مذهب الدولة أن يسيروا فى طريقها ، وأن ينضموا إلى الجماعات الحجازية التى كان يثيرها الحماس لمذهبها .

٤ — نفوذ الفقهاء:

وكل هذا أعطى لفقهاء مذهب الإمام مالك فرصة الضغط على الحكام وفرض النفوذ على غيرهم من الناس ، حتى أقاموا لأنفسهم ما يشبه الحكومة الدينية داخل دولة الأمويين بالأندلس ، وجعلوا من مذهبهم وسيلة مضمونة لكسب الدنيا بعد أن أقاموا حوله جواً طيبا من الدعايات المبالغ فيها ، وبعد أن ضمنوا موافقة الدولة على حمايته .

وانتشر مذهب الإمام مالك بالأندلس وساعد على تفوقه :

١ — أن أغلب الفاتحين العرب لهذه البلاد كانوا شاميين يوالون الدولة الأموية ، ويريدون أن يعيشوا معها ولها ، فاتبعوا رأيها ، وغير بعضهم مذهبه الأوزاعى الشامى إلى المذهب المالكى بعد أن أيدته الدولة ، وكان مذهب الإمام مالك معروفا أيضا عند البربر المهاجرين إلى الأندلس من شمالى

(١) هو مذهب الأوزاعى إمام أهل الشام .

إفريقية ، ولم يكن هذا المذهب غريبا على جماعات كبيرة منهم عند ما وجدوه ببلاد الأندلس .

٢ — كان الحجاز عند المسلمين موطن الدين ومنبته، وكانت له جاذبية الأماكن المقدسة التي تثار حولها الدعايات الدينية ويقال عنها الكثير من الكلام الطيب، وكسب مذهب الحجازيين من شهرة الحجاز وقداسته نوعا من الشهرة والقداسة والاهتمام وكانت حول الحجاز هالات مضيئة تتعاطف معها قلوب المؤمنين فى كل مكان ، ولم يكن الاتصال بأهل الحجاز لطلب العلم وحده وإنما كان لتأدية فريضة الحج وفى مناسبات العمرة وغيرها ، ومعنى ذلك أن المسلم الأندلسى كان يذهب للحجاز ليحج ويعتمر ويتعلم وتجذبه إليه هذه الأغراض كلها .

٣ — ثم إن المذاهب الاسلامية كانت تنتشر بين المسلمين عادة بتأييد السلطات ورعايتها ، وكانت السلطات الأندلسية تؤيد مذهب الإمام مالك وكأنما اعتبرته صورة مقابلة لمذهب الأحناف المؤيد من السلطات العباسية فى بغداد وكما كان للخلافة العباسية مذهب دينى شبه رسمى يحوطه الحكام بالتشجيع والاهتمام، فكذلك كان للخارجين على هذه الخلافة بالأندلس مذهب آخر يهتمون به ويشجعون أنصاره .

٤ — ولقد تحمس تلاميذ الإمام مالك لمذهبه ، ونقلوه لشمالى إفريقية والأندلس ، وخدموا قضيته هناك وعاشوا من أجله وكان من هؤلاء التلاميذ على ابن زياد التونسى ويحيى بن أبى يحيى الليثى وأسد بن الفرات وسحنون المغربى وغيرهم ممن نقلوا كتب الإمام مالك إلى بلاد المغرب وشهروها هناك .

ومن المعروف أن الناس كانوا ينظرون إلى المذاهب الدينية الإسلامية فى بعض عصور التاريخ الإسلامى لا على أنها مذاهب إسلامية شديدة القرابة، وليس بينها اختلافات كبيرة، وإنما على أنها كانت ترتبط بمنطقة يحكمها نظام سياسى معين، ثم هى تتبع إماما يعيش فى ظل هذا النظام السياسى الذى يؤيده بعض الناس ويعارضه بعضهم الآخر، ولذلك أسرف الناس فى الحماس لمذاهبهم الدينية رغم تقاربها وتفاهمها فيما بينها، وكانت العناصر الإيجابية النشيطة التابعة للمذاهب المختلفة تدافع عن آراء إمامها وكأن الحق كان معه وحده، وأحيانا كان يبدو الحماس للمذهب الدينى لمجرد الرغبة فى المعارضات والمساجلات الكلامية وحدها أو لإظهار التفوق المذهبى على المذاهب الأخرى.

ومن أجل استقرار المذهب ينشىء تلاميذه المخلصون المدارس الدينية التى كانت تعمل باسمه ولخدمته ويكون من الصعب بعد ذلك تغيير آراء صاحب المذهب أو تحويرها بعد إيمان أصحابه بها.

٥ — ولقد ربطت الدولة الأموية بالأندلس بين مذهب الإمام مالك وبين بعض الوظائف الدينية المهمة فى الدولة ومعنى هذ أن الناس كانوا يتبعون هذا المذهب أحيانا لقبوله والوفاق معه وأحيانا أخرى للرغبة فى خير الدنيا بسببه.

وليس صحيحا أن السبب فى انتشار هذا المذهب فى المغرب العربى أنه كان يوافق مزاج الناس هناك أو للتوافق بين البيئة الطبيعية فى المغرب والبيئة الطبيعية فى الحجاز فليس فى المذاهب الإسلامية مذهب لأهل الصحراء ومذهب آخر لأهل المدن وكلها كانت مذاهب حضارية نشأت بالمدن الاسلامية وانتشرت بها واستقرت فيها

وإذا كان هناك تشابه كبير بين الأوضاع الجغرافية فى جزيرة العرب وفى شمالى إفريقية فلم يكن هذا التشابه موجودا بين جزيرة العرب والأندلس ومع ذلك ساد مذهب المالكية فى الأندلس بعدأن ساد فى بلاد المغرب أو ساد فيهما معا مع اختلاف البيئة والمؤثرات الطبيعية .

وربما يكون صحيحا أن نقول إن المذاهب الإسلامية نفسها كانت تكيف سلوك أتباعها وتؤثر فى ميولهم ، وتطبعهم بطابعها وحده فاذا كان الأندلسيون والمغاربة يقدسون النصوص الدينية ويلتزمون بها ويقفون عندها ولا يبيحون شيئا للعقل والفهم مع وجودها فإنما كان ذلك لأنهم كانوا يلتزمون بمذهب الإمام مالك وكان هذا رأيه واتجاهه ، ومن المعروف أن محاولات الاختيار الواسعة بين المذاهب الدينية عند المسلمين لم تكن موجودة ولم يكن هناك مايشجع عليها لأن المذاهب كلها كانت منسجمة ومتفاهمة وغير متعارضة وكان المذهب عادة يأتى للمناطق الإسلامية مع دعاته ثم بعد ذلك يكفى الناس بنفسه عن غيره ، ويصوغهم فى مجال التفكير الخاص بإمامه ، أو هكذا كان حال المذاهب الدينية المعروفة عند المسلمين .

وعاش الأمير هشام بن عبد الرحمن صديقا للفقهاء ، وازدادت بالزمن تنازلاته عن بعض مظاهر السلوك الخاصة به كأمير ،وأسرف الفقهاء من جانبهم فى التمسك بالامتيازات المكتسبة،وكونوا مايشبه مراكز القوى الخطرة،وأظهروا فى ظل الدولة سلطة الدين القوية لأول مرة، فى بلاد تعيش فيها جماعات غير مسلمة كان يرهقها الشعور بسلطان الدين الواحد ، وكان رجال الدين المسلمون جماعات تدور فى مجالات ضيقة من الشعور المتزمت ، ويتسلط عليهم إحساس عميق بصحة اتجاهاتهم الدينى وحده ، وهذا كان يدفعهم إلى عدم الاعتبار المرهف لمشاعر الآخرين.

وقد بدا هذا من الأسباب الأولى التى دفعت إلى الصدام بينهم وبين الأمير الحكم بن هشام ١٨٠ – ٢٠٦ هـ/ ٧٩٦ – ٨٢١ م ، فقد رفض هذا الأمير الحياة تحت وصاية تهز وجوده وسلطته كأمير له حق العمل باسم السيادة على الدولة وعلى مواطنيها جميعاً ، فهاجموه واتهموه بالكفر والبعد عن الدين ، وهاجمهم بدوره بقوة الدولة وسلطتها ، وبآلات الحرب القاتلة ، وانتصر عليهم ، وطرد من أتباعهم جماعات كبيرة فرت لاجئة إلى مدينتى فاس والاسكندرية[1] ، وتشردت الجماعات المؤمنة بعد أن انقادت فى حماس بالغ إلى دعايات رجال الدين المؤثرة ، وكانت تريد أن تعيد حاكمها إلى مجال العمل فى دوائر الدين وحدها ، أو أرادت أن تقوده وأن تخضعه لرقابة جماعة تعلن وصايتها على الإسلام والمسلمين معاً ، وكان يظهر من تصرفات الثوار ومن حماسهم لوجهات النظر الدينية أنهم كانوا متأثرين بالحماس الدينى الذى جعلهم مادة سهلة القيادة لجماعات تحصر نفسها فى دوائر ضيقة من التفكير الجامد أو الفهم البطىء .

والعجيب أن المجتمع الأندلسى لم يكن مجتمعاً متديناً بالمعنى المفهوم ، ولم يكن منجذباً بصلات قوية نحو الأمور الدينية ، وقد كان مجتمعاً يموج بجوانب الشذوذ غير العادية ، وكان يمتلىء بالمخالفات الدينية ، وينصرف إلى اللهو ، وكأنه لم يكن يرجو فى الدنيا شيئاً إلا الغرام ببعض المظاهر الشكلية مثل الإسراف فى ضخامة المساجد وتزيينها والمبالغة فى كثرتها ، ومع ذلك ظهر فيه دور الفقهاء قويا ، وقد يبدو الصراع بين الحكم بن هشام وبين الفقهاء صراعا مكشوفاً بين الدين والدولة ، أو محاولة من رجال الدين للاستيلاء على السلطة فى الوقت الذى كان فيه الحرص شديداً على السيادة المطلقة من حاكم يجلس على قمة مجتمع المسلمين بالأندلس .

(١) سنة ٢٠٢ هـ / ٨١٧م .

٥ ـــ ثورة مسيحية :

ويظهر أن عقاب الحكم للفقهاء لم يكن عقاباً صارماً ، لأنه في بطشه بالعناصر الثائرة ضرب أكثرها ضعفاً وكأنه كان يلتزم بمبدأ الصدام القديم بين شجعان العرب عندما كانوا يحمون أنفسهم من بأس الأقوياء بالعنف مع الجبناء ، حتى لا تتكرر الاستجابة للصيحات المعارضة ، وربما كان يسوءه استجابة الناس للفقهاء أكثر من موقف الفقهاء أنفسهم ، أو كأنه أحس بالحاجة إلى الفقهاء بعد أن خسروا المعركة أمامه ، وفقدوا مقومات المنادمه ، ورأى أنه إذا منع عنهم الاستجابة الخارجية لدعواتهم فقد منع عنهم سلاح التهديد الذى كانوا يمارسون به عمليات الضغط عليه .

ثم استمرت الدنيا تسير بالفقهاء فى مثل هذا الاتجاه البعيد عن ممارسة التهييج الشعبي ضد الأمير ، وظهرت بعد هذه التجربة المرة موجة من الانغماس فى الترف ، واستيراد للفاتن من الشرق بدعوى منافسة بغداد فى[1] حياتها الناعمة ، وكأن هذا كان شبه تحد من رجال الدولة للشعور الدينى بها ، أو كأنه كان محاولة لمعرفة مدى رد الفعل من جانب مراكز القوى الدينية ، وأمام مثل هذه الأعمال اللاهية ظهر ضعف الممثلين لرأى الاسلام بالبلاد ، أو شغلهم حب السلامة فانصرفوا بعيداً عن العمل الإيجابى الذى كان يمكن به أن تقاوم الرغبـــــات العارضة فى مجتمع امتلأ بنعيم الدنيا وملذاتها ، وظهرت جماعات دينية مسيحية كانت حريتها الدينية مضمونة ، ولم تفهم من تسامح المسلمين ما كان يعنيه هذا التسامح من الاعتراف بحق الغير فى ممارسة العبادة الدينية والتعبير عن الآراء فى حرية كاملة وإنما فهمت منه ضعفاً منهم يبيح لها الجرأة عليهم واستغلال الفرص للتشكيك فى

(١) فى عهد عبد الرحمن الأوسط ٢٠٦ — ٢٣٨ هـ / ٨٢١ — ٨٥٢ م

فى عقيدتهم ذاتها ، وتصورت ضعف روح المقاومة الإسلامية أو انهيارها وبرزت الجماعات المسيحية المتعصبة على جوانب الحياة الصريحة فى محاولات فردية بدت كأنها كانت نوعاً من اضطهاد الأقلية المسيحيين للأكثرية المسلمة فى واحدة من أمس العواطف المؤثرة فى القلوب البشرية .

وهاج أفراد مسيحيون كانوا متأثرين بشحنات عاطفية طاغية، وتقدموا إلى الشوارع والميادين وإلى سلطات الحكم ذاتها ليسبوا المسلمين ورسولهم علناً ، وعوقب بعضهم بالقتل فاندفع الآخرون نحو الموت أملا فى أن يكونوا فى قوائم الشهداء ، وليس من المؤكد معرفة أعداد الذين طلبوا الموت بلعن دين المسلمين(١) ، وإنما للمعروف أن حركتهم كانت حركة مجنونة لم تعرف للآن بواعثها الحقيقية إلا إذا كانت روح التعصب الدينى التى سادت عالم الناس فى مناطق كثيرة فى العصور الوسطى ، وكأن جهود المسلمين لإشاعة التسامح كانت محاولات من جانب واحد، أو كانت جهودا ضائعة ويقال إن من أسباب نزعات الاندفاع المسيحية ، ما كان من تسامح المسلمين أو إهمالهم ، أو اندفاعهم نحو حياة اللهو العابثة — وذلك شىء اعتبر خروجاً عن الإسلام والمسيحية معاً أو بعداً عن واجب الناس فى الحيـاة الدنيا .

وإذا لم يكن هذا اتجاهاً مسيحياً عاماً فإن المحاولة تشير إلى حالة من الإعلان عن الوجود القوى لأصحاب عقيدة مخالفة ، ولم يكن هؤلاء جماعات مجنونة، بقدر ما كانوا جماعات مؤمنة تريد الإشارة إلى وجودها فى وسط عالم يندفع بعيداً عن تعاليم الإسلام والمسيحية معاً .

---

(١) يقال إنهم كانوا أحد عشر شخصا أو أربعين شخصاً .

وجماعات متعصبة تعيش فى جو كئيب من التفكير المتزمت اتهمت الإسلام بالتسبب فى انحرافات المجتمع ، وكانت هذه حركة نشيطة معاندة من جانب واحد ، ولم تقابل من جماعات المسلمين إلا بالنظرة البلهاء أو بالتساهل المعروف عنها أو كأنما كان المسلمون بعيدين عن الرد عليها لانشغالهم بغير أمور الدين كلها ؛ ولم تحدث حركة مقاومة للثورة المسيحية مع أن المسلمين كانوا يملكون عوامل الانتصار فيها ، وحتى الحكام المسلمون أنفسهم — بعد محاولات الدفع الأولى أو بعد مظاهر العنف التى لم تسر شوطاً بعيداً — لزموا جانب السلام وتسامحوا فى المعاملة مع مواطنيهم ، وطالبوا من المسيحيين [١] الآخرين أن يحلوا المشكلة بطريقة الوفاق والتفاهم .

٦ — السلام من جديد:

وبذلك خبت الروح العدائية بين العقيدتين المتنافسين ، لأن الحاكمين المسلمين لم يكن عندهم استعداد للسير حتى النهاية فى طريق العناد الدينى ، ولم يحقق المتعصبون مطالبهم فى الظهور أمام الجماعات المسيحية بمظهر الشهداء المظلومين على طريق المسيح ودعوته ، وقد تكون هذه أول محاولة مكشوفة لها صبغة دينية مسيحية واضحة ، وقد تكون نوعا من الانتفاضات اليائسة أو نوعا من الاشفاق على دين كان فى طريقه نحو الانكماش بعد أن نجحت المحاولات لإضعاف وجوده ، أو ربما كانت نوعا من محاولات بعث اليقظة بين المسيحيين بعد أن انصرفوا كلهم للسير فى الطريق العام مع المسلمين ، ولم تتكرر هذه المحاولة مرة أخرى ، وانصرف المجتمع كله عن الدين كله ، وانشغل الناس بعد ظهور طبقات المولدين الكثيرة العدد بمحاولاتهم

(١) اجتمع المجمع المسيحى ونصح بعدم الاندفاع نحو الخطر إلا أنه لم يوجه لوما أو ما يشبه اللوم لضحايا هذا التعصب الدينى .

الثورية المطالبة بالمشاركة فى الحكم، وساعدتهم على ذلك شخصيات الحكام الضعفاء ، واستمرت الثورات السياسية فى أيام الفتن (٢٣٨ - ٣٠٠هـ/٨٥٢ - ٩١٢م) وبعضها كانت السياسة تختلط فيه بالدين أو يختلط فيه الدين بالوطنية، حتى جاء الخليفة عبد الرحمن الناصر ٣٠٠ - ٣٥٠هـ / ٩١٢ - ٩٦١م ، وكان حاكما وسطا نجح فى إعطاء معان براقة للحياة فى بلاد الأندلس كلها وعاش زمنا طويلا كبطل محارب يعمل باسم الإسلام وباسم النظام والسلطة معا ، ولم يلتزم بالتورط فى التعصب لدين أو مذهب ، وانشغل فى حركات الدفاع النشيطة ليحفظ على قومه سيادتهم بعد أن تطاولت عليهم الدول المسيحية فى الشمال الأسبانى، وانشغل ابنه بعده بالعلم والثقافة وفتح للناس أبواب الحرية العلمية فنشط البحث العلمى وزاد المتعلمون .

ثم جاء المنصور بن أبى عامر ٣٦٦-٣٩٣هـ/٩٧٦ - ١٠٠٢م كرجل غريب على السلطة يريد أن يوجد لنفسه خلفية قوية من المؤيدين له ، فمثل دور الإنسان المخلص للدعوة الدينية ، وكان بعيدا عن أن يكون مؤمنا بها ، أو مخلصا لقضيتها فتملق الفقهاء بحرق كتب الفلاسفة وأظهر احترام الدين ، وقد لا يكون ذلك دليلا كافيا على أثر النفوذ الدينى عليه بقدر ما كان إحساسا منه بضرورة المحاولة لجمع الجماعة الإسلامية حول اتفاق يضمن لها الحياة وسط الأخطار .

وكثرت الحروب فى هذه بين جماعتين واحدة مسيحية وأخرى مسلمة ، وقد لا يمكن القول بأن الاتجاه الدينى كان واضحا فى مثل هذه الحروب الدورية ، وإن بدا بعض معالم الاضطهاد للمسيحيين بسبب عواطفهم القوية نحو شركائهم فى الدين وبسبب أعمالهم المساندة لمن يجتمعون معهم تحت راية الدعوة المسيحية ولم يكن الاضطهاد يعنى إلا شيئا من الرقابة والضغط عليهم لعدم الثقة فيهم ولم يكن الضغط عليهم لأسباب

دينية ، وإنما كان لاسباب السلامة الداخلية للدولة ، والعجيب أن المنصور رغم قدرته على قيادة هذا المجتمع المضطرب ، ورغم تغلبه على كل العناصر المعادية له فيه لم يستطع إلا أن يكون غير صريح فى سلوكه الدينى وكأنه أراد أن يعيش سيدا بين جماعات إسلامية يضرب بها خصومه ، وينتصر بها فى حروبه [1] .

٧ ـ دولة صغيرة :

ثم تمزقت وحدة البلاد الاندلسية بعد وفاة المنصور ، وانصرفت الدول الصغيرة بها إلى بناء دور للعبادة ، وإلى المبالغة فى تزيينها ، والانفاق عليها ، مع أنها كانت لا تدل على نفوذ الدين ولا على تسلطه على الناس وإنما كانت مجرد مظاهر شكلية لا تدل على شىء كثير يتصل بالدين والعبادة وكأن الدين قد انحسر فقط فى بناء المساجد كرمز للايمان أو كإعلان عن العقيدة ، وكان فى هذا كسب للقلوب الساذجة ، أو راحة للنفوس المضطربة ، وكأن الالتزام بالدين كان مقصورا على أداء الواجبات الفردية وحدها وأما تعاليم الدين الخاصة بتماسك المسلمين ووحدتهم ووجوب تضامنهم معا ، وبعدهم عن مودة الأعداء فلم يكن هذا كله عندهم شيئا ملزما أو معمولا به واستمر الفقهاء والباحثون فى الدين يؤدون عملهم وواجبهم وكثر وجودهم بكل مكان ، وانتشروا بعد تمزق الوحدة الجامعة بين المسلمين ، وبعد أن تعددت مراكز الرئاسات المتنافسة التى كانت تعرض جوائز مجزية للعاملين فى شئون الدراسات الدينية أو غيرها ، وذهب رجال الدين إلى العواصم الجديدة ، وكان لهم وجود ظاهر

---

(١) كان اضطهاد المنصور المفكرين والفلاسفة وحرق كتبهم مع ميله إليهم دليلا على عدم صراحته .

فيها،وربما كانت مواعظهم مقصورة على تعليم الصبر وتحمل الآلام وحسن الدعاء بالنجاة من الأخطار التى كانت تحيط بهم،ورغم أنهم كانوا الأبطال الشعبيين أو كانوا زعماء هذا المجتمع المضطرب إلا أن دورهم كان ضعيفا فى البحث عن محاولات الخروج من مأزق الفوضى،وإيقاف تيار الحروب الأهلية بين الأمراء المسلمين المتخاصمين ، وقد تحمس الفقهاء لأمرائهم ، وساروا فى طريق الخصومة يؤيدون للمنتصرين ويعيشون على حساب مكاسبهم .

وخضعت أحوال المسيحيين زمن حكم الطـوائف لظروف كل منطقـة أو إمارة وأصبح هناك مسلمون يخضعون للمسيحيين ، ومسيحيون يعيشون بين المسلمين ، فكان هناك تبادل للتسامح وتبادل الاضطهاد حسب الظروف العارضة الا أن التسـامح مع المسلمين كان للحاجة المؤقتة لوجودهم ، وكان التسامح مع المسيحيين للخوف منهم، ومن القوى التى كانت تحميهم فى شمالى أسبانيا ، ولميل المسلمين أيضا الى التسامح ، وتشير دلالات التاريخ إلى أن جماعات مسيحية كثيرة كانت منتشرة فى مناطق كثيرة فى دول المسلمين ، وكانت تلقى منهم حسن المعاملة بعد أن ظهر أن وجود هذه الدول نفسها كان مرهونا بتغافـل المسيحيين عنها ، وكأن حسن المعاملة مع المسيحيين رغم إدراك عدم ولائهم لدول المسلمين كان نوعا من السياسـة أو كان شيئا مفروضا بالاضطرار وحده .

ثم تفاقم الشر بين المسلمين والمسيحيين جميعاً،وسقطت طليطلة ٤٧٨هـ/١٠٨٥م وكانت عاصمة سياسية ودينية للقوط قبل حكم المسلمين ، وللتاريخ جاذبيته وتأثيره ، فأحيت بسقوطها روح التعصب الدينى عند المسيحيين ، واشتد العداء ، وازدادت الريبة والتقاطع بين المسيحين والمسلمين فى كل البلاد ، وعلا صوت المسلمين المنادين بوضوح الخصومة وإعلان العداء للمسيحيين فى كل مكان، وكانت لهم

محاولات قوية يائسة تهدف إلى عزل الخطر عن كيان المسلمين فى بلادهم، غير أن أصواتهم لم تجد المنصتين لها، وكأنها كانت مجرد أحلام غاضبة، أو أمانى بعيدة التحقيق، لأن طوائف المسلمين الحاكمة كانت عاجزة عن تنفيذ ما يسىء المسيحيين المحروسين بدول الشمال والمفروضين على الوجود كله بالقوة، وربما شعر حكام الطوائف بضرورة الاتحاد أمام الخطر، ولكنهم لم يجدوا وسيلة لهذا الاتحاد، فانتظروا دورهم أمام القوى المسيحية الغالية، كأنهم كانوا أصحاب قضية خاسرة.

وازداد حجم خسارتهم بفقدان بعض بلادهم، وبفرارهم أمام الطوفان البشرى المطالب بحق الوجود فى أرض الآباء، وازدادت الهزائم وعجز الجميع عن اللقاء فى الميادين العسكرية، واضطروا لشراء الأمان والسلامة الموقوتة من أعدائهم بالتعهد بدفع ضرائب مالية ترهق شعبهم، وتزيد من عبء الحياة عليه، حتى وصلوا إلى حال لا يرى العدو فيه الخير فى الانتظار، ولا يجد بديلا عن تسليم المسلمين وطردهم، فظهر لرجال الدين المسلمين دور ينحصر فى محاولة التعرف على شىء يوقف التيار المندفع نحوهم بالخطر، فأسرعوا إلى طلب النجدات العسكرية من المرابطين فى شمالى إفريقية، وكان هؤلاء يمثلون الأمل الباقى لجماعات المسلمين الضائعة بالأندلس، وجاءت الاستغاثة بهم محاولة طيبة مبنية على روابط الإيمان الواحد بين المرابطين والأندلسيين، ثم على الرغبة المشتركة فى الدفاع عن وجود الإسلام فى أسبانيا.

٨ — فى عهد المرابطين :

ودخل المرابطون أسبانيا ٤٧٦ هـ/١٠٨٦ م مؤيدين بالفتاوى الدينية

المشجعة من كل مكان ، وكانت هذه الفتاوى شيئاً له دوره فى إقناعهم ، أو شيئاً له ضرورته فى قبولهم الحرب خارج بلادهم ، وبعد معارك عنيفة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م اتخذت صورة الحروب الصليبية المعروفة انتصر المرابطون على المسيحيين ، وكانوا يدافعون عن وجود المسلمين أمام جماعات لا تقبل الهزيمة ، أو كانت تراها حالة عارضة يمكن تغييرها بالجهد والتنظيم ، وأثار انتصار المرابطين الحماس الدينى فى الجماعتين معا ، فأحيا فى جماعة الأمل وأسعدها بالإحساس بالراحة بعد معاناة طويلة من خوف الضياع ، وأحيا فى جماعة أخرى النشاط للبحث عن وسائل الانتقام السريع ، وأثار فيها روح الأسف للهزيمة بعد أن استقر الحال بين الجماعتين إلى ما يشبه الصراع الأخير حول قضية الحياة والموت .

ثم أحاط المرابطون أنفسهم بجماعات من الفقهاء الذين وجدوا لأنفسهم دوراً كبيراً إلى جوار الحكام الممثلين للزعامة الخاضعة لسلطان الدين وأوامره ، وظهر دورهم فى تشكيك المرابطين فى إخلاص الرعايا المسيحيين للسلطة الإسلامية ورجالها ، وزاد عندهم اليقين بعد ظهور نشاط المسيحيين مع القادمين من كل مكان للقضاء على آثار الإسلام بأسبانيا كلها ، فطرد المرابطون بعض المسيحيين ، وأراحوا المجتمع من وجودهم بعد أن كانوا خطراً كبيراً على جماعات محاربة ترجو السلامة فى كفاحها بالأرض البعيدة .

وحكم المرابطون الأندلس ٤٨٣ هـ/ ١٠٩٠ م كجماعات متدينة راغبة فى خدمة قضية الدين وأهله ، وكأنهم كانوا الأمل الباقى لهذا الدين ، ويظهر الهجوم المسيحى قوياً على المرابطين الذين اتهموا بأنهم كانوا جماعات متعصبة أو جاهلة

أو بربرية ، ويبدو فى الهجوم على المرابطين نوع من التحامل والبعد عن الصدق ، وربما كانوا متطرفين فى شعورهم الدينى ، وربما كانوا أيضا يعيشون لخدمة هذا الدين فى مراحل حياتهم الأولى ، وربما ظهروا كذلك أو رأوا أن يظهروا كذلك أمام المسلمين فى شمالى إفريقية والأندلس كمحاولة جيدة من الحكام المسلمين البعيدين عن الترف والانحلال الممثل بوضوح فى حكام الأندلس جميعاً ، والتف حولهم الناس - أو المتحمسون منهم - وقضى المرابطون بنفوذهم وقوتهم على سلطة الأمراء الأندلسيين فى كل مكان .

لقد جاء حكم المرابطين للأندلس كنتيجة لحروب خطرة ذهب ضحيتها أعداد هائلة من المسيحيين والمسلمين معاً وكان قد ظهر للمسيحيين أن سقوط البلاد الإسلامية كان مأمولا بجهد قليل ، وهذا يعنى أن التحامل على المرابطين كان تعصباً فى ذاته ، لأنهم حرموهم من نتيجة طيبة كانوا على بعد خطوات منها ، ويظهر أن أوربا كلها كانت فى الطريق إلى اتخاذ موقف حاسم باسم المسيحية ضد الإسلام ، وأنها لجأت إلى التعصب الدينى كوسيلة يمكن بها امتلاك قلوب جماعات كبيرة من عامة المسيحيين والتأثير فيهم ، وحاولت أن تتهم بالتعصب كل المخالفين لعقيدتها لتبرر سلوكها المتطرف فى معاملة أعدائها .

ثم جاء الموحدون لحكم بلاد الأندلس ، وكانوا أصدق إيماناً من المرابطين وأشد حماساً للدين منهم ، وقد جاءوا بعد أن أثيرت قضية الدين بقوة بين المسلمين والمسيحيين جميعاً ، وساعد على خطورة هذه القضية ضعف المسلمين عن رد العدوان عليهم ، واندفاع المسيحيين إلى الإسراف فى الخصومة أملا فى تخليص المسيحية من سلطة الإسلام والمسلمين ، وتجمع المسيحيون أو الصليبيون من كل

مكان فى أوروبا ليدفعوا الأندلسيين العاجزين للخلف أو ليضربوا الإسلام الذى يقف أنصاره وقفات أخيرة غير مجدية، وانتصر الموحدون ٥٩١ هـ/١١٩٥م على المسيحيين وجاءوا بالأمل من جديد لمن فقدوا الأمل فى بقاء بلادهم معهم ، وعاش الناس على النصر وبه فترة غيرة طويلة لأن الموحدين انهزموا سريعاً ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م وكان بين نصرهم وهزيمتهم زمن لا يكفى لإقامة التجربة على التعصب أو التسامح الدينى عندهم، وفى الهزيمة السريعة دليل على وضوح الهدف أمام أوربا كلها ضد المسلمين بالأندلس فاندفعت فى حرب صليبية مجنونة لتأخذ بلادهم واحدة بعد الأخرى .

٩ — وأخيراً غرناطة :

وبقيت مملكة غرناطة وحدها ٦٣٠ — ٨٩٧ هـ / ١٢٣٣ — ١٤٩٢ م كآخر شعاع لدين غارب ، أو كآخر محاولة لشعب منهزم ، ووقفت باسم الوطن والدين أمام عوامل الموت المتزايدة ، وظهر الشعور بالوطنية أقوى من الشعور بالدين ، لأن الوطن كان فى خطر ، وهو يمس الوجود ذاته ،وقبل التفكير فى شئون العقيدة الدينية التى من أهم أهدافها العمل للمستقبل المجهول يجب ضمان الأرض أولا للحياة والأجيال ، ثم إن الهزات التى تعرض لها المسلمون كانت خطيرة ومثيرة فأنستهم التداعى باسم العقيدة الدينية فنادوا باسم الحياة و الأحياء ، وربما لم يكن التداعى باسم الدين من صالحهم كممثلين لدين تنحسر بالتدريج دوائر نفوذه منذ زمن بعيد ، وقد يزيد ذكره فى عوامل شقائهم أمام المتعصبين عليهم، فظهر من المسلمين انصرافهم عن الدين ، أو حاولوا اخفاء الإحساس به .

وبعد حياة طالت مائتين وخمسين عاما تناوبت على الأندلسيين فيها عوامل البؤس والعذاب ، ومظاهر النعيم والحياة ، اضطروا للتسليم فى النهاية ولم يطق

المتعصرون عليهم أن يروا مسلما واحدا فى أسبانيا كلها، فبالغوا فى البحث عن مكان العقيدة فى قلوب الناس جميعا، وقاموا بمحاولات لتنصير المسلمين بعد معاهدات وتعهدات بترك الناس مع عقائدهم ، وارتفعت حرارة الأحقاد ضد المسلمين من كل الأجناس بغرض أن تصبح أسبانيا كلها بلادا مسيحية لا ترتبط إلا بالخصومة والعداء مع أهلها السابقين، وانتهى الحساب أخيرا بعملية (١) طرد نهائية لكل المسلمين فى الأندلس ، وليس إلى الشك سبيل فى أن المطرودين من بلادهم لم تكن فى دمائهم إلا نسبة قليلة من الدماء العربية قد لا تكفى للاندفاع الغاضب الذى لا يفرق بين الدين والجنس ، والذى لا يريد أن يقبل من المسلمين عذرا ، ولم يكن ممكنا تحت ضغط هذا التعصب الخطير أن يقف القادرون قليلا حول قضية البلاد كمنطقة كانت فى حاجة لجهود العناصر المسلمة النشيطة المتحضرة لأن الحكام كانت تحكمهم عوامل الكراهية ، وكانت تشغلهم الحمية للدين وحده ، فحاولوا أن يظهروا البطولة فى ميدان واحد ، هو ميدان العمل تحت راية المسيح وكانت هذه هي روح العصر الغالبة، وكانت أيضا الطريق للحياة طويلا فى مكان السيادة على الناس فى البلاد المسيحية .

ثم ظهرت عمليات التنصير الإجبارية ، وعمليات اضطهاد المسلمين بالجملة، وتحطيم مساجدهم ، وتحريم لغتهم وعباداتهم، ومحاولة فرض ديانة غير مقبولة عليهم، وقاوم المسلمون الحرب ضد دينهم، ولكن محاولتهم جاءت عاجزة لا رجاء فيها ، وكأنها كانت مجرد اهتزازات عصبية تظهر قليلا ثم يسترها عنف الصخب ، وخضع بعض

---

(١) يقال إن المطرودين كانوا ثلاثة ملايين مسلم أو ماهو قريب من هذا العدد ويدل ذلك على قسوة العمل ، وعلى فداحة الكارثة التى أصابت المسلمين فى الأندلس .

المسلمين واستسلموا وعاشوا بين المسيحين غرباء عنهم ، ولكن أعداءهم رفضوا وجودهم كله، واتهموهم بتعطيل سير الحياة فى اسبانيا، ولم يقبلوا دعواهم بتغيير دينهم ، وطلبوا منهم الخضوع للموت أو ترك الوطن كله سنة ١٦٠٩م ، فمات بعضهم تحت العذاب ،وفر بعضهم الآخر هاربا ليبحث لنفسه عن وطن من جديد .

ولم يكن من أهداف فتح العرب لأسبانيا قبل ذلك بأكثر من ثمانية قرون أن يضطهدوا المسيحيين فى أى مكان بها فقد تركوهم تسير بهم الحياة مع الأحياء فى ظل الأمن والحرية والتسامح ، وتركوا اليهود أيضا يعيشون فى الأندلس فى ظل حضارة العرب ودولتهم، والإشارات واضحة فى التاريخ على بقاء اليهود على دينهم أيام حكم المسلمين يمارسون طقوسه بلا ضغط أو اضطهاد، وكانت منهم عناصر مستفيدة فى مجتمع المسلمين طول تاريخهم ، وقد تجاور الناس جميعا هناك فى سلام ولم تستغل قوة الاسلام ضد الأديان الأخرى بل استفاد المسيحيون من روح التسامح السائدة لدى المسلمين فى العمل البطىء نحو تكوين القوة التى لم يكن يراد بها الدفاع عن الحق المغتصب أو التلويح بالدفاع عن النفس عند التعدى ، وإنما قصد بها بقاء دين واحد فى البلاد كلها ، ورفض المسيحيون بعد نصرهم بقاء الإسلام مع المسيحية حتى بعد نجاح التجربة ثمانية قرون طويلة ، وعرضوا المسلمين لتحطيم ارادتهم ، ولفرض العقيدة عليهم بالقوة وكانت منهم جماعات أسبانية واجهت العذاب مكرهة لتكفر عن ذنوب الأجداد الذين تركوا المسيحية باختيارهم منذ وقت طويل ، وهدمت جميع المساجد الإسلامية كرد فعل غير مناسب لبقاء الكنائس المسيحية فى الأندلس حتى النهاية ، وفى التاريخ قصص مؤسية عن محاولات الإذلال ومحاولات عرض الموت على غير المسيحيين من المسلمين واليهود ، ولم تحدث عند المسيحيين قناعة بالتحول الديني الذى رغبوا فيه ، وإنما اندفعت بهم شهوات الانتقام إلى الإبادة التامة ، أو الطرد الأخير لكل من كانوا من المسلمين .

ب : التطور الحضارى

يقال فى تاريخ شعب الأندلس إنه كان شعبا لا يعرف طريق الانسجام فى وحدة شاملة يمكن بها أن تظهر معالم التماسك القوية فى صورته العامة ، وإن ذلك كان لأسباب من أهمها أن الناس هناك كانوا يتعاطفون دائما مع أصول بعيدة مختلفة أو كانت تميل بهم الرغبة والشعور الإدارى وغير الإدارى إلى الإحساس والاعتراف بتاريخ ليست فيه روابط وطنية جامعة : ومعنى هذا أن كل عوامل التماسك المعروفة وكل الدوافع القوية نحو العمل فى وحدة كبيرة أو نحو الظهور بمظهر التكامل الاجتماعى مثل المصالح المشتركة والمصاهرة ، والجوار ، والعشرة الطويلة ، والمواطنة وغيرها — كل هذه العوامل ذات الأثر الكبير فى حياة الشعوب العادية لم تكن فعالة أو مؤثرة أو لم تكن لها نتائج حاسمة فى أرض الأندلس ، وربما كان لها أثرها فى الأخذ والعطاء ، وفى نتائج الأعمال العقلية فى البلاد كلها إلا أن هذه البلاد ظلت تعانى لفترات طويلة من تاريخها من تنوع عناصر السكان بها ومن اختلافاتهم تبعا لأصولهم وعقائدهم وثقافتهم ، وبدا الناس كأنهم كانوا راغبين عن الوفاق والانسجام والامتزاج فيما بينهم ، أو كأنما كانوا حريصين على العمل فى تكتلات صغيرة أو فى شلل متنافسة أو متعادية كما نقول نحن الآن بلغة العصر الحديث ، أو كأن المنطقة كانت غير مسكونة بشعب واحد ، أو كأنها كانت محكومة بشعب يعيش تحت ظلال القوة وفى صراع دائم مع غيره من جماعات كثيرة تجد غالبا للصراع مجالات مناسبة حول السيادة أو العقيدة أو الامتيازات أو المستقبل أو حول البقاء ذاته .

كانت هناك إذن جماعات كثيرة تحكمها مشاعر متباعدة وعواطف مختلفة

وآمال متعارضة ومنها العرب والبربر والمولدون والمستعربون والصقالبة واليهود والقوط والرومان وغيرهم ، وكل هؤلاء كان لهم أثر بعيد فى حياة الجماعة وفى حياة الدولة ، ويقال إن هذا الخليط البشرى العجيب كانت له آثاره الممتازة فى امتزاج الثقافات وتطورها ، ولكن أثره السياسى كان خطيرا ومرهقا لأن عناصره ظلت محتفظة إلى آخر المدى بكيانها العنصرى الانفصالى ، وظلت حريصة على هذا الكيان وكأن فيه وجودها وحياتها ومستقبلها ، ولهذا لم تعمل متحدة لفترات طويلة بل شغلت نفسها وشغلت من حولها معها بالتناحر والخصومة والحروب فى الميادين المشروعة وغير المشروعة حتى كانت نقطة ضعف مؤثرة فى تاريخ المجتمع الأندلسى كله ، وفى تاريخ النظام ذاته وأصبحت خطرا داهما ساهم أخيرا فى نهاية الدولة وقضى عليها وشارك أيضا فى شقـــــــاء الشعب الأندلسى وهلاكه .

وربما كانت هناك بعض الاتجاهات السائدة أو المعترف بها فى حياة الناس العامة والخاصة : وهى أن المسلمين من العرب والبربر والمولدين وغيرهم كانوا يسيرون فى اتجاه الرغبة والعمل لصالح الدولة وبقائها ، وكانوا يعملون لتطوير الحياة الأندلسية والحضارة الإسلامية لأنهم اعتبروا ذلك حياة لدولتهم وحياة لأنفسهم معها ، وسارت الدولة بهم ومعهم لفترات طويلة مزدهرة من تاريخها ، ولكنها لم تكن دولة أقيمت باسم الإسلام لصالح المسلمين وحدهم ، بمعنى أنها لم تتجاهل وجود الآخرين ، ولم تطلب منهم البحث عن أماكن للاقامة خارج نطاق سلطتها ، بل كانت تنظم علاقاتها بهم وتعترف بوجودهم وتعطيهم حق الحياة فى حرية ومساواة وأمن ورعاية .

ثم إن المسلمين أنفسهم لم يهتدوا بدورهم إلى نوع من المصالحة السلمية أو إلى نوع من الوفاق المبنى على القبول العام لكل المسلمين بالبلاد وعلى الشعور بالأخوة الشاملة بينهم، ولاسيما العناصر الإسلامية القوية التى دخلت أو دخل آباؤها زمن الفتح مع الفاتحين أو التى كونت بصورة أو بأخرى قوة الفتح ذاتها، وهذه كانت دائما تعانى من الإحساس القوى بأهمية الدور الذى لعبته عند بدء الصراع الأول، وربما كانت تعانى أيضا من غرور المنتصرين وكبريائهم. ومنها العرب ولم يكونوا طرازا واحدا من جماعة واحدة تربطها وحدة الأصل أو الوطن أو التاريخ أو اللغة أو الهدف وإنما كانوا جماعات متنافسة أو أحزابا معقدة تبلورت أخيرا فى وضعها النهائى إلى مايشبه القوى الكبيرة المتخاصمة حول منصب الزعامة فى البلاد كلها، ثم اندفعت فى حروب أهلية مزعجة تبالغ بعض كتب التاريخ فى وصفها وبيان آثارها.. ومنها البربر وكانوا جماعات كبيرة العدد تسرف فى تقدير وجودها وآثارها وتشعر بقوتها وأهميتها وتريد أن تعيش مع العرب المسلمين فى مساواة كاملة بدون تسامح أو تفريط، ولقد ساهمت فى الحروب الأهلية التى انتشرت بالبلاد وشاركت فى الفتن، ولم يظهر منها ميل للتلاحم المفيد مع عناصر المسلمين الأخرى إلا فى أوقات غير طويلة.. وبين هؤلاء وهؤلاء كان يعيش المولدون الراغبون فى البعد عن مشكلات النزاعات الداخلية والآملون فى السلام والأمان فى ظل عقيدة المسلمين وحضارتهم، ولقد عاش هؤلاء وقتا طويلا مع هذه النية الطيبة، ثم تحولوا بالزمن والرغبات العارضة فأصبحوا عنصراً أساسيا من عناصر الشعب بالبلاد كلها.

وفى الجانب الآخر أو على الطرف المضاد كانت هناك جماعات مسيحية تعرف بالمستعربين النصارى القاطنين فى أسبانيا الإسلامية، وهؤلاء كانوا يمثلون

نسبة كبيرة من جملة السكان أيام الفتح وبعده ، ومع أن أصولهم كانت مختلفة تساعد بحكم روح العصر ومقتضيات البيئة على الخلاف أو الشقاق إلا أنهم كانوا يجتمعون حول الشعور الديني الواحد أو حول مايشبه الشعور القومي المتطرف ، وقد شغلتهم هذه الأمور دائما ، وساعدتهم الدولة بتسامحها على الإحساس بالقوة والأهمية والخطر ، وكانت تضمن لهم حق الحياة وحرية العمل والعقيدة فعرفوا عن طريقها معنى التسامح الديني والخلقي لأول مرة في تاريخهم ، واستغلوا ذلك كله في ممارسة التهديد المباشر لصالح البلاد وأهلها والتآمر في الداخل والخارج عليها ، وانصرفوا بحكم العواطف القومية والدينية وبأثر الدعايات الخارجية عن المشاركة الإيجابية في العمل لصالح الحكومة لفترات طويلة ، وبذلك أضفوا على أنفسهم طابعاً انفصاليا عدائياً مشكوكا فيه وخضعوا بسببه لبعض الاضطهادات التي كانت تزيدهم حماساً واندفاعا إلى الشقاق والنفور والعمل المضاد ، وظهر ذلك بوضوح عند دفعات القوة العربية أو عند تغلب العناصر البربرية أيام المرابطين والموحدين[1] الذين بدا حبهم وعطفهم على الإسلام والمسلمين في صور كثيرة كان منها الحماس الشديد في الدفاع عن قضية الإسلام في ميادين القتال ، ومنها تقريب المسلمين وموالاتهم ، ومنها اضطهاد بعض المسيحيين واليهود المشكوك في إخلاصهم وولائهم ، وكان هؤلاء يمثلون تأثير الثقافة العربية في غير المسلمين من السكان ، وكانوا مولعين بالتراث العربي وألوانه حتى انتشرت بينهم لغة العرب وثقافتهم وحضارتهم ونسوا الفتن أو كانوا في الطريق إلى نسيانها ، وترجمت لهم الأناجيل

---

(١) ظهر عصر سلطان البربر في أسبانيا من ٤٨٤ - ٦٣٣هـ / ١٠٩١-١٢٣٥م وربما لم يكن البربر المسلمون متعصبين للاسلام إذا قورنت عواطفهم الدينية بعواطف الكاثوليك التابعين لكنيسة روما .

وقانون الكنيسة المقدس إلى اللغة العربية ، وقد كانوا أشد حباً لها وأكثر تعلقا بها [1] من بعض أهلها ولم ينقطعوا عن الاتصال بالمسيحيين فى الشمال [2] ثم لجئوا إليهم فى شبه جماعات باحثة عن مكان يناسب الحياة بالدين بعيداً عن حكم المخالفين له أو لانتظار فرص العمل الدينى والقومى فى المستقبل . . . وهاجروا إلى الشمال يحملون العداء للعرب ويتأثرون بثقافتهم ومزاجهم وذوقهم فكانوا عوامل أساسية لنقل حضارتهم إلى شمالى أسبانيا المسيحية وإلى أجزاء أخرى من أوربا بعد ذلك . . وسار اليهود فى نفس الطريق وكانت لهم بالأندلس جاليات كبيرة غنية وسعيدة بالأمن والرعاية والعطف والتسامح العربى .

ولكن هل من المقبول أو المعقول أن نقول إن شعب الأندلس كان طول تاريخه جماعات متفرقة ومتنازعة وموزعة الأهواء والآمال والميول ؟ وهل صحيح أن كل جماعة أندلسية كانت منجذبة إلى أصل بعيد تعطيه عواطفها وتصرفاتها ؟ وإلى تاريخ خاص مستقل لا تشعر بسببه بنوع من الترابط فى دائرة الدولة الواحدة غير ما هو معروف من روابط المصلحة القائمة أو المشتركة بين الجميع والتى كانت تمليها ظروف الحياة فى مكان واحد ؟

إن النموذج الحضارى العظيم الناتج من أثر اختلاط هذه العقليات فى الأندلس يكشف بوضوح عن معانى المشاركة الإيجابية والفعالة بين الجميع لتطور الحياة

---

(١) كان مما يفعم قلب رجال الدين المسيحيين بالأسى الا يجدوا من رعاياهم واحداً من الألف يستطيع أن يكتب رسالة باللغة اللاتينية مع أن أكثرهم كانوا يكتبون بعبارات عربية بليغة وبأسلوب منمق ويفوقون العرب فى الشعر ونظم القوافى .

(٢) وكانت حرية الانتقال بين البلاد الإسلامية والمسيحية مضمونة ومعروفة طول التاريخ .

العامة فى البلاد كلها ، ولا نتصور أن تصارعاً قوياً وخطيراً كان قائماً بصورة شبه دائمة بين السكان فى جملتهم أو بين العناصر المتميزة منهم، وإلا لكان العمل الناجح المعروف عن الشعب الأندلسى مستحيل التحقيق أو بعيد الإدراك، وإلا لاختلفت الصورة المعروفة والمنقولة عن الأندلسيين فى بطون الكتب وفى آثارهم الباقية إلى اليوم، ولا شك أنها صورة طيبة وممتازة ، وهى فى جملتها وتفصيلها صورة شعب عرف طريق العمل فى جماعة متفاهمة ولفترات طويلة من تاريخه ، ونحن نقول الآن إن العرب أقاموا فى أسبانيا دولة عاشت زمنا طويلا[1] وكانت واحدة من أعظم الدول الإسلامية أو كانت واحدة من الدول التاريخية المهمة أو كانت دولة أوربية لا مثيل لها فى أوربا كلها ، ويدل على ذلك تاريخها وآثارها وما يعرف عنها وعن شعبها وعن حضارتها ، ولا يمكن أن يوجد هذا الأثر مع الاختلاف والتناحر والصراع بدون نهاية .

ويبدو أن فكرة النزاع الدائم أو الخطير المشاعة عن مواطنى الدولة الاسلامية بالأندلس وأن المبالغة فى دعوى طول الصراع بين عناصر السكان فى هذه البلاد ولا سيما بين المسلمين والمسيحيين أو بين أنصار الإسلام وأنصار المسيحية هناك — يبدو أن هذه الفكرة كانت فكرة مغرضة روجت لها عوامل سياسية مكشوفة وأملتها روح التعصب الصليبية عند المسيحيين[2] الذين اندفعوا لهذا القول بعد انتصارهم على المسلمين

---

(١) من ٩٣ هـ / ٧١١ م إلى ٨٩٨ هـ / ١٤٩٢ م .

(٢) يعرف من التاريخ أن حرب أوربا للموحدين المسلمين البربر فى أسبانيا سنة ٦٠٩ / ١٢١٢ كانت حربا صليبية صريحة وأنها لم تكن شيئاً آخر غير ذلك، وأن الأفكار والميول الكنسية كانت مسيطرة على البلاد كلها ، وكانت فى درجة من القوة تشبه ما كان عند الصليبيين الذين حاربوا المسلمين بالشرق فى ذلك التاريخ.

فى حروب الاسترداد المعروفة ، وكان ذلك للدعاية وحدها ولعوامل الحماس المطلوبة عند الحروب وبعدها ، ويعرف عن الكتاب المسيحيين أنهم كانوا قساوسة أو أنصاف رجال دين فكانوا يعملون فى جو كثيب من التعصب والكراهية وسوء الظن وعدم التقدير ، وكانت عندهم فرصة طيبة بعد ضعف المسلمين وهزيمتهم أمام القوات المسيحية فتركوا خيالهم المريض يملى عليهم أحاديث كاذبة عن شعب مسلم له عقيدة معادية منهزمة ، ولا سيما بعد انتصار المسيحية النهائى على الإسلام سنة ٨٩٨هـ — ١٤٩٢ م .

وحتى القول بانتصار المسيحية على الإسلام يجب ألا نقبله بهدوء وتسليم لأن من الواضح أن عوامل الضعف والهزيمة عند المسلمين — وهذه كانت خارجة عن تأثير الإسلام كدين - هى التى انتصرت على عوامل القوة والنصر عندهم، وبذلك تهيأت سبل الانتصار السهل أمام أعدائهم ومعنى ذلك أن نهاية الحياة جاءت للمسلمين بعد أن ساهموا بدورهم فى الإسراع بها .

وفى نفس الوقت يمكن أن نقول إن السكان فى الأندلس لم يستطيعوا الامتزاج نهائياً أى أنهم لم يكونوا شعباً أندلسيا واحداً تقل الفروق بين جماعاته وتتعاطف فيه هذه الجماعات بشكل إيجابى يساعد على البقاء للنهاية فى وحدة قوية وفى أرض واحدة يشعر الجميع بالاشتراك فى ملكيتها وبالحرص على سلامتها ، وربما لم يكن طبيعياً أن يمتزج شعب الأندلس مع وجود العوامل المعطلة التى كان منها اختلاف الدين والعنصر والميول، والتى كان منها الدعايات المحيطة المنادية بالقومية والحرية وشرف المسيحية ، وهذه كانت لها مصادرها القوية فى أوربا القريبة من أسبانيا وفى داخل أسبانيا نفسها ، وكانت تزداد حماساً وإلحاحاً

فى أوقات الضعف عند المسلمين ، وفى أوقات تنازعهم وانصرافهم إلى الأعمال الصغيرة الهادفة إلى المكاسب المحلية أو الشخصية .

ويظهر بوضوح من تاريخ أوربا أنها أصبحت فى حالة يقظة شاملة(١) بعد الضياع والانهيار والتأخر ، وأنها أخذت تتجمع حول عوامل القوة المتاحة لها ، ولم تجد من وسائل التأثير المحركة لعواطف الجماهير إلا الأمور الدينية لتقابل بها سلطان المسلمين الغارقين فى الفتن والمنازعات .

ورغم هـذا أو بعد كل ما يقال عن الصراع الطويل الخطير بين العناصر المكونة لشعب الأندلس فقد كان لهذا الشعب دور حضارى هام ، وكانت له قصة حضارية متميزة تتحدث عنها كتب التاريخ باهتمام ، ونحن إذا أردنا الآن أن نعطى صورة فيها شىء من الوضوح عن حضارة العرب فى أوربا ربما تضطرنا ضرورات الوفاء للواجب إلى الإسهاب والتطويل ، لأن هناك شيئاً كثيراً يقال عن معالم الحضارة الأندلسية ومقوماتها ، وعن أثر هذه الحضارة فى أسبانيا العربية وفى أوربا كلها معها ، وعن المقارنة بين حال العرب فى الأندلس وحال الأوربيين القريبين منهم أو البعيدين عنهم ، وفى المكتبة العربية وغير العربية كتب قيمة متخصصة فى هذه الدراسة المهمة ، ومقصورة على بحث حضارة العرب والمسلمين فى الأندلس وحدها ، ومنها ندرك أهمية الدور الحضارى الذى قام به العرب المسلمون والمساهمون معهم بالنسبة لتاريخ أوربا وللتاريخ الإنسانى كله ، ونفهم من كتب التاريخ أن المسلمين فى أوربا كانوا أرقى شعوبها جميعا

(١) اكتشف الأوربيون أمريكا فى نفس السنة التى زال فيها آخر نفوذ للعرب فى أسبانيا سنة ١٤٩٢ م .

وأنهم كانوا أساتذة للأوربيين كلهم طول العصور الوسطى وبعدها، وفى كتب التاريخ والحضارة العربية وغير العربية ذكر طويل لكثيرين من نوابغ الفكر المسلمين وغير المسلمين الذين شملتهم دولة المسلمين فى أسبانيا ورعت وجودهم ونبوغهم وكانت أسبانيا الإسلامية أهم النافذ المفيدة التى اطلعت منها أوربا على حضارة العرب وتقدمهم، وعندنا نحن المسلمين والعرب كلام كثير عن الأندلس العربية وعن حضارتها المتطورة وكيف علمت أوربا الجاهلة وكيف كانت حالها معها، ونتحدث وعن التقدم العربى والتأخر الأوربى، ويبدو المجال واسعا، والقول مكررا، ولكن ملاحظة سريعة مهمة ينبغي أن نلتفت إليها باهتمام وعناية إذا كنا نريد خيراً لأنفسنا ولغيرنا وهى أن وقوفنا طويلا للإلحاح على جوانب العظمة فى التاريخ العربى والإسلامى لجماعات عربية أو إسلامية كانت تعيش فى الشرق أو الغرب ربما لايفيدنا الآن كثيرا إذا كان هذا الوقوف لمجرد الذكرى أو إذا كان فيه شىء من التأمل الجامد أو الحزين ولاشىء بعده، وفى العالم الآن كثيرون يعترفون بأهمية تاريخ العرب والمسلمين فى أسبانيا وفى غيرها من الأوطان ولكنهم يفقدون حماسهم بعد المقارنة المبدئية السريعة بحال المسلمين وحال غيرهم من الشعوب الأكثر تطورا منهم، وقد يكون هناك اعتراف عام وصحيح بأمجاد العرب فى الأندلس، وقد تكون آثارهم إلى الآن معبرة عن درجة التطور الكبيرة التى قادوها فى أوقات التأخر والمعجبة الأوربية [1] ولكن العرب والمسلمين يجب أن يكونوا اليوم فى مستوى عصرهم وفى مستوى الأعمال الجيدة المحيطة بهم فى كل مكان.

---

(١) راجع كتاب: الإسلام والحضارة العربية ١/١٩٥-٢٠٧، ٢١٨ - ٢٤٤، ٢٥٣-٢٧١، وغيره من كتب الحضارة المعروفة.

وصحيح أن على المؤرخ أن يكتب عن الماضى كما كان، ولكن يبدو أن الكتابات عن الحضارة العربية وأثرها قد أوقفتنا عند حدود التأمل وحده أو لم تخرج بنا عن مجال الرؤية المحدودة ، وكأن فى هذا التاريخ المجيد شيئا من الشفاعة المطلوبة ، أو كأننا نذكره للاعتذار المناسب عن تأخرنا الحاضر ، والسؤال الكبير لايزال واضحاً ومعروضاً عن أسباب عدم الحركة النشيطة عند العرب والمسلمين منذ وقت طويل ، وهناك محاولات للفهم العميق أو غير العميق لهذه الأسباب كلها ، ولا تزال أمامنا أسئلة كثيرة معروضة وهى فى حاجة إلى أجوبة مقنعة ، ولكن ليس المهم الكلام والمناقشات وحدها وإنما معرفة الطريق السليم نحو التقدم السريع اللازم، وكموضوع دراسى أو كمسألة لها بعض الأهمية عند جماعات ناشئة يرجى منها الخير والعمل المفيد فى المستقبل نقول إن الإسلام كان عنصراً ممتازاً من عناصر التقدم فى حياة أسبانيا وسكانها جميعا ، وإن الفتح الإسلامى لم يكن مجرد حادث سياسى عارض فى تاريخ هذه البلاد الأوربية البعيدة وإنما كان حدثاً حضارياً استهلت به حقبة طويلة خلقت فى الحياة الأسبانية بشتى مظاهرها آثاراً عميقة لم تنقطع بزوال سلطان الإسلام السياسى من أسبانيا ، بل ظلت ماثلة هناك وكانت تتراءى دائما فى كيان المنطقة وكيان عناصرها المختلفة .

وصحيح أن الأندلس كانت راغبة فى الاستقلال السياسى عن الشرق منذ بدء تاريخها العربى والإسلامى وأنها نجحت فعلا فى تحقيق أول حركة انفصالية عن جسم دولة المسلمين فى الشرق ، ولم يكن غريباً أن تستقل بهذا المكان البعيد إدارة خاصة تشعر بشىء من الحرية أو بشىء من إمكانية التصرف المستقل بعيدا عن مجال الضغط والخضوع المباشر لسلطة الدولة المركزية بالشرق ، وربما لم يكن الخضوع لهذه الدولة شيئاً ممكناً لفترات طويلة من التاريخ بسبب

بعد للنطقة الأندلسية وبسبب الاضطراب السائد فيها وتغيير الرئاسة وضعف الادارة بها وبسبب تجمع كثير من العناصر القوية المعارضة للسلطة فيها أو الراغبة فى الانصراف إلى الطريق المستقل وحدها، ولقد قويت الرغبة فى الاستقلال بعد ظهور عبد الرحمن بن معاوية ١٣٨ هـ/ ٧٥٥م ، وكان هذا الحاكم شديد الحرص من جانبه على ألا يلتفت المسلمون فى الأندلس الى جهة الشرق الا للاتصال الثقافى وحده ، وكانت هناك فكرة شائعة بين المسلمين ومقبولة عندهم وهى أن عالم المسلمين لجميع المسلمين أو أن بلاد المسلمين يجب أن تكون مفتوحة دائما أمام كل الدارسين من جميع الأجناس والأديان وأن العلم والمعرفة ليس ملكا لمنطقة وحدها وليس احتكارا لطائفة أو جماعة، ولا يجب أن تقف فى سبيل التأثيرات الثقافية والتبادل العلمى عوائق البعد أو الخصومة أو اختلاف وجهات النظر أو تنازع النظم المتعارضة ، ولهذا لم تستطع أسبانيا أن تفلت من الخضوع للتأثيرات الشرقية القوية فى المجالات الحضارية المختلفة، وربما لم يكن ذلك شيئا ممكنا أو لم يكن ذلك شيئا داخلا فى رغبتها أو رغبة حكامها ، فكانت مع بعدها عن الشرق ومع خصومتها معه قطعة منه أو جزءا من كيانه قبل أن تكون قطعة من أوربا تخضع لبيئتها وظروفها وقدرها ، ولم يكن طبيعيا أن تكون قطعة من أوربا الا من وجهة النظر الجغرافية وحدها، بسبب اختلاف الثقافة والدين والمزاج والهوى وبسبب البعد الحضارى بين المنطقتين .

لقد كان المسلمون (١) فى أسبانيا شعبا متطورا يعمل لزيادة التقدم عن طريق متابعة من كانوا أسمى منه حضارة ومعرفة ، وحضارة العصور الوسطى كانت عند المسلمين وحدهم ، ولهذا تتحدث كتب التاريخ وغيرها عن علماء أو عن طلاب

(١) أنشأ الإسلام بالأندلس حركة حضارية فعالة خلقت دولة قوية تعتبر كيانا حيا فى جسم عالم المسلمين بما أحدثته من تراث ثقافى ممتاز .

أندلسيين سافروا العراق والشام ومصر والحجاز وفارس والهند وخراسان بحثا عن العلم والمتعلمين ، وكانت الرحلات في طلب العلم ولقاء الأساتذة الكبار عرفا حميدا سائدا في عالم المسلمين في كل عصورهم ، وكانت من أقوى الأسباب التي أعانت على خلق البيئة الثقافية الواسعة بين كل الناس ... ثم كان هناك أساتذة من الشرق ذهبوا للأندلس ينشرون العلم ويعرضون الجديد من بحوثهم بها ويبحثون عن الكسب في بلاد الإغراء المالي المثير ، وكانت حركة المنافسة عميقة ومغرية في كل مكان يحكم فيه المسلمون وتظهر فيه آثارهم ، فكان العباسيون في الشرق وكانت بغداد ، وفي الغرب كان الأمويون وكانت قرطبة ، وفي الشرق كان المنصور والرشيد والمأمون وفي الغرب كان الناصر والمستنصر ، وكل هؤلاء كانت لهم شهرة عريضة في الاهتمام بالعلم وبتطور الفكر والحياة . . . ومعنى هذا وجود اتصال مباشر بين بلاد الأندلس البعيدة وبين بلاد الشرق المتحضرة ، ومعنى هذا أيضا أن العرب في أوربا رفضوا الموت بعدم الانقطاع عن التلمذة على نوابغ الفكر العربي في كل بلاد المسلمين ، ورغم أن بلاد الأندلس كانت بعيدة عن قلب العالم الاسلامى إلا أن تراث هذا العالم كان يتدفق عليها من كل مكان وفي شتى العصور حتى تأصل فيها هذا التراث ووعته . . والكلام كثير عن مجالات التنافس الثقافي بين قرطبة وبغداد والقاهرة وعن رحلات العلماء المسلمين إلى كل مكان بالشرق والغرب وعن أثمان الكتب القيمة والبحث عنها ، وعن مدى الإغراءات المالية والأدبية المعروضة على المتعلمين هناك ، وعن الحياة الناعمة التي كانت مهيئة للمثقفين في بلاد المسلمين ، ولذلك تقدمت بهم الحياة وتقدموا هم بالحياة ، وظهر منهم علماء كثيرون ممتازون في جميع جوانب الفكر :

١ — ففي الأدب كان بالأندلس :

ابن عبد ربه ت ٣٢٩ هـ / ٩٤٠ م .

ابن هانىء ت ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م .

ابن شهيد ت ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م.

ابن زيدون ت ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م .

ابن عمار ت ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦ م .

ابن صمادح ت٤٨٤هـ / ١٠٩١ م .

ابن الأفطس ت ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م .

ابن عباد ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م .

ابن عبدون ت٥٢٠ هـ /١١٢٦ م .

ابن حمد يس ت ٥٢٧ هـ / ١١٣٢ م .

الفتح بن خاقان ت٥٢٩ هـ / ١١٣٤ م .

ابن خفاجة ت ٥٣٤ هـ / ١١٣٩ م .

ابن بسام ت ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م .

ابن قزمان ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م .

ابن الصابونى ت ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧م.

ابن سهل ت ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م .

ابن اب ت ٧٨٢هـ / ١٣٨٠ م.

ابن زمرك ت ٧٩٨ هـ / ١٣٩٥م.

٢ - وفى التاريخ :

عبد الملك بن حبيب ت ١٣٨ هـ / ٨٥٤ م.

محمد بن موسى الرزى ت ٢٧٣ هـ/٨٨٦م .

أحمد بن محمد الرزى ت ٣٢٤ هـ/٩٣٦م.

ابن القوطية ت ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م .

عريب بن سعد ت ٣٦٩ هـ / ٩٨٩ م.

ابن الفرضى ت ٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م.

ابن صاعد ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧٠ م .

ابن حيان ت ٤٦٩ هـ/١٠٧٦ م.

أبو عبد الله الحميدى ت ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م.

ابن خير ت ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م .

ابن بشكوال ت ٥٧٩ هـ/ ١١٨٣ م .

أحمد بن يحى الضبى ت ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م.

ابن الأبار ت ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م.

ابن سعيد المغربى ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م.

لسان الدين بن الخطيب ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م .

ابن خلدون ت ٨٠٩ هـ /١٤٠٦ م [١].

---

(١) ولد عبد الرحمن بن خلدون فى تونس من أسرة عربية أندلسية سنة ٧٣٢ هـ — ١٣٣٢ م / ٨٠٩ هـ — ١٤٠٦ م ، وفى سنة ٧٦٣ هـ / ١٣٦١ م كان فى خدمة سلطان غرناطة ، وكان له دور مهم فى سياسة شمالى إفريقية والأندلس ، ثم عاد لبلاد المغرب سنة ٧٨٠ هـ / ١٢٧٨ م ، وذهب إلى مصر سنة ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م ، وزار سوريا سنة ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م .

٣ - وفى الجغرافيا:

أبو عبيد البكرى ت٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م.

الإدريسى ت ٥٦٢ هـ /١١٦٦ م.

أبو حامد المازنى ت ٥٦٥ هـ / ١١٦٩م.

ابن جبير ت ٦١٤ هـ / ١٢١٧م.

ابن سعيد ت ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م.

٤ - وفى علوم الدين:

بقى بن مخلد ت ٢٧٢ هـ / ٨٨٦م.

أبو عمرو الدانى ت ٤٤٤ هـ / ١٠٥٣ م.

ابن عبد البر ت ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م.

أبو الوليد الباجى ت٤٧٣ هـ /١٠٨١م.

الشاطبى ت ٥٩٠ هـ / ١١٩٤م.

٥- وفى الطب:

أبو القاسم الزهراوى ت ٤٠٤ هـ / ١٠١٣م.

ابن وافد ت ٤٦٦ هـ / ١٠٧٤ م.

خلف بن عباس ت ٥١٦ هـ/ ١١٢٢ م.

ابن زهر ت ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م.

ابن البيطار ت ٦٤٦ هـ/ ١٢٤٨ م.

٦ ـ وفى الفلسفة :

ابن مسرة ت ٣١٨ هـ / ٩٢١ م ٠

ابن جبيرول ت ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م٠

ابن حزم ت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ٠

أبوالوليد سليمان بن خلف ت ٤٧٤ هـ ١٠٨١م٠

أبو بكر الطرطوشى ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م٠

ابن باجة ت ٥٢٣ هـ / ١١٢٩ م٠

ابن العريف ت ٥٣٥ هـ / ١١٤١ م٠

ابن طفيل ت ٥٧١ هـ / ١١٧٦ م ٠

ابن رشد ت ٥٩٤ هـ/ ١١٩٨ م٠

موسى بن ميمون ت ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م٠

ابن عربى ت ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م ٠

ابن سبعين ت ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م٠

٧ ـ وفى علوم اللغة :

أبو على القالى ت ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م ٠

الزبيدى ت ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م ٠

ابن سيده ت ٤٥٨ هـ/ ١٠٦٦ م٠

ابن خروف ت٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م٠

الشلوبين ت ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧ م ٠

ابن عصفور ت ٦٦٩ هـ / ١٢٧١م.

ابن مالك ت ٦٧٢ هـ / ١٢٧٤ م.

ابن الصائغ ت ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م

ابن إدريس القرافى ت ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧ م.

أبو حيان ت ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م

وغير هؤلاء كثيرون منهم الأدباء والشعراء والفلاسفة والفقهاء واللغويون والأطباء والكيماويون والمهندسون والمؤرخون وخبراء الزراعة والنبات والحيوان وغيرهم.

وانتشرت المعارف ببلاد الأندلس حتى قال المتحمسون بأن كل السكان بهذه البلاد كانوا يعرفون القراءة والكتابة(١) وانتشرت العلوم من بلاد الأندلس من أربع جامعات شهيرة فى قرطبة (٢) وإشبيلية ومالقة وغرناطة وكانت الأندلس منارة العلم وحدها فى أوربا كلها، وجاءتها وفود الطلبة من كل مكان لأن الحياة هناك لم تقم على الانفصال الجغرافى او العنصرى بين المسلمين وغيرهم،

---

(١) ربما كانت النسبة المئوية لمن يعرفون القراءة والكتابة فى بلاد الأندلس الإسلامية عالية إلى درجة لم تكن معروفة فى أوربا فى العصور الوسطى ولم تكن معروفة أيضا فى بلاد المسلمين فى غير الأندلس: فقيل إن كل سكان هذه البلاد كانوا يعرفون القراءة والكتابة.

(١) يقال إن قرطبة وحدها ـ وكانت عاصمة الدولة الإسلامية منذ انتقال المسلمين إليها بعد إشبيلية سنة ٩٧ هـ/٧١٦ م إلى سقوط دولة الأمويين سنة ٤٢٢ هـ/ ١٠٣٠ م ـ كان بها سبع عشرة مدرسة يتعلم فيها أبناء الفقراء مجانا.

وكانت هناك عناصر نشيطة من غير المسلمين نقلت حضارة العرب والمسلمين لبلاد الشمال أو للبلاد التى كانت غير خاضعة لسلطان المسلمين بالأندلس ومن هذه العناصر المستعربون المسيحيون الذين كانوا يهاجرون من الأندلس للأراضى المسيحية أو الذين بقوا فى أماكنهم بعد زوال سلطان العرب السياسى والعسكرى من أوربا ، ومنها المدجنون المسلمون الذين اضطروا للعيش تحت راية المسيحيين حتى سنة ١٠١٧ هـ / ١٦٠٩ م ، وجماعات أخرى شاركت فى حركة التفاعل الحضارى ويسرت الاتصال بين الحياة الإسلامية والحياة المسيحية ، وأعانت على بقاء حضارة المسلمين فى أسبانيا زمنا طويلا ، وقد تجلت مظاهر تأثير هذه الحضارة فى الحياة العامة والخاصة وفى التقاليد واللغة والآداب والفنون والصناعات والزراعة والتجارة والتربية والموسيقى وغيرها ، ولقد كتب (١) المؤلفون عن هذه المظاهر وأشاروا إلى الآثار العظيمة التى لا تزال باقية فى أرض أسبانيا وتقاليدها ولغتها وآدابها وفنونها إلى اليوم .

وإذا كان صحيحا أن حركة مطاردة العرب ودين العرب وثقافة العرب فى أسبانيا كانت قوية قبل سقوط غرناطة وبعد سقوطها سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م فقد كان صحيحا أيضا أن أثر العرب كان واضحا هناك وأن تأثيرهم ظل قويا لفترات طويلة بعد سقوط دولتهم وبعد ضياع نفوذهم ، وهذا ـ ولاشك ـ من أسرار عظمتهم وتفوقهم ؛ والكلام كثير عن أثر العرب فى أوربا بعد سقوط الأندلس العربية وبعد سقوط صقلية العربية حتى فى قصور الملوك والأباطرة ، بما يفيد بأن حركة المطاردة العنيفة المندفعة ضد المسلمين بقوة التعصب الدينى المسيحى كان فيها إحساس بتفوق العرب الحضارى وبقوتهم المعنوية ، وقد كان المطلوب اجتثاث الوجود

---

(١) انظر الكتب التالية : أ ـ الإسلام فى أسبانيا ب ـ الإسلام والحضارة العربية جـ ـ تاريخ الفكر الأندلسى .

العربى المادى وتحطيم السمعة العربية وأن يهتز الوجود العربى الدينى والسياسى كله ، وأما الوجود الحضارى فقد كان قويا ثابتاً يفوق طاقة المضطهدين للمسلمين وجهدهم ، وكان هناك من يدرك أهميته ، ومن يدعو إلى رعايته .

وليس هذا كلام تمليه أطياف ذكرى الفردوس المفقـــود ، بل هو حقائق تاريخية ثابتة فى مؤلفات المسلمين وغير المسلمين ، وربما كان غير المسلمين أكثر اندفاعا من المسلمين فى التعبيرات المثيرة عند الحديث عن حضارة العرب فى الأندلس ، وهؤلاء كانوا يدركون أهمية هذه الحضارة الممتـــازة ويحاولون الاستفادة منها ، وقد عملوا فى الوقت المناسب ومنذ القرن الحادى عشر م على أن يتدفق مجرى التيار الثقافى العربى على أوربا ، وظهرت عنـدهم حركة واضحة قصد بها تزويد أوربا بعلوم العرب عن طريق الترجمة ، حتى نقلت ذخائر التراث العربى إلى الغرب بواسطة مدارس الترجمة النظامية التى ازدهر فيها عدد كبير من المترجمين مثل جيرار (1) الكريمونى ت ١١٨٧ م وابراهام بن عزرا ت ١١٦٧ ويوحنا الأشبيلى ١١٥٣م وغيرهم ، وتم فى آخر القرن الثـالث عشر م نقل الكثير من العلوم العربية إلى خارج أسبانيا ، وهذا جعـل المنـاطق التى دخلت فيها هذه العلوم مراكز ثقافية مفيدة كان لها دور حضارى هام فى تاريخ أوربا وتطورها .

---

(١) يقال أن هذا المترجم وحده نقل واحدا وسبعين كتابا عربيا إلى اللغـة اللاتينية وغيرها .

الفصل السادس

ا ـ بين المغرب والأندلس

يكشف المؤرخون بوضوح عن العلاقات التى كانت تربط بين شمالى إفريقية وأسبانيا فى محاولة لتعليل ظاهرة الفتح العربى المباشر لشبه الجزيرة الأسبانية بعد الفراغ من فتح شمالى إفريقية، أو قبل الفراغ من هذا الفتح، وكأن من اللازم أن نوجد نوعاً من التبرير المقبول لأعمال المسلمين العسكرية فى أسبانيا بعد فتح بلاد المغرب غير ماهو معروف من أهداف الفتوحات الإسلامية الأساسية، أو كأن من الضرورى أن توجد الروابط القوية بين المنطقتين حتى يقوم التعليل المناسب الانتقال العرب السريع من إفريقية إلى أوربا، ولا شك فى أن محاولة التعريف بالروابط الأكيدة بين أسبانيا والمغرب إنما تكون أساساً لتوضيح الواقع المعروف، وليس من اللازم أن تكون هذه الروابط القوية من الأسباب المباشرة للتحريض على الحرب، أو للتشجيع على فتح أسبانيا بعد النجاح فى فتح بلاد المغرب، لأن أسبابا كثيرة كانت متوفرة أمام الفاتحين المسلمين للتقدم فى محاولتهم التالية بعد فتح إفريقية الشمالية، وصحيح أن من بعض هذه الأسباب ما كان من القرب والاتصال وتبادل التأثير بين المنطقتين، ويضاف إلى ذلك أسباب أخرى معروفة من تاريخ المسلمين ومن تاريخ فتوحاتهم الشهيرة .

والظاهرة المثيرة هنا هى أن المجاهدين المسلمين اندفعوا فى حماس صارم لفتح أسبانيا والعمل فى هذا الميدان الجديد قبل أن يحصلوا على النجاح الأخير فى البلاد الإفريقية، ولم يكن ذلك فقط لوجود الترابط القوى بين أسبانيا والمغرب، لأن الترابط كان أقوى بين بلاد المغرب ذاتها، وبعض هذه البلاد كان قد خضع للمسلمين وبعضها الآخر لم يكن حتى ذلك الوقت قد سار فى طريق السلام معهم ، وبدا أن المسلمين كانوا ينتهزون مناسبات الضعف الظاهر عند خصومهم فيسرعون

إلى استغلالها ليضمنوا لأنفسهم النجاح السريع الحاسم ، فعندما أدركوا أن الحرب فى أسبانيا كانت أكثر سهولة أو كانت أقل تضحية من الحرب فى إفريقية ، أو فى أجزاء أخرى من أرض إفريقية البعيدة — بعد أن ضمنوا تحقيق الأمل فى تحويل البلاد الإفريقية إلى الإسلام فى المستقبل — تركوا المسرح الإفريقى للزمن وحده ، ورغبوا عن تكرار العمل فيه بعد أن طال زمن الصراع هناك ، وانتقلوا لبيئة جديدة مخالفة للبيئة الإفريقية ، وكانوا قد تأكدوا بعد اختبارها أو بعد تجربة العمل فيها من النجاح فى الغارة عليها ، ثم كان مع العرب جماعات بربرية مسلمة تتحمس للحرب فى سبيل الدعوة الجديدة ، وكان يمكن إغراؤها بالعمل العسكرى فى البيئة الأسبانية بعيداً عن الدوران فى بيئتها الإفريقية وحدها ، وبعيداً عن أن يضطر البربر المسلمون إلى مواجهة أمثالهم من البربر غير المسلمين وكان الأوفق بعد تحطيم المعارضات القوية فى إفريقية أن تترك العصاة والمعارضين فيها فرصاً أخرى للتفكير ومراجعة النفس من جديد ، وأن يترك من كانوا يعيشون بعيداً عن مسرح الأحداث المباشرة للزمن ما دام خطرهم ليس قوياً أو مثيراً .

لقد تقدم المسلمون لفتح أسبانيا قبل أن يفرغوا نهائياً من العمل فى بلاد المغرب ، وكانت لا تزال أمامهم مناطق واسعة بإفريقية نفسها كانت فى حاجة أكيدة لجهود عسكرية نشيطة تلفت نظر سكانها إلى وجود عقيدة جديدة ووافدين جدد ، ولكن العرب تركوا الحرب فى إفريقية لمن يأتى بعدهم من المسلمين وتركوا المحاولات الأخيرة فيها للزمن ولغيرهم من القادمين مثلهم للعمل باسم الإسلام والمسلمين ، وأسرعوا للجهاد فى أسبانيا ، وأرادوا بذلك أن يشغلوا البربر الداخلين فى الإسلام حديثاً بالأعمال العسكرية المفيدة بعيداً عن التعقيدات

الموجودة ببلادهم ، أو أرادوا أن يشغلوهم عن التفكير إلا فى مستقبل الإسلام وحده .

وتقدم المسلمون لفتح أسبانيا سريعا بعد أن وضحت أمامهم ظواهر النجاح فى بلاد المغرب ، وكانوا قد ضمنوا انهيار المقاومة البربرية العنيفة ، وكسبوا جماعات كبيرة من البربر إلى صفوفهم ، وتركوا المترددين منهم أو الرافضين لدينهم ليهتدوا بجهود الأجيال القادمة على الطريق ، وإذا كان العرب لم ينجحوا تماما حتى ذلك الوقت فى تحويل البربر جميعا إلى الإسلام فإن ذلك لم يكن عملا ممكنا فى هذا الزمن المبكر من تاريخ دعوتهم فى هذه البلاد ، وقد نجحوا فى كسب جماعات كبيرة منهم إلى صفوفهم ، وأصبحت هذه الجماعات من أقوى المسلمين عقيدة ورغبة فى خدمة الدين الجديد .

وكانت هناك مناطق إفريقية أخرى واسعة فيها مجالات جديدة للجهاد فى فى سبيل العقيدة الدينية والتطور البشرى ، وبقيت جماعات إفريقية كبيرة تعيش فى بلاد البربر أو حولها وهى فى حاجة لمزيد من الجهود الدينية الموفقة من جديد ، لأنها كانت لا تزال ضالة أو تائهة ، وربما كان من اللازم أن يظل أمر هدايتها معلقاً حتى يأتى وقته المناسب ، وجاء هذا الوقت بعد أيام الفتح الإسلامية الأولى وكان العمل لخدمة الإسلام من أهم أهداف الدول التى نشأت فى هذه البلاد بعد أيام الفتح بزمن طويل ، ونعرف أن الرستميين الخوارج أسسوا لهم دولة بالمغرب الأوسط سنة ١٦٠ هـ / ٧٧٦ م ، وأن الأدارسة الشيعة أعلنوا دولتهم بالمغرب الأقصى ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م وأن الأغالبة السنيين منحهم العباسيون السلطة فى المغرب الأدنى سنة ١٨٤ هـ / ٨٠٠ م ، وكل هؤلاء المسلمين وجدوا أمامهم مجالات واسعة للعمل المفيد لصالح العقيدة الدينية فى الأرض الإفريقية ذاتها .

وبين جماعات من مواطنيهم - البربر وغير البربر - الذين كانوا مترددين فى دخول الإسلام أو الذين كانوا شبه معارضين لدعوته ، ومعنى هذا أن قضية إسلام البربر وإسلام جماعات كبيرة من سكان إفريقية الغربية والوسطى ظلت معلقة حتى وقت متأخر عن فتح بلاد الأندلس .

وقدم الأدارسة الشيعة أعظم الخدمات الدينية لسكان بلاد المغرب بعد الفتح الإسلامى لهذه البلاد ، وشاركهم فى ذلك الرستميون الخوارج ، وكانت النظم السياسية والدينية المختلفة فى بلاد المغرب تدعو للاسلام الواحد بوجهات نظرها المختلفة، فكان الشيعة يدعون للاسلام على رأى الشيعة ، وكان الخوارج يدعون له باسم الخوارج ، وكان الأغالبة يدعون له باسم أهل السنة ، ولكنهم جميعاً كانوا يخدمون قضية الإسلام فى جميع الأحوال .

واستمرت البلاد الإفريقية فى حاجة لقيادات إسلامية جديدة تؤدى دورها لخدمة الرسالة التى جاء الفاتحون العرب من أجلها ، حتى قام المسلمون البربر بقيادات بربرية خالصة أيام المرابطين والموحدين فى القرنين الخامس والسادس هـ - والحادى عشر والثانى عشر م بأعظم الجهود لخدمة الإسلام فى البلاد الإفريقية ، وجاهد هؤلاء المسلمون طويلا لنشر الإسلام فى غرب ووسط إفريقية ، حتى ليبدو أن الدعوة للإسلام فى هذه البلاد البعيدة ظلت شبه معطلة حتى جاء هؤلاء المسلمون الأتقياء المتحمسون ، فأدوا دورهم بحماس ورغبة ، ووجد المرابطون والموحدون أمامهم فرصاً طيبة لخدمة الإسلام والمسلمين فى إفريقية ، وكأن نشر الإسلام فى بلاد البربر البعيدة - وبين من كانوا يعيشون حولها - قام به البربر أنفسهم لأول مرة فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، ويعرف التاريخ الكثير

عن محاولات المرابطين والموحدين لخدمة الدين وانشغالهم بنشر الإسلام بين جماعات ترك العرب أمر هدايتهم للزمن والأجيال، وربما كانت بعض المناطق التى مارس فيها البربر المسلمون أعمالهم لصالح الدعوة الإسلامية معروفة للعرب الفاتحين قبلهم ، ولكن جهود العرب فيها لم تكن ناجحة أو موفقة ، وبعضها كانت مناطق جديدة لم يعرفها العرب أيام حروبهم الأولى لفتح الشمال الإفريقى .



لقد اندفعت حركة الفتح الإسلامى زمن الأمويين إلى غايتها الكبيرة دون أن تعطلها عقبات ، أو دون أن تقف عاجزة أمام الصعوبات ، وكان قرب أسبانيا من بلاد المغرب عاملا مشجعاً على استئناف الحرب والجهاد ، وإن لم يكن عاملا أساسياً لانتقال الحركة العسكرية العربية من إفريقية إلى أوروبا ، ومعنى هذا أن محاولة نشر الإسلام فى مواقع جديدة كانت عملا أساسياً عند المسلمين ، وأن حركة التقدم الحضارية العربية كانت تنتقل من مكان إلى آخر بغير حاجة إلى وجود ترابط قوى يجمع بين السكانين فى كل الأوقات ، ولقد كانت للمسلمين غاية صريحة تتمثل فى الوصول بعقيدتهم وحضارتهم إلى الأماكن المعروفة لهم فى الدنيا القديمة ، ومحاولة الفتح لتحقيق أهدافهم السياسية والاقتصادية والعسكرية ، وبهذا الفهم لم يكن القصد فقط ما يسمى عادة فى تاريخ المسلمين بتأمين حدود البلاد التى فتحوها ، لأن المسلمين فى عهد الأمويين كانوا قد أصبحوا قوة غالبة تستطيع أن تحمى نفسها وممتلكاتها فى أى مكان يظهر فيه الخطر ، أو تبدو منه مظاهر التهديد ، ولم يكن ضرورياً لهم أن يتقدموا لفتح لأسبانيا ليؤمنوا حدود بلاد المغرب ، لأنهم كانوا آمنين فى إفريقية بعد انتصارهم فيها ، وكان يمكن القول بأنهم كونوا لأنفسهم هناك حدوداً آمنة ، أوحدودا طبيعية توضحها مياه البحر فى الشمال والغرب .

ويشير تاريخ المسلمين عادة إلى أن فتح بعض البلاد الجديدة كان عملا ضروريا للاستقرار فى الأماكن المفتوحة قبلها ، وأن الرغبة فى تأمين البلاد المكتسبة كان يستدعي الدخول فى أعمال عسكرية أخرى تكون لها نتائجها وتطوراتها البعيدة ، وبعد الاندفاع فى الحرب بالمناطق الجديدة وبعد النصر فيها يحتاج الفاتحون إلى تأمين حدودها من جديد فيلجئون للفتح مرة أخرى ، ويدخلون فى سلسلة طويلة من المحاولات العسكرية التى كان تخضعهم لمفاجآتها، وتضعهم فى ظروفها المتغيرة.

وهكذا سارت حركات الفتح الإسلامية الأولى ، ولم يوقف تقدم العرب فيها الا ما كان من وصولهم إلى آخر المدى فى أعمالهم،أو إلا ما كان من انتصارهم على أعدائهم فى النهاية ،أو إلا ما كان من اختلافاتهم المعروفة وتورطهم فى حروب أهلية كانت تشغلهم وتضعف جهودهم وتلون سياستهم ، وإلا ما كان من نجاح أعدائهم فى مقاومتهم وتعطيل تقدمهم .

ولقد حدثت نفس الظاهرة فى مرحلة الفتح العربية أيام الأمويين ، فلم يتوقف المسلمون عن التقدم لأماكن أبعد من الأماكن التى وصلوا إليها إلا بعد أن انهزموا فى موقعة بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ/٧٣٢ م فقد عطلتهم الهزيمة غير المتوقعة فى هذه المعركة عن الوصول إلى بعض أهدافهم ، وربما كان منها الوصول إلى مسافات أبعد فى داخل أوربا نفسها .

وقد يمكن أن نهتدى إلى نوع من التعليلات المقبولة لحركة الفتوحات العربية الأولى زمن الخلفاء الراشدين غير مجرد الرغبة العارمة فى نشر العقيدة الإسلامية بين جميع الناس ، وإشاعة الحضارة العربية فى كل مكان تؤدى إليه

جهود العرب أيام قوتهم ، فقد كانت حركات الفتح الإسلامية فى هذا العهد تنتقل من مكان إلى مكان آخر بالضرورة ، أو بفعل الظروف وللملابسات الطارئة أو الملحة ، وكانت قوات المسلمين قليلة لا تقاس فى العدد والقوة المادية بقوة أعدائهم الفرس والروم أو غيرهم ، ولذلك كان الخلفاء حريصين على سلامتها ، ومشفقين على وجودها ، وكانوا يتمنون أن يكون بينهم وبين أعدائهم حواجز قوية توقف الخطر بين الجماعات المتعادية ، وتساعد على ألا يخلص أعداء العرب إليهم ، أو تساهم فى أن تقف كل جماعة فى مكانها ليفرغ المسلمون لأهدافهم الأساسية وهى نشر الدين وإشاعة حركة التطور العامة ، ولم تكن هذه الرغبة عن ضعف أو استكانة وإنما كانت من أجل الأمل فى السلام والاستقرار ، ولكن أعداء المسلمين فى هذا العهد الحاسم من تاريخهم لم يتركوهم يعيشون فى المناطق التى فتحوها فى أمن وراحة ، ولذلك اندفعت حركات الفتح الإسلامية حتى غايتها ، وفى نهاية هذه المرحلة الأولى توقفت الفتوحات أخيراً ليقوم التنظيم الشامل فى دولة المسلمين ، وليفرغ الشعب الإسلامى كله للعمل الحضارى المطلوب منه ، وظهرت حدود الدولة الإسلامية عند المناطق المصرية فى الغرب وعند حدود بلاد فارس الشرقية.

وفى موجة الفتوحات الإسلامية الثانية زمن الأمويين كان هؤلاء الحكام بدورهم حريصين على كسب القضية فى النهاية لصالح الإسلام والمسلمين فى كل مكان ولو كان ذلك بنوع من العنف والقسوة أو على حساب بعض تعاليم الدين الصريحة ، وبدا فى عهدهم أن الغرض السياسى من عمليات الفتح الإسلامية كان أشد وضوحاً من كل الأغراض الأخرى المعروفة عند المسلمين ، ونعنى بذلك أن الحكام المسلمين فى هذه الفترة العظيمة من تاريخهم كانوا مشغولين فى الدرجة الأولى بتثبيت مكانتهم فى نفوس الناس كسادة يجلسون على قمة المجتمع الأسلامى كله ، ولاشك

أن بعضهم كان من الأنقياء الأبرار الذين تهمهم أمور الدين قبل أمور الدولة والسيادة عليها، ولكن أكثرهم كان يهدف أساساً إلى خدمة قضية الأسرة بالوسائل المؤدية إلى الإعلان عنها أمام أعدائها .

لقد كان الأمويون يحكمون دولة واسعة الأرجاء تحتاج للمال من أجل بقائها وسلامتها ، فاهتموا بجمع الثروة وتورطوا فى ارتكاب أخطاء مالية لا تتفق مع قواعد الإسلام فى العدالة والمساواة بين الناس، وكانوا يعيشون بين رعاياهم وفى أيديهم وسائل التأديب اللازمة ، وأرادوا أن يعيشوا مع غير المسلمين فى بلادهم البعيدة بنفس المستوى من اليقظة المؤيدة بوسائل القوة وأدوات العمل الحاسم ، وكانت لهم قوات غالبة، وجيش لا يخافون عليه الهزيمة ، وإمبراطورية تستطيع الحرب فى كل مكان وتقدر على الانتصار فيها ، فدفعوا بجيوشهم الكبيرة إلى أقصى الشرق وإلى أقصى الغرب ، وجربوا الحرب فى الشمال وفى البحر ، وفى كل مكان كان يبدو لهم فيه الأمل فى النصر ، وتغيرت فى عهدهم بعض أهداف الحروب الإسلامية ، وظهر أن من أغراضها الأولى الأمل الكبير فى الربح والكسب المادى قبل الرغبة فى خدمة الدين لذاته ، أو نقول فى وضوح إن الحرب فى عهدهم كانت لخدمة شئون الاقتصاد والسياسة قبل أن تكون لخدمة الدين كعقيدة تهم كل المؤمنين بها ، ولذلك أسرعت جيوشهم إلى كل مكان ، وكانت تسرع قبل أن تثبت وجودها الأخير فى الأماكن المكتسبة ، فكان موسى بن نصير فى الغرب قائداً عربياً نشيطاً يريد أن يثبت للخلفاء أصحاب الرأى والسيادة بالدولة الأموية أنه يستطيع أن يكسب لدولتهم مناطق جديدة كانت السيطرة عليها حلماً بعيداً يراودهم أو حلماً مثيراً يعرض لهم، وأنه يستطيع أن يمدهم بأعداد كبيرة من الأسرى الأجانب ، وأن يأتى لهم بالثروات والغنائم الهائلة ،

وهذا يعنى أن هذا القائد الشجاع لم يكن ليقف طويلا لدراسة العلاقات القائمة بين بلاد المغرب وأسبانيا قبل أن ينقل الحرب إلى هذا البلد الأخير - إلا إذا كانت هذه الدراسة تخدم أغراضه العسكرية ورغبته فى التفوق والنصر السريع - ولا شك أن جيوش القوط لم تكن تزعج هذا القائد المنتصر فى بلاد المغرب وكانت تتراءى له جيوشا ضعيفة يمكن الانتصار عليها بأقل التضحيات ، وقد اختبرها ، وتأكد من ضعف استعدادها ، وعدم كفاءتها ، ووجد فيها الفرصة المناسبة للنصر الحاسم قبل أن يتورط فى حروب بلانهاية فيما بقى أمامه من البلاد الأفريقية المنتشرة فى الصحراء الواسعة .

ولا نشك فى أن انتصار العرب بالمغرب لم يكن عملا مقبولا لحكام أسبانيا القوط ، ولم يكن هذا الانتصار يرضيهم فى أى من صوره ، ولكن العرب استمروا يحاربون فى شمالى إفريقية زمناً طويلا قد يكون سبعين أو خمسين عاما، ومع ذلك لم يذكر التاريخ أن هؤلاء القوط تقدموا لنجدة جيش بيزنطة المنهار أمام جيش العرب بالمغرب ، أو لنجدة البربر الذين قاوموا العرب وشغلوهم بالحرب فترة طويلة من حياتهم ، ولم يطلب هؤلاء أو غيرهم من القوط نجدات ضد العرب المهاجمين رغم قرب بلادهم وارتباطها بإفريقية ببعض الروابط المعروفة، وهذا يعنى أن القوط وقفوا بعيداً عن المتحاربين فى شمالى إفريقية ، وكأن حاجزا كبيراً كان يصرفهم عن الاهتمام بشئون الشمال الإفريقى كله .

والمعروف أن المسلمين بدأوا الهجوم على أسبانيا بعد أن تأكدوا سلامة العمل بها ، وبعد أن أملوا فى النجاح العسكرى ضد جيش القوط الحاكمين فيها ، ولقد فاجأ طارق بن زياد الأرض الأسبانية بجيشه ، وكان ملك القوط فى

ذلك الوقت مشغولا مع قواته فى حروب أهلية أو فى محاولة إخماد ثورة أشعل نيرانها ضده أعداؤه الخارجون عليه فى شمالى بلاده .

وسار بعد ذلك تاريخ الفتح العربى لأسبانيا كما يعرف من قصة الفتح الشهيرة، ونزل المسلمون فى الأرض الأسبانية، وواجه القوط أعداءهم وحدهم ، وخانتهم جماعات كبيرة من جيشهم كانت تتعاطف مع المسلمين وتؤيد قضيتهم .

وكان أبناء الملك الذى سلب الثوار عرشه قد لجأوا للعرب فى إفريقية ، وربما دل هذا اللجوء على نوع من الإحساس بالتفاعل القوى بين أسبانيا والمغرب ، وكان المستنصرون بالعرب فى إفريقية على يقين من أن المستقبل فى المنطقة كلها كان للمسلمين وحدهم فأرادوا أن يكسبوا على حسابهم أو بتأييدهم والعمل معهم ما يمكن كسبه فى أيام الفتن ، أو ربما كان هذا هو الطريق الوحيد الذى يستطيعون به أن ينتقموا من أعدائهم وغاصبى ملكهم ، ونقصد بذلك أن نقول إن اللجوء للمسلمين فى إفريقية لم يكن فقط لمجرد الإحساس بوحدة المنطقة وتفاعلها وإنما كان فوق ذلك السبيل السريع الممكن الذى يستطيع به هؤلاء الأمراء المظلومون أن يأخذوا بعض حقوقهم من ظالميهم .

ومهما يكن من شىء فيبدو أن الوقوف طويلا لإظهار العلاقات القوية وغير القوية التى كانت تربط بين بلاد المغرب وأسبانيا أيام الفتح الإسلامى يعد الآن عملا ثانويا إذا قلنا إن حركة الفتح العربى كانت حركة حضارية تسعى لتطوير العالم حولها ، وكانت ترى أن تعمل باسم الاسلام والمسلمين فى كل مكان، وإذا قلنا إن اندفاع المسلمين للحرب فى أسبانيا لم يكن لمجرد قيام الترابط المعروف بين المنطقتين المذكورتين ولا شك أن نوعاً من الترابط الجغرافى والتاريخى

والحضارى كان موجوداً بين بلاد المغرب والأندلس ، ولكن ذلك لم يكن يعنى استحالة قيام نظامين مختلفين بالجنوب والشمال ، ولا يعنى أن التأثير بين المنطقتين كان مباشرا إلى درجة التلاحم القوى بينهما ، ولقد كان يمكن أن يقوم نظامان مختلفان فى المكانين المنفصلين بالبحر كما كانا قائمين قبل دخول العرب ، وكما كانا قائمين فى عهد المسلمين أنفسهم بعد استقلال بلاد الأندلس وانفصالها بشئونها عن بلاد المغرب ، ولقد سقطت دولة المسلمين بالأندلس منذ زمن بعيد وسوف يستمر حكم المسلمين بالمغرب إلى آخر الأجيال .

وليس صحيحا أن يقال إن المسلمين كانوا يطاردون فى أسبانيا جيشا جربوا الحرب معه فى مسكان آخر ، أو أساء إليهم فى مناطق أخرى ، ومن المعروف أن هذا الكلام يتردد دائما فى تاريخ للسلمين عند الحديث عن فتح الشام بعد أن حارب المسلمون جيش الروم وانهزموا أمامه — فى حياة الرسول عليه السلام فى غزة مؤتة سنة ٨ هـ / ٦٢٩ م — ويتردد عند الحديث عن فتح مصر بعد فتح الشام لأن البيزنطيين الروم كانوا يزعجون الوجود العربى فى الشام من أرض مصر وغيرها ، وكانوا يغيرون على السواحل الشامية بالأساطيل الآتية من مصر أو من القسطنطينية ، ويتردد عند الحديث عن فتح بلاد المغرب بعد فتح مصر ، وكان البيزنطيون يحكمون شمالى إفريقية ويحاربون العرب هناك ، وكانوا كذلك يشاركون فى حرب العرب ويمدون أعداءهم البربر بوسائل القتال المطلوبة عن طريق البحر أو غيره ، وكانوا أيضا يلحون بالدعايات الكاذبة ضد العرب فى كل مكان ، وظهرت الصورة بوضوح وكأن جيش العرب كان يطارد جيش الروم منذ اشتبك معه فى معارك الشام الأولى ، ثم انتهى الصراع بين القوتين بهزيمة جيش الروم فى غير بلاده أو فى البلاد

التى كان يحتلها خارج حدود المناطق البيزنطية ، وبقيت الروم بعد ذلك المناطق الأوربية وحدها .

وفى أسبانيا قابل المسلمون جيشا جديدا لم يجربوا الحرب معه قبل معركة وادى لكة الشهيرة فى ٢٨ رمضان سنة ٩٢ هـ / ١٩ يوليو سنة ٧١١ م وكان يقودهم فيها طارق بن زياد ومعه جيشه البربرى المكون من جماعات قليلة من الفدائيين الشجعان ، ولم يكن جيش القوط يرتبط بشىء مع جيش الامبراطورية البيزنطية المنهزم فى شمالى إفريقية وغيرها لأن العلاقات بين الدولتين المذكورتين كانت غير صريحة أو غير واضحة ، ولم تكن تسمح بأن يتحالف الجيشان ضد المسلمين أو غير المسلمين أو أن يجتمعا معا للحرب فى أرض أسبانيا ،أو فى أى مكان آخر .

وكان القوط حكام أسبانيا جماعات جرمانية أغارت على أملاك الدولة الرومانية الغربية ، وساهمت مع غيرها فى تحطيمها وسقوطها سنة ٤٧٦ م ، وكان البيزنطيون يمثلون وجها آخر للدولة الرومانية الساقطة ، وحاولوا فى حماس أن تكون دولتهم بشرق أوربا هى الدولة الوريثة للدولة الرومانية الشهيرة ونجحت محاولاتهم لإقامة دولتهم فى شرق أوربا ، كما نجح القوط فى تأسيس دولتهم بأسبانيا سنة ٤١٢ م .

ولهذا يبدو أن حركة الدفع الحضارى العربى كانت تسير فى طريقها لتحقيق غايتها من إشاعة نفوذها النهائى على أكبر مساحات ممكنة من الأرض المعروفة للفاتحين ، سواء أكانت القوات التى اشتبك معها العرب من أسباب

متاعبهم وإزعاجهم أم كان مأمولا أن تأتى منها المتاعب والإزعاج فى المستقبل، وسواء أ كانت هذه الفوات ترتبط بخصومهم التقليديين برباط قوى أو ضعيف[1] فإن الحرب معها كانت آتية لا شك فيها ، أو لا أمل فى تفاديها .

* * *

ليس هناك إذا حاجة للقول بوجود أسباب خاصة دفعت المسلمين لعبور البحر الأبيض المتوسط للحرب فى أوربا ، لأن أسباب فتح أسبانيا كانت فى جملتها نفس الأسباب الكبرى التى دفعت العرب أولا للخروج من بلادهم بعد ظهور الإسلام فيهم ، وليس هناك معنى للقول بأن أسبانيا وشمالى إفريقية كانتا منطقتين تتأثران دائما بالأحداث السائدة فيهما ، وأن كلا منهما كانت تؤثر فى الأخرى وتتأثر بها إذا أريد أن ذلك كان السبب الأول أو المباشر فى انتقال العرب من المغرب إلى أسبانيا ، وليس هناك بالمثل معنى للقول بأن المنطقة الأسبانية كانت جزءا متمما للمنطقة الإفريقية ، وبأن أسبانيا كانت أقرب لإفريقية منها لأوربا أو أن حدود أوربا الطبيعية كانت تظهر فى الجبال الحاجزة بين أسبانيا وبين بقية البلاد الأوربية، ولا شك مع ذلك فى أن المنطقتين كانتا متقاربتين - وهما متقاربتان الآن وسوف تظلان كذلك - وكانت الأحوال السائدة بهما تؤثر فيهما معا، أو كانتا تنفعلان بأحداثهما كلها، ولكن كل هذه الروابط القوية لم تكن ضرورية دائما ليتقدم المسلمون لفتح أسبانيا

---

(١) لا يعنى ذلك أن المسلمين اعتبروا كل العالم عدوا لهم ، وإنما يعنى أنهم كانوا يرون أن الدنيا كلها كانت فى حاجة لدينهم ورسالتهم وحضارتهم ، فتقدمهم فى النشاط العسكرى لم يكن للانتقام وحب الحروب لذاتها ، وإنما كان لعرض الأحسن على غيرهم من الناس .

بعد فتح المغرب ، لأن هؤلاء من جانبهم كانوا يندفعون بالحماس والرغبة للعمل العسكرى حتى نهايته ، وكانوا جماعات متطورة تبنى حضارتها على الدين الذى أثارها وكانت ترى وجوب إشاعته فى كل مكان يمكن أن يساعدها جهدها على الوصول إليه .

ولم يقف المسلمون بعد فتح أسبانيا عند حدود أسبانيا وحدها بل تقدموا بعد الجبال الشمالية التي تكون الحواجز الطبيعية بينها وبين غيرها من البلاد الأوربية ، وحاربوا هناك فى فرنسا بعيداً عن حدود أسبانيا الطبيعية والسياسية ، ولو كانت كلمة « لو » ترد فى أساليب البحث التاريخى لقلنا : لو جاءت الفرصة المطلوبة لموسى بن نصير قائد المسلمين فى فتح أسبانيا ، ولو لم يرجع سريعاً إلى الشام قبل إتمام الفتح والاستقرار فى البلاد الجديدة لحاول جاداً فتح أوربا كلها، لأنه لم يكن يفهم ـ كما نظن ـ أنه جاء ليفتتح جزءاً من الأرض كان مكملا لوحدة جغرافية أولها فى إفريقية وآخرها فى أسبانيا .

ولقد ذكرنا أن العرب كانوا يطاردون بالمغرب جيشا بيزنطيا أجنبيا حاربوه فى معارك طويلة ، وطال زمن الخصومة بينهم وبينه لأن صراعهم معه ابتدأ منذ أيام الرسول عليه السلام فى السنة الثامنة من الهجرة / ٦٢٩ م ، واستمر حتى أيام نصرهم عليه فى شمالى إفريقية ، ولكنهم بعد أن فرغوا من الحرب فى المغرب ـ أو بعد أن بدا لهم أن المستقبل فى المغرب كان لصالحهم ـ لم يكن هناك مايهدد وجودهم من خطر جيش قوطى أو بيزنطى ، فكان يمكن أن تنتهى عمليات الفتح الإسلامية عند سواحل إفريقية الشمالية الغربية ، ولم يكن تأمين الحدود واردا أبداً فى هذه المنطقة الإسلامية الجديدة ، إذ لم يتعرض العرب للخطر وهم بشمالى إفريقية بسبب تهديدات القوط أو بتحريضهم ، وإذا كان خطرهم

محتملا فإن المسلمين كانوا يملكون القوة اللازمة للدفاع عن أنفسهم ، وكان أمامهم الزمن الكافى للرد على هذا الخطر قبل وقوعه .

لقد كان الشعب البربرى يخضع لدولة بعيدة فى الشرق البعيد ، وكان خضوعه لهذه الدولة خضوعاً شكلياً لم يؤثر تأثيراً مباشراً على حياته ، حتى ترك أخيراً لمصيره ، وترك ليعمل وحده أمام العرب بعد انهزام البيزنطيين فى بلاده ، ولم يكن البربر يخضعون للقوط حتى يمكن القول بأن هؤلاء كانوا سيحاولون الهجوم على العرب فى إفريقية ليستردوا بعض ما فقدوه فيها .

ويقال فى التاريخ إن المسلمين حاولوا الضغط على يوليان الرومى حاكم سبتة الإفريقية ليستولوا على مقاطعته بالقوة ، ولكن طارق بن زياد حاكم طنجة القريبة من سبتة لم ينجح فى التغلب عليه وفضل أن يداريه ، وكان يوليان يقاوم وحده ضغط المسلمين عليه ، ولم يستنجد بالجيش البيزنطى الذى كان قد انهزم أمام العرب منذ وقت طويل حتى ضاع أثره وخطره ، ولم يستنجد بالجيش القوطى مع أنه كان قريباً منهم أو كان حليفاً لهم ، وقد كان يرتبط بهم بعلاقات طيبة قبل أن يقتل حليفه الملك غيطشة سنة ٧٠٨ م ، وقبل أن تسوء علاقاته بالحاكم الجديد ، ولقد كانت تهديدات العرب له قبل هذا التاريخ ، ثم بعد ذلك ارتبط مع العرب بنوع من التفاهم - بعد أن تغيرت رئاسة القوط فى بلادهم - وفضل أن يحرضهم على الحرب فى أسبانيا وساهم من أجلهم فى العمل لصالح قضيتهم ، وقدم لهم سفنه لينقلوا عليها جيوشهم إلى أسبانيا القريبة من بلاده ، وقام بأعمال الجاسوسية لحسابهم ، واستدعى لهم أبناء الملك القتيل ليتحالفوا معهم على الحرب ضد الحكام فى بلادهم ، ولم يحاول أبداً أن يوقف تقدم العرب فى إفريقية بالتفاهم مع حكام أسبانيا ، وكان العرب يعملون فى إفريقية منذ سنوات طويلة قبل حركة الانقلاب القوطية

التى غيرت رأيه فى الحكام الجدد ، وكأن إفريقية كانت تتحالف فى هذه الحرب ضد أسبانيا وحكامها ، أو أن بوليان البيزنطى كان يشعر بنوع من المصالح المشتركة بينه وبين المسلمين فرأى أن يعمل ضد حكام أسبانيا فى الشمال .

* * *

ولكن هل كان إسراع المسلمين لفتح جزء من أوربا يعنى أنها كانت تشغل تفكيرهم دائمًا ؟ وأنهم بعد أن عجزوا عن فتحها من الشرق عن طريق القسطنطينية أسرعوا إليها من الغرب وتركوا وراءهم أعمالا أخرى مهمة فى إفريقية التى عرفوها وعاشوا فيها قبل ذلك أعواماً طويلة ، وكان يمكن أن تكون من أولى أعمالهم قبل فتح أسبانيا ؟ أوهل كان فتح جزء من أوربا مجرد نتيجة لحماس سريع عرض للفاتحين العرب عند ماقربوا من حدودها الغربية ، ولاشك أنهم كانوا يعرفون أن فتح أسبانيا سيكون عملا عظيما يضاف إلى قائمة أعمالهم المجيدة عبر التاريخ ؟

لقد تحمس المسلمون للحرب فى أسبانيا ، فاندفعوا لفتحها بجرأة وشجاعة بعد أن عرض عليهم أمر هذا الفتح، أو ربما فكروا فى الحرب فيها قبل أن يعرض عليهم بعض أهلها أن يساهموا معهم فى فتحها ، وبعد أن اختبروها بالغارات السريعة هاجموها وانتصروا فيها ، وبعد النصر رغب قائدهم موسى بن نصير فى فتح أوربا كلها حتى قبل أن يستقر فى المكان الذى كسبه بالجهد والتضحية ، ولو لا اضطراب السياسة فى مركز الخلافة البعيد بالشام ، ولو لا استدعاؤه لعاصمة الدولة الإسلامية قبل أن يتم عمليات الفتح فى أسبانيا ذاتها لاستطاع أن يكتب للمنطقة تاريخاً آخر غير هذا التاريخ الذى نحاول التعريف به .

ثم نجح من جاءوا بعد موسى بن نصير فى إتمام عمليات الفتح شبه الشاملة لكل البلاد الأسبانية كما عرفوها ، أو كما أوصلتهم إلى ذلك اجتهاداتهم وحماسهم ، وبعد هذا النجاح استقروا فى أسبانيا سنوات قليلة لم تبلغ عشرين عاما نظموا فيها شئونهم الداخلية ، ثم استأنفوا بعدها العمل العسكرى من جديد ، وكان العمل العسكرى من أهم الأعمال المرغوب فيها عند أكثر الحكام المسلمين فى هذه الفترة ، ولم يكن الحكام وحدهم يتحمسون لاظهار بطولاتهم وإخلاصهم لقضية دولتهم ، وإنما كان شعبهم معهم فى نفس الدرجة من الحماس والرغبة فى التضحية ، وقد بدا هذا الشعب أحيانا وكأنه كان لايرجو من حاكمه إلا أن يكون قائداً عسكريا يدفع عن بلاد الاسلام كل الأخطار المتوقعة أو يساهم فى فى زيادة رقعة هذه البلاد إذا أمكنته القوة .

ويقول التاريخ إن المسلمين بعد أن نجحوا فى فتح الأندلس لم يتقدموا فقط للغارة على أوربا من الغرب فى أيام السمح بن مالك سنة ١٠٢ هـ / ٧٢١ م ، وعنبسة ابن سحيم سنة ١١٢ هـ / ٧٣١ م ، وعبد الرحمن الغافقى سنة ١١٤ هـ / ٧٣٢ م ، وإنما جاءت منهم قبل ذلك محاولة قوية لفتحها من الشرق أيام الخليفة سليمان بن عبد الملك فى الفترة من ٢ محرم سنة ٩٩ هـ / ١٥ أغسطس سنة ٧١٧ م إلى ١٢ محرم سنة ١٠٠ هـ / ١٥ أغسطس سنة ٧١٨ م ، وقاد جيش الخليفة أخوه مسلمة بن عبد الملك ليفتح أوربا من الشرق ، وإن كان قد فشل فى هذه المحاولة رغم اهتمامه وحماسه وإصراره على النجاح فيها ، كما فشلت محاولة الأندلسيين فى الغارة على جنوبى فرنسا بقيادة عبد الرحمن الغافقى بعد ذلك ، وصحيح أن محاولة عبد الرحمن الغافقى كانت غارة تقليدية خرج إليها المسلمون بقوات ضخمة لم تكن معهودة فى نشاطهم العسكرى بهذه البلاد ، وجاءت ضخامة قوات المسلمين فى جيشه من كثرة أعدادهم أو من

كثرة الراغبين منهم فى الكسب المادى وحده ، ولم تأت نتيجة لتنظيم مقصود من جانب الدولة أو من جانب القائمين بشئونها فى بلاد الأندلس، ومعنى هذا أن القائد المسلم الشجاع كان يقصد الغارة وحدها ، ولم يكن يقصد الفتح وضم مساحات جديدة لبلاد المسلمين فى أوربا ، ويبدو من تاريخ عبد الرحمن الغافقى أنه كان قائدا مؤمنا يرغب فى أن يعيش حياة المجاهدين الشجعان، وكان الجهاد يعنى إضعاف قوات الأعداء، والتنبيه على وجود قوات إسلامية متفوقة بالمنطقة الاسلامية أو الإعلان عن اليقظة العسكرية ، ولقد زادت أعداد الجيش بالحماس بعد النجاح فى العمل فى ميادين القتال الأخرى ، ونظن أن جيش عبد الرحمن الغافقى يمكن أن يقال عن أفراده إنهم كانوا يسيرون فى مظاهرة عسكرية غير جادة وكان يشغلهم المال أولا وهم فى طريقهم للحرب ، وبعد أن كسبوا من البلاد التى مروا بها جاها وثروة ألهتهم هذه الأعراض عن أعمال البطولة المعهودة عن المسلمين فى حروبهم كلها ، فانهزموا أمام أعداء لم يكونوا أشد منهم قوة ولا أصدق منهم عقيدة ، ولكننا نفهم مع ذلك أن النصر لو كان حليف المسلمين فى هذه الغارة الفاشلة لتغير مجرى التاريخ كله.

* * * *

لم تكن الأسباب الرئيسية إذا لفتح المسلمين لأسبانيا وجودها قريبا من بلاد المغرب التى انتصر المسلمون فيها ، أو ظهورها مع بلاد المغرب كمنطقة واحدة ذات كيان متميز ، أو تفاعل المنطقتين معا وتأثرهما بالأحداث السائدة فيهما ولا شك أن هذه كلها كانت من العوامل التى ساعدت على النصر والنجاح أو كانت من العوامل المشجعة على الإقدام والتضحية ، ولقد عرف العرب وهم ببلاد المغرب أحوال أسبانيا وظروفها ، ووجدوا من بعض أهلها أنصارا أقوياء يعملون معهم .

ولم يكن السبب لحرب المسلمين فى أسـبانيا ضعفها وانهيارها — وقد كانت ولا شك ضعيفة ومنهارة ، وقد ساعد ضعفها وانهيارها على النصر فيها — ولكن المسلمين لم يتسلطوا طول تاريخهم على الضعفاء أو غيرهم ، ولم يقصروا حروبهم على الشعوب العاجزة وحدها ، وقد حاربوا الفرس وانتصروا عليهم ، وكانوا أشـد منهـم قوة وأعظم تاريخا وحضارة ، وحاربوا البيزنطيين الأقوياء فى مقاطعاتهم الشرقـية وانتصروا عليهم فيها ، وحاربوهم فى عاصمتهم القسطنطينية نفسها وحاولوا إسقاطها رغم حصانتها وحصونها ، وبقصد بذلك أن نقول فى وضوح إن الأسباب الأخرى المعروفة لحركات الفتح الاسلامية كانت ذات الأهمية الأساسية فى فتح العرب لأسبانيا ، وإن الأسباب الرئيسية المتفق عليها بين المسلمين لأعمالهم العسكرية أيام فتوحاتهم الكبرى ترجع أساسا إلى فلسفة الفتوحات الإسلامية منذ ظهرت هذه الفتوحات فى التاريخ العربى .

ومع ذلك يبدو الحديث مفيدا لو أشرنا — بدون إغراق فى التفاصيل — إلى الروابط التى كانت قائمة بين بلاد المغرب والأندلس قبل ظهور المسلمين وبعد انتصارهم هناك ، لنوضح بذلك بعض جوانب التاريخ المغربى والأندلسى قبل الفتح العربى وبعده :

ويشير التاريخ المعروف لهذه البلاد إلى أن ترابطا قويا كان واضحا ومعروفا بين المنطقتين اللتين يدور الحديث حولها ، وإلى أن صلات حضارية كانت قائمة بين شمالى إفريقية وجنوبى أوربا طول التاريخ ، وكان التأثير واضحا وقويا فى الجانبين معا : فقد أسس الفينيقيون فى القرن العاشر ق م مستعمرات على سواحل أسبانيا وكان لهم وجود ظاهر فى شمالى إفريقية أيضا ، وذاع كذلك نفوذ اليونان بالمنطقتين فى القرن الخامس ق م وكانت لهم هناك مراكز استعمارية تحمل معالم حضارتهم

الراقية المعروفة، وخضعت شبه الجزيرة الأسبانية للقرطاجنيين فترة من الزمن بعد القرن الخامس ق م وازدهرت مدنيتهم وحضارتهم في شمالي إفريقية وأسبانيا معاً ، وظلت المنطقتان المشار إليهما تتلقيان منذ القرن الرابع حتى القرن الأول ق م تأثيرات هامة قادمة من أوربا الخاضعة لحضارة اليونان المتطورة وقادمة من إفريقية الشمالية المتأثرة بحضارة قرطاجنة ثم تحول هذا التأثير المزدوج إلى تأثير رومانى عقب الغزو الرومانى للبلاد سنة ٢٠٥ ق م . وبهذا الغزو أصبحت أسبانيا إقليما رومانياً سادت فيه الحضارة الرومانية، وأعطته صبغتها الخاصة، وكان الشمال الإفريقى مثلها جزءا من الإمبراطورية الرومانية أو ولاية تابعة لهذه الإمبراطورية الشهيرة، واستمرت المنطقتان كذلك حتى أوائل القرن الخامس الميلادى ثم تعرضتا كما تعرضت أجزاء أخرى من ولايات هذه الإمبراطورية لإغارة القبائل القادمة من الشمال عليها، وكانت القبائل الجرمانية غير المتحضرة أهم القوى المؤثرة فى الأحداث بهذه المناطق كلها .

ثم ضعفت الدولة الرومانية الغربية واجتاحتها قبائل الجرمان فى موجات متتابعة حتى استقر القوط الغربيون بشبه الجزيرة الأسبانية فى أوائل القرن الخامس الميلادى ، وظهرت للقوط هناك رئاسة بعد سنة ٣٩٥ م، وظلت البلاد تعانى بعد هذا التاريخ من تدفق الغزاة الأوربيين عليها ، وكان منهم الألان والسويف والوندال وغيرهم، وتقسمت البلاد بين القوى الغالبة فيها ،واشتد الصراع هناك بين القوط والوندال لأنهم كانوا أعظم العناصر وأقواها ، وتغلب القوط فى جولات الحروب الأخيرة وانتصروا على منافسيهم وأعلنوا وجودهم الصريح بالبلاد الأسبانية كلها سنة ٤١٢ م ، فاضطر الوندال لعبور البحر الأبيض المتوسط إلى الشمال الإفريقى سنة ٤٢٩ م ، وعاشوا هناك زمنا طردهم بعده الروم البيزنطيون سنة ٥٣٤ م .

وأصبح من المعالم الشهيرة لتاريخ المنطقة التى نحاول التعريف ببعض أحداثها أن

قبائل الوندال الجرمانية المتجولة غزتها من أسبانيا وعاشت فيها ثم تركتها للدولة البيزنطية التي ظل الشمال الإفريقي كله تابعاً لها حتى انتصر جيش المسلمين هناك فى حوادث الفتح الإسلامية المعروفة ، وهذا يشير إلى أن شمالى إفريقية كان يتعرض لضغوط القوة الآتية من وراء البحر كما كانت أسبانيا بدورها تتعرض لنفس الضغوط فى فترات طويلة من تاريخها .

وإذا كان القوط قد حكموا أسبانيا ، وأقاموا بها دولة ظلت قائمة بها حتى سقطت أمام المسلمين سنة ٩٦هـ/ ٧١٤م ، وإذا استمر الشمال الإفريقى بعيداً عن الخضوع للتأثير السياسى القوطى ، وإذا ظل تابعاً للدولة البيزنطية البعيدة لفترات طويلة من تاريخه فإن ذلك كله لا يعنى عدم تأثره بالمنطقة الأسبانية القريبة منه أو عدم تأثيره فيها ، والمعروف أن حاكم سبتة البيزنطى — رغم تبعيته لبيزنطة — كانت له علاقات قوية بحكام أسبانيا ، وكان علاقته بهم من القوة حتى كأن مصيره كان مرتبطاً بمصيرهم للنهاية وكان له دور كبير فى سياستهم أو كان يمثل عضوا سياسياً نشيطاً فى بعض أحزابهم ، وعندما سقط الحزب الذى كان يؤيده ، وعندما قتل الملك الذى كان يؤيد هذا الحزب أو الملك الذى كان مؤيداً من هذا الحزب حاول حاكم سبتة البيزنطي أن يؤدى دور السياسى الآسف لتطور الأحداث وتفاقمها وأراد أن يرد على عنف المعتدين على الملك بعنف مثله ، وصحيح أنه فشل فى عمل شىء يعطل نجاح المنتصرين فى أسبانيا ولكنه رجع إلى بلاده الأفريقية ليبحث من جديد عن وسائل أخرى للانتقام الحاسم من خصومه ، ولا شك أنه كان يشير بتصرفاته السريعة وباهتمامه البالغ بأحداث أسبانيا إلى ارتباطه بهذه الأحداث ، وإلى أنه كان مشدوداً إليها بقوة حتى ظنه بعض المؤرخين حاكما قوطيا أو حاكما بربريا يعمل باسم القوط الجرمان فى إفريقية الشمالية ، وتثار حول هذا الحاكم

الرومى بعض التساؤلات عن أثره فى تاريخ المنطقتين الإفريقية والأسبانية كليهما ويقال إنه كان يلعب دوراً ذا أهمية فى الحياة السياسية بالشمال الإفريقى ، وكان دوره هذا متأثراً بسياسة القوط فى أسبانيا القريبة منه لأنه كان يرتبط بهم بنوع من الصلات السياسية والاجتماعية ، ولما اختلف القوط وثارت بينهم الخصومات والفتن ولما قتل الملك غيطشة واغتصب الملك لذريق عرشه غضب يوليان وتحركت فى نفسه عوامل الانتقام ، ولعب دوراً معروفاً فى إغراء العرب على فتح أسبانيا وربما كان يظن مخطئا أن دور المسلمين المنتصرين فى شمالى إفريقية سيقتصر على تأديب الخارجين على السلطة القانونية فى البلاد ، والحصول على المال بعد ذلك ، ثم يرجعون إلى الشمال الإفريقى من جديد ، وكان يشيع مثل هذا الفهم غير الصحيح بين صفوف الجيش القوطى كله ، وساعده أن الملك القتيل كان له فى هذا الجيش مؤيدون أقوياء يميلون للانتقام من ظالميه ، ومعنى هذا أن يوليان الرومى كان يرى أن إفريقية القوية يمكن أن تقوم بدور كبير فى إستقرار الأوضاع المضطربة فى أسبانيا التى كان يرتبط بها .

وظل لهذا الحاكم البيزنطى دوره الواضح فى تكييف الأحداث بالمنطقة كلها ، ولم يكن يفهم — كما نظن — أنه كان مسئولا فقط عن منقطة إفريقية صغيرة ويجب أن يحصر جهوده فيها بل كان يتأثر بالأحداث حوله ويشارك فيها ولقد غضب لتطورها فى غير صالحه وغير صالح حلفائه فحاول العمل من أجلهم ، وأراد التأثير بالقوة فى مسيرة الأحداث المتتابعة ، ولما فشل فى جهده المدفوع بالغضب المسرف أثار حماس العرب ورغبتهم ليعملوا ضد حكام أسبانيا الجدد ، ويقال إن العرب اختبروا نيته فى صراحة ، وأرادوا الكشف عن حقيقة ولائه لقضيتهم فطلبوا منه أن يهاجم أسبانيا بجيشه الصغير ليفتح الطريق أمام طلائع جيوشهم المتحفزة .

وتقدم العرب لفتح أسبانيا بعد محاولات أشرنا إليها فى مكانها المناسب من هذه الدراسة وكان تقدمهم يعنى أن الشمال الإفريقى بعد أن كان خاضعا للتأثيرات القوية القادمة من أوربا وبعد أن كان معرضا دائما لتحكم الأوربيين وغاراتهم — وكان ذلك طول خمسة قرون سبقت وجود المسلمين فى إفريقية — انتقل لأول مرة بعد هذا الوقت الطويل من التبعية والخضوع لأوربا وحاول أن يكسب اليد العليا فى أسبانيا الأوربية فانتقلت قوات مغربية بربرية وعربية مشتركة لتأخذ دورها فى السيطرة على مناطق أوربية خالصة أو جاء الدور على أفريقية المستضعفة لتأخذ مكانها فى السيادة على جزء من أوربا الغربية ، وصحيح أن ذلك العمل لم يكن لأول مرة فى التاريخ لأن الفينيقيين المشارقة لعبوا مثل هذا الدور فى التاريخ القديم ، فقد حكموا أجزاء كبيرة من إفريقية وأسبانيا معاً وكان لهم بالمنطقة كلها بعض الآثار التى تشير إلى وجودهم بها ، وبنوا هناك حضارة فينيقية تتحدث عنها كتب التاريخ فى وضوح ، ولكن دور المسلمين بهذه البلاد كان عظيما ومؤثراً لفترات طويلة من تاريخها ولا تزال معالم حضارتهم باقية للآن فى أسبانيا الحديثة .

ونجح المسلمون المتحضرون فى نقل السلطة على جزء كبير من أوربا الغربية إلى يد الشرقيين بعد زمن طويل من خضوع الشمال الإفريقى كله لدول أوربا ولبعض القبائل المهاجرة منها .

وربما كانت هناك قبل الظهور الواضح للعرب فى شمالى إفريقية اتصالات يهودية غير صريحة بين يهود أسبانيا الذين تعرضوا للاضطهاد القاسى على يد القوط المسيحيين وبين اليهود فى شمالى إفريقية ، لأن إشارات غامضة فى التاريخ تشير إلى أن يهود أسبانيا كانوا يتصلون سراً باليهود فى إفريقية الشمالية ويتآمرون

معهم على سلامة الدولة القوطية بها ، وكانت بشمالى إفريقية جماعات يهودية قويه يمكن أن تساهم فى القيام بحركة تخدم مصالح اليهود المضطهدين فى أسبانيا .

ثم تعرض اليهود الأسبان بعد اكتشاف تآمرهم على الدولة لمزيد من العنف والقسوة ، وهذا يعنى وجود نوع من الشعور عند اليهود بقرب المنطقة الجغرافى ، أو وجود نوع من الإحساس بوجوب التعاون بين المتحدين فى العقيدة إذا لم يكن اتصالهم يكلفهم جهودا إضافية .

ولا شك أن اتصال اليهود فى أسبانيا بأمثالهم من اليهود فى شمالى إفريقية كان يشير زيادة على الشعور بالقرابة المكانية إلى نوع من الإحساس بوحدة المنطقة وتأثير الأحداث فيها .

* * *

لقد زاد حماس المسلمين بعد انتصارهم فى إفريقية الشمالية فنقلوا نشاطهم العسكرى سريعاً إلى أسبانيا القريبة منهم ، وعملت الجماعات البربرية المسلمة أولا لأنها كانت تعرف شيئا عن أحوال المنطقة وظروفها ، واتخذ العرب أماكنهم خلف الصفوف المتقدمة لفتح أسبانيا فى مراحل الكفاح الأولى ، وليس يكفى الآن أن نقول إن البربر الذين هاجموا السلطة القوطية فى أسبانيا كان يدفعهم إلى ذلك الحماس الدينى وحده، أو كانت الرغبة العارمة فى العمل العسكرى تتسلط عليهم ليكشفوا بها عن صدق نياتهم نحو قضية الإسلام ، فأرادوا أن يبرهنوا بالجهد والتضحية عن مبلغ إيمانهم المخلص بالدين الجديد ، وإنما يظهر أن تأخر العرب عن المشاركة بكل ثقلهم فى العمليات العسكرية الأولى كان من بعض أسبابه معرفة القيادة البربرية والجماعات البربرية لشئون البلاد الأسبانية القريبة من بلادهم ، وكان هذا يعطيهم الفرصة الطيبة للتعامل مع أعدائهم بوعى ونجاح .

واندفعت موجات البربر الكثيفة لفتح أسبانيا كعملية كانت مكملة لأعمال المسلمين العرب والبربر فى إفريقية الشمالية ، وحاول المسلمون بعد انتصارهم أن يقيموا نظاما سياسياً واحدا بالمنطقة كلها ، ورأوا أن يخضعوها لسلطة واحدة هى سلطتهم القوية ، وجاءت وفود المسلمين تترى على أسبانيا بعد فتحها من إفريقية أولا ثم من غيرها من أوطان المسلمين بعد ذلك ، وظهر وجودهم هناك قويا غالبا ، وضعفت الحواجز بين المنطقتين بقيام حكم المسلمين بهما ، ونشأ بالبلاد كلها منذ سنة ٩٦ هـ / ٧١٤ م حكم واحد له غايات واحدة ، وكان ذلك لأول مرة منذ انفصال أسبانيا عن حكم الدولة الرومانية الغربية سنة ٤١٢م ، وبعد أن خضع الشمال الإفريقى لحكم الدولة البيزنطية بعد خروجها على دولة الرومان الغربية ، وكانت كلتا المنطقتين قد اتخذتا لنفسيهما طريقين مختلفين منذ زمن بعيد .

وجاء المسلمون المنتصرون فجمعوا المنطقتين من جديد تحت سيادة واحدة هى السيادة العربية الإسلامية وظلت أسبانيا منذ فتحها حتى استقلالها سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥م تابعة لولاية إفريقية الناشئة بالقيروان وماحولهما ، وحكمها موسى ابن نصير وكان قائدا عسكريا وحاكما مدنيا على ولاية إفريقية والأندلس معاً ، وبعده استمرت بلاد[1] الأندلس مرتبطة بشمالى إفريقية ارتباطا قويا ، وكان يحكمها وال أو نائب لحاكم إفريقية الشمالية ، وربما أصبحت خلال هذه الفترة شبه ولاية مستقلة يرسل لها رئيس الدولة الإسلامية أو خليفتها فى الشام والياً خاصاً بها ، وظهر ذلك بوضوح فى زمن الخليفة الشهير عمر بن عبد العزيز ، وفى بعض العهود من بعده ، ولكنها مع ذلك كانت تتأثر فى علاقاتها وتطورها بأحوال إفريقية

---

(١) بعد رجوع موسى بن نصير للشام ترك أبناءه الثلاثة حكاما بشمالى إفريقية والأندلس .

الشمالية وظروفها وسياسة حكامها ، ولم تظهر لبلاد الأندلس طول هذا العهد شخصية سياسية مستقلة عن إفريقية الشمالية ، وظلت المنطقتان مرتبطتين معاً ارتباطا قويا لا ينفصم لخضوعهما لشعب واحد له سياسة واحدة وهدف واحد ، وكان العنصران الأساسيان بالمنطقتين يكونان قوة إسلامية واحدة وإن كانت إحداهما عربيـة والأخرى بربرية ، وحرص العرب على أن يكون لهم هناك حق القيادة وحـدهم ، وحرص البربر بدورهم على ألا يعيشوا على هـامش الحياة في أى مكانٍ من إفريقية أو الأندلس .

وظل الارتباط قويا بين الشمال الإفريقي وبلاد الأندلس لأن العناصر الأساسية بالمنطقتين كان لها تمثيل واضح بالمـكانين معاً ، فعندما قامت الثـورة التى قادها ميسرة المدغرى فى إقليم طنجة بشمالى إفريقية سنة ١٢٢هـ / ٧٤٠م — وكان يريد بثورته هذه الاحتجاج على ظلم الولاة وتعسفهم — كان لهذه الثورة أثرها الـكبير فى بلاد الأندلس بدورها فثار البربر بها على العرب ، كما ثار عليهم بربر إفريقية وتحرج مركزهم فى الشمال والجنوب كليهما ، وبعدما انتصر جيش الثوار فى إفريقية على جيش الدولة الأموية سنة ١٢٣هـ / ٧٤١م حاول بربر الأندلس أن يقوموا بنفس الدور فى بلاد الأندلس وحاصروا قوات العرب هناك وهددوا وجودها ولما لم يستطع حاكم الأندلس عبد الملك بن قطن أن يدافع عن كيان العرب بالأندلس استنصر بجزء من جيش الدولة الأموية الذى انهزم فى إفريقية أمام ثوارها البربر ، وأسرع بلج بن بشر القشيرى مع عشرة آلاف من رجال العرب الأشداء إلى بلاد الأندلس ليشارك واليها المذكور فى الانتصار على الثوار البربر .

وكانت ثورة البربر فى كل من المغرب والأندلس تشير إلى تشابك الأحداث وتفاعلها بين المنطقتين معا فقد خرج البربر للثورة على العرب فى المكانين جميعا ، ولم يجد عرب الأندلس وسيلة للدفاع عن النفس إلا بالاستنجاد بعرب إفريقية ، وتعاونت القوتان العربيتان فى ضرب الثوار بالأندلس ، وكأن الأحداث فى الشمال والجنوب كانت تثار فى منطقة واحدة وفى بلد واحد .

وبعد أن استطاع حنظلة بن صفوان قائد جيش الدولة الأموية أن ينتصر فى إفريقية على ثوارها وأن ينتقم لهزيمة جيش كلثوم بن عياض القشيرى الذى بعثه الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك إلى إفريقية سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م بعد هذا الانتصار أصبح حنظلة بن صفوان سيدا بأمر الدولة الأموية على إفريقيـة والأندلس جميعا وأرسل لبلاد الأندلس نائبا عنه اسمه أبو الخطار الكلبى ، ومعنى هذا أن والى إفريقية ظل حتى ذلك الوقت صاحب الحق فى إدارة الشئون الأندلسية .

وحاول أبو الخطار المشار إليه أن يحرس السلام بين المتنازعين على السلطة فى مكانه الجديد ، وفر منه عبد الرحمن الفهرى إلى إفريقية وكان أحد القواد الشاميين الذين اشتركوا فى الخصومات الحزبية بالأندلس ، ورجع عبد الرحمن إلى إفريقية مرة أخرى بعد أن كان فيها جنديا فى جيش الأمويين الذى أرسلوه إلى إفريقية ليقاوم ثورة البربر بها سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م ، وحاول عبد الرحمن الفهرى بعد رجوعه إلى إفريقية ، أن يوجد لنفسه مكانا بين حكام المسلمين بها ، ونجح فى حكم القيروان وما حولها سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٥ م ، واستقل بجزء من البلاد الإفريقية مدة عشر سنوات كان يعلن فيها نوعا من الولاء المزيف للأمويين ثم للعباسيين من بعدهم .

وخضعت الأندلس بدورها سنة ١٢٩ هـ / ٧٤٧ م لقريبه يوسف الفهرى وكان قد لعب دورا أساسيا فى أحداثها المضطربة ، وهذا يعنى شدة التأثير السياسى المتبادل بين المغرب والأندلس ، ويقال إن أهل الأندلس طلبوا من حاكم إفريقية الموافقة على اختيارهم لقريبه سيدا على بلادهم .

* * *

ثم جاء عبد الرحمن الداخل بعد ذلك للأندلس من إفريقية بعد أن عاش فيها خمس سنوات ورأى بعد الحياة فيها أن بلاد الأندلس كانت أمله ورغبته فانتقل إليها واستقل بها عن إفريقية الشمالية وعن غيرها من بلاد المسلمين ، وأبعدته السياسة عن الشمال الإفريقى بعد أن مال فى ولائه للعباسيين خلفاء المسلمين فى العراق .

ولكن إفريقية التى تظاهرت بالولاء لدولة المسلمين فى الشرق لم تترك عبد الرحمن الأموى يعيش آمنا فى مكانه الجديد ، فهاجمه العلاء بن مغيث من إفريقية الشمالية سنة ١٤٦ هـ / ٧٦٣ م وهاجمه كذلك عبد الرحمن الصقلبى سنة ١٦١ هـ / ٧٧٧ م ونزل بساحل مرسية فى شرقى الأندلس ، وكلاهما كان يدعو للخلفاء المسلمين فى بغداد ، ولكن عبد الرحمن الداخل انتصر على كل المحاولات الإفريقية العاملة لحساب أعدائه من بنى العباس .

وظهر العداء والخصومة لأول مرة فى تاريخ المسلمين بالمغرب بين الحكام الإفريقيين والأندلسيين عند تأسيس الدولة الأموية هناك لأن مؤسسى هذه الدولة كانوا يحاولون أن يبعدوا بها عن الاتصال المباشر بمواطنى خصومهم أو عن الاتصال القريب بأملاك دولة الخلفاء العباسيين فى إفريقية ، وكانوا يشعرون بالحرج والخوف عند اتهامهم بالخروج على وحدة المسلمين المرغوب فيها عند كل الناس .

وحرص الأمويون الحاكمون بالأندلس على تثبيت سلطانهم فى داخل بلاد الأندلس وحدها ، وتركوا الاهتمام بالشئون الإفريقية لسكان إفريقية أنفسهم ومع ذلك لم يتركهم الإفريقيون إلا بعد أن انهزموا أمامهم فى الحروب الهادفة إلى تحديد نوع الولاء بالمنطقة .

وبعد ذلك لم تكن محاولات العباسيين للسيطرة على إفريقية نفسها محاولات جيدة ، إذ لم يكن لهم بها أنصار يستطيعون مقاومة أعدائهم فيها ، فبعد عهد يزيد ابن حاتم الذى فاز بحكم القيروان وما حولها باسم العباسيين بعد حروب طويلة فى السنوات ١٥٥ — ١٧٠ هـ/٧٧٢ — ٧٨٨ م انهار نفوذ الخلفاء العباسيين هناك واضطربت الأحوال بالبلاد كلها ، ولم يتمكن العباسيون بعد ذلك من الاحتفاظ لأنفسهم بنوع من السيادة على إفريقية إلا بعد أن أعلنوا حكم الأغالبة على إفريقية سنة ١٨٤ هـ/ ٨٠٠م ، وكان نفوذ العباسيين قد ضاع قبل ذلك التاريخ فى المغربين الأوسط والأقصى ، وحاولت الدول الإفريقية الثلاث الممثلة لوجهات النظر الإسلامية (١) المتنافسة أن تتفق فيما بينها على نوع من سيادة السلام وحسن الجوار ، وانهمكت كلها فى بناء صرح الحضارة الإسلامية المتطورة فى إفريقية الشمالية ، وأعرضت من جانبها عن الاتصال ببلاد الأندلس وكانت الخصومات السياسية تزيد أحيانا فى نفور رؤساء هذه الدول وتباعد بينهم وظهر فى الغرب :

ا — الأمويون بالأندلس . ب — والعلويون بالمغرب الأقصى
جـ — الرستميون المغرب الأوسط .
د — والأغالبة بإفريقية أو المغرب الأدنى .

---

(١) كانت هذه الدول الثلاث تمثل وجهات نظر المسلمين من الخوارج والشيعة وأهل السنة .

ولم يكن ذلك يعنى فى وقت من الأوقات انقطاع الصلات الثقافية والحضارية بين هذه الدول الإسلامية الناشئة بافريقية والأندلس لأن هذه الصلات المفيدة ظلت قائمة ومعروفة طول تاريخها كله .

ثم قابل الأمويون بعض الفتن الدينية بالأندلس ، وقامت ضدهم هناك ثورة كبيرة معروفة سنة ٢٠٢هـ / ٨١٧ م وبعد انتصارهم على أصحابها ألجئوهم بالعنف ووسائل التأديب القاسية إلى الهجرة إلى إفريقية فذهبوا إلى مدينة فاس المغربية واستقبلهم فيها حاكمها إدريس بن إدريس وكان يرام إحدى وسائله لتحقيق أمله فى مواجهة رعاياه البربر ، ولا شك أن الجماعات الأندلسية الكبيرة الهاربة إلى إفريقية من قسوة العقاب فى بلاد الأندلس لم يكن أمامها غير الشمال الإفريقى وحده ، وربما كان لجوء جماعة منها إلى الإسكندرية فى مصر البعيدة نوعا من اليأس أو المغامرة لأن بلاد المغرب ظلت فى كل الأحوال المكان المقصود لأهل الأندلس عند الخطر .

ونسير مع التاريخ ، ويجىء الفاطميون لحكم الشمال الإفريقى سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م فكانوا يهددون بقوتهم حكم الخليفة الناصر بالأندلس ، وكان هذا حريصا على دفع كل الأخطار عن بلاده ، ومع أن الفاطميين لم يوجهوا قوتهم ابتداء الحرب ضد الأمويين بالأندلس ورغم أن بلاد الأندلس لم تكن من أهدافهم العسكرية الأساسية فإن الناصر أرسل لهم أسطولا كبيرا استولى على مدينة سبتة فى إفريقية سنة ٣١٩هـ / ٩٣١ م وكانت مع البربر حلفاء الفاطميين ، ثم امتد نفوذ الأندلسيين إلى مدينة فاس فى المغرب الأقصى ، وكان الأدارسة هناك يترددون فى ولائهم بين الفاطميين الإفريقيين وبين الأمويين الأندلسيين ، أو كانت القوتان تتجاذبهم بعنف وقوة وتريد منهم إعلان رأيهم فى صراحة ووضوح وبعد ذلك التاريخ ظهر الشر

واضحا بين القوتين المتعاديتين بإفريقية والأندلس ، وهدد الفاطميون الشواطىء الأندلسية سنة ٣٤٤هـ / ٩٥٥ م فأغار عليهم الأمويون من الشواطيء التونسية واحترقت أجزاء كبيرة من إفريقية الشمالية بساطة الأمويين حكام الأندلس وانقسمت القبائل الإفريقية إلى قوات تعمل لحساب الأمويين وتتعرض بسبب ولائها لهم لغارات الفاطميين ومفاجئاتهم ، وإلى قوات تعمل مع الفاطميين وتتحدى الأمويين وتتحمل غاراتهم وانتقامهم .

وفى سنة ٣٦٥هـ / ٩٧٥م لجأ أمير الأدارسة المنهزمين إلى الفاطميين فى مصر (١) بعد أن خضع جزء كبير من بلاد المغرب لحكام الأندلس الأقوياء فأرسل العزيز بالله الفاطمى جيشا من مصر لإفريقية سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩م فاستولى هذا الجيش على مدينة فاس الشهيرة وأعلن الوجود الشيعى بالمنطقة المغربية ، وكان هذا يعنى تعرض عملاء الأندلسيين بالمغرب للأخطار المباشرة ، ولذلك طلبوا نجدة المنصور بن أبى عامر ـ وكان فى أيام مجده وسطوته ـ ، فأرسل لهم جيشا أندلسيا سنة ٣٧٥هـ٩٨٥م وانتصر هذا الجيش فى حروبه ضد الفاطميين بإفريقية ، وأصبحت مناطق المغرب القريبة من بلاد الأندلس مقاطعات أندلسية يحكمها أحد أصحاب المنصور ، وزاد نفوذ هذا الحاكم الأندلسى بإفريقية الشمالية وكأنها كانت ولاية أندلسية ، وتفرق كثير من زعمائها وهاجروا للأندلس فوجدوا لهم هناك مكانا فى صفوف جيش الدولة العامرية .

* * *

وأثناء سقوط دولة الأمويين بالأندلس سنة ٤٢٢ هـ ـ ١٠٢١ م كان البربر طرفا

---

(١) فتح الفاطميون مصر سنة ٣٥٩ هـ /٩٦٩ م .

فى النزاع على السلطة المباحة بها ، فأخذوا نصيبهم من مغانم الدولة الضائعة ، وحكموا الولايات الجنوبية القريبة من إفريقية الشمالية ، وحدث التلاحم القوى بين الزعماء المغاربة وبين الأندلسيين البربر الذين كانوا يلقون بأبصارهم دائماً نحو الشمالى الإفريقى ومن فيه ، وكان من بين المغاربة رجلان من الأدارسة هما على والقاسم ابنا حمود ، وهذان الأخوان كانا ينتسبان إلى إدريس بن إدريس مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى ولكنهما لم يكونا يعرفان شيئاً واضحاً عن لغة العرب ، ولم يكن يظهر فيهما وجه العروبة وخصائصها وربما كانا أقرب للبربر فى السلوك والأمل والرغبة من العرب بأثر البيئة والنشأة والمزاج واللغة .

وساد على بن حمود فى مدينة سبتة الإفريقية الواقعة على الجانب الآخر من منطقة الجزيرة الأندلسية وهذه كان يحكمها أخوه القاسم بن حمود ، ولم يكن يفصل بين الأخوين الحاكمين فى إفريقية والأندلس إلا مضيق جبل طارق المشهور ، ولم يعطل هذا الفاصل المائى أسباب التفاهم القوى بينهما ، فذاعت شهرة بنى حمود الشيعة فى مناطق واسعة بالمغرب والأندلس ، وكأن الفترة الطويلة التى حكم فيها الأمويون بهذه البلاد لم تكن كافية لإضعاف التفاعل الملحوظ بين المنطقتين الإسلاميتين ، وكان يمكن أن يجد المغامرون والراغبون فى السلطة فى كل الأوقات بعض الأنصار فى المكانين معا .

ثم دخل على بن حمود بلاد الأندلس بأشياعه البربر سنة ٤٠٦ هـ/١٠١٦م وأعلن نفسه خليفة على المسلمين بالمنطقة التى كانت تعانى من الفراغ فى السلطة ، وبويع بعده أخوه القاسم بن حمود واستمرت السيادة العليا بهذه المنطقة الأندلسية فى أسرة بنى حمود الشيعية حتى مات القاسم سنة ٤٣١ هـ ـ ١٠٣٩ م ، وكان زعماء هذه الدولة إفريقيين هربوا إلى بلاد الأندلس بعد هزيمة جيشهم فى

بلادهم الإفريقية ، ولم ينسوا بلادهم هـذه بعد حياتهم فى الأندلس عندما جاءتهم فرص النجاح مع الأيام .

وازداد الضعف فى بلاد الأندلس كلها وكانت تتعرض للأخطار الممثلة فى هجوم القوات المسيحية المتعصبة عليها من الشمال ، وتقدمت هذه القوات المتحفزة فى حماس وإصرار لتحقق أمانيها فى طرد المسلمين من بلاد الأندلس كلها ، ولم يكن للمسلمين فى ذلك الوقت قوة تستطيع التعامل مع هذا الخطر أو دفعه ، بل كانوا موزعين إلى دويلات صغيرة متهالكة ، وربما كانت عشرين دولة أو أكثر منها ، وكانت عوامل التغيير سريعة الأثر فى حياة البلاد والعباد فى هذه الفترة الحرجة من تاريخ المسلمين ، واشتد خطر الأعداء على الأندلسيين الموزعين إلى وحدات سياسية وعسكرية مستضعفة فطلبوا بعد الاتفاق والتفاهم نجدة المرابطين حكام إفريقية الشمالية الغربية ، وجاء المرابطون إلى بلاد الأندلس فى السنوات ٤٧٩هـ-١٠٨٦م ، ٤٨١هـ - ١٠٨٨ م ، ٤٨٣هـ - ١٠٩٠ م ليقوموا بمحاولات مخلصة لدفع الأخطار عن المسلمين المعرضين لتهديد الأحقاد والهجمات من الدول المسيحية الناشئة فى شمالى أسبانيا ووسطها ، وتحولت بلاد الأندلس بعد قصة صراع طويلة إلى مقاطعة مغربية ، وكانت طوائف البربر القادمين مع جيش المرابطين للحرب فى الأندلس تعيد وجه التاريخ القديم ، أو كانت تعيد دور البربر الشجعان الذين قدموا مع طارق بن زياد لفتح هذه البلاد منذ وقت طويل .

وأصبحت الأندلس ولاية مغربية يحكمها المرابطون من مراكش البعيدة ، وعاش أبطال الإسلام الجدد مدة غير طويلة سادة على بلاد المغرب والأندلس جميعاً ، وكان وجودهم كقوة ظاهرة ببلاد المغرب أمراً ضرورياً لبقاء الأندلسيين سالمين فى بلادهم التى تهددها الأخطار ، ولتأجيل أيام الضياع النهائية لنفوذهم بهذه البلاد .

وجاء بعد المرابطين وعلى طريقتهم الصريحة الواضحة قوات بربرية أخرى كانت أشد منهم إيماناً بقضية الإسلام ومجده ، وكانت أعظم منهم فهماً للحضارة العربية وأهميتها فى حياة الناس والأوطان ، وهؤلاء هم الموحدون الذين كانوا يمثلون القوة الإسلامية التى جاءت إلى بلاد الأندلس لتأخذ دورها فى حكمها وفى نصر المسلمين بها ، وجاءوا بعد المرابطين بعد أن ضعفت كفاءاتهم العسكرية أو انهارت ، وبعد أن أصبحوا جماعات مرفهة فقدت بالزمن والنعيم صلاحياتها القديمة .

وانتصر الموحدون بالأندلس فأعادوا بنصرهم أمجاد المسلمين المستهينين بالأخطار فى سبيل العقيدة والمبدأ ؛ ولكنهم كانوا سيئى الحظ إذ واجهوا التعصب الأوربى فى أسوأ حالاته ، فانهزموا أمام جيش مسيحى كبير جمعه الأوربيون لحربهم من كل مكان ، وشاركت فيه أشد البلاد الأوربية تعصباً للمسيحية وتأثراً بها .

وكانت هزيمة الموحدين تعنى الخطر الداهم على مصير الإسلام والمسلمين فى أوربا ، وكانت تشير إلى أن الجهود الإفريقية لإنقاذ بلاد الأندلس قد عجزت عن الوفاء بمتطلبات النصر بهذه الأوطان .

وبعد ذلك سقطت بلاد الأندلس واحدة بعد الأخرى فى يد أعدائها ، ولم يبق هنالك للمسلمين إلا مملكة غرناطة المتواضعة ، ولم يكن ممكناً أن تعيش هذه المملكة الصغيرة التى كانت تمثل آخر الأضواء الإسلامية فى أوربا إلى النهاية – لم يكن ممكناً أن تعيش وحدها وحولها الأعداء فى كل مكان ، ولذلك بحثت سريعاً لنفسها عن حلفاء إفريقيين يحملون معها مسئولية الدفاع عن قضية المسلمين المعرضة للأخطار الداهمة .

ووجد بنو الأحمر سادة غرناطة فى بنى مرين حكام أفريقية الشمالية حلفاء تقليديين لهم يرغبون فى نصرة المسلمين بالأندلس ، وعرض بنو مرين أن يكون جيشهم قوات احتياطية مستعدة للعمل فى كل وقت ببلاد الأندلس ، وقام بين الجانبين نوع من التفاهم السليم لخدمة الأغراض الإسلامية فى هذه البلاد المعرضة للنهاية المؤسفة .

ويبدو غريبا أن التقاء القوتين الإسلاميتين فى إفريقية والأندلس لم يدم زمنا طويلا أو لم يكن عند المستوى المطلوب فى وقت الخطر ، ويفهم من روايات التاريخ الصريحة أن بنى مرين كانوا مخلصين فى أداء دورهم لخدمة الوجود الإسلامى بغرناطة وماحولها ولكن بنى الأحمر كانوا يذكرون دائما دور المرابطين فى تحطيم القيادات الإسلامية ببلاد الأندلس ، فكانوا يعيشون دائما فى شك وحذر أو كانت تلعب بهم الريب من كل أعمال بنى مرين وتصرفاتهم .

ثم ساد الاضطراب فى غرناطة وتنازع حكامها جميعا ، ولم يتفقوا على سلوك واضح فى المعاملة المطلوبة لحلفائهم الافريقيين ، واختلفوا فى تحديد نوع العلاقات التى كانت تربطهم بهؤلاء الحلفاء ، وكانوا يتفقون أحيانا مع أعدائهم الأسبان ضد إخوانهم فى العقيدة وشركائهم فى الصف والأمل ، ولم يكن السبب فى ذلك مجرد الرغبة فى إضعاف سلطة المسلمين فى لإفريقية وشل نشاطهم العسكرى فى سواحلها الشمالية وإنما كان ذلك بسبب تحكم الخوف القاتل من تكرار التجربة المعروفة عن المرابطين مع ملوك الطوائف ، ويبدا أحيانا أن الحكام فى غرناطة كان يهمهم سلامة سلطتهم بمناطقهم الغنمة قبل نجاح القضية الإسلامية وسلامتها فى بلاد الأندلس ، وربما كان الشعب الأندلسى سعيدا بانتصارات القوات الإفريقية فى

بلاده ولكن حكام هذه الشعب وأمراءه كانوا يتوقعون الشر من هذه القوات الأجنبية ، وكانوا يريدونها أن تحقق أغراضهم فى حراسة سلطاتهم بمناطقهم المنعزلة ، وأن تكون دائما فى موقف الدفاع عنهم عند مفاجآت الأعداء .

ثم انشغل بنو مرين فى فترات من حياتهم الأخيرة بالفتن المتراكمة حول عرشهم المنهار بإفريقية ، وساءت بسبب ذلك أحوال بنى الأحمر فى غرناطة ، وكانت مواقفهم غير صريحة فى التعامل مع الحكام الإفريقيين رغم أن هؤلاء كانوا يساعدونهم بجهدهم وطاقتهم ، ورغم أنهم كانوا يساهمون فى خدمتهم أثناء تعرضهم للأحداث الجسام ، ومع كل المحاولات الناجحة وغير الناجحة التى شارك فيها الأفريقيون الأندلسيين أو التى انفرد فيها أحد الجانبين بالعمل وحده فلم يكن من المأمول أن تنجو مملكة بنى الأحمر من نهايتها المعروفة أو من الضياع أمام الأسبان المنتصرين ، وإنما كانت هذه المحاولات تقدم بدوافع الشرف والواجب ، ولم يقصد منها إلا مقاومة الشر الغامر لتأخير الساعات الأخيرة المؤكدة .

ولاشك أن مشاركة الإفريقيين فى الحرب بالأندلس كانت تدل على قوة الترابط بين الجهتين الإسلاميتين ، وكانت تعنى أن أمر الأندلس كان يهم الإفريقيين فى كل الأوقات ، ولم يكن ذلك — كما يبدو — لمجرد التعاطف الدينى وحده أو للأغراض الإنسانية وحدها ، وإنما كان أيضا لأن بلاد الأندلس كانت تمثل خط الدفاع المتقدم عن إفريقية الشمالية ، وكأن الإفريقيين كانوا راغبين فى سلامة بلاد الأندلس لتسلم لهم بلادهم ذاتها ، ولم يكن من مصلحتهم أن يقوم فى أسبانيا نظام قوى يعاديهم ، ومن المعروف أن النظم القوية التى

كانت تظهر فى إحدى المنطقتين كانت تحاول فرض نوع من النفوذ والسيطرة على الجانب الآخر .

وهذا يعنى أن الأفارقة فى محاولاتهم القوية للدفاع عن وجود الإسلام والمسلمين بالأندلس كانوا يدافعون فى نفس الوقت عن أنفسهم فى صراحة غير مكشوفة ، وكان يهمهم فى الدرجة الأولى أن يبقى بالأندلس نظام إسلامى يمكن التفاهم معه ، أو يمكن الالتقاء مع أصحابه عند شىء مشترك ، وكان الدين فى ذلك الوقت من بعض وسائل الاتصال القوية بين الشعوب فى كل مكان ، أو كان من أهم الوسائل المؤثرة التى كانت تقرب بين الناس فى هذه العصور .

ولا شك أن حماس الأوربيين للحرب ضد المسلمين كان تعصبا قوميا ودينيا معا ، فقد كان جانب الدين ملحوظا فى شعورهم بالحقد البالغ على المسلمين بالأندلس وغيرها ، ومعنى هذا أن دين الإفريقيين كان لا بد أن يعرضهم - بعد انتصار المسيحيين على المسلمين فى أسبانيا - إلى الأخطار القادمة عليهم من الشمال الأوربى وكأن القضية كانت تبدو قضية واحدة تؤثر فى مصير الأندلسيين والإفريقيين جميعا ، وقد أدرك ذلك حكام إفريقية وحكام الأندلس معا ، ولما ضعف جهد الأندلسيين أمام ضغط أعدائهم الأقوياء شاركهم الحكام الإفريقيون - مهما اختلفت أسماء دولهم ونظمهم - فى الدفاع عن بلادهم وحملوا معهم مسئولية العمل العسكرى لحراسة بلاد بدا مصيرها واحدا فى جميع الأوقات .

وجاء بنو وطاس بعد بنى مرين لحكم مساحات واسعة من البلاد الافريقية واستولوا على مدينة فاس التاريخية سنة ٨٧٦ هـ - ١٤٧١ م ، وقامت لهم بالمغرب

دولة إسلامية ولكنها كانت عاجزة عن مواجهة المصاعب التى كانت تلح على كيان المسلمين بالدولة الصغيرة الباقية لهم فى أوربا ، وانكشفت الأخطار القاتلة أمام بنى الأحمر فى الأندلس فدفعوا الإتاوات الكبيرة للقشتاليين ليشتروا رضاهم ، وخضعوا مع ذلك لظلمهم وتعسفهم ، ثم وصلت نزعات التعصب الدينية إلى أقصى درجات التطرف عند أعداء الأندلسيين إذ خشى الأسبان - بعد انتصار الأتراك فى معركة القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م - أن يصبح ما بقى للمسلمين فى الأندلس مركزا لعمليات حربية جديدة وأن يكون نقطة ارتكاز لنجدات إسلامية تأتى لبنى الأحمر من بعيد .

وبعد اتحاد أسبانيا المسيحية سنة ١٤٧٩ م زادت قوتها واستقرت أحوالها ونمت مواردها ، فتقدمت لتحقيق أهم أغراضها الدينية والقومية وقضت على المملكة الإسلامية الضائعة التى كانت قد تركت لمصيرها وقدرها ، ولم يجد المسلمون المطرودون أمامهم بعد الأندلس إلا إفريقية الشمالية وحدها ، وإذا لم يجدوا عندها قوة كافية تحفظ عليهم وجودهم ببلادهم الغالية فقد وجدوا فيها متسعاً لثلاثة ملايين منهم هاجروا إليها تحت ضغط الأحقاد والمتاعب .

ولم يبق للمسلمين فى الغرب بعد سقوط الأندلس إلا الشمال الأفريقى وحده ، وكان عليهم أن يتوقعوا مزيدا من الأخطار القادمة من أسبانيا المنتصرة ، لأنها لم تقنع بطردهم من بلادهم بالجملة بل أخذت تمارس ضدهم أعمالا عسكرية انتقامية لم يكن من أهدافها الثأر لبعض الاساءات السابقة ، وإنما كان غرضها إبقاء المسلمين فى إفريقية الشمالية تحت ضغط الخوف الدائم ، وكانت تود مع ذلك أن تأخذ طريقها للسيطرة على البلاد الافريقية بالحروب الصليبية الصريحة.

ب ـ قصة الإسترداد

يعرف من تاريخ المسلمين فاتحى الأندلس أنهم تركوا لسبب أو لآخر إتمام عمليات الفتح النهائية لكل الأراضى الأسبانية ، وقد يكون ذلك نوعاً من الإهمال أدى إليه استدعاء القواد الفاتحين إلى بلاد الشام قبل النصر الأخير ، وقبل الاستقرار الآمن فى البلاد الجديدة ، وهذا يعنى أن استدعاء القواد ذوى الأثر العظيم فى الفتح ، وذوى الفهم السليم لما يحتاج إليه هذا الفتح من أعمال أخرى كان السبب الواضح لعدم الانتباه المطلوب إلى ضرورة الخلاص نهائياً من كل جيوب المقاومة التى كانت تزعج العرب والمسلمين فى البلاد الجديدة .

أو نقول إن الإهمال جاء عن طريق الذين خلفوا هؤلاء الفاتحين ، وكان منهم قواد تحمسوا لعمليات الفتح ، ونجحوا فيما بقى منها ولكنهم مع ذلك تركوا الأماكن الشمالية الغربية من أسبانيا لأعدائهم ولم يهتموا بإتمام العمل العسكرى فيها .

وسواء أكان هذا الفرض صحيحاً أو ذاك فإن الحقيقة ظلت ثابتة ومؤكدة وهى أن جزءاً من شبه الجزيرة الأسبانية استمر بعيداً عن الخضوع المباشر لسلطة المسلمين بالأندلس ، وهو الجزء الشمالى الغربى المعروف باسم « جليقية » ، وربما كان هذا الجزء بسيطاً لم يثر شيئاً من اهتمام الحكام الجدد ، أو كان لا يشير فى وضوح إلى نوع من الخطر عليهم ، أو إلى وجود ما يهدد انتصاراتهم ومستقبلهم ، لأنه كان إقليما قاحلا مقفراً بارداً تحجزه الجبال والمسافات البعيدة عن مسرح الأحداث المهمة بالمنطقة الأسبانية الواسعة .

وكان كل ما فيه يصرف الرغبة عنه ، وقد لجأت إليه جماعات قليلة لا يمكن

أن يكون وجودها خطراً على الكيان السياسى أو العسكرى للمسلمين هناك ، وكان هؤلاء أيام الفتح يملكون القوة الكافية لدفع الأخطار عن أنفسهم ، أو كانوا يمثلون القوة القادرة على الانتصار فى جميع الأحوال .

ولكن هذا الجزء البعيد البارد الذى لجأت إليه جماعات غاضبة لم تكن تمثل قوة كبيرة أو صغيرة ولم تكن تأمل فى هزيمة الفاتحين واسترداد الأرض منهم ـ هذا الجزء أصبح بالعمل والزمن نواة أساسية لكيان سياسى وعسكرى مؤثر ، وربما بدا أحياناً كأنه كان يعارض استقرار المسلمين ويهدد أمنهم ، وكان أصحابه ومؤيدوهم يثيرون حول أنفسهم دعايات غامضة تدور كلها حول الوطنية والحرية وتخليص الدين من الأعداء ، ليخدموا بذلك أغراضهم وليجذبوا إليهم الأعوان والمؤيدين من كل مكان ، ومع ذلك لم يهتم المسلمون به ولم يوجهوا انتباههم نحوه ، فنشأ فيه بعد ذلك من كانوا يمثلون الرغبة القوية فى رفض الهزيمة أمام الفاتحين ، ومن كانوا يحلمون بتحقيق الأمل الكبير فى استرجاع الأرض منهم .

وقد يكون صحيحاً أن نقول إن انصراف المسلمين عند الفتح عن الذهاب إلى هذا المكان البعيد كان يمثل نوعاً من التسامح المعروف عنهم ، فكان يكفيهم أن ينهار أمامهم جيش الدولة الحاكمة بأسبانيا ليكفوا عن الحرب والقتال ويلجئوا للسلام والأمن ، ويمارسوا الحياة العادية الآمنة مع غيرهم من الناس ، وكان يكفيهم أن تتضح أمامهم معالم المستقبل لصالحهم بغير غموض أو شك لكى يلقوا السلاح ويسمحوا للآخرين بالحياة معهم فى سلام ، ولا سيما إذا كان هؤلاء الآخرون لا يمثلون بوجودهم شيئاً من الأخطار المؤكدة أو الشرور المحتملة التى تهدد كيانهم ومصالحهم .

ولا نعنى بذلك أن نقول إن المسلمين تركوا مناطق مهمة بأسبانيا بدون فتح إلى النهاية ، أو أنهم فرحوا بالنصر السريع على جيوش أعدائهم بأوربا فانصرفوا عن إتمام العمل العسكرى اللازم لسلامتهم وبقائهم آمنين بالمنطقة التى تحملوا مسئولية العمل فيها ، لأن المعروف أن القواد المسلمين الذين جاءوا لحكم الأندلس بعد موسى بن نصير وطارق بن زياد حاولوا إتمام فتح البلاد كلها .

وكانت لا تزال هناك أجزاء باقية فى الجنوب الشرقى من أسبانيا لم يذهب لها الرواد الأول ، وتركوها لمن يأتى بعدهم على طريق الجهاد فى المستقبل ، مثل منطقة مرسية وغيرها من مناطق أخرى فى الشمالين الشرقى والغربى وهذه كانت فى حاجة لإعلان الوجود الإسلامى فيها بقوة ووضوح .

والإشارات فى التاريخ الأندلسى صريحة إلى أن المسلمين الذين فتحوا أسبانيا تركوا المناطق النائية الواقعة فى أقصى الشمال الغربى بجليقية لأنها كانت لا تغرى على الحرب فيها ، ولا تشجع على التضحية فى سبيلها ، وكانت تبدو لهم كأنها لم تكن تساوى شيئاً من الاهتمام بها والسعى من أجلها ، فتركوها لعدم أهميتها ، أو لعدم خطورتها ، وانشغلوا عنها بالأحداث الكبيرة التى كانت تلح عليهم بكثرتها ، وتفاجئهم بتتابعها .

ومع ذلك فلم يكن انصراف المسلمين عن هذه المناطق البعيدة تاماً أو نهائياً ، ولم يكن عملا مقصوداً لجئوا إليه بعوامل الإهمال والغفلة وحدها لأنهم كانوا يرسلون إليها قوات عسكرية كانت تتعامل مع القوات القليلة الخارجة بها على سلطتهم بعد انتصارهم (١) .

---

(١) كان ذلك بعد الفتح وفى السنوات ١١٦ — ١٢٣ هـ / ٧٣٤ — ٧٤١ م

ويقال إن القوات اللاجئة للمناطق الشمالية كانت تتألف من عدد قريب من ثلثمائة مقاتل يرغبون عن الخضوع للمسلمين ويرفضون الحياة معهم فى سلام ، وكانوا يشتبكون مع قوات المسلمين بعد المعارك الكبيرة أيام الفتح، واستطاعوا بعد الفترة التى مرت منذ أيام الفتح حتى زمن العمل الحاسم ضدهم أن يثبتوا وجودهم ، وأن يعلنوا عن أنفسهم فى حماس ، وكانوا يعرفون المكان الذى يعيشون فيه ويتحملون قسوته ويحسنون استغلاله ، ولهذا وغيره كانوا يفرضون على المسلمين الذين يحاربونهم تضحيات كبيرة ، وبدوا أمامهم جماعات يائسة تعرف بلادها وتستطيع الدفاع عن نفسها ، ومع ذلك يقال إن جيش المسلمين كان يلح على هذه الجماعات بالحرب حتى قضى على بعضها ، وألجأ بعضها الآخر إلى التفكير من جديد فى العودة إلى أسبانيا لمشاركة المسلمين حياتهم ودينهم ، أو إلى العيش مع المسيحيين تحت حكم المسلمين المنتصرين، وهاجر بعضهم إلى أماكن أخرى بالبلاد الأوربية القريبة أو البعيدة من الأطراف الأسبانية الشمالية،ومن المعروف أن عدد هذه الجماعة وصل فى أقصى حالات ضعفها وانهيارها إلى ثلاثين رجلا وعشر نساء، وربما كان هذا أقل عدد وصلت إليه هذه الجماعة فى حياتها كلها، ومعنى هذا أنه لم يكن مأمولا من جيش المسلمين أن يلح بالحرب على هذا العدد القليل من الناس، ولا أن يشغل نفسه بالتورط فى حروب طويلة فى هذه الأماكن البعيدة من أجل هذا العدد القليل اليائس الذى لم يكن وجوده يدل على نوع من الخطر على السلطة الجديدة ، ولا على نوع من المعارضة المهددة لوجودها .

وسواء أكان هذا العدد صحيحاً أو غير صحيح فإنه يبدو أن المقصود من ذكره إما التماس العذر للمسلمين فى إهمال القضاء عليه ، أو الإعلان عن الثناء الطيب على هذه الجماعة القليلة التى رفضت قبول الهزيمة أمام المسلمين حتى النهاية ، ظلت تكافح أعداءها بعد أن تخطت حالات الضعف والانهيار .

ومهما يكن من شيء فقد كان لهذه الجماعة المستبسلة دور عظيم فى لفت الأنظار إلى وجود نوع من المعارضة الإيجابية لحكم المسلمين فى الأرض الأسبانية ذاتها ، وإلى أن هزيمة القوط أمام المسلمين لم تكن كاملة أو نهائية ، ولكن ذلك لا يعنى أن هذه الجماعة الصغيرة الضعيفة كانت تستطيع أكثر من ذلك أو كان يمكنها أن تعمل شيئاً ضد المسلمين الأقوياء فى تاريخهم المبكر ، ولكنها إذا كانت عاجزة عن العمل المؤثر ضد المسلمين فإنها استطاعت أن تكون رمزاً كبيراً لحركة المقاومة القادمة على الطريق مع الزمن والأجيال .

وإذا كان الإهمال فى القضاء على هذه المعارضة الباهتة لحكم المسلمين لا يمثل عيباً كبيراً فى خطة الفتح الإسلامية ، وقد يمكن تعليله بشىء مقبول عند المسلمين الفاتحين مثل القول بتسامحهم وعدم لجوئهم للقسوة مع أعدائهم بعد وضوح المستقبل فى جانبهم فإن ترك هذه الجماعة تأخذ طريقها للظهور والنمو والقوة ، وتركها تهاجم المسلمين وتنتهز الفرص فيهم وتنتصر عليهم أحياناً يعتبر عيباً كبيراً وخطأ واضحاً من حكام المسلمين الذين كانت لديهم القوة الكافية للعمل الحاسم ضد هؤلاء المتمردين .

وتزعم هذه الجماعة المقاتلة مغامر جرىء اسمه بلاى أو بلاجيوس فر من أسر المسلمين سنة ٩٩ هـ / ٧١٧ م ، وربما كان واحداً من ضباط القوط المنهزمين أمام العرب ، أو كان واحداً من صميم سلالتهم ، وفى كل الأحوال كان رجلا جاداً يستطيع أن يثير الاهتمام والإعجاب بكفاءته وذكائه ، فكان مقاتلا له عزيمة المغامرين ، وكان مواطناً له حماس المواطنين وإخلاصهم ، وعاش مع جماعته القليلة زمنا طويلا يعانى معهم قسوة البرد والجوع والخوف وعدم الاستقرار ، ثم الحرص على البقاء للنهاية أمام الأقوياء ، وظل دائماً قوى الإرادة صادق العزم ، لا يخضع لأعدائه ولا

يسالمهم ، فكان يفاجئهم بالغارات من مكانه البعيد المنعزل ، ويهاجمهم بعنف ويتحداهم ، ويأخذ مالهم ويزعج وجودهم .

وظهر نشاطه قوياً فى السنوات ١٠٣ ـ ١٠٧ هـ / ٧٢١ ـ ٧٢٥ م ، وانشغل عنه المسلمون بخلافاتهم التى أبعدتهم عن الإدراك السليم لحقيقة العلاقة بينهم وبين أعدائهم ، وأدت هذه الخلافات إلى ترك مناطق واسعة كان المسلمون البربر يكونون فيها حاجزاً بشرياً يحفظ سلطة المسلمين فى الجنوب من أخطار المهاجمين من الشمال ، وكان زعيم المسلمين على النواحى القاصية فى الشمال واحداً من قواد البربر[1] ، ويعرف عنه أنه كان نداً خطيراً للثائر القوطي المتمرد ، فكان يهاجمه ويلح عليه بالحرب حتى يلجئه للحياة وراء الصخور الشمالية القاسية ، ثم جاءت الفرصة المناسبة لزعيم القوط عندما اختلف زعيم البربر المسلمين مع زعيم العرب عبد الرحمن الغافقى فأرسل له عبد الرحمن قائداً بربرياً آخر قتله سنة ١١٣ هـ / ٧٣١ م ، وكان هذا يعنى زوال الخطر المباشر أو زوال بعض الخطر من أمام الثوار الخارجين على النظام والدولة .

وقد كان وجود مونوسة زعيم البربر كممثل للنفوذ الإسلامى البربرى بالمنطقة الشمالية ضروريا لحجز نفوذ المغامرين المسيحيين فى مناطقهم البعيدة وحدها ، وحصر نشاطهم وراء الصخور العاتية هناك ، ولكنه مات بسبب الخصومات والفتن وكان القضاء عليه بيد المسلمين فرجا كبيرا لبلاى وأصحابه .

ولم تتمثل أهم الفوائد التى حصل عليها ثوار الشمال من خلافات المسلمين فى انشغالهم عنهم بأنفسهم ، وتركهم يثبتون أقدامهم فى مواقعهم ، ويجمعون

---

(١) اسمه مونوسة

حولهم الأنصار والمؤيدين وآلات الحرب كلها ، وإنما تمثلت فى أن هذه الخلافات جعلت أصحابها يتركون مساحات كبيرة من الأرض المرغوب فيها عند خصومهم الشماليين ، ويقال إنها كانت ربع المساحات التى كسبها المسلمون بجهدهم أيام الفتوحات الأولى .

لقد عادت أعداد كبيرة من البربر بعد النزاع بينهم وبين العرب إلى إفريقية أو إلى بلاد الأندلس الجنوبية وخلفوا وراءهم مساحات واسعة من الأرض لأعدائهم المتمردين فاحتلها هؤلاء الأعداء بدون قتال أو تضحية ، وعاشوا فيها بلا خوف أو حرج ، وكثرت بالزمن أعدادهم بها وعرفوا فيها الرخاء بعد الحرمان والجوع ، والراحة بعد المتاعب والأهوال .

وانتهت خلافات العرب مع البربر فى هذه المرحلة سنة ١٢٤ هـ / ٧٤١ م بهذه النتيجة الخطيرة لتنشأ الخلافات من جديد حول السلطة بين العرب الشاميين والعرب البلديين ، وكان معنى ازدياد الخصومات بين عناصر الفتح الإسلامية فى سنوات الاستقرار الأولى ضعف هذه العناصر أمام خصومها الآملين فى هذا الضعف لأن فيه حياتهم واستمرار بقائهم ، ولهذا يقال فى التاريخ العربى إن الخطر لم يأت المسلمين بالأندلس من وجود هذه الجماعات القليلة التى كانت ترفض الخضوع لهم والسلام معهم ، وإنما كان يأتى من خلافهم مع أنفسهم ، ومن حروبهم الأهلية التى شغلت وقتهم وأضاعت الكثير من جهودهم .

وإن كان ذلك لا يعنى أن أعداء المسلمين فى هذه المرحلة المبكرة من حياتهم بأسبانيا كانوا يستطيعون الانتصار عليهم أو الإضرار بهم ، فقد كان هؤلاء

الأعداء يريدون أن يثبتوا وجودهم كمعارضين أقوياء لسلطان المسلمين منذ فجر تاريخهم بالأندلس ، فحصروا جهودهم لتحقيق هذا الغرض وحده ، وهيأ لهم المسلمون أنفسهم أسباب هذا الوجود القوى المؤثر .

واستمر الثوار يعملون فى صمت وصدق وإصرار ، واجتهدوا فى استغلال الظروف والزمن لصالح قضيتهم ، وجاءهم المؤيدون من أرض الأندلس ممن كانوا يعيشون وسط المسلمين ويعرفون أحوالهم ، وجاءهم المؤيدون أيضا من البلاد الأوربية المجاورة لأسبانيا ، وكانت هناك جماعات كبيرة تحس بخطورة وجود المسلمين فى هذه البلاد الأوربية

وإذا كان المعارضون لسيادة المسلمين على أسبانيا منذ نجاحهم فى فتحها يتغنون بأنغام الحرية والوطنيـة فيما بينهم وبين أنفسهم فإنهم كانوا يظهرون أحيانا أمام المسلمين وكأنهم كانوا لايريدون من نشاطهم شيئاً إلا أن يسمح لهم بالحياة فى مناطقهم البعيدة ليمارسوا فيها أساليب حياتهم الخاصة ، ولم يجد المسلمون أيام خصوماتهم وقتا كافيـا يلتفتون فيه إلى القضاء على هذا الخطر قبل استفحاله ، وربما كانوا يجدون رغبات أعدائهم أمورا مقبولة أو حاجات غير متعنتة بعد أن جربوا معهم الحروب ، وعرفوا صدق نيتهم فى الدفاع عن أنفسهم ، وكان الثوار يحاولون فرض وجودهم بالأمر الواقع وبالمحاولات الكافية لإقنـاع خصومهم بقبولهم كوحدة سياسية محروسة بالقوة اللازمة لحفظ بقائها .

ثم أحسن بلاى وأصحابه بالقوة المناسبة فهاجموا المسلمين وانتصروا عليهم سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م واضطروهم للرجوع للخلف مسافات كبيرة ، وإذا كان صحيحا أن هذا النصر كان نوعا من تصرفات الحظوظ المفاجئة فإنه كان نصرا

على كل حال، ثم كان نصرا على الأقوياء، وكان حاجة ضرورية مطلوبة لمن كانوا مستضعفين حتى ذلك التاريخ.

ودفع بلاى قوات المسلمين للخلف بالقوة لأول مرة فى تاريخهم، وبلغت دولته ضعف حجمها عند نشأتها الأولى، وكان نصره ـ رغم ضعفه ـ دليلا على أثر الإرادة والعزيمة فى النجاح فى الحروب أمام القوة الغالبة، وبالغ الثوار المنتصرون فى استغلال نصرهم بالدعاية لأنفسهم والدعاية لأهدافهم، وأشاعوا الروايات الخيالية عن تأييد السماء لحركة المسيحيين المكافحين.

وسواء قلنا إن المسلمين تسامحوا مع هذه الجماعة عند ظهورها فتركوها تعيش فى مكانها ولم يلحوا عليها بالضغط والقتال، أوقلنا إنهم عجزوا فعلا عن القضاء عليها بعد أن اتبعت معهم أساليب مرنة غلبتهم بها — كما تشير إلى ذلك بعض روايات التاريخ — فإنهم — ولاشك — عجزوا عن القضاء على هذه القوة بعد أن انتصرت عليهم، والتمسوا لوجودها عند أنفسهم الأعذار المقبولة وغير المقبولة وظلوا يرونها قوة صغيرة لاتمثل خطرا كبيرا على كيانهم النامى، ولم يعدوها حتى بعد نصرها عليهم قوة تهدد وجودهم بالأرض الجديدة.

•

ولم تكن هزيمة العرب المفاجئة مع قائدهم علقمة اللخمى سنة ١٣٣هـ/٧٥٠ـ ٧٥١م أمام بلاى وأصحابه أول هزيمة عرفوها بهذه البلاد بعد انتصارهم على حكامها المستبدين فى عمليات الفتح الشهيرة، لأنهم كانوا قد انهزموا قبل ذلك أمام الفرنج سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م خارج المناطق الأسبانية، وربما لم يشترك أحد ممن كانوا يساهمون فى نجاح حركة المقاومة المسيحية للمسلمين فى شمالى أسبانيا

مع الفرنج في معركة بلاط الشهداء التي يشار إليها عادة كواحدة من المعارك الحاسمة في التاريخ ، وربما كان الفرنج المنتصرون على العرب في فرنسا لا يعرفون أن هناك حركة مقاومة وطنية ناشئة في الأرض الأسبانية ذاتها ، ولاشك أنه لم يكن هناك شيء من الارتباط بين الفرنج الأجانب عن البيئة الأسبانية وبين الأسبان الفارين أمام المسلمين إلى مناطق شبه مجهولة بالشمال الغربي الأسباني ، ولكن هزيمة المسلمين أمام الفرنج في التاريخ المشار إليه كشفت لحركة المقاومة المسيحية بأسبانيا وهي في فترات تكوينها الأولى أن هناك أعداء آخرين للمسلمين في أوربا ، وأن هؤلاء الأعداء من القوة بحيث يستطيعون هزيمة جيش المسلمين والانتصار عليهم في الحروب ، ومثل هذه المعركة كان لا بد أن تثار حول نتائجها وأحداثها الدعايات المسرفة في كل مكان ، وكان لا بد أن يبالغ أصحابها المنتصرون فيها في الدعاية لأنفسهم في داخل بلادهم وفي خارجها معا ، وكان انتصار أعداء المسلمين عليهم يعطي أملا كبيرا للجماعات المسيحية المتعصبة التي كانت تنتظر فرص الضعف عند المسلمين لمهاجمتهم وتلح عليهم بالحرب والقسوة ولذلك كثرت غارات العصابات المتحالفة على المسلمين بعد هزيمتهم في معركة بلاط الشهداء وتجرأت عليهم في أماكن كثيرة.

ولكن انتصار بلاى وأصحابه على المسلمين في معركة « كوفادونجا » سنة ١٣٣ هـ/٧٥٠ م كان عملا من داخل أسبانيا نفسها ، وكان انتصاره على قوات المسلمين لأول مرة عملا خطرا زاد من الإحساس بوجود علاقات عدائية بين المسلمين وبين زعماء القوط الذين تجددت عندهم الآمال في استرداد الأرض الأسبانية من المنتصرين فيها ، وكانت قوات القوط المنهزمة حتى ذلك التاريخ تحاول التخفي والبعد عن الاشتباك الصريح مع جيوش المسلمين حتى لا تثير انتباههم

نحوها ، ولكنها الآن قد هزمتهم وأعلنت عداءها الصريح لهم ، وكان إضعاف قوات المسلمين يعني خدمة الأغراض الأساسية لهذه الجماعات الناشئة .

ومع ذلك فليس هناك مايدعو للقول في وضوح بأن العرب وجدوا منذ وجودهم الأول بأسبانيا معارضة قوية من أهلها الذين عاشوا معهم ، أو من أهلها الذين خرجوا عليهم ، لأن الخارجين عليهم في الشمال كانوا جماعات قليلة ـ كما قلنا ـ ثم زادوا مع الايام عددا وقوة وكان يهمهم في مراحل حياتهم الاولى أن ينسى المسلمون وجودهم بأماكنهم البعيدة ، وأن يختفوا تماما عن الرقابة الإسلامية حتى يأتي الزمن الذي يستطيعون فيه مقابلة العنف بالعنف واستمروا كذلك وقتا طويلا ، وكان العرب يبدأونهم بالحرب كلما أحسوا بوجودهم ، ولكنهم كانوا أحيانا يتحاشون الحرب معهم لقوتهم وتفوقهم ، ويحاولون دائما أن يظهروا أمامهم أنهم يريدون الحياة في سلام وأمن ، وعندما كانوا يضطرون للحرب كانوا يدافعون عن أنفسهم بقوة وشجاعة ، وربما انهارت مقاومتهم أمام جيش المسلمين ولكن انهيارهم كان شفيعا مقبولا أمام المسلمين المتسامحين فكانوا يتركونهم أو يتركون من بقي منهم يعيش بين الأحياء في سلام .

وبعد الجهد والإصرار على البقاء انتصرت القوة الصغيرة المعارضة لنفوذ المسلمين على جيشهم ، وملأها الانتصار بالحماس مع ضعفها وهوان أمرها ، وجلب لها الأنصار والمؤيدين من كل مكان من أسبانيا وغيرها ، ولفت لها أنظار المتعاطفين معها قبل أن تلتفت أنظار المسلمين إلى خطورة وجودها ، ولقد كان عيبا كبيراً يذكره التاريخ لغير صالح المسلمين أن يتركوا هذه القوات تعيش في أماكنها بعد انتصارها عليهم ، فقد أثارها الانتصار وزاد من حماسها ، وكسبت به مكانة ممتازة بين غير المسلمين في المناطق القريبة من بلادها ، وفي غيرها من

المناطق الأخرى ، ولم يكن المسلمون فى ذلك الوقت مشغولين بالاهتمام بالأخطار المحيطة بهم بسبب أعدائهم بقدر ما كانوا مشغولين بالنزاعات الداخلية فى صفوفهم ذاتها ، وكانت صراعاتهم الداخلية خطيرة النتائج وبعيدة المـــدى ، فجعلتهم لا يترقبون الأخطار إلا من زملائهم ولا يتوقعونها إلا من داخل بيئتهم وحدها وكان فى ذلك فرصة الحيـــــــاة للقوات المعارضة لهم فى الشمال البعيد من الأرض الأسبانية .

لقد قضت المنازعات الداخليـة بين المسلمين فى عصر الولاة - ٩٣ - ١٣٨ هـ / ٧١١ - ٧٥٥ م - على أعداد كبيرة منهم ، وصرفت جهودهم عن مراقبة حدود شبه الجزيرة الأسبانية البعيدة ، وشغلتهم عن اليقظة اللازمة لحراسة نظامهم الجديد ومجتمعهم الناشىء .

ويقال عن حركة الاسترداد الأسبانية إنها كانت سلسلة طويلة من الـكفاح المباشر وغير المباشر ضد نفوذ المسلمين بالأندلس وإن لها حلقات رئيسية معروفة ، وإنها استمرت طوال فترات الحـكم الإسلامى لهـذه البلاد ، وتمثلت فى أول ظهورها فى هذه الجماعات الصغيرة التي رفضت الاعتراف بسلطة المسلمين منذ البداية ، ولـكن يبدو الآن أن من المبالغة أن يقال إن حركة المقاومة لسلطان المسلمين فى أسبانيا نشأت منذ وجودهم فيها ، لأن هـذه الحركة لم تـكن واضحة الصورة أو الهدف عند تـكوينها ، ولهذا لا نجد حولها إشارات صريحة فى كتب المؤرخين العرب ، وربما كان هؤلاء يرونها مجرد انتفاضة عصبية أو حركة تشنجية لجماعة قليلة يائسة ، ولم تـكن تدل فى رأيهم على قيام معارضة قوية أو صريحة لنفوذ المسلمين بالأندلس ، ولم يكن عندهم حتى مجرد الظن فى انتصارها على العرب فى أى وقت من حياتهم .

وصحيح أن حركة المعارضة هذه لم تنتصر على العرب انصاراحاسما ، ولم يظهر وجودها طول تاريخهم بالأندلس ، وقد عجزت عن أن تستمر للنهاية قوة واحدة متماسكة أو منسجمة ، فتغيرت وتطورت ، وجاءت بعدها حركات قومية ودينية كثيرة كان لها أبطال جدد توزعت جهودهم واختلفوا وتنازعوا واقتتلوا فيما بينهم ، وربما كانوا يتفقون معا على عداء المسلمين وحربهم ، ورغم ذلك لا نقول بأن تاريخ المسلمين بالأندلس كان كله سلسلة طويلة لحركة صراع مؤسفة لم تنته بينهم وبين أعدائهم إلا بهزيمتهم فى النهاية لأن أوقاتا طويلة من هذا التاريخ كانت تبدو وكأن الفراغ فى إسبانيا كان مشغولا دائماً بالمسلمين وحدهم وبدولة المسلمين وحدها .

وقد يبدو صحيحاً أن نقول إن هذه الحركة المبكرة نجحت فقط فى انتزاع جزء مناسب من الأرض الأسبانية لتقيم عليها وجودها السياسى والعسكرى هناك ، ثم نجحت أيضاً فى أن جعلت المسلمين الأقوياء يعترفون بوجودها وكيانها كقوة منعزلة عن نظامهم وكيانهم ، ثم سارت الحيـــاة بكل النـاس فى الأرض البعيدة عن مراكز الثقل الإسلامية بالشرق الإسلامى ، وحدث ما يشبه التفاهم الواضح بين القوتين الإسلامية والمسيحية ، أو حدث ما يشبه الاتفاق على السلام الظاهرى بينهما .

ونجح المسلمون بعد ذلك فى إقامة الدولة العظيمة المشار إليها فى كتب التاريخ كلها ، ونجحوا كذلك فى جذب أنظار كل من كان حولهم إلى رقى الحياة فى مجتمعهم ، وإلى تطور الحضارة فى بلادهم ، وعاشوا وقتاً طويلا آمنين من الأخطار ، وقادرين على دفعها ، ولم يجد أعداؤهم لهم أملا فى التغلب عليهم أو

أذاهم أيام قوتهم ، فتركوهم لحياتهم الثرية الهائلة ، وحاولوا الاستفادة من تقدمهم وثقافتهم .

واذا كانت وجهات النظر تختلف حول تقدير الأهمية الحقيقية لحركة المقاومة المسيحية التى بدأها جماعة قليلة من القوط الهاربين أمام المسلمين الفاتحين فإن التاريخ القومى لأسبانيا المسيحية يعتبر جهود هذه الجماعة الصغيرة حلقة مهمة من تاريخ حركة الكفاح الوطنى ضد المسلمين فى الأندلس؛ ويعطى لها ولقوادها أهمية بالغة ؛ ويسرف فى تقدير دورها وآثارها، ومن المعروف أن أكثر الكتاب الذين تناولوا تاريخ هذه الحركة الثورية كانوا من رجال الدين المسيحيين الذين يمثلون روح عصرهم ، ويحتفظون فى قلوبهم بأحقاده وخصوماته ، وهذا يعنى أنهم كانوا لا يميلون للكتابة عن الحقيقة لذاتها ، وإنما كانوا يكتبون وهم يحسون بهول الخصومات الدينية ودوافعها .

ولهذا ظل بلاى فى نظرهم فى الطليعة من شخصيات التاريخ الوطنى الأسبانى واقترن اسمه دائماً بصراعه مع العرب والبربر، وأسرف كل من كتبوا عنه فى الإشادة بأمجاده العسكرية وحدها .

وجاءت بعده جماعة من الحكام الأسبان كان منهم ألفونسو الأول المتوفى سنة ١٤٠ هـ - ٧٥٧ م وكان يحكم فى وقت لا يبدو فيه من المسلمين خطر على بلاده أو على دولته التى كونها فى منطقة جليقية عند الشمال الغربى من أسبانيا ؛ وكانت مملكته هذه التى سماها « اشتريش » تمتد من بلاد البشكنس فى الشرق إلى شاطىء المحيط الأطلسى غرباً ، ومن أقصى الشمال عند خليج بسكونية إلى نهر دويرة فى الجنوب ؛ وكانت الجبال تحجبها عن بلاد المسلمين الواقعة فى الجنوب من شبه الجزيرة الأسبانية .

وانشغل المسلمون عن هذه الإمارة الناشئة بشئونهم ومتاعبهم، فأصبحت لها حدود آمنة ؛ ومعالم واضحة ، وقوة تساعدها على الاستمرار والتقدم .

وقد يكون من الممكن التسليم بنوع من الأهمية لحركة القوط المبكرة ومعارضتها لسلطة المسلمين فى الأندلس ، ولكن من غير الصواب أن يقال إنها كانت ترتبط ارتباط عضوياً بحركة الاسترداد المسيحية التى وضحت صورتها الجدية بعد زوال خلافة المسلمين من قرطبة فى أول القرن الخامس الهجرى ، وفى النصف الأول من القرن الحادى عشر الميلادى .

وقد مضت فترة طويلة منذ نشأت حركة القوط الأولى فى أول القرن الثانى الهجرى ، وأول القرن الثامن الميلادى وإلى أن ظهرت حركة الاسترداد المعروفة بعد أيام المنصور بن أبى عامر المتوفى سنة ٣٩٣هـ - ١٠٠٢ م ، وخلال هذه الفترة الطويلة لا نعرف شيئاً كثيراً عن نشاط المسلمين ضد الرافضين لسلطتهم والخارجين على نفوذهم بالشمال الأسبانى ، وهذا يدعو للقول — ونؤكد ذلك مرة أخرى — بأن حركة الاسترداد المسيحية لم تكن أبداً معركة طويلة دامت ثمانية قرون كانت هى المدة التى قضاها المسلمون ببلاد الأندلس ، لأن ذلك يعنى أن الفتح الإسلامى لأسبانيا كان مجرد حادث طارىء طال زمنه وانتهى أمره ، فلقد شغل تاريخ المسلمين بأسبانيا فترة طويلة من حياتها ، وشغل فترة مجيده من هذة الحياة، ولم تكن مقاومة المسلمين بعد الفتح وفى أيام مجدهم إلا حركة يائسة لم تؤثر كثيراً فى تقدم حياتهم وتطورها ، ولم يجد نظام المسلمين معارضة قوية ونشيطة فى فترات طويلة من وجوده ، وبهذا تشير حقائق التاريخ .

ويبدو واضحاً من تاريخ المسلمين فى الفترة التى سبقت قيام الدولة الأموية بالأندلس سنة ١٣٨هـ / ٧٥٥م أن بعض الولاة كانوا مجاهدين مخلصين يعتبرون الحرب

ضد الأعداء عملا عظيما من أعمالهم الأساسية ، فكانوا يحاربون وراء حدود أسبانيا الشمالية ، ومات بعضهم شهيدا وراء هذه الحـــــــدود ، ويعرف من هؤلاء :

(ا) السمح بن مالك : ١٠٠- ١٠٢ هـ/ ٧١٩ - ٧٢١ م .

(ب) وعنبسة بن سحيم الكلبي : ١٠٣ — ١٠٧ هـ / ٧٢١ — ٧٢٦ م .

(جـ) وعبد الرحمن الغـــافقي : ١١٢ — ١١٤ هـ / ٧٣٠ — ٧٣٢ م .

(د) وعقبة بن الحجاج . ١١٦ هـ/ ٧٣٤ م

فقد نقل هؤلاء الحرب إلى بلاد أعدائهم ، واجتازوا حدود أسبانيـــا الشمالية الشرقية إلى البلاد الأوروبية المجاورة ، وكانت قوتهم تعنى أن أية معارضة لنفوذ المسلمين فى أسبانيا كان عليها أن تلتزم بالصمت حتى تنجو من الهلاك بسببها .

وعندما ضعفت سلطة الدولة الإسلامية فى الشرق على بلاد الأندلس أخذ الزعماء المغامرون فيها يكسبون السلطة بها عن طريق الأحزاب المتنافسة فيما بينها على كل شيء حولها ، وتحكمت الخصومات الحزبية والقبلية والعصبية فى السياسة والناس والولاة ، وانشغل هؤلاء بتثبيت مراكزهم والحفاظ عليها، وانصرفوا إلى حرب خصومهم المسلمين ، ولم يدركوا أهمية الأخطار الكامنة فى وجود قوات معادية للنظام الإسلامي بالأندلس ، وكان من هؤلاء الولاة :

(ا) عبد الملك بن قطن : ١٢٣ هـ/ ٧٤١ م .

(ب) وبلج بن بشر القشيرى : ١٢٣ — ١٢٤ هـ/ ٧٤١ — ٧٤٢ م .

(ج) ويوسف الفهري مع الصميل بن حاتم : ١٢٩ — ١٣٨ ﻫ / ٧٤٦ — ٧٥٦م .

وفى عهد هؤلاء الولاة الذين كسبوا السلطة عن طريق القوة وحدها لم يكن أمام المعارضين لنفوذ المسلمين بالأندلس فرصة فقط للحياة فى سلام ، وإنما كانت أمامهم الظروف الطيبة لتوسيع حدود بلادهم على حساب المسلمين ومصالحهم .

***

لقد فقد المسلمون — كما قلنا — بسبب خلافاتهم وهزيمتهم أمام أعدائهم قبل مجىء عبد الرحمن الداخل إلى بلاد الأندلس سنة ١٣٨ ﻫ / ٧٥٥ م ربع المناطق الواسعة التى كسبوها بالحرب والجهد والعمل الناجح، وجاء عبد الرحمن الداخل وكان الأمل قويا عند أعداء المسلمين فى أن يكسبوا المزيد من الأراضى الأندلسية على حسابهم ، ولكن الوافد الجديد أبعد الخطر عن كيان المسلمين بالأندلس ، وأوجد لهم هناك دولة تعمل وحدها ، وتعيش داخل حدودها ، وصحيح أنه لم يسترد شيئاً مما فقده المسلمون قبله بالإهمال والعجز والخصومات والفتن، ولم يحاول أن يرجع بعض المناطق التى ضاعت من المسلمين قبل قدومه، وقد انصرف إلى الحفاظ بالجهد والوعى والقوة على ما وجده مع المسلمين بعد أن أصبح سيدا عليهم ، وأوقف حركة التقهقر الإسلامية للجنوب ، وشغل نفسه وجيشه وحزبه بإعلان الدولة المستقلة عن دولة المسلمين بالشرق لأول مرة فى التاريخ ، وربما كان عاجزا عن أن يدفع حدود هذه الدولة مسافات أبعد إلى الشمال على حساب أعدائه ، أو ربما كان لا يرجو أن يعرض نفسه للخصومة المكشوفة مع المسيحيين حكام الشمال ، وهو يعلم أن له أعداء من

المسلمين أنفسهم فى داخل بلاده ذاتها ، وأن له أعداء أقوياء من العباسيين فى العراق البعيد ومن مؤيديهم فى إفريقية القريبة من بلاده ، وكان يهمه أن يثبت وجوده أولا فى أرض الأندلس وحدها ، وكان يدرى أن هذا سوف يشغله وقتا طويلا ، وقد شغله كما ظن طول حياته ، فعاش بالأندلس ثلاثة وثلاثين عاما قضاها كلها فى بناء الدولة التى لم تزد حدودها أبدا عما أخذه من حكام المسلمين قبله .

ويلتمس المؤرخون له عذراً كبيراً فى هذا السلوك العاجز لأنه كان يعمل فى ظروف صعبة إذ كان يمثل دولة الأمويين المنهارة فى الشرق ، وكان يتحدى باستقلاله فى الأندلس سلطان العباسيين خلفاء المسلمين ، وكانت الأخطار تحيط به فى بلاد الأندلس ذاتها لأنها كانت مشحونة بالمتخاصمين من حوله ، ثم كانت حوله فى إفريقية أخطار قريبة مباشرة ، وفى شمالى بلاده كان له أعداء أقوياء زادت مساحة بلادهم ، وزاد سكان دولتهم ، وأصبح من غير الممكن أن ينجح أحد فى القضاء عليهم ، وكأن الأمر الواقع قد فرض تقسيم أسبانيا فى عهده أو قبل عهده إلى وحدتين سياسيتين ودينيتين مختلفتين ، واحدة منهما مسلمة تكونت فيها لأول مرة دولة لها رئيس مشغول بشئونها ومسئول عنها ، والأخرى مسيحية أصبحت تمثل إحدى القوى المؤثرة فى مصير البلاد ومستقبلها .

وشغل عبد الرحمن نفسه بمدافعة الأخطار الداخلية فى بلاده ، وترك ما بعدها أو انصرف قليلا عنها ، وقد تمثلت هذه الأخطار فى الثورات التى أشرنا إلى أهمها عند الحديث عن قيام الدولة الأموية بالأندلس ، ولم يأته الخطر من حركة المقاومة المسيحية بدولة أشتريش الناشئة فى جليقية وما حولها ، لأنه تركها تعمل لتعيش لنفسها ومستقبلها وتركته بدورها يعمل فى فورة حماسه الصارم داخل

بلاده ليقيم لنفسه دوله مستقلة، وإذا كان قد تعرض لإغارة الفرنج عليه سنة ١٦١ هـ ٧٧٨ م بعد أن تآمر بعض زعماء العرب المعارضين له فى أرض الأندلس نفسها مع شارلمان فإن غارة شارلمان وجيشه على بلاد المسلمين لم تكن فيها شبهة التواطؤ مع حركه المقاومة الأسبانية فى الشمال، وربما لم تكن هذه الحركة قوية أو راغبة فى ذلك الوقت فى الإعلان عن نفسها وتعاونها مع قوات الفرنج المغيرة من خارج أسبانيا على المسلمين فيها، ولذلك تركت شارلمان يعمل فى بلاد الأندلس وحده ضد عبد الرحمن الداخل، ولم يبد منها ما يشبه التأييد أو الموافقة على ما كان يريده بالمسلمين هناك، وربما اعتبرته وافداً أجنبياً تضر تصرفاته قضيتها وهى فى مراحل وجودها الأولى، فلم ترحب به ولم تشاركه فى العمل ضد المسلمين بل عارضته وتسببت فى متاعبه، وكان دور عناصر البشكنس المسيحيين أو شبه المسيحيين أبعد أثراً وأشد خطرا على جيش شارلمان مما قام به جيش المسلمين نفسه، ويشير التاريخ إلى أن قوات الفرنج عانت فى رجوعها من أسبانيا شبه منهزمة من قسوة الغارات التى شنتها عليها قبائل البشكنس عند ممرات جبال البرتات، ولا يعنى هجوم البشكنس على جيش الفرنج عند رجوعه خائباً من أسبانيا أنهم كانوا يتعاونون مع المسلمين فى مدافعة جيش الفرنج وإبعاد خطره، ولا يعنى أيضاً أن هذه الجماعات كانت تنضم إلى قوات المعارضة المسيحية أو كانت تمثل من يرفضون قبول النفوذ الفرنجى بأسبانيا، لأن هناك شكا فى خضوعها لسطوة النفوذ السياسى للمسيحيين المتمردين فى جليقية الشمالية الغربية، وربما كانوا جماعات مسيحية أو نصف مسيحية لم تتخذ بعد لنفسها موقفاً محددا من القوتين الظاهرتين فى أسبانيا، ولكن هجوم هذه الجماعات على جيش الفرنج القادمين من قلب أوربا يدل فى وضوح على عدم التعاطف الظاهر بين المسيحيين فى أسبانيا والمسيحيين فى خارجها، وكأن كل جماعة منهم

كانت تعمل وحدها مهتدية بمصالحها وظروفها أولا وليس هناك دليل كاف على أن الدولة المسيحية الناشئة فى أقصى الشمال الأسبانى اتخذت موقفاً صريحاً من الفرنج عند غارتهم على المسلمين سنة ١٦١ هـ/٧٧٨ م.

واستمرت الخصومة حية بين المسلمين بالأندلس وبين الفرنج فى أوربا، وكانت طرق الاتصال بين القوتين بعيدة عن مجالات النفوذ المباشر للدولة المسيحية الأسبانية، أو ربما لم تكن هذه الحدود بعيدة كل البعد عن سبل الاتصال العدائى بين القوتين ولكن المعارضين للمسلمين فى أسبانيا خافوا من الاتهام بالتواطؤ الصريح مع أعداء المسلمين خارج البلاد الأسبانية حتى لا يعرضوا أنفسهم لغضب المسلمين وانتقامهم أيام قوتهم، ولاشك أنهم كانوا يعرفون عن المسلمين أكثر مما كان يعرف الفرنج القادمون من وراء الحدود الأسبانية، وكانت قوة المسلمين غالبة طول أيام حكامهم الأقوياء الذين أسسوا دولتهم بالأندلس والذين رعوا حياة هذه الدولة بوعى واهتمام.

وظلت الدول المسيحية بالشمال — وكانت الدولة الواحدة قد توزعت بسبب الخصومات والفتن بين أصحابها إلى دول متعددة — ظلت هذه الدول طول العهود التى كان للمسلمين فيها قوة غالبة أشبه بالمحميات المستضعفة لدولة المسلمين بالأندلس، وكان عليها أن تلتزم بالصمت أو بالوسائل المؤدية للحياة فى سلام وقد سمح لها المسلمون المتسامحون بطبيعتهم بالحياة فى حدود ارتباطها معهم بنوع من الولاء أو بنوع من التفاهم غير المعروف لنا الآن، وإذا لم يكن ممكناً لكل سكان شبه الجزيرة الأسبانية أن يعيشوا معاً فى رعاية نظام واحد، وفى ظل دولة واحدة — وهذه كان لابد أن تكون دولة المسلمين وحدهم — فإنهم جميعاً قبلوا أن يتقابلوا عند الرأى القائل بالسماح للنظامين بإقامة الكيان الذى يتفق مع آمالها

وفلسفتهما فى الحياة ، وقبل الجميع المشاركة فى الحياة بأسبانيا مع التسامح الطيب ، ولاشك أن التسامح كان واضحاً فى جانب المسلمين وحدهم لأنهم حتى القرن الحادى عشر الميلادى كانوا يملكون القوة الكافية للاضرار بأعدائهم ، ولكنهم لم يلجئوا لاستغلال هذه القوة ضد هؤلاء الأعداء رغم ضعفهم وهوان شأنهم .

وبمقارنة سريعة بين سلوك المسلمين أيام قوتهم مع خصومهم الذين ظلوا ضعفاء حتى القرن الخامس الهجرى ، والقرن الحادى عشر الميلادى وبين سلوك المسيحيين بعد أن ملكوا القوة بعد هذا التاريخ ، - وبعد أن انقلب ميزان القوى لصالحهم - نجد أن سلوك المسيحيين كان مغايراً جداً لسلوك المسلمين معهم ، فقد ظلموهم وبغوا عليهم ولم يسمحوا لهم بالحياة معهم فى سلام ، واستمروا يلحون عليهم باستعمال وسائل الموت حتى قضوا عليهم وطردوهم من بلادهم كلها وكانوا لا يذكرون إلا أنهم كانوا غرباء عنها حتى بعد أن قضوا بها هذا الوقت الطويل .

ونقول أيضاً إن قوة المسلمين ربما كانت كافية أيام مجدهم للقضاء على خصومهم بالأندلس ولكن ذلك لم يكن فى نيتهم أو من أخلاقهم ودينهم ، وبعد ذلك لم تصبح المحاولة — إذا أرادوها — سهلة بعد أن استقرت الأوضاع السياسية والجغرافية ، أو بعد أن قاربت أن تستقر بينهم وبين أعدائهم ، وبعد أن ازدحمت المناطق الشمالية بجماعات مسيحية كانت تحاول الدفاع عن نفسها بشجاعة وترغب فى الصمود أمام أعدائها حتى النهاية ، وبعد أن وضحت الصورة فى شكلها النهائى أو بعد أن اتخذت لها شكلا ثابتاً بين الجماعتين ، وساعد الأمر الواقع على أن ينحصر نشاط المسلمين فقط فى المنطقة التى سلمت لهم أخيراً ، وعلى أن يلجأ المسيحيون إلى الحياة فى المناطق التى انتزعوها من المسلمين أمام خصوماتهم ومنازعاتهم الطويلة .

لقد اتجه الأمويون منذ تأسيس دولتهم إلى عدم التورط فى معارك كبيرة خارج حدود البلاد الإسلامية ، وكان من أسباب ذلك أن شعب الأندلس استمر قلقا ناقدا لايستقر حاله ولا تهدأ ثورانه ، وكان الحكام الأمويون فوق ذلك راغبين فى حراسة الازدهار الذى أتاحوه لبلادهم ، وفى محاولة صهر العناصر الكثيرة التى كان يتكون منها شعبهم فى وحدة شاملة لتنشأ من هذه العناصر أمة واحدة تشعر بالهدف الواحد والمصير الواحد ، وساعدتهم قوتهم على تحقيق الاستقرار المطلوب لبلادهم ، وعلى خوف أعدائهم منهم ، وقدتسامحوا مع هؤلاء الأعداء ،أو أدركوا أن وجودهم بأسبانيا أصبح أمرا يجب قبوله ، وكان يشفع للأمويين أمام أنفسهم وأمام شعبهم أن هؤلاء الأعداء لم يأخذوا من دولة الأمويين شيئا ، وأن كل ماأخذوه من بلاد المسلمين كان قبل قيام هذه الدولة ، ولم يروا أنفسهم مسئولين عن أخطاء من سبقوهم ، أو هكذا كان رأيهم لأن التاريخ لايشير فى صراحة إلى وجود محاولات قوية قام بها الأمويون ليردوا للمسلمين شيئاً مما خسروه قبل إعلان دولتهم ، وكأنهم كانوا لايشعرون بهذه المسئولية فى يوم واحد من تاريخهم كله.

وأصبحت أسبانيا قبل قدوم عبد الرحمن الداخل مقسمة إلى جزأين كبيرين ، أحدهما كان يخضع لسلطة المسلمين فى الجنوب ، والآخر كان يخضع لسلطة المسيحيين فى الشمال ، ولا نعرف شيئا كثيرا عن حقيقة العلاقات التى كانت تربط بين من كانوا يمثلون نظامين مختلفين فى منطقة واحدة ، ولا نظن أن التعصب القومى أو الدينى كان واضحا أو مؤثراً عند كلا الجانبين طول حكم الدولة الأموية إلا عند فترات الحروب غير الحاسمة التى كانت تقوم بينهما ، ولم تكن الحروب بينهما حروبا دينية بالمعنى المفهوم للحروب الدينية فى التاريخ ، وإنما

كانت تبدو فى كثير من مظاهرها حروبا صغيرة ، أو غارات تقليدية لاتفيد شيئاً إلا فى تثبيت الحكام من الجماعتين فى أماكنهم الممتازة، وكأنهـا كانت أقرب للحروب السياسية منها للحروب الدينية.

وانصرفت القوتان لشئـونهما ، وكانتا فى مراحل تكوينهما الأولى، انصرف الأمويون لتأسيس دولتهم فى القرن الأول من وجودهم ببلادالأندلس ١٣٨ - ٢٣٨ هـ/ ٧٥٥ - ٨٥٢ م وتركوا شئون الشمال الأسبانى لأهـل الشمال وحدهم ، وكان هؤلاء لايتوقعون الكثير من المفاجآت العسكرية الآتية عن طريق المسلمين حكام الدولة الجـديدة ، ولا يعنى انصراف القوتين لشئونهما أنهما لم يتورطا فى حروب تثير انتباه كل منهما للآخر ، وإنما يعنى عدم حدوث حروب حاسمة تغير شيئاً مما كان مستقرا من الأوضاع عند الجانبين معا ، ولم يكن ممكنا أن تزول الخصومات أو أن تضيع أسبابها بين قوتين لم يكن مأمولا أن يلتقيا حول شىء واحـد يجمعهما ، وإذا كان حكام المسلمين الجدد قد قنعوا بما وجدوه فى أيدى المسلمين بعـد خلافاتهم العقيمة أيام حكم الولاة أو أيام فترة التكوين لقيام الدولة الأموية، فإن أعداءهم سادة الممالك الشمالية ما كان يغيب عن خواطرهم أنهم ملتزمون بتحقيق هدف دينى وقومى صريح ،وهناك كان ألفونسو الثانى - الذى عاصر الأمير هشام بن عبد الرحمن وابنه الحكم - يتناوب الحروب مع المسلمين فى السنوات ١٧٩ هـ ٧٩٥ م ، ١٩٣ هـ ٨١٠ م ، ٢٠٨ هـ ٨٢٣ م ، وكانت هذه الحروب تدل على بقاء الخصومة بين قوتين متعاديتين فى أسبانيا.

* * *

وفى فترة انهيار حكم المسلمين بالأندلس ٢٣٨ - ٣٠٠ هـ / ٨٥٢ - ٩١٢ م ازداد الضغط عليهم بالثورات والفتن الداخلية ، وإذا لم يضطروا فى هذه الفترة

غير المشرفة من تاريخهم لأن يواجهوا حروباً صريحة تهدد وجودهم فى بلادهم فإنهم واجهوا فتن المولدين وغير المولدين الذين أرادوا تحطيم السلطة الإسلامية الواحدة ببلاد الأندلس ، وقام زعماء الفتن الداخلية فى بلاد المسلمين بأخطر الأدوار التى هزت كيان الدولة وعرضتها للضياع الأخير ، وكانت قوات الدول المسيحية الأسبانية تقف وراء الفتن المتراكمة فى بلاد المسلمين لتحقق بها أكثر مما كانت ترجوه من النصر فى الحروب المكشوفة ، وكان أى هجوم مسيحى يستطيع أن يؤثر بالضرر على دولة المسلمين فى هذا التاريخ ولكنه فى الوقت نفسه قد يأتى ببعض النتائج العكسية مثل أن يساعد على تقارب قوات المسلمين وتآلفها أمام الأخطار الخارجية ، وقد جاءت الفرصة المناسبة لأعداء المسلمين فى هذه الفترة لتفتيت وحدتهم وتمزيق صفوفهم ، وهذا كان يشكل أعظم الأخطار على الكيان السياسى لدولتهم المتحدة بالأندلس ، وربما كان المسيحيون يترددون من جانبهم فى القيام بعمل حاسم ضد المسلمين فى هذه الفترة من حياتهم لأن المسئولية فى بلادهم نفسها كانت مضطربة ، أو لم تكن واضحة فى جانب واحد أو عند دولة واحدة من دولهم ، وقد كانوا بدورهم يعيشون فترة من فترات التبلور فى نظامهم السياسى أو كانوا يمرون فى دور من أدوار التشكيل المؤثر فى مستقبلهم ، فكانوا يتصارعون فيما بينهم فى محاولة يائسة للاندماج فى شبه وحدة سياسية تكون مسئولة عن تحقيق الأهداف الدينية والقومية المتفق عليها بينهم جميعاً .

* * *

وجاء القرن الرابع الهجرى ٣٠٠ - ٣٩٩هـ / ٩١٢ - ١٠٠٨م وكان فيه للمسلمين أقوياء بوحدتهم تحت زعامة خليفتهم الشهير عبد الرحمن الناصر ، وتحت

زعامة ابنه المستنصر ثم الحاجب المنصور من بعده ، ولم تمن قوتهم المتفوقة فى هذا العصر الذهبى من تاريخهم إلا أنهم كانوا يستطيعون الرد بكفاءة على الإساءات العسكرية التى يمكن أن يفاجئهم بها أعداؤهم ، وإلا أنهم كانوا يستطيعون القول بأنهم أصبحوا من جديد قوة عسكرية هائلة ووحدة سياسية منسجمة .

وكان المسلمون خلال هذا القرن يملكون قوة كبيرة معروفة بالمنطقة كلها حتى أصبحت الممالك المسيحية معها محميات حقيقية لدولة المسلمين بالأندلس، فكان عليها أن تلتزم بالتعهد بدفع ضرائب مالية للحكام المسلمين الأقوياء ، ومن المعروف فى التاريخ أن المسلمين فى عهدى الناصر والمنصور كانوا يتدخلون فى تعيين بعض الحكام للدول المسيحية الأسبانية ، وكانت تأتيهم الوفود من كل مكان بأوربا وازدهرت بلادهم بتقدمها الحضارى وتفوقها فى كل شىء وأعلنت وصايتها على الإمارات المسيحية المتأخرة فى شمالى أسبانيا، ولم يشر التاريخ مع ذلك إلى أنهم حاولوا بقوتهم المتفوقة أن يزيلوا الوجود السياسى والعسكرى للدول المسيحية الأسبانية فى الشمال، لأن ذلك لم يكن من تخطيطهم السياسى أو من أهدافهم القوميـة ، وربما بدت لهم محاولة ذلك مخالفة صريحة لسلوكهم كشعب كريم متسامح أو وهماً عقيما لا فائدة فيه ، وبدا واضحاً أن المسلمين كانوا قد قبلوا وجود الدول المسيحية حيث هى بالشمال الأسبانى ، وأدركوا عدم الجدوى من الصراع معها بغرض القضاء عليها .

ومع هذا الشعور الإنسانى المتطور استمر الصراع العسكرى قائما بين الجانبين، وظهر تفوق المسلمين فى الحروب التقليدية التى أثاروها ضد أعدائهم أو التى أثارها ضدهم خصومهم سكان الشمال فى السنوات ٣٠٨هـ/ ٩٢٠م ، ٣١٢هـ/ ٩٢٤م (١) ،

(١) هناك حروب كثيرة أخرى تشير إليها كتب التاريخ بالتفصيل ، وليس لها أهمية خاصة فى حركة الصراع بين المسلمين وبين أعدائهم خلال هذه الفترة الممتازة من تاريخهم بالأندلس

وانتصر الخليفة عبد الرحمن الناصر على أعدائه انتصاراً كبيراً لم يكن الهدف منه إزالة الوجود السياسى أو العسكرى لبعض دول أسبانيا المسيحية ، ولم يستغل الخليفة المسلم انتصاره لتحقيق شىء إلا لإضعاف هذا الوجود والإلحاح عليه بالخطر .

ومع ذلك فلم يكن الانتصار دائما حليفاً للمسلمين وحدهم فى عهدهم الذهبى ببلاد الأندلس ، فقد كانوا معرضين بدورهم للهزيمة أمام أعدائهم ، وقد انهزم الخليفة الناصر نفسه أمام خصومه سنة ٣٢٧هـ / ٩٣٩م ، وسواء أكانت هزيمته هذه بسبب خيانة بعض من كانوا فى صفوف جيشه ، أو بسبب قوة أعدائه وحدها ، أو بالأمرين جميعاً فإنها كانت هزيمة مؤسفة لم يفكر بعدها فى قيادة جيش المسلمين مرة أخرى .

وكان انتصار القوات المسيحية على جيش عبد الرحمن الناصر يعنى أنها أصبحت قوة كبيرة لا تملك فقط وسائل المقاومة الكفيلة برد غارات جيشه الكبير بل وتملك معها كذلك وسائل الهجوم عليه وهزيمته .

واستمرت الأسر الحاكمة بأسبانيا المسيحية لا تختلف على ضرورة حرب المسلمين ودفع خطرهم ، وكان لأعداء المسلمين بشمالى أسبانيا فى ذلك التاريخ ثلاث دول هى :

(ا) قشتالة .

(ب) وليون .

(حـ) ونافار .

وكانت تحكمها أسر ملكية تختلف وتتنازع وتتقاتل فيما بينها ، ولكنها كانت

تتفق أحيانا على إشاعة السلام بينها لفترات طويلة لأن روابط القرابة والمصاهرة كانت تجمعها كلها ،وعندما كانت فترات السلام تسود بينها كانت تقاتل المسلمين فى شبه وحدة متماسكة وكانت تتعاون عند قتالهم حتى فى أوقات خصوماتها المشتعلة ، وإذا بدت هذه الدول متخاصمة فى فترات من حياتها فإنها فى كل أوقاتها كانت تتنافس على حرب الأندلسيين وإضعافهم، وقد كان هذا غرضاً قومياً وهدفا دينياً التزمت به كل هذه الدول أمام شعوبها وكنيستها ، وبدا فى حالات كثيرة أن ميدان العمل الحربى والمغامرات العسكرية كان مفتوحاً دائما أمامها فى بلاد المسلمين وحدهم ،وإذا كانت هذه الدول تتقاتل وتتصارع فيما بينها فإن حروبها لم تكن غالباً إلا لفرض الوحدة على من كان يرفضها منهم ، وإلا لفرض التماسك لتحقيق الهدف الأكبر وهو النصر على المسلمين فى النهاية .

وفى عهد المنصور ٣٦٦ ــ ٣٩٢ هـ / ٩٧٦ ــ ١٠٠٢ م تبلورت الأوضاع السياسية والعسكرية فى الممالك المسيحية الإسبانية إلى أن أصبحت قشتالة أقوى الدول المسيحية فى الشمال ، وألح عليها المنصور بالحروب إلا أن إلحاحه هذا كان يعنى أنها كانت تتحمل وحدها أمام قريناتها عبء الدفاع عن مستقبل الدول المسيحية فى أسبانيا كلها، وأضفى ذلك عليها أهمية كبرى بين غيرها من الإمارات المسيحية الأخرى ، ومن المعروف أن المنصور كان يحقق لنفسه ولشعبه انتصارات باهرة على الأعداء فى كل مكان، وأن جيشه القوى كان يمثل الخطر الدائم على وجود الإمارات المسيحية فى أسبانيا ، ويقال فى التاريخ إنه قاد ضد الإمارات المعادية له خمسين حملة عسكرية انتصر فيها كلها، وإن أعداءه لم يكونوا يتمنون شيئاً أعظم من هلاكه ، حتى إذا مات قالوا : إنه دفن فى الجحيم ، ومع ذلك فلم يحاول

للنصور بجيشه الغالب وبحماسه البالغ أن يزيل الوجود السياسي أو العسكرى للامارات المسيحية المستقرة فى الشمال والغرب من أسبانيا .

وهذا يعنى أن المنصور — وهو واحد من أعظم القواد العسكريين الذين عرفهم تاريخ الأندلس كله — لم يحاول توحيد الأرض الأسبانية كلها تحت زعامة واحدة ، وهناك شك فى أن يكون عاجزاً عن تحقيق ذلك ، ومن الحق أن هذه الأرض لم تتحد أبداً منذ فتحها المسلمون ، وأنها ظلت منذ أيام الفتح تمثل وجهتى نظر مختلفتين، ولم يكن ممكناً لأحد الجانبين أن يقضى على الآخر بوسائله المتاحة ويلفت الانتباه دائماً أن المسلمين طول حياتهم كانوا يقرون — فى صراحة أو فى غير صراحة — بوجود قوتين فى أسبانيا ، وكانوا يعطون لأعدائهم حق الحياة معهم فى بلد واحد ، وإن جاءتهم القدرة الكافية فى بعض مراحل تاريخهم للقضاء عليهم، وأما أعداؤهم فكانوا يرون أن وجود المسلمين لم يكن إلا مرحلة مؤقتة من مراحل تاريخ بلادهم ، فكانوا يقرون بهذا الوجود تحت ضغط القوة وحدها ، وهذا يعنى بوضوح أن الضرورة كانت تلزم المسلمين بحمل السلاح دائماً ليحافظوا على وجودهم وبقائهم طول تاريخهم بالأندلس .

وربما لم يجد المنصور إزالة الوجود السياسى والعسكرى للامارات المسيحية فى الشمال شيئاً ممكنا رغم قوته وتفوقه، وكان هذا الوجود قد استقر وقتاً طويلا، وعاشت القوات المعادية لسلطان المسلمين بالأندلس فترات طويلة منذ تكوينها على هامش الحياة بالمنطقة أو لم يكن لها تأثير واضح فى حياة الأندلسيين الأقوياء ، ولكنها خلال هذه الفترات الطويلة كانت تبنى لنفسها كياناً ثابتاً ووجوداً قوياً فى أماكنها البعيدة حتى استطاعت أخيراً لا أن تثير فقط الفتن والمتاعب فى بلاد المسلمين وترعاها بل وأن تقاومهم بإصرار عند الخصومة وهم فى أقصى حالات قوتهم ومجدهم .

وبعد ذلك لم يصبح التفكير فى إزالة هذا الكيان المعارض للمسلمين وارداً أبدا عندهم، وربما لم يرد على فكرهم فى كل أوقاتهم ، ولقد جاءتهم الفرص الذهبية فى عهد المنصور وانتصروا فى كل حروبهم ، ولكن هذه الحروب كانت أشبه بغارات الصوائف والشواتى المعروفة عند المسلمين فى الشرق ، ولم يكن الغرض منها القيام بعمل حاسم لإنهاء قضية الصراع الطويل بين الجانبين المتعاديين بقدر ما كان الغرض منها إبقاء هذا الصراع حيا بين جماعتين مختلفتين فى العقيدة الدينية وفى كل شىء غيرها ، أو كان الغرض منها الإعلان عن الوجود القوى بالمنطقة الأسبانية ، وتأديب المعتدين على حرمة السلطات الحاكمة ، أو على بعض طوائف الشعب المحروسة بالقوة .

وكانت حروب المنصور تثير حماس المسلمين وترضيهم ، وتخدم بعض أغراضهم وتؤمن وجودهم ، وكانت مع ذلك تخدم أغراض حاكمهم القوى فى الإعلان عن نفسه ، وهذه كانت من بعض الأغراض الأساسية التى شغلت المنصور طول حياته ووجهت جهوده وكيفتها ، لأنه كان وافدا غريبـا على السلطة فى النظام الإسلامى ، ولم يكن يشفع له فى استمرار سيادته على النـاس إلا أن يثبت لهم كفاءته فى حكمهم وحمايتهم ، ولذلك أجهد نفسه وشعبه فى حروب طويلة متصلة ضد أعدائه وأعـداء دولته ، وإذا كان قد انتصر فى حروبه كلها — كما يشير إلى ذلك التاريخ بوضوح — فإن انتصاره لم يكن حاسماً ، ولم يكن يعنى هزيمة أعدائه فى النهاية ، إذ لم يكن الانتصار فى معاركه يعنى شيئاً غير إسكات صوت المنهزم حتى يستعد لمعركة أخرى فى المستقبل ، وهكذا ظل أعداؤه يتلقون ضرباته ويقاومونه وكأنما كانوا يتبعون معه خطة عسكرية

تسميها نحن الآن « حرب الاستنزاف » لقد دارت الحروب طول عهد المنصور بين قوات المسلمين بالأندلس وبين القوات المسيحية فى شمالى أسبانيا ، وظهر فيها تفوق المسلمين وكفاءتهم ولكنها استنزفت جهدهم وقضت على اقتصادياتهم ، وجعلت بلادهم تتعرض بعد موت المنصور لثورات خطيرة قامت بها عناصر نشيطة من صميم الشعب الأندلسى نفسه .



ثم سقطت دولة العامريين سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٨ م وسقطت بسقوطها دولة الأمويين سنة ٤٢٢ هـ - ١٠٣١ م ، وتفتت وحدة المسلمين ، وتوزعت الإدارات فى بلادهم بين مجموعاتهم العنصرية الرئيسية : العرب والبربر والصقالبة والمولدين ، وحكمت كل جماعة من هذه الجماعات فى منطقة منعزلة من بلاد الأندلس ، ولم تتحد حتى بعض هذه العناصر فيما بينها ، وأصبح للعرب هناك دول أو ما يشبه الدول ، وأصبح للبربر مثل هذه الدول أو أكثر منها ، ولعب الصقالبة دورهم فى السيادة على بعض المناطق الإسلامية ، ونشط المولدون من جانبهم فى البحث عن أماكن أخرى يمارسون فيها حق السيادة والزعامة على الناس ، وكانوا قد شاركوا فى بناء مجد بلاد الأندلس ، وأصبحوا عنصراً هاماً من عناصرها .

وبهذا ضعفت قوة المسلمين ببلاد الأندلس أو تلاشت ، ومال ميزان القوى لتيرصالحهم ، وكان لأعدائهم فى الشمال ثلاث دول كبيرة هى :

(أ) نافار .

(ب) قشتالة .

(ح) ليـون .

وحاول سانشو الـكبير ملك نافار أن يمارس بالقوة نوعاً من السلطة على أسبانيا المسيحية كلها لتبدو موحدة أمام أعدائها، وبذلك وجدت القوات المعادية للمسلمين الفرصة المواتية للقضاء على دولهم الصغيرة المتفرعة عن دولة الأمويين بالأندلس بعد زوالها ، ولـكن هذا الملك توفى سنة ١٠٣٥ م فتوزعت مملكته بين أولاده الأربعة ، واقتتل هؤلاء الأبناء فيما بينهم على السلطة والسيادة ببلادهم ، وبذلك نجا المسلمون من خطر الضياع السريع ، وإن لم تسفر حروب أعدائهم إلا عن نوع من التماسك والوحدة من جديد رغم تعدد دولهم .

وبعد الصراع الناشب عند وفاة الملك المشار إليه لم تزد الوحدات المسيحية على خمس إمارات غير منسجمة كانت تختلف فى درجة القوة والثروة ، وبعضها كان يفرض نفوذه على الآخر ، وكلها كانت تتفق على السياسة الصريحة الهادفة إلى التخلص من المسلمين فى كل البلاد الأندلسية .

وأما دول المسلمين فقد بلغت عشرين دولة تجتمع كل واحدة منها حول القواعد الأندلسية الشهيرة مثل قرطبة ،وإشبيلية ، وغرناطة، ومالقة ، وبطليوس، وطليطلة ، وسرقسطة وغيرها ،وكان يبدو فى هذا الوقت المبـكر من ظهور الدول الإسلامية الـكثيرة بالأندلس نوع من توازن القوى بينها وبين أعدائها ، أو ربما كانت القوتان متداعيتين فى ذلك الوقت : قوة الأندلسيين فى الجنوب ، وقوة الأسبان فى الشمال ، ولـكن هؤلاء كانوا يدركون بوعى أن التشتت ليس فى صالحهم ، وكانوا يرون ضرورة العمل السريع من أجل الوحدة بينهم،فتحاربوا

لتحقيق هذه الوحدة ، وكانوا يقصدون بها دائماً وحدة الهدف أو وحدة العمل ضد المسلمين فى الأندلس ، وأما المسلمون فرغم أن هزيمتهم كانت غرضاً أساسياً تنبق عليه سياسة خصومهم علنا ، فلم يكن عندهم الإدراك الكافى بأهمية الوحدة فيما بينهم ، فكانوا يتحاربون ، وتزيدهم الحروب ضعفاً وتخاذلا ، وكانوا يستعملون أساليب العنف والقسوة فى التعامل مع أنفسهم ، ولم يتأخر الضعيف منهم عن أن يتحالف مع أعدائه حكام الولايات المسيحية ضد زملائه إخوة المصير الواحد ، فتعرضوا لهجوم أعدائهم المتحالفين ضدهم ، ولم يستطيعوا أن يكونوا من أنفسهم قوة دفاع واحدة تحميهم من الأخطار المؤكدة .

وإذا كان الأسبان ينظرون للأندلسيين على أنهم أعداؤهم التقليديون ، ويبحثون عن الوسائل الكافية لهزيمتهم ، فإن الأندلسيين عجزوا عن إدراك خطورة هذا الشعور المؤسف ، وكان إحساس الأسبان بالعداء الشديد لهم يجمعهم على الرغبة فى ظلمهم والاعتداء عليهم .

ومعنى هذا أن الأندلسيين كانوا فى ذلك الوقت غرضاً سهلا لأعدائهم ، وكان هذا يغرى أعداءهم بالحرب ضدهم والقسوة عليهم ، وتغافل الكثيرون من المعرضين للأخطار عن إدراك حقيقة الشعور العدائى ضدهم ، أو عجزوا عن عمل شىء بعد أن ضلوا طريق التضامن والاتحاد والقوة ، ولم تظهر منهم اتجاهات صريحة للاتحاد بغرض البقاء فى الأرض التى كانوا يعيشون عليها منذ زمن طويل ، وكان أمل أعدائهم فى التغلب الأخير عليهم لم يقابله وعى كاف أو اهتمام جاد من جانبهم لتفادى تحقيق هذا الأمل ، وبدا أن تسامحهم مع أعدائهم كان نوعاً من العجز المعيب أو نوعاً من الغفلة المهلكة ، وقد أشرنا إلى أن الأندلسيين حتى فى أيام قوتهم لم يخططوا

القضاء على النفوذ المسيحي بالمناطق الشمالية بل تركوا الدول المعادية لهم تعيش معهم في الأرض الأسبانية نفسها ، ولم يظهر من حروبهم مع هذه الدول أنهم كانوا يحاولون القضاء عليها ، وعندما ضعف شأنهم اختلف سلوك أعدائهم عن سلوكهم، فحرصوا على القضاء عليهم ، وكان على الأندلسيين أن يبحثوا عن العمل النافع لتفادي الأخطار التي بدا وقوعها محققاً في المستقبل .

واختلفت الدول الإسلامية الكثيرة بالأندلس وزادت خلافاتها ، ولم يكن أعداء المسلمين يرجون لهم شيئاً أعظم من أن يختلفوا وتتشتت جهودهم ، فأخذوا يغرون بعضهم بالتأييد والمساندة ضد بعضهم الآخر ، ويهددونهم بوسائل الضغط السياسي والعسكري والاقتصادي معاً ، فتسابق ملوك المدن المسلمون إلى طاعة الأمراء المسيحيين والاحتماء بهم ، ودفعوا لهم الضرائب المالية المرهقة ، وكأن الشعب الأندلسي في عصر الطوائف كان يعمل ليكسب رزقه ، وليرضى تطلعات ملوكه ، وليدفع ضريبة البقاء لأعدائه معاً .

وتطورت الأحوال بالأندلسيين المستضعفين حتى أصبحت دولهم محميات مسيحية متخاذلة ، وكانت هذه المحميات الكثيرة تلجأ في حروبها مع جيرانها الأندلسيين لطلب النجدة من عدوها المشترك ، وكانت تستأجر جنود الأعداء لتضرب بهم شركاءها في كل المقومات القومية المعروفة .

وظهر التفوق المسيحي على المسلمين منذ أواسط القرن الحادي عشر الميلادي ، وقاد أعداء المسلمين ضدهم سلسلة طويلة من الغارات العنيفة التي تبلورت على أثرها سياسة الاسترداد المسيحية ، وأصبحت هذه السياسة ظاهرة قوية ،

وعاملا حاسما في ميدان الصراع بين القوتين المتنازعتين بالمنطقة ، ولم يتردد أعداء الأندلسيين في الضغط عليهم وابتزاز ثرواتهم ، وكانوا في كل الأوقات يخططون لطردهم في صراحة، ويعلنون ضرورة بقاء المسيحيين وحدهم في أسبانيا كلها.

وكان من مظاهر التعدى التى تعرض لها المسلمون أن هاجم فرناندو الأول — ملك قشتالة وليون — مملكة بطليوس سنة ١٠٥٧ م فدفع له حاكمها ابن الأفطس كل ماطلبه من المال ، ثم هاجم طليطلة سنة ١٠٦٢ م فاعترف له ابن ذى النون بالولاء والطاعة ، وهاجم بعد ذلك إشبيلية سنة ١٠٦٣ م فقدم له المعتضد بن عباد الهدايا والضرائب المطلوبة ، وكان هذا يعنى خضوع الثلاثة الذين كانوا يحكمون أكبر الممالك الإسلامية لسلطة هذا الملك المسيحى الطاغية الذى كان يتفوق على المسلمين فى حروبه ، وقد أعطاه الفوز عليهم فرصة التقول بسيادته على الممالك الأسبانية التى لم تكن خاضعة لنفوذه ومنها مملكتا نافار وأراجون وكان يوسع بلاده فى قشتالة إلى الجنوب وإلى كل جهة على حساب المسلمين وغير المسلمين ، ثم وزع بلاده على أولاده سنة ١٠٦٤ م وجعل لكل منهم حقا ماليا مفروضا على الإمارات الإسلامية التى تعرضت لطغيانه وظلمه .

وتصارع الأخوة الثلاثة أبناء فرناندو الأول بعد وفاته فى السنوات ١٠٦٧م ، ١٠٦٨ م ، ١٠٧١ م ، وفر اثنان منهما إلى بلاد المسلمين للحماية من طغيان أخيهما المنتصر ، وعاش ألفونسو الهارب تسعة أشهر عند المأمون بن ذى النون حاكم طليطلة ، ووجد أخوه الآخر لنفسه مكانا آمنا فى أشبيلية بين الأندلسيين .

ثم سقط الأخ المنتصر ضحية لعوامل الخيانة من داخل بلاده ذاتها وأصبح

ألفونسو السادس ملكا على قشتالة وليون وجليقية سنة ١٠٧٢م ، ورغم أنه احتمى بالمسلمين من قسوة أخيه فترة من حياته المضطربة إلا أن سياسة الإذلال الحقيقية جاءتهم على يديه ، فتدخل فى شئونهم ، وصرف جهده للتغلب عليهم واحدا بعد الآخر وقد كان من أهم أهدافه أن يقضى على من حموا ضعفه ورعوا ضيافته ، انعقد مع المعتمد بن عباد ملك إشبيلية حلفا يتعهد فيه سيد إشبيلية بتركه يهاجم طليطلة لتسقط أمامه ، ويضيفها لبلاده سنة ٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م ، وكان الأندلسيون أيام الصراع بين حكام طليطلة وملك قشتالة يتفرجون على مصرع واحدة من أعظم إماراتهم وأهمها شأنا ، وكأن ذلك كان حكم القدر الأخير الذى ليس لأحد معه حيلة ، ولزموا الصمت أمام الخطر ، وكان بعضهم من حلفاء الملك المعتدى وأتباعه وإذا كانوا لم يساعدوه فى التعدى على وطن المسلمين وظلمهم إلا أن سكوتهم كان كافيا لانتصاره عليهم ، إذ لم يكن يحارب وحده بل كانت تجتمع حوله جماعات متعصبة من غير بلاده ، وقد جاءته من بلادها البعيدة لتساند جهوده ولتعاونه فى إسقاط طليطلة التى كانت عاصمة القوط القديمة ومركز الكنيسة المسيحية فى أسبانيا كلها .

وكان الاستيلاء على مدينة طليطلة من أعظم أعمال هذا الملك ، وأخطر هزيمة واجهها الأندلسيون حتى ذلك التاريخ ، وبهذا الاستيلاء زادت سياسة الاسترداد المسيحية وضوحا وانكشافا .

ثم استيقظ المسلمون على نذر الضياع والخطر ، ولم يعفهم ألفونسو المنتصر من طلب المال والتهديد بالحرب فى كل مناسبة ، وكان قد بقى أمامه حليفه ابن عباد حاكم إشبيلية فطالبه بالإتاوات المفروضة عليه وألح عليه بالتخويف بالعقاب ، ولم يجد

ملوك المدن المسلمون قوتهم كافية لدفع أخطار أعدائهم بعد تطورها وازديادها ، فاستعانوا بالمرابطين حكام إفريقية ، وجاءت جيوش إفريقية الباسلة لتقوم بدور النجدة السريعة لمصير المسلمين بالأندلس ، وتدفقت جماعات المرابطين من إفريقية مع أميرها يوسف بن تاشفين لتقابل قوات المسيحيين فى موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م ولتجد أمامها حشودا ضخمة من المتطوعين النورمان والفرنسيين وكل جيوش أسبانيا المسيحية ، وانتصر المرابطون فى الموقعة المذكورة انتصاراً عظيما يختلف المؤرخون على درجة الحسم فيه ، لأنهم نجحوا فى إفناء أعداد هائلة من جنود أعدائهم ، ولكن هؤلاء الأعداء لم يتغير وجودهم فى البلاد الأسبانية بعد هذه الهزيمة ، بل استمر خطرهم على بلاد المسلمين ماثلا حتى النهاية ، وكأن المرابطين كسبوا معركة عسكرية ولم يكسبوا الحرب بسببها كما نقول نحن الآن بأسلوب العصر الحديث لأنهم لم يستردوا ماضاع من المسلمين قبل قدومهم ، ولم يتتبعوا أعداءهم فى بلادهم ، وكأن هذه الحرب لم تكن إلا لدفع موجة من موجات الخطر الملح على المسلمين بالأندلس أو لم يكن من أغراضها إلا الاحتفاظ للمسلمين بما بقى فى أيديهم ، وترك المرابطون طليطلة الساقطة فى يد الأعداء قبل ذلك بعام واحد ، واكتفوا بإعلان نصرهم فى هذه المعركة الشهيرة .

لقد جاء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إذا ليحارب فى الأندلس معركة واحدة وبعد ذلك يرجع إلى وطنه فى إفريقية ويترك بلاد الأندلس تحت رحمة الأعداء من جديد وكان الذين استنصروه قد اشترطوا عليه الرجوع لبلاده بعد الحرب ليمارسوا فى بلادهم نفس السلوك الذى اعتادوه رغم أنهم كانوا يحسون بالخطر ورغم أن المستقبل لم يكن واضحا أمامهم ، ومعنى ذلك أن الحرب فى الزلاقة لم تكن إلا لدفع خطر عارض وبعد زواله استمر الخطر الدائم يلح بنفس القوة على المسلمين فى الأندلس بل كان

يزداد بالزمن والعناد ، ولما لم تتألف من الأندلسيين قوة واحدة لتتعامل مع أعدائهم بعد ذهاب المرابطين إلى إفريقية أسرع أعداؤهم بالضغط عليهم فى كل مكان من بلادهم .

ثم رجع المرابطون للأندلس مرة أخرى سنة ٤٨١هـ/ ١٠٨٩م ليجدوا من أعداء المسلمين مقاومة عنيدة عجزوا بسببها عن التغلب على حصن واحد كان قد أقامه هؤلاء الأعداء فى قلب البلاد الأندلسية ذاتها فرجعوا لبلادهم ليعودوا للأندلس مرة ثالثة سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م، وفى هذه المرة قضوا على حكام الأندلس جميعاً وأخضعوا البلاد كلها لنفوذهم وأصبحوا سادتها الجدد ، وكانوا جماعات مجاهدة مستبسلة غير أن بسالتها لم تكن كافية لحكم إمبراطورية واسعة كانت بلاد الأندلس الباقية فى أيدى المسلمين إحدى مقاطعاتها البعيدة ، ثم كان المرابطون جماعات مسلمة متحمسة ولذلك اتهمها أعداؤها بالتعصب (١) الدينى والعمل باسم المسلمين وحدهم ولا شك أن هذه لم تكن غير إحدى التهم الكاذبة المقصودة ليقابلها من جانب الأوروبيين تعصب أعمي لقضية المسيحية فى أسبانيا .

ويظهر أن الدعاية ضد المرابطين فى الأندلس نجحت بين صفوف المسيحيين واليهود الخاضعين لسلطتهم، فقد ترك هؤلاء بلاد الأندلس ليملئوا الدنيا بالكذب على المرابطين وبالقول بإسرافهم فى ظلم غير المسلمين، ولذلك اتسعت دائرة الخصومة الدينية بين السكان، وأصبحت أكثر انكشافاً فى عهدهم، وغدت المواجهة الصريحة

---

(١) وجد المرابطون فى بعض المسيحيين واليهود عناصر خطرة على سلامة جيشهم ووجودهم ببلاد الأندلس ، فطردوهم منها ، وكان فى هذا الطرد حجة عليهم أمام أعدائهم ، فاتهموهم بضيق الأفق والجهل والتعصب الدينى .

متوقعة بين جنود الإسلام فى البلاد البعيدة عن بلاد المسلمين ، وبين أعدائهم فى البلاد القريبة من أماكن النجدات المسيحية .

وفى كل الأوقات كان للرابطون يخضعون لعوامل الإغراء المؤثرة فى بلاد النعيم حتى لم يطل بهم العهد هناك أقوياء ، ولم يعيشوا بالأندلس أكثر من ستين عاما كانوا يحاولون فيها أن يكونوا وحدة دفاع رئيسية ضد الأخطار المؤكدة التى كان يتعرض لها المسلمون بهذه البلاد ، وإذا كان الخطر عليهم كبيراً فى أرض الأندلس فإنه كان أشـد عنفا عليهم فى إفريقيـة نفسـها ، فقد هاجمهم الموحدون هناك وغلبوهم وجاءوا بعدهم ليؤدوا واجب الدفاع عن قضية الإسلام فى بلاد الأندلس ، وانتصروا على الجيوش المسيحية القادمة من أسبانيا ومن كل أوربا فى موقعة الأرك المعروفة سنة ٥٩٣ هـ/ ١١٩٥ م وحفظوا بذلك حق المسلمين فى الحياة ببلاد الأندلس الباقية ، ولـكن انتصارهم لم يبعد خطر أعدائهم عنهم بل زادهم حماسا ورغبة فى الإنتقام من جديد .

واجتمع ملوك قشتالة وأراجون ونافار وليون والبرتغال ضد الموحدين وانضم إليهم جنود من النورمان والفرنسيين والإيطاليين والألمان والبريطانيين وغيرهم وحاربوا المسلمين فى موقعة العقاب فهزموهم سنة ٦٠٩ هـ / ١٢١٢م وكانت هزيمة الموحدين فى هذه الموقعة خطرا داهما على كيانهم ووجودهم ببلاد الأندلس ، وجاءت هذه الحرب الصليبية الصريحة فى وقت كانت تشتعل فيه الحروب الصليبية المعروفة فى الشرق العربى .

وصحيح أن الموحدين حكموا الأندلس من إفريقية البعيدة حتى سنة ٦٣٣ هـ/ ١٢٣٥ م ، ولـكنهم بعد هزيمتهم السريعة أمام الأوربيين والأسبان

عاشوا فى خوف مزعج وترقبوا الأخطار فى كل الأوقات ،وظلوا هناك أشبه بقوة حراسة تناضل فى يأس لتؤجل ساعات الخطر الأخيرة، ويظهر أن أوربا كلها فى ذلك الوقت كانت ترى قضية الحرب ضد المسلمون فى الشرق والغرب قضية حياة أو موت فكانت تعمل تحت تأثير الاحتقاد المؤسفة ، أو تحت تأثير التعصب الهمجي ضد المسلمين في كل مكان .

ولم يكن وجود المرابطين والموحدين بعدهم بالأندلس يعنى أنهم كانوا قادرين فى كل أوقاتهم على الدفاع عن حقوق المسلمين بهذه البلاد ، أو أن الخط الجغرافى الفاصل بين الحدود السياسية لبلاد المسلمين وغير بلاد المسلمين كان ثابتا طول فترة نفوذهم هناك لأن الإلحاح بالضغط على الأندلسيين ظل قائما وخطيرا، فسقطت بلادهم واحدة بعد الاخرى فى يد أعدائهم وكان منها : سرقسطة سنة ٥١٢ هـ/ ١١١٨ م ، وبطليوس سنة ٦٢٨ هـ/ ١٢٣٠م ،وقرطبة سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٦ م ، وبلنسية سنة ٦٣٦ هـ ١٢٣٨ م ، ومرسية سنة ٦٤١ هـ/ ١٢٤٣ م ، وإشبيلية سنة ٦٤٦ هـ ١٢٤٨ م .

وفى القرن الثالث عشر الميلادى ، وفى نصف القرن السابع الهجرى سقطت كل البلاد الأندلسية الشرقية والوسطى ، ولم يبق للمسلمين بالأندلس إلا مملكة غرناطة فى الجنوب الشرقى ، وقد عاشت هذه المملكة العربية الباسلة وسط الأعاصير والأخطار خمسين ومائتى سنة ، وإذا كان بقاؤها يعتبر دليلا واضحا على قوة الوجود الإسلامى واستقراره بالأندلس ، وعلى أصالة هذا الوجود وتفوقه وعظمته فقد كان من أسباب ذلك تجمع عناصر المقاومة العربية الممتازة بها ، وحرص سكانها على الصمود ومقاومة الأعداء حتى النهاية ، ثم تأييد الدولة المرينية الإفريقية لها فى أوقاتها الحرجة .

وفى القرن المشار إليه سنة (١٢٣٠٠م) اتحدت مملكتا قشتالة وليون ، وأصبحت الأولى أعظم الممالك المسيحية الاسبانية وأوسعها وأغناها ، وخضع الأسبان لثلاث ممالك قوية هى :

(أ) قشتالة . (ب) وأراجون . (جـ) والبرتغال .

وكانت كلها تعمل لتحقيق غاياتها الدينية والقومية ، وقد تبلورت أهدافها بوضوح وصراحة فى طرد المسلمين من البلاد كلها وكان هذا أهم الآمال التى شغلت كل سكان أسبانيا المسيحيين منذ قرون طويلة .

وشعرت قشتالة القوية أن أمامها الفرصة الأخيرة لتضرب أعداءها حتى الموت وبدأ ملكها فرديناند الثالث فى ذروة القوة والسلطان ، وكأن بلاد المسلمين الباقية أصبحت كلها تحت حمايته ، وبعد موته سنة ١٢٥٢ م اجتمعت جيوش الممالك المسيحية لتقابل جنود الدولة المرينية المؤيدة لغرناطة وتهزمهم سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م .

وكانت مملكة أراجون تنافس قشتالة فى حرب المسلمين وطردهم من بلادهم فكانوا يهاجرون إلى افريقية الشمالية أو إلى غرناطة فى الجنوب أو كانوا يتحولون بالقسوة والعنف إلى مدجنين يعيشون مع أعدائهم فى ضياع وذل.

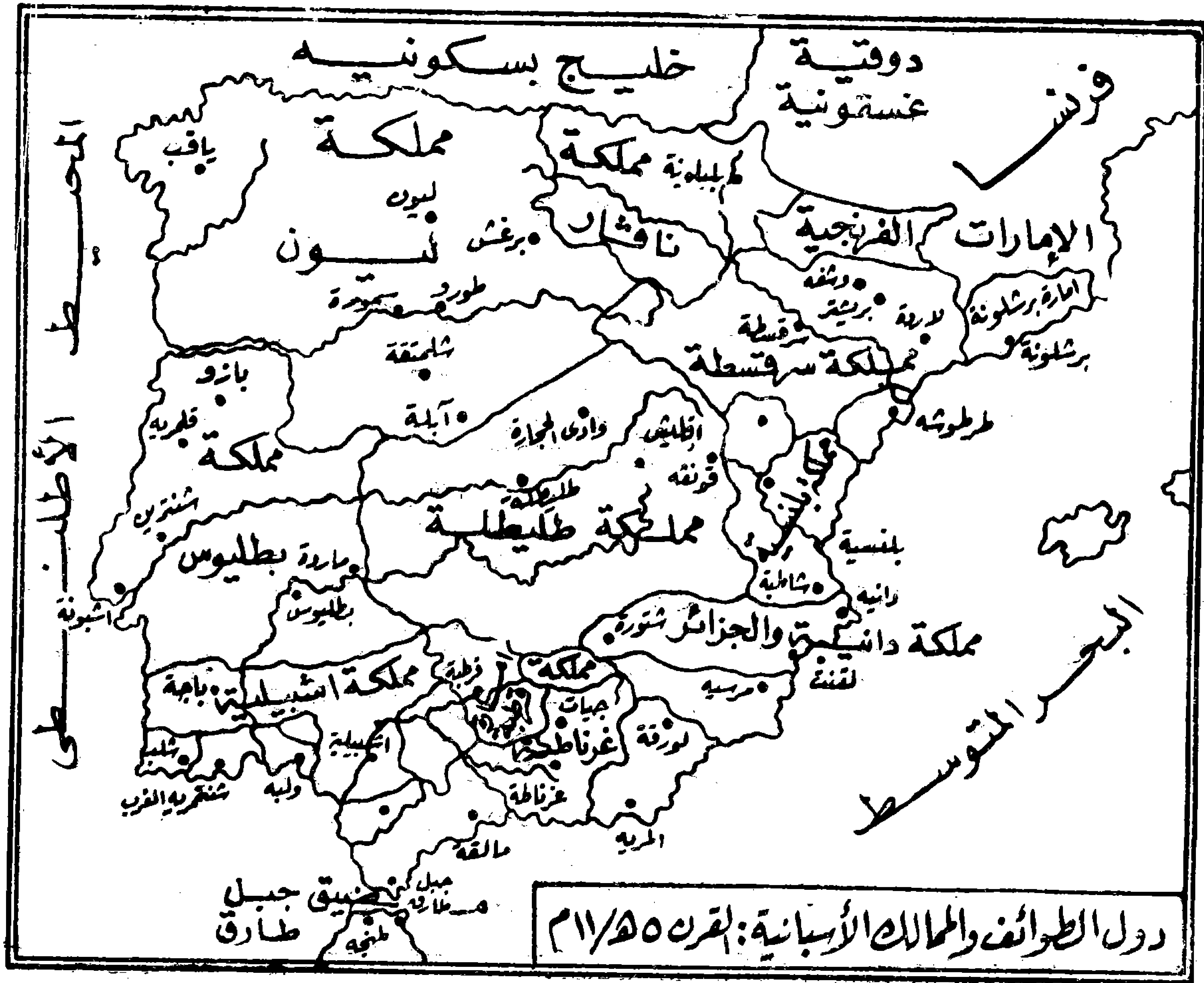
ثم اتحدت أسبانيا فى القرن الخامس عشر م سنة ٨٨٤هـ / ١٤٧٩م بعد أن أصبح فردينائد الخامس ملك أراجون زوجاً لإيزابيلا ملكة قشتالة ، وابتدأ أعداء المسلمين يحاربونهم تحت رئاسة واحدة وبقوة واحدة متفوقة ، وكان الملكان المشار إليهما يخضعان لتأثير الأحقاد القومية والدينية، ويظهران كأنهما كانا

من رجال الدين المتعصبين ، فأعلنا الهجوم على ما بقى من أرض المسلمين فى غرناطة سنة ٨٨٧هـ / ١٤٨٢م ، ولم تكن شجاعة المقاتلين بها كافية أمام قوة أعدائهم المتفوقة ، ثم أسر القشتاليون أبا عبد الله محمد بن أبى الحسن ملك غرناطة سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م ، وحكم بعده عمه فظل يقاوم أعداءه ببطولة الشجعان ولكن البلاد كانت قد تقسمت فى أشد أوقات الخطر إلى حزبين كبيرين يؤيد أحدهما الملك الأسير ويسعى لدى أعدائه ليفكوا أسره ولو كان ثمن ذلك بأن يعمل الملك لحسابهم فى بلاده .

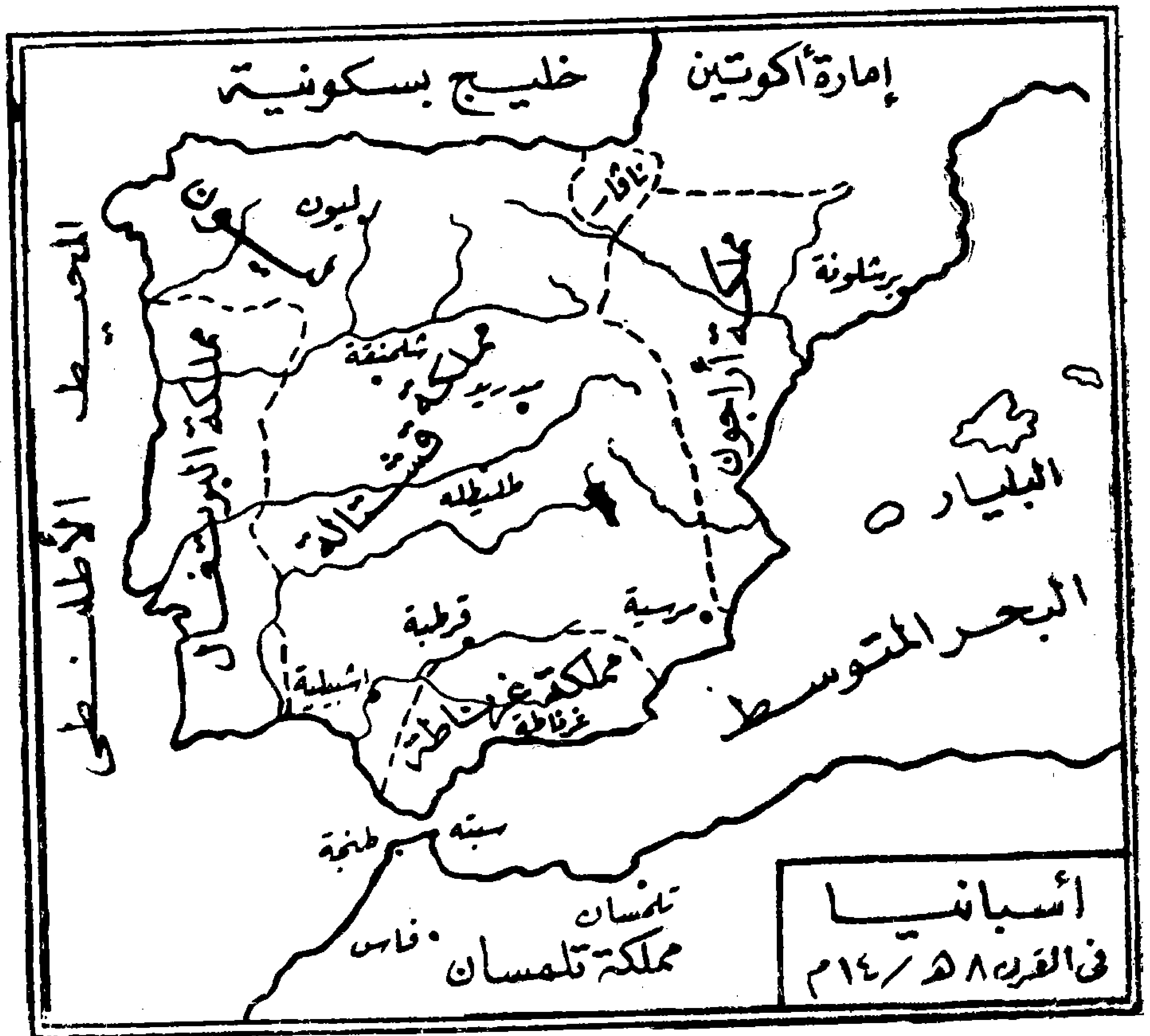
ثم ألح القشتاليون بالحرب على سكان غرناطة فدافعوا عن أنفسهم حتى النهاية وأخيرا رجع الملك الأسير إلى بلاده ليحارب بها عمه وليعمل باسم أعدائه فيها وانتشرت الحروب الاهلية بين المتخاصمين على عرش المملكة البائسة وزادت الفتن ، ولم تنفع شجاعة الشجعان فى الدفاع عنها فسقطت البلاد كلها سنة ٨٩٨هـ / ١٤٩٢م وكان فى هذا السقوط نهاية المراحل الحاسمة فى حركة الاسترداد الطويلة .



المغرب والأندلس



خليج بسكونيه
دوقية غسقونية
فرنسا
الإمارات الفرنجية
المحيط الأطلنطي
مملكة ليون
مملكة نافار
مملكة سرقسطة
مملكة طليطلة
مملكة بطليوس
مملكة اشبيلية
مملكة دانية والجزائر
مملكة بلنسية
مملكة غرناطة
البحر المتوسط
مضيق جبل طارق
دول الطوائف والممالك الأسبانية: القرن ٥هـ/١١م



خليج بسكونية
إمارة أكوتين
المحيط الأطلنطي
ليون
نافار
برشلونة
شلمنقة
مدريد
مملكة قشتالة
مملكة البرتغال
مملكة أراجون
طليطلة
البليار
البحر المتوسط
مرسية
قرطبة
اشبيلية
مملكة غرناطة
غرناطة
سبتة
طنجة
تلمسان
فاس
مملكة تلمسان
أسبانيا
في القرن ٨ هـ / ١٤ م

مراجع الكتاب

(أ) العربية

(ب) الأجنبية

(أ) المراجع العربية

١ - ابن الأبار (أبو عبد الله محمد بن أبى بكر القضاعى) :

التكملة لكتاب الصلة — مدريد ١٨٨٩ م

٢ - ابن الأثير (أبو الحسن على بن محمد الشيبانى) :

(ا) أسد الغابة فى معرفة الصحابة — القاهرة ١٢٨٠ هـ / ١٨٦٣ م .

(ب) الكامل فى التاريخ — « ١٣٠٣هـ / ١٨٨٥ م .

٣ - د. أحمد لطفى عبدالبديع:

الإسلام فى أسبانيا — القاهرة ١٩٥٨ م

٤ - أرنولد. (سيرت. و. م):

الدعوة إلى الإسلام : ترجمة د . حسن إبراهيم

القاهرة ١٩٤٧ م

٥ - د . السيدعبدالعزيز سالم:

(ا) تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس — بيروت ١٩٦٢ م

(ب) المغرب الكبير (العصر الإسلامى)

الاسكندرية ١٩٦٦ م

٦ ــ بالنثيا (أنخل جونثالث) :
تاريخ الفكر الأندلسي : ترجمة د . مؤنس القاهرة ١٩٥٥م
٧ ــ بروفنسال (ل .) :
الإسلام في المغرب والأندلس: ترجمة د. سالم القاهرة ١٩٥٨ م
٨ ــ ابن بسام (أبو الحسن على الشنتريني) :
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة القاهرة ١٩٣٩ — ١٩٤٥ م .
٩ ــ ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك) :
الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس القاهرة ١٩٥٥ م
١٠ ــ البكرى (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسى) :
المغرب فى ذكر إفريقية والمغرب القاهرة ١٩١١ م
١١ ــ البلاذرى (أبو العباس أحمد بن يحيى) :
فتوح البلدان القاهرة ١٩٥٦ م
١٢ ــ ابن حزم (أبو محمد على بن أحمد القرطبي) :
جمهرة أنساب العرب القاهرة ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٨ م .
١٣ ــ د . حسن أحمد محمود :
قيام دولة المرابطين القاهرة ١٩٥٧ م
١٤ ــ د. حسين مؤنس :
(ا) فتح العرب للمغرب القاهرة ١٩٤٧ م

(ب) فجر الأندلس القاهرة ١٩٥٩ م

١٥ — الحميدى (أبو عبد الله محمد بن فتوح) :

جذوة المقتبس فى ذكر رجال الأندلس القاهرة ١٣٧١ هـ

/ ١٩٥١ م

١٦ — الحميرى (أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم) :

الروض المعطار فى خبر الأقطار القاهرة ١٩٤٨ م

١٧ — ابن حيان (حيان بن خلف) :

المقتبس فى تاريخ رجال الأندلس باريس ١٩٣٧ م

١٨ — ابن خاقان (أبو نصر الفتح بن محمد) :

قلائد العقيان .... القاهرة ١٣٢٠

/ ١٩٠٢ م

١٩ — الخشنى (الحارث بن أسد) :

تاريخ قضاة قرطبة مدريد ١٩١٤ م

٢٠ — ابن الخطيب (لسان الدين محمد بن عبد الله) :

(ا) أعمال الأعلام .... بيروت ١٩٥٦م

(ب) الإحاطة فى تاريخ غرناطة القاهرة ١٩٥٦ م

٢١ — ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن ولى الدين):

كتاب العبر .... القاهرة ١٢٨٤

١٨٦٧ م

٢٢ ـــ ابن خلكان (القاضى أبو العباس شمس الدين) :
وفيات الأعيان . . . . القاهرة ١٩٤٨ م

٢٣ ـــ دوزى (رينهارت) :
تاريخ مسلمى أسبانيا ج ١ ترجمة د . حبشى
القاهرة ١٣٨٢ هـ
/١٩٦٣ م

٢٤ ـــ ابن أبى دينار (محمد بن أبى القاسم القيروانى) .
كتاب المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس تونس ١٢٨٦ هـ
/١٨٦٩ م

٢٥ ـــ د. سعد زغلول عبد الحميد :
تاريخ المغرب العربى القاهرة ١٩٦٥م

٢٦ ـــ ابن سعيد المغربى (على بن موسى) :
المغرب فى حلى المغرب القاهرة ١٩٥٣
ـــ ١٩٥٥ م

٢٧ ـــ البلاوى (أحمد بن خالد الناصرى) :
الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى
القاهرة ١٣١٠ هـ/١٨٩٢ م

٢٨ ـ شكيب أرسلان :
الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية القاهرة ١٩٣٦ م

٢٩ ـ صاعد (أبو القاسم بن أحمد الطليطلى) :
طبقات الأمم — بيروت ١٣٣١ هـ / ١٩١٢ م

٣٠ ـ الضبى (أبو جعفر أحمد بن يحيى) :
بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس — القاهرة ١٩٥٥ م

٣١ ـ الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) :
تاريخ الرسل والملوك — القاهرة ١٩٣٩ م

٣٢ ـ ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله المصرى) :
فتوح مصر والمغرب والأندلس — ليدن ١٩٢٠ م

٣٣ ـ العدوى (د . إبراهيم أحمد) :
موسى بن نصير . . . — القاهرة ١٩٦٧ م

٣٤ ـ ابن عذارى (أبو عبد الله محمد المراكشى) :
البيان المغرب فى أخبار ملوك الأندلس والمغرب
ليدن ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩ م

٣٥ ـ عنان (محمد عبد الله) :

ا ـ الآثار الأندلسية — القاهرة ١٩٥٦ م

ب ـ دول الطوائف — « ١٣٨٠ هـ / ١٩٦٠ م

جـ ـ نهاية الأندلس — « ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م

٣٦ ـ ابن الفرضى (عبد الله بن محمد) :

تاريخ علماء الأندلس — مدريد ١٨٩٠ ـ ١٨٩١ م

٣٧ ـ فلهوزن (جوليوس) :

تاريخ الدولة العربية . . .

ترجمة د . أبوريدة القاهرة ١٩٥٨م

٣٨ ـ ابن القوطية (أبو بكر محمد بن عمر)

تاريخ افتتاح الأندلس — مدريد ١٨٦٨ م

٣٩ ـ الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف) :

كتاب الولاة والقضاة — بيروت ١٩٠٨ م

٤٠ ــ المالكى (أبو عبدالله بن أبى عبدالله) :

رياض النفوس — القاهرة ١٩٥١

٤١ ــ مجهول :

أخبار مجموعة فى تاريخ الأندلس (نشرة لافوينتى إى الكنترا) — مدريد ١٨٦٧ م

٤٢ ــ أبو المحاسن (جمال الدين يوسف بن تغرى بردى) :

النجوم الزاهرة — القاهرة ١٩٢٨ م

٤٣ ــ المراكشى (عبدالواحد بن على) :

المعجب فى تلخيص أخبار المغرب — القاهرة ١٩٤٨ م

٤٤ — المقدسى (شمس الدين بن أحمد) :

أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ليدن ١٢٩٣ هـ/ ١٨٧٦ م

٤٥ — المقرى (أبو العباس أحمد بن محمد التلمسانى) :

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب القاهرة ١٩٤٩ م

٤٦ — الناصرى (أحمد بن خالد) :

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى المغرب ١٩٥٤ م

٤٧ — النباهى (أبو الحسن بن عبدالله) :

تاريخ قضاة الأندلس القاهرة ١٩٤٨ م

٤٨ — هيكل (د. أحمد عبدالمقصود) :

الأدب الأندلسى القاهرة ١٩٧٠ م

٤٩ — ياقوت (شهاب الدين أبو عبدالله الحموى) :

معجم البلدان القاهرة ١٣٢٣ هـ/ ١٩٠٦ م

٥٠ — يوسف أشباخ :

تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين

ترجمة : عبدالله عنان القاهرة ١٣٥٩ هـ/ ١٩٤٠ م

١٣٦٠ هـ/ ١٩٤١ م

(ب) المراجع الأجنبية

(1) Altamera :
Spain (1031—1248), Cambridge Medieval History, vol. vl, Chapter, XII.

(2) Gayangos, p. :
The History of Muhammedan Dynasties in Spain, London, 1840—43.

(3) Gibbon, E. :
The Decline and Fall of the Roman Empire, London, 1911.

(4) Haskins, G. Homer :
Studies in the History of Medieaval Science, 2nd edition, 1927.

(5) Hitti, Ph. k. :
History of the Arabs, London, 1940.

(6) Irving, Washington :
Legends of the Conquest of Spain,

(7) Lea, H. ch. :
History of the Moriscos of Spain, London, 1901.

(8) Lewis, B. :
The Arabs in History, Chapter, VII, London, 1958.

(9) Murphy :
Mohammedan Empire in Spain.

(10) Nicholson, R. A. :
A Literary History of the Arabs, London, 1907.

(11) Pidal, M. :
The Cid and his Spain, London, 1934.

(12) Scott, s.p. :
History of the Moorish Empire in Europe, London, 1904.

(13) Stevenson, W.B. :
The First Crudade : Cambridge Medieval History, vol. v, Chapter VII.

(14) Wells, H.G. :
A Short History of the World, (Thinkers's Library, 1948.)